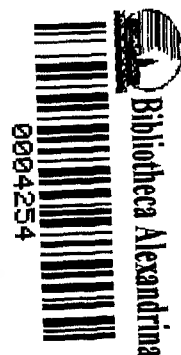


دراسات في تاريخ المغرب والاندلس

الأستاذ الدكتور
أحمد مختار العباسي
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة
بجامعة الكويت والأكاديمية سابقا

مؤسسة شباب الجامعة
د. محمد الدکتور عظمیٰ مشرف
ن ٤٨٢٩٤٧٤ - اسکندریہ



دراسات في تاريخ المغرب والاندلس

الأستاذ الدكتور
أحمد مختار البصافي
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة
بجامعة الكويت والأكاديمية سابقاً

مؤسسة شباب الجامعة
د. عبد الله بن عبد الله بن عبد الله
د. ٤٨٢٩٤٧٢ - الكويت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذه مجموعة من الأبحاث في تاريخ العرب الإسلامي من خلال خططه أو نظمته الإدارية والعسكرية . ولعل القارئ يستطيع أن يلاحظ أن هذه الوظائف الكبرى التي تناولتها هذه الدراسات ، لم تكن مقصورة لذاتها بقدر ما كانت محورا لدراسة شاملة للمصور التاريخية التي عاشت فيها . وقد ساعدت هذه الطريقة على دراسة تاريخ العرب والإندلس من زوايا متعددة وأبعاد مختلفة .

وقد بدأنا هذا الكتاب بدراسة عن أحداث الفتح العربي لأسبابها على ضوء ما استجد من نصوص ، ومن لنا من آراء وملاحظات ثم تأملنا في البحث الثاني خطة الخلافة على اعتبار أنها الوظيفة الكبرى في الدولة الإسلامية ، فشرعنا دورها السياسي والديني في الغرب والأندلس والظروف التاريخية التي أحاطت بها .

أما البحث الثالث ، فقد تناول خطة الوزارة باعتبارها القاعدة الثانية في الدولة . وحاولت أن أبرز فيه شخصية الوزير المترجم أم الأندلس من حيث المظهر والاختصاص والإسم . وهذه الاختصاصات الوزارية كانت مهمة وخطيرة لأنها تعمل سلطات اليف والقلم والبال ، وتتطلب كفاءات ومواهب لا تتوفر إلا في بيوتات معينة أخذت بهذه

التواحي المختلفة . وصل هذا الأساس غلب على الوزارة الاندلسية والمغربية في معظم الأحيان صفة التعدد في الوزارات والوزراء .

أما البحث الرابع ، فتناول تاريخ البحرية المغربية والاندلسية ، وقد طالجنا فيه ناحيتين أساسيتين وهما : دور الأسطول في الذود عن أرضه وجهاد أعدائه ، ثم وسائل الدفاع الساحلي ضد الغارات البحرية .

وقد سيطر للمغاربة والاندلسيون في بداية الامر على غربى حوض البحر المتوسط وتحكموا في ممراته الهامة ولاسيما مضيق جبل طارق الذي ظل ممر اسلاميا بدون منازع حتى القرن السابع الهجرى (١٢ م) حينما أخذت القوى المسيحية بعد ذلك تعمل على منافاة المسلمين في السيطرة على هذا الممر الحيوى باعتباره همزة الوصل بين حدود المغرب والاندلس . ومن هنا نشأ صراع طويل بين القوى المطلة عليه أو القريبة منه مثل قشتالة ، وأراجون ، والبرتغال ، وغرناطة ، والمغرب .

ونظرا لتعصب تاريخ هذه الفترة الأخيرة وتشابك أحداثها ، فقد اضطررنا إلى إفراد بحث خامس نضمن تاريخنا لهذا الصراع أو بعبارة أخرى تاريخنا لحدود المغرب والاندلس في القرنين الثامن والتاسع الهجرى (١٤ م) :

هذا ، ويلاحظ أننا حرصنا على الاستشهاد بأكبر قدر ممكن من النصوص التاريخية ، لتدعيم هذه الدراسات من جهة ، ولوضع القارئ في الصورة المباشرة لها من جهة أخرى .

وإن آمل أن أتابع هذه الدراسات بجزء ثان عن قريب ، يتناول

بنفس المنهج ، خطط الجيش والقضاء وإدارة المدن والولايات ، إن شاء الله .

ولا يسعني في الختام إلا أن أوجه شكرى إلى السادة الأفاضل هم
عبد الهادي فنينم وفتحى عبد العزيز أبر راضى ، وأحمد الطوخى ومحمد
على زيدان ، لمعاونتهم الصادقة المخلصة في رسم الخرائط وعمل الفهارس .
والله أسأل السداد والتوفيق في الفكر والقول والعمل ، إنه نعم
الموفق ، ونعم المصور .

فهرس الموضوعات

مقدمة ٥

— ١ —

ملاحظات حول فتح العرب لاسبانيا

٢	نشأة البحرية العربية وأثرها في فتح المغرب والأندلس
١٣	الخطط لفتح أسبانيا
١٦	عبور المسلمين إلى أسبانيا
١٩	معركة جبل طارق
٢٣	سرق المراكب وخطبة طارق
٢٩	رقعة شدونه
٣٥	اتمام فتح أسبانيا

— ٢ —

الخلافة في المغرب الإسلامي في العصر الوسيط

٤١	خلافة الحوارج والشيعة في المغرب
٥٥	الخلافة الأموية السنية بالأندلس
٦٥	الصراع بين خلافتي السنة والشيعة في المغرب والأندلس
٨٣	التصارع المذهب السني والمصالح الفاطميين إلى مصر

١١ -

صفحة

٨٧	نهاية الخلافة الاموية بالاندلس
٨٩	الخلافة في مصر دول الطوائف بالاندلس
٩٦	المرايطون والخلافة العباسية
١٠٤	خلافة الموحدين في المغرب والاندلس
١٢٠	خلافة الحفصيين بتونس
١٢٧	التنافس بين خلافة القاهرة العباسية و خلافة تونس الحفصية
١٣٣	زول الخلافتين على يد الانراك المشايين

- ٣ -

الوزارة والحجابة في المغرب والاندلس

٢٢٤	تجهيز الوزارة في الشرق واختصاصات الوزير
١٢٩	وزارة في المغرب على عهد الاغالبة والفاطميين
٩٤٢	الوزارة في الاندلس في عصر الدولة الاموية
١٥٠	في عصر ملوك الطوائف بالاندلس
١٥١	في عصر المرابطين
١٥٥	في عصر الموحدين
١٧٩	في عصر الحفصيين بتونس
١٩٧	في عصر بني عبد الواد بالمغرب
٢٠٥	في عصر بني مرين بالمغرب
٢٢٤	في عصر بني الأحمر بقرطبة

- ك -

- ٤ -

لوائح البحرية العربية في المغرب والاندلس

٢٤٦	البحرية في مصر الاموى بالاندلس
٢٩٠	حركة الرباط الساجي في المغرب والاندلس في ذلك العهد...
٣٠٤	البحرية في عصر ملوك الطوائف
٣١٧	في عصر المرابطين
٣٢٩	في عصر الموحدين
٣٧٨	في عصر بني مرين
٣٩٢	في عصر بني الأحمر

- ٥ -

الصراع حول السيطرة على مضيق جبل طارق

في القرنين الثامن والتاسع الهجري (١٤، ١٥م)

عرض عام لسياسة القوى المشتركة في هذا النزاع وهي :

غرناطة ، المغرب ، قشتالة ، أراجون ، البرتغال ٤٠٢-٤٧٠

الضمائم

ضميمة رقم ١ : الخطاب الذي رفعه الفقيه ابن العربي إلى الخليفة العباسي

المستظهر بالله يلتبس فيه تقليدا خلافيًا يقول الماعل المغرب

يوسف بن تاشفين .كم بلاد المغرب والاندلس ، ورد

الخلافة عليه ٤٧١

ص ١٢٧

صفحة

تجميع رقم ٢ : الكتاب الذي وجهه ابنه العربي إلى الفيلسوف أبي حامد

الغزالي يشرح فيه موقف ملوك الطوائف بالاندلس من

حركة يوسف بن تاشفين الجهادية ويطلب منه نصيحة

في ذلك ٤٧٨

تجميع رقم ٣ : نقود الغزالي في موقف كل من يوسف بن تاشفين وملوك

الطوائف والخلافة العباسية ٤٨١

تجميع رقم ٤ : صورة من كفاح مدينة المرية ضد الهجوم الفاسد الذي

شهدها عليها خايمي الثاني ملك أراجون في سنة ١٣٧٩

(١٣٠٩ م) ٤٨٥

قائمة بالمراجع العربية والاجنبية ٤٩٣

خريطة المغرب والاندلس ٥٠٠

- ١ -

ملاحظات حول فتح العرب لاسبانيا

لاشك أن موضوع فتح العرب لاسبانيا، موضوع مطروق ومعروف من قديم ، وقد لاحظ ذلك الوزير الغرناطى اسان الدين ابن الخطيب (توفى سنة ٧٧٦ هـ - ١٣٧٤ م) حينما قال (١) ، وحديث الفتح وما من الله به على الاسلام من المنح ، وأخبار ما أفاء الله من الخير على موسى بن نصير ، وكُتِب من جهاد لطارق بن زياد ، مملول قصاص وأوراق ، وحديث أفلول وإشراق ، وإرعاد وإبراق ، وعظم امتشاش (٢) ، وآلة معلقة في دكان فشاش (٣) .

والواقع اننى لست الآن بصدد كتابة تاريخ لهذه الفترة ، وإنما هى مجرد ملاحظات بدت لى من خلال قراءاتى لكتب التاريخ التى أرخيت لهذا الفتح العربى الكبير . وقد حضرت هذه الملاحظات فى النقاط التالية :-

-
- (١) راجع (ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٥ - ٦) الجزء الخامس - بالاندلس نشر ليفى بروفنسال (المسمى : الفتح الطيب ص ١ ص ٢١٥)
- (٢) أى العظم الذى استخرج ما به من النخاع
- (٣) أى المكان الذى يجمع أصغر الاشياء ، لفظ أن القشاش هو الكناس .

أولاً - نشأة البحرية العربية والرها في فتح المغرب والاندلس .

كان احتلال المسلمين الأوائل للشام طعنة نافذة في جسم الامبراطورية البيزنطية شطرتها إلى شطرين : الامبراطورية الام في آسيا الصغرى وماوراءها ، ثم الولايات التابعة لها مثل مصر وإفريقية .

ولم يعد هناك ما يصل بين أجزاء هذه الامبراطورية الا البحر المتوسط ، ولهذا لعب هذا البحر دورا هاما في محاولة لإنقاذ الامبراطورية على يد البيزنطيين ، وفي محاولة تصفيتهم على يد المسلمين (١) .

فكلا الفريقين ركب البحر ليعاو خصمه ، وكان النصر بعد ذلك حليف العرب ، لأن لإرادة التغيير المنبثقة من روح الدين الجديد قد أشعرتهم بذاتهم التي كانوا غافلين عنها ، ودفعتهم إلى تلك الحركة التوسعية التي شملت الشام ومصر وإفريقية وما يليها غربا كنتيجة حتمية اقتضتها طبيعة الحركة الاسلامية . ولم يلبث المسلمون منذ خلافة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان ، أن وجدوا أنفسهم مطالبين على البحر المتوسط من شواطئه طويلة تمتد من طرسوس شمالا إلى برقة وتونس جنوبا ، ويواجهون اعداءا ألداء مثل البيزنطيين الذين دأبوا على شن الغارات على هذه الشواطئ الاسلامية .

(١) شكرى فيصل : حركة الفتح الاسلامى في القرن الأول الهجرى ص ٨٢

لهذا أدرك المسلمون قيمة البحرية كسلاح حربى مضاد ؛ فأخذوا فى إنشاء دور الصناعة لبناء السفن الحربية فى معظم المرافئ الممتدة على طول هذه الشواطئ مثل صور وعكا وطرابلس ودمياط ورشيد وتونس والاسكندرية ثم برقة وتونس .

كذلك لجأوا إلى تحصين السواحل بالقلاع والمرافب والمناور ، كما عمدوا إلى نقل أهالى البلاد الداخلية إلى هذه الجهات الساحلية ، ومنحومهم فيها الاقطاعات الواسعة بقصد تشجيعهم على ركوب البحر من جهة ، وتعمير هذه البلاد وزيادة عدد سكانها من جهة أخرى .

فيروى البلاذرى أن معاوية نقل قوما من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا ، ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك إلى أنطاكية ، كما نقل قوما من زط البصرة إلى السراجل ؛ وانزل بعضهم أنطاكية (١) .

كذلك يؤثر عن معاوية أنه اعتمد على القبائل الكلبية اليمنية فى العمليات البحرية فى الشام لما عرف عنها من طاعة وتنظيم ، ولأنها كانت

(١) راجع (البلاذرى : تاريخ البلدان من ١٥٣ - ١٦٦) راجع كذلك (نص

مهاجر : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ص ٣٤٤ -

٣٤٥ ؛ إبراهيم المدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ٢٥٩ - ٢٦٠) وكذلك :

Fahmy : muslim sea power from the seventh to the

Tenth Century A.D .p. 52 (1950)

تفوق منافسيها من القبائل القيسية في هذا المضمار (١) . كذلك اعتمد معاوية على القبط المصريين الذين تخصصوا في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها التي ثبت انها أفضل بكثير من السفن التي تُشد بالحبال (٢) .

ولقد سار الامويون على نفس هذه السياسة عند تعمير سواحل افريقية ، وفي هذا المعنى يروى البكري عند كلامه عن تأسيس مدينة تونس ، أن الخليفة عبد الملك بن مروان (٧٩ هـ - ٨٤ هـ / ٦٦٨ - ٧٠٣ م) كتب إلى أخيه عبد العزيز وإلى مصر ، أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده ، وأن يحملهم من مصر ويحسن عولهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهي تونس . وكتب إلى حسان بن النعمان أمير المغرب يأمره أن يبنى لهم دار صنعة تكون قوة وعدة للمسلمين ، وأن يجعل على البربر جر الخشب لإنشاء المراكب ليكون ذلك جاريا عليهم إلى آخر الدهر ؛ وأن يصنع بها المراكب ويجهز الروم في البر والبحر ، وأن يغاروا منها على ساحل الروم . وقد نفذ حسان أوامر الخليفة وأنشأ هذه القاعدة الحربية الإسلامية الجديدة التي عرفت بميناء تونس والتي صارت تخرج منها

(١) يلاحظ أن الامويين في الاندلس اعتمدوا كذلك على البمينيين القضاة في حراسة سواحلهم الشرقية بنواحي بجاية pechina . انظر (الحمري : الروى المطارس ٣٧) .
 (٢) راجع (قلهم هوثيرياخ : البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية ، ص ١٨ - ٢٠ ، تطوان ١٩٥٤) ومن العائلات القبطية التي اشتهرت بصناعة السفن في مصر سنة ٧٠٩ م على عهد الامويين ، نذكر عائلة بنى بيج التي يبدو من اسمها كانت يونانية الاصل (نفس المرجع السابق)

أصاطيل المغرب تحمل راية الاسلام في غرب البحر المتوسط ، وهكذا أصبحت
أفريقية مركزا بحريا إلى جانب الشام ومصر^(١).

هذا ويفهم من كلام المؤرخين المعاصرين سواء أكانوا هربا أو
بينظيين ، أن سياسة التوسع العربى التى قام بها الامويون فى شمال أفريقيا،
كانت تهدف فى أساسها إلى غزو صقلية وجنوب إيطاليا وسواحل البحر
الادرياتي والمسيا ، أو بعبارة أخرى غزو الامبراطورية البيزنطية من
ناحية الغرب إلى جانب الحملات التى كانت سائدة عليها من ناحية الشام
وآسيا الصغرى من جهة الشرق ، لكى يتم للمسلمين بذلك تطبيق
القسطنطينية وخنقها .

ويبدو أن أباطرة البيزنطيين قد أدركوا أهداف السياسة العربية بدليل
أنهم بذلوا مجهودات لحماية هذه الاجزاء الغربية من الامبراطورية لدرجة
أن بعضهم مثل الامبراطور قسطنطين الثانى خليفة هرقل ، اضطر إلى
اتخاذ خطوة جريئة لم تتخذ من قبل وهى ترك عاصمته القسطنطينية
سنة ٤٢ هـ سنة ٦٦٢ م والإقامة فى روما وصقلية كى يعمل على
تقوية وسائل الدفاع عن هذه الانجزاء الغربية من الامبراطورية فى
حوض البحر المتوسط ، أو كما يقول هو نفسه لحماية الامم قبل حماية
البيت ، ويعنى بذلك حماية روما أم الملك ومركزه ، فهى أعظم من
القسطنطينية بطبيعة الحال . وظل هذا الامبراطور يعمل على مقاومة الخطر
العربى إلى أن اغتيل بيد أحد قواده فى مدينة مرقوسة شرقى صقلية
سنة ٦٦٨ م .

(١) راجع (البكرى ، كتاب المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٣٨ - ٣٩
(نصر دى صالان ، الجزائر ١٩١١) ، إبراهيم أحمد العدوى الامويون والبيزنطيون ص ٢٦٠)

وخلفه ابن قسطنطين الرابع الذى سار على نفس سياسة والده فى مقاومة
غارات الاساطيل العربية (١) .

ولقد أدرك المؤرخون المسلمون هذه الحقيقة الهامة ، وأشاروا اليها فى
كتبهم ، ومثال ذلك قول ابن الاثير فى كـلامه عن جزيرة صقلية :
« وعمرها الروم من جميع الجهات ، وعمرها فيها الحصون والمعاقل ،
وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها وربما
صادفوا تجارا من المسلمين فيأخذونهم » .

ثم يضيف فى موضع آخر : « وكان الروم قد حصنوها وأنشأوا فيها
أسطولا كانوا يهاجمون به مراكب المسلمين وقطع البحر عنهم (٢) » ، على أن
تتبع الاستمدادات الحربية العظيمة التى قام بها البيزنطيون فى امتلاكاتهم
الغربية وفى جزيرة صقلية بوجه خاص لم تحل دون تصميم المسلمين على
غزوها وغزو غيرها من جزر الحوض الغربى للبحر المتوسط : فيروى
ابن الخطيب أن أول من غزا جزيرة صقلية من أمراء إفريقية الموجهين

J . B . Bury : The Naval Policy of the Roman (١) رابع
Empire in relation to the Western Provinces
from the 7th to the 9th Century - Centenario
della Nacita di mcihel Amari Vol. II p . 21 —
34 (1910).

وكذلك (أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط من ٩٤)
(٢) راجع (ميشيل أمارى : المكتبة الصقلية من ٢٢٠) .

اليها من قبل الخليفة عثمان رضى الله عنه ثم معاوية بعده، الأمير معاوية
بين حديج الكندى سنة خمس وثلاثين أو سنة أربع قبلها ثم بعث اليها
معاوية، رحمه الله، عبد الله بن قيس الغزاري، ففتحها وغنم وأصاب فيها
أصناماً من ذهب وفضة مكلفة بالجواهر، فحملت إلى معاوية بن أبي
سفيان فرأى أن يبيعها فائمة أكثر لثمنها فبعثها إلى الهند فأبكر الناس عليه
ذلك انكاراً شديداً (١).

كذلك يروى ابن عذاري رواية غريبة تفيد بأن الاندلس دخلها
عبد الله بن نافع بن عبد القيس، وعبد الله بن الحصين، الفهريان من جهة
البحر في زمن عثمان وأن ذلك كان سنة ٢٧ هـ. وهذه الرواية - وإن
صححت - فإنها تدل على قوة البحرية الإسلامية في هذه الفترة
المبكرة (٢).

على أن الذي يهنا في هذا العدد، هو أنه لما تولى التابعي المشهور
موسى بن نصير إمارة إفريقية سنة ٨٥ هـ، بنى مشروع غزو صقلية

(١) راجع الحارلات التي قام بها المسلمون الأوائل في غزو صقلية منذ خلافة عثمان بن
عفان ومعاوية بن أبي سفيان في (ابن الخطيب، عمل الأعلام القسم الخامس بالمغرب؛ نقر
أحمد مختار الديادي، وإبراهيم السكتاني ص ١٠٨ وما بعدها) (الدار البيضاء ١٩٦٤) هذا ومن
المعروف أن جزيرة صقلية سقطت في يد المسلمين منذ حلت قاضي القيرون على عهد الأغالبسة
الامام أحمد بن الفرات سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧م)

(٢) ابن عذاري؛ البيان المغرب ج ٢ ص ٥.

وما يليها غربا من جزر الاعداء في خوض البحر المتوسط فاعتم موسى في بادىء الامر بتحديد وتوسيع دار الصناعة بتونس الى أسسها حسان بن النعمان من قبل كما أمر بصناعة مائة مركب فيها ^(١) ثم أخذ يوجه حملات بحرية بعيدة المدى إلى صقلية وسردانية والجزر الشرقية أو جزر البليار - (ميورقة ومينورقة ويابسة) .

وفهم من كلام ابن قتيبة أن موسى وجه حملتين إلى صقلية : الأولى كانت سنة ٨٥ هـ سنة (٧٠٤ م) ، وفيها أمر الناس بالنأهب لركوب البحر وأعلمهم أنه راكب فيه بنفسه فرغب الناس وتسارعوا ، ثم شحن فلم يبق شريف ممن كان معه إلا وقد ركب ، حتى إذا ركبوا في الفلك ولم يبق أحد الا أن يرفع ، دما برمح فعمقه لولده عبد الله بن موسى بن نصير وولاه عليهم . وأمرهم أن يرفع من ساعته . وانما أراد موسى بما أشار من مسيره أن يركب أهل الجلد والنكاية والشرف ، فسببت غزوة الاشراف . ثم سار عبد الله بن موسى في مراكبه فأصاب في غزواته تلك صقلية ، فافتتح مدينة فيها فأصاب مالا يدرى ، فبلغ سهم الرجل مائة دينار ذهبيا ، وكان المسلمون مابين الالاف إلى النسمائة ثم انصرف قافلا سالما ^(٢) .

أما الحملة الثانية على صقلية فكانت في سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) ، عقد

(١) ابن قتيبة . الامامة والسياسة - ٢ ص ١١٠

(٢) ابن قتيبة . الامامة والسياسة - ٢ ص ١٢

موسى قياداتها لصاحب شرطته هياش بن أخيل الذى أغار على مدينة
سرقوسة فغنمها وجميع ما بها وقفل سالما غانما . (١)

أما عن حملة موسى على جزيرة سردانية فيجعلها ابن قتيبة فى سنة
٨٨٩ هـ (٨٠٧ م) ثم يقول : «وقام عبد الله بن مرة بطالعة أهل مصر
على موسى فى تسع وثمانين ، فعقد له موسى على بحر أفريقية فأصاب
سردانية وافتتح مدائنها ، فبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأس سوى الذهب والفضة
والحرث وغيره (٢) .

أما عن حملة موسى على الجزر الشرقية أو جزر البليار ، فروايات
المؤرخين تشير إلى أنها كانت فى نفس تلك السنة (٨٨٩ هـ) وأنها كانت
بقيادة موسى بن نصير نفسه أو ابنه عبد الله ثم عادت لإفريقية بحملة
بالغنائم والأسرى .

ويبدو أن حاكم أو ملك جزيرة ميورقة البيزنطى كان من هؤلاء
الأسرى بدليل أن المراجع التى تحدثت عن عودة موسى إلى المشرق
أشارت إلى أن موسى اصطحب معه فى هذه الرحلة ملك ميورقة وعشرين

(١) المرجع السابق ص ١١٢ ، ١٢٤ ، ابن عذارى . البيان المغرب ١ ص ٣٦
(طبعة بيروت)

(٢) ابن قتيبة نفس المرجع ص ٢٠٠ ، ١١٢ .

ملكاً من ملوك جزائر الروم ومائة من ملوك الأندلس ... الخ. (١)

هذا ويضيف ابن قتيبة أن والي مصر عبد العزيز بن مروان، وجه نخلة بحرية إلى جزيرة سرديانية بقيادة عطاء بن نافع الهذلي (٢)، فأرسل في طريقه ببناء سوسة وأخرج إليه موسى الأسواني، وكتب إليه: «إن ركوب البحر قد فات في هذا الوقت وفي هسفا العام، فأقم ولا تفر بنفسك فإنك في تشرين الآخر (نوفمبر)، فأقم بمكانك حتى يطيب ركوب البحر. غير أن عطاء لم يلتفت إلى نصيحة موسى، وأبحر في مراكبه إلى الجزيرة المذكورة، وأصاب فيها مغنم كثيرة وأشياء عظيمة ثم انصرف قافلاً فأصابته ريح عاصف قرب شواطئه إفريقية، وغرق عطاء وأصحابه، وقذفت الأمواج بعض المراكب، ومن نجا من البحارة، فأدخلهم دار الصناعة بتونس (٣).

وعلى الرغم من أن المراجع المعاصرة لم تحدد لنا الوضع السياسي

(١) ابن الأثير: الكامل ٤ ص ١١٢، ابن عذاري: البيان المغرب ٢ ص ٣٠
ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ٢ ص ١٣٠ راجع كذلك:

R. Miguel Alcover: El Islam en Mallorca p. 3 — 4
(Palma de Mallorca 1930)

(١) في رواية أخرى: عطاء بن رافع مولى هذيل. راجع (ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية والأندلس ص ١٠٢) (نشر جانو)، ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٢ ص ١١٠ - ١١١، دكتور محمد زغلول: تاريخ المغرب العربي ص ٢١٥ - ٢١٦).

(٢) راجع مذهب الحاشية السابقة.

الذى كانت عليه كل من جزيرة سردينيا وجزر البليار في القرنين السابع والثامن الميلادى، إلا أن أغلب المؤرخين الاوربيين يؤكدون بأنها لم تكن تابعة لحكم القوط في اسبانيا، وإنما كانت جزءا من الامبراطورية البيزنطية، وأن حكام هذه الجزر استطاعوا بمرور الوقت أن يتمتعوا بشيء من الاستقلال الذاتى (١).

ولعل هذا رأى يفسر لنا مدى اهتمام المسلمين بمثل هذه الفارات البحرية، التى كان هدفها الاساسى منذ البداية، هو تصفية ممتلكات وقواعد الدولة البيزنطية فى حوض البحر المتوسط قبل المعنى فى غزو اسبانيا.

وكيفما كان الامر، فإن النصوص السابقة تبين لنا بوضوح أن موسى ابن نصير لم يكن قائدا برىا فحسب، بل كان أيضا قائدا بحريا خبيرا بشئون البحر وأجوائه وتقلباته، وأن نفوذه فى حوض البحر المتوسط كان قويا بفضل أساطيله وقواعده البحرية التى امتدت من مصر شرقا الى المحيط لاطلسى غربا، هذا فضلا عما كان يوجد تحت يده من الموارد اللازمة لبناء السفن، كالحديد والاشخاب التى مازالت توجد بكثرة كموارد طبيعية فى بلاد المغرب.

ومن هذا نرى أن موسى بن نصير كان لديه من الامكانيات ما يجعله

(١) راجع Alvaro Campanery Fuertes: Bosquejo Historico de la dominacion Islamita en las Baleares p. 2 - 8)

يفكر في غزو روما أو القسطنطينية، إما عبر صقلية وإيطاليا، كما فعل حديثا
القائد الانجليزى مونجمرى في الحرب العالمية الثانية، وإما عبر أسبانيا
وأوربا كما فعل قديما القائد القرطاجنى هانيبال. وقد يؤيد ذلك تلك
التصريحات التى أدلى بها موسى نفسه فيما بعد، مثل قوله: أما واقه لوانقادوا
الى^١، لقدتهم الى رومية ثم يفتحها الله على يدي انشاء الله. ^(١) وقوله:
«تالله لو ساعدتمونى، لصرت بكم حتى أقف على باب رومة وقسطنطينية
العظمى وافتتحها بإذن الله». ^(٢)

ومن الطريف أن بعض المؤرخين أمثال ابن بشكوال وابن سعيد
والمقرئ نسبوا إلى الخليفة عثمان بن عفان تصريحاً مماثلاً يقول فيه بأن فتح
القسطنطينية أو رومية إنما يكون من قبل الاندلس ^(٣).

وهذا التصريح وإن كان يبدو سابقا لأوانه من الناحية الزمنية، إلا
أنه يدل على أن فكرة القضاء على الدولة البيزنطية من هذه الجهات
الغربية كانت محتمرة في أذهان المسلمين قبل عهد موسى بن نصير كما سبق
أن أشرنا.

(١) ابن قتيبة: الامامة والسياسة - ٢ ص ١٢٨، المقرئ: فتح الطيب - ١ ص ٢٥٩

(٢) ابن الكردبوس: كتاب الاكتفاى أخبار الخلفاء - القسم الخامس بالاندلس -

ص ٤٩ نفع احمد مختار المبادئ، صحيفة معهد الدراسات الاسلاميه بمدريد ١٩٦٥ تحت
الطبع (تاريخ عبد الملك بن حبيب - القسم الخامس بالاندلس - ص ٢٢٧ نشر محمود مكي،
صحيفة معهد الدراسات الاسلاميه بمدريد سنة ١٩٥٧.

(٣) المقرئ: فتح الطيب - ١ ص ١٩٠

وكيفما كان الامر، فإنه يتضح لنا مما تقدم أن موسى قد استطاع بفضل قوته البحرية، أن يشل حركة الاسطول البيزنطى فى غرب حوض البحر المتوسط، وأن يتجنب بذلك الخطأ الذى وقع فيه عقبه بن نافع منذ عشرين سنة بالحصول على أسطول مائل ليحمى ظهره وجناحه مما أدى إلى مصره (١). وهكذا استطاع موسى بفضل سياسته البحرية الحكيمة أن يقدم بكل اطمئنان على فتح أسبانيا بعد أن ضمن سلامة خطوط مواصلاته من خطر البيزنطيين.

ثانيا - التخطيط للفتح اسبانيا :

إذا تصفحنا كتب التاريخ التى تناولت الفتوحات العربية، نلاحظ أنها أحاطت بهذه الفتوح بمالة من الخيال والتنبؤات، ونسبت الى المسلمين وقوادهم أعمالا خارقة للبشر، لأن العناية الآلهية كانت معهم تقذهم وترعاهم رغم قلةهم، وتقودهم الى النصر دائما كما لو كان الامر يتعلق بمعجزة من المعجزات (٢).

والحقيقة إن هذه الصورة، لا تنطبق على الواقع التاريخى، لأن القيادة العليا

(١) أدرشبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد

محمد عيسى . ص ١٠٢

(٢) حول هذه التنبؤات راجع (إبن الاثير ح ٤ ص ٢٦٩، ابن خاسكان : وفيات الاعيان

ح ٤ ص ٤٠٣، تاريخ عبد الملك بن حبيب فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بدمريد سنة

١٩٥٧ ص ٢٢١، ابن السكردوس فى مجلة معهد مدريد سنة ١٩٦٥، عبد العزيز سنام :

تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ص ٧٧ حاشية ٣)

للمسلمين كانت حريضة كل الحرص على سلامة أرواح جنودها، فلم تقدم
على أى عمل حربي، إلا بعد دراسة شاملة وتدبير محكم ووضع الخطط
المسكينة الدقيقة المناسبة لجميع احتمالات النصر أو الهزيمة، حفاظاً لأرواح
المسلمين .

وكما كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص ، نتيجة لخطوة موضوعة
أقرها الخليفة عمر بن الخطاب مع كبار قواده في اجتماع الجاهلية سنة ١٨ هـ ،
كذلك كان فتح المسلمين لاسبانيا نتيجة لخطوة موضوعة أيضاً، أقرها الخليفة
الأموي الوليد بن عبد الملك بدمشق ، باتفاق مع قائده على المغرب موسى
بن نصير . وفي ذلك يقول عريب بن مسعود : « فاستشار موسى الوليد
بن عبد الملك إما مراسلة وإما نهض اليه بنفسه ، على خلاف في ذلك ،
فأشار عليه الوليد بأن يختبرها بالسرايا ولا يغتر بالمسلمين » (١) .

وتفنيذا لأوامر الخليفة ، قام موسى بعدة غارات استكشافية على جنوب
اسبانيا لجلس النبض . فاستدعى في بادىء الامر حليفة ومحرضه على غزو
اسبانيا الكونت يوليان حاكم منطقة سبتة وقال له : « إتنا لانشك في

(١) ابن هشاري : البيان المغرب ٤ ص ٦ ، وقد أولدت المراجع الأخرى هذه العبارة
بصيغة مختلفة مثل قولها : فكتب الخليفة الى موسى أن خضها بالسرايا حتى تختبر ولا تغتر بالمسلمين
في بحر شفيق الأهرال ، فكتب اليه موسى : انه ليس ببحر ، وإنما هو خليج بين ماوراءه ،
فكتب إليه الوليد : وإن كان فلابد من اختباره بالسرايا .

أنظر (أخبار مجموعة ص ٦ : الحميري : الروض المطاير ص ٨ : القرني : فتح الطيب

ص ١٥٧ ٥٣٧ هـ ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٠٩)

قولك ولا ترتاب ، غير أننا نخاف على المسلمين من بلاد لا يعرفونها ، وبيننا وبينها البحر ، وبينك وبين مالك روذريق حمية الجاهلية واتفاق الدين ، فجز اليه بنفسك وشن الغارة على بلاده ، واقطع ما بينك وبينه ، وإذا ذاك طليب النفس عليك ، ونحن من ورائك إن شاء الله . فانتصر يوليان وحشد جيوشه ، وجاز في مركبين إلى الإندلس ، وشن الغارة على الساحل الجنوبي ، فسبا وقتل وغنم ورجع وقد أمثلات أيديهم خيرا ، وشاع الخبر في كل قطر فتحمدس الناس الغزو (١) .

ولم يكنف موسى بهذه الغارة الاستطلاعية التي قام بها يوليان ، بل استنسى ضابطا من ضباطه يدعى طريف بن مالك أو ملوك ويكنى بأبي زرعة (٢) ، وأمره بشن الغارة على ساحل اسبانيا الجنوبي ، فعبر طريف المضيق في مائة فارس وأربعمائة راجل ، وذلك في رمضان سنة ٨٩١ (يولييه سنة ٧١٠م) ، وهناك في المكان المعروف باسمه حتى اليوم Tarifa ، نزل طريف وجنوده وأغاروا على المناطق التي تليها إلى جهة الجزيرة الخضراء وأجباب بسيا ومالا كثيرا ورجع سالما (٣) ، فتبين لموسى أن ما قاله يوليان عن ضعف المقاومة الاسبانية كان صحيحا ، فبعد جيشا كبيرا مؤبسة سبعة آلاف محارب لغزو الإندلس ،

(١) ابن العكردريس . المربع السابق

(٢) يرد اسمه في المصادر المسيحية على شكل Tarif Abenzarca . . .

رأبج (Alfonso el Sabio : Primera Cronica General de Espana t. I. p. 308 (Madrid 1955)

(٣) القرى : نفع الطيب ١٥ ص ٢١٤ ، ٢٣٧ .

بقيادة قائده طارق بن زياد (١) نائمه على طنجة .

من هذا نرى أن فتح المسلمين لأسبانيا، لم يكن منذ البداية مغامرة
حرية ارتجالية، بل كان فتحاً منظماً حسب خطة موضوعة من قبل .

ثالثاً - عبور المسلمين إلى أسبانيا :

من المسائل الهامة التي نلاحظها في كتابات المؤرخين القدامى
والمحدثين، هي مسألة عبور جيوش المسلمين إلى أسبانيا . إذ يفهم من
كلامهم أن الجيوش الإسلامية التي بعث بها موسى بن نصير إلى الأندلس
سواء بقيادة طريف أو طارق، كانت جيوشاً برية فقط، وأن موسى اعتمد
في نقلها عبر المضيق إما على مراكب للكونت يوليان (٢)، وإما على مراكب

(١) اختلف المؤرخون حول ههههه طارق ، فهناك فريق يرى أنه فارس ههههه
وأنه كان مولد موسى بن نصير . وهناك فريق آخر ينكر ولاءه لموسى وقال إنما هو رجل
من قبيلة الصدف - بكسر الدال أو فتحها - أو مولد لهم ، والصدف قبيلة في كهلان اليمنية
ثم انتشر معظمها في مصر وفي بلاد المغرب حيث توجد قرية باسمهم بالقرب من القيروان . ويفهم
من ذلك أن طارق عربي الأصل وهو رأى مشكوك فيه افموض نسب طارق وقد جرت العادة
أن يهتم العرب بأنسابهم . وهناك فريق ثالث يرى أنه مغربي من قبيلة تغزه البربرية وهو
الرأى الغالب في نظر المؤرخين بدليل أن معظم جنوده كانوا من البربر .

راجع (المقرئ : فتح الطيب - ١ ص ٢٢٤ ، صني الدين البههههه . مرصد الاطلاع
٢ ص ٨٣٥) .

(٢) أخبار مجههههه ص ٦ ؛ المقرئ . فتح الطيب - ١ ص ٢٣٨ ؛ ابن عبد الحكم : فتوح
أفريقية والاندلس ص ٩٠ (نفس جانو A. Gateau)

تجار الروم التي كانت تختلف إلى الاندلس^(١)، وأن الكونت يوليان هو الذي تولى عملية نقلهم في كلتا الحالتين . والواقع إن هذه الروايات تبدو غريبة من حيث الواقع التاريخي؛ إذ أنها لا تتفق مع سياسة الدولة الأموية بوجه عام، ولا مع سياسة الخليفة الوليد بن عبد الملك بوجه خاص، التي تقوم على عدم المغامرة بأرواح المسلمين في البحر أو البر إلا بعد إتخاذ الاحتياطات الحربية التي تكفل ملامتهم، مثل إنشاء القواعد وبناء الأساطيل البحرية وإرسال البعث والسرايا قبل القيام بهجوم حربي .

والأحداث التاريخية السابقة لهذا الغزو الإسلامي لإسبانيا تشهد بصواب هذا الرأي، خصوصا بعد أن تبين لنا مدى إمكانيات موسى بن نصير وخبرته وبلائه في حوض البحر المتوسط .

والرأي الصائب في نظرنا هو أن موسى اعتقد في فتح أسبانيا على أساطيله العربية التي كانت تحت قيادته ورهن إشارته على طول الساحل المغربي، إذ لا يعقل أن تكون أربع سفن فقط كافية لنقل جيش كبير عدته على أقل تقدير سبعة آلاف^(٢) محارب عدا الخيل والأتاد . كما أنه لا يعقل كذلك أن يعهد موسى إلى شخص أجنبي - مهما خاضت نيته -

(١) ابن هزمي : البياض المغرب - ص ٢٨

(٢) هذا هو الرأي الغالب ، كما ورد في كتاب (أخبار مجموعة ص ٦ ، المقرئ : فتح

الطيب - ص ١٣٨ وفي روايات أخرى ١٢ ألفا . ١٠ آلاف المقرئ : فتح الطيب - ص

(ص ٢١٦)

بمثل هذه العملية الحربية الخطيرة التي تتوقف عليها سلامة أرواح آلاف من المسلمين .

وهلى الرغم من أن النصوص التي لدينا لاتساعدنا للأسف فى تدعيم هذا الرأى، إلا أنها مع ذلك تعطينا إشارات متفرقة تعبر عن النشاط البحرى الذى بذله كل من موسى وطارق لإستعدادا لفتح أسبانيا. ومن أمثلة هذه العبارات :

« ووجه موسى بن نصير مولاة طارقا إلى تلمسان وأمره أن يتعاهد سواحل البحر ومراسيه ^(١) »...، وذكروا أن موسى بن نصير وجه طارقا مولاة إلى طنجة وما هنالك فافتتح مدائن البربر وتلاعها ثم كتب إلى موسى لئننى قد أصبت ست سفائن ، فكتب اليه موسى أن أتمها سبعا ثم سيرها إلى شاطئ البحر واستعد لشحنها ^(٢) »... ، ومضى طارق لسبته وجاز فى مراكبه (كذا) إلى جبل فأرسى فيه فسمى جبل طارق باسمه إلى الآن ^(٣) » وأمر موسى طارقا بالدخول فحشد (بياض ولعله السفن) فلما دخل السفن مع أصحابه ... ، ^(٤) « فاختلفت السفن بالرجال والخييل وضربهم

(١) عبد الملك بن حبيب (المرجع السابق ص ٢٢١)

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ص ٢ ، ابن القوطية . تاريخ افتتاح

الأندلس ص ١٢٠

(٣) ابن الكردوبوس . المرجع السابق ص ١٢

(٤) ابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨

إلى جبل على شط البحر منيع فنزل طارق والمراكب تختلف... (١) ،
فلما استقرت موسى القواعد ولم يبق بالبلاد من ينازعه ، كتب إلى طارق
بأمره بغزو الأندلس ، فامثل طارق أمره ، وركب البحر إلى الجزيرة
الخصراء (٢) ، هذه العبارات وأمثالها وإن كانت قد وردت متناثرة في
روايات مختلفة ، إلا أنها تحمل في طياتها نشاطا واستعدادا بحريا واعتمادا
على القوى البحرية الذاتية في سبيل تحقيق هذا الفتح العظيم .

رابعاً - معركة جبل طارق

من الملاحظات الهامة التي تأخذها على الرواية الإسلامية بصيغة عامة ،
أنها لم تهتم بوصف عمليات نزول المسلمين بقيادة طارق بن زياد على
الساحل الإسباني ، فقد أجمع معظمها رضى اختصار شديد على أن طارق
قد حط في الجبل المندوب إليه دون أن يلقى مقاومة تذكر . وهذه
الرواية تحتاج إلى شيء من التفكير لأن هذا الجبل يمثل موقعا استراتيجيا
هاما منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، فهو همزة الوصل بين عدوتي
المغرب والأندلس ، والمتحكم في مضيق المازز ضد أى غدوان على إسبانيا
من هذه الناحية الجنوبية . ولقد أدرك الفينيقيون من قديم أهمية هذا
الموقع حينما احتلوا شواطئ عدوتي المغرب والأندلس ، فأقاموا على هذا
الجبل أبراجا للمراقبين ، ولم يسمحوا لأى دولة أخرى مشاركتهم فى
استغلال تلك المناطق الغربية ، وحددوا الساحل الشرقى الإسباني كأقصى

(١) أخبار مجموعة ص ٧

(٢) ابن خلكان . وفان الإبلان ص ٢٠٣

حدد يمكن الوصول اليه ، ولم يترددوا في إغراق كل سفينة تحاول عبور المضيق . Non plus ultra ^(١)

وأطلقوا على هذا الجبل اسم Mons Calpe وهي تسمية فينيقية بمعنى الجبل المحفور ، وهم يعينون بذلك تلك المغارة الكبيرة التي فيه ، والتي سماها الاسبان باسم القديس ميخائيل San Miguel ، كما يسميها الانجليز مغارة القديس جورج Saint George ، وقد أشار الحميري إلى هذا الغار وقال إنه كان يعرف بغار الأقدام ، لوجود آثار أقدام فيه ^(٢) .

ولقد تداول حكم اسبانيا بعد الفينيقيين ، أبناؤهم القرطاجنيون ثم بعد ذلك الرومان ثم القوط ، فحرصوا جميعا على بسط سيطرتهم على مضيق المجاز ، واتخذوا من جبل طارق قاعدة حربية لهذا الغرض . ولاشك أن القوط في أواخر أيامهم كانوا على علم تام بمدى قوة المسلمين في الجانب الغربي المقابل لهم ، بل وربما كانوا على علم بنواياهم ومخططاتهم المقبلة ، لأن مضيق المجاز الذي يفصل بينهما ، ذراع ضيق من الماء يبلغ عرضه في أضيق جهاته حوالي ١٥ كم ، وهي مسافة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري بين الشاطئين الغربي والاسباني ، يضاف إلى ذلك أن الغارات التي شنها

(١) Bathilde Larssonneur : Hist. de Gibraltar p. 12 &
 José Carlos de Luna : Hist. de Gibraltar & Ency. of Islam
 art : Gibraltar by Seybold .

(٢) الحميري : الروض المطار ص ١٢١

كل من بوليان وطريف على سواحل اسبانيا الجنوبية ، كانت بمثابة إظهار صريح للقوت كي يأخذوا حذرهم من أى هجوم يتبع عليهم من هذه الناحية ، فلا يعقل بعد ذلك أن يغفل القوت - مها بلغ ضعفهم - هذه القاعدة الاستراتيجية الهامة بدون حراسة أو مراقبة ١٢ وهذا جعلنا على يقين من أن نزول المسلمين في هذا الجبل لم يتم بمثل هذه السهولة التي تصورها كتب التاريخ ولقد صدق حدثنا حينما وقفنا أخيراً على نص يؤيد هذا الاعتقاد .

وقد ورد هذا النص في كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، للمؤرخ التونسي أبي مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري ، الذي عاش في أواخر القرن السادس الهجري ، وفيه يصف عمليات نزول المسلمين بقيادة طارق عند سفح هذا الجبل ، والمقاومة التي أبداهها العدو ليحول دون نزول المسلمين هناك ، ثم حركة الالتفاف البارة التي قام بها طارق وجنوده أثناء الليل حول العدو المرابط في الجبل ، والانتفاض عليه فجأة وإبادة عن آخره . وفي ذلك يقول :

ففضى طارق لسبته وجاز في مراكبه إلى جبل فأرسي فيه ، فسمى جبل طارق باسمه إلى الآن ، وذلك سنة اثنتين وتسعين من الهجرة ، ووجد بعض الروم وقوفاً في موضع وطىء كان عزم على النزول فيه إلى ، البر فتمعه منه ، فعدل عنه ليلاً إلى موضع وعرة ، فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب ، ونزل منه في البر وهم لا يعلمون ، فشن غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم (١) .

(١) ابن الكردبوس : المرجع السابق ص ١٢ .

هذا الرصف يذكرنا بعمليات الغزو الحديثة رغم لاختلاف الوسائل
والعصور ، كما أنه يدل بوضوح على عظام المقاومة التي اقيها المسلمون
منذ بدء نزولهم في أرض أسبانيا لدرجة انهم اضطروا إلى تغيير خططهم
المسكينة التي كانت مقررة من قبل، والنزول ليلا في مكان آخر صخري
وعر، مستخدمين في ذلك براز الدواب ومجاذف السفن كى تعينهم على
خوض المياه وارتقاء الصخور بغية الالتفاف حول العدو والانتفاض عليه
قبل أن يشعر بهم .

ولاشك أن هذا الانتصار الأول الذى أحرزه طارق عند نزوله، قد
مكنه من إحتلال هذا الجبل الذى حمل اسمه بعد ذلك عن جدارة واستحقاق .

هذا وتنبئ الإشارة هنا إلى أن المؤرخ المغربى ابن عذارى ، الذى
هاش بعد ذلك في أواخر القرن السابع الهجرى ، قد أورد بعض عبارات
النص السابق، ولكن دون أن يشير إلى هذه المعركة التي خاضها طارق مع
القوط في سبيل إحتلال هذا الجبل ، وفي ذلك يقول :

« وأول فتوحاته جبل الفتح المسمى بجبل طارق ، وذلك لما جاز
المسلمون ونزلوا في المرسى وهم عرب وبربر ، حاولوا الطلوع في الجبل وهو
حجارة حرس ، فوطأوا للدواب بالبراذع ، وطلعوا عليها ، فلما حصلوا
في الجبل بنوا سورا على أنفسهم يسمى سور العرب (١) »

(١) ابن عذارى : البيان العرب ٢٠ ص ١٣

خامسا : حرق المراكب وخطبة طارق :

بقيت بعد ذلك تلك القصة الشائسة التي تقول بأن طارق بن زياد قد أحرق سفنه بعد نزوله للنشاط في الأسباني، كي يقطع على جنوده أي تفكير في التراجع أو الارتداد، ثم خطب فيهم خطبة الشهيرة الطويلة التي يقول في مطلعها : « أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضياع من الأيتام في مأدبة الشام ... الخ .

والرواية الإسلامية التي تشير إلى حادثة حرق السفن لم ترد - فيما أعلم - إلا في ثلاثة مراجع أحدها كتاب الاكتفا لابن الكردبوس ، والثاني كتاب نهضة المشتاق للشريف الإدريسي والثالث كتاب الروض الممطر للحميري .

فإن الكردبوس بعد أن يصف الممركة التي خاضها طارق لاحتلال هذا الجبل الذي سمي باسمه ، يقول في اختصار شديد : « ثم رحل طارق إلى قرطبة بعد أن أحرق المراكب وقال لأصحابه : قاتلوا أو موتوا ! (١) ،

أما الإدريسي فإنه يقول في شيء من التفصيل : « وإنما سعى بجبل

طارق لأن طارق بن عبد الله بن ونمو الزناني ، لما جاز بمن معه من البرابر ، وتحصنوا بهذا الجبل ، أحس في نفسه أن العرب لا تثق به ، فأراد أن يزيح ذلك عنه ، فأمر بإحراق المراكب التي جاز قتباً بذلك عما أنهم به (١) .

ويكرر صاحب الروض المعطار رواية الإدريسي مع اختلاف بسيط ولكنه هام فيقول : د وإنما سمي بجبل طارق لأن طارق بن عبد الله لما جاز بالبربر الذين معه ، تحصن بهذا الجبل ، وقدر أن العرب لا ينزلونه ، فأراد أن ينفي عن نفسه التهمة فأمر بإحراق المراكب التي جاز فيها ، قتباً بذلك مما أنهم به (٢) .

ويضم من رواية ابن الكردبوس ، أن طارق أراد بحرق سفنه أن يستخذمهم للمقاتلة . أما الإدريسي والحميري ، فإنه يفهم من كلامها أن طارقاً أحس بأن العرب لا تثق به ، وقدر أنهم قد لا ينزلون معه إلى الجبل ، وهذا يعني أن خلافاً وقع بين طارق وبين جنوده العرب الذين يعملون تحت قيادته ، فعمد إلى إغراق سفنه كي يحول دون انسحابهم بها إلى المغرب ، فيخلص بذلك من التهم التي يوجهونها ضده عند القائد الأعلى موسى بن نصير . وكيفما كان الأمر ، فإن جمهرة المؤرخين المحدثين يميلون إلى إنكار صحة

(١) راجع (القسم الخامس بوصف الاندلس من كتاب تركة المشائق للإدريسي ، نعر وترجمة كوندى Conde ص ٢٦ (مريد ١٧٩٩)
(٢) الحميري : الروض المعطار ص ٧٥

هذه الرواية من أساسها كحدث تاريخي . الا أننا في الواقع لانستطيع نفيها أو إثباتها ، خصوصا وأن هناك روايات مشابهة وردت في كتب التاريخ قديما ^(١) وحديثا تشير إلى وقوع أحداثا مماثلة ، ولعل أقرب مثال لذلك هو تلك القصة التي يرويها أبو بكر المالكي من أن فاتح جزيرة صقلية المشهور أسد بن الفرات (٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) ، أراد هو الآخر حرق مراكبه حينما ثار عليه بعض جنوده وقواده ، وطالبوه بالانسحاب من الجزيرة والعودة إلى القيروان ، بسبب المجاعة التي حاقت بهم . وفي ذلك يقول : إن أسد بن الفرات وابن قادم قد اختلفا ، وذلك أن أسد لما وصل بالناس في صقلية ، أضر بالناس الجوع حتى أكلوا اللحم الخيل ، فغضب الناس إلى ابن قادم فضى إلى أسد وقال له : « ارجع بنا إلى إفريقية ، فإن حياة رجل مسلم أحب إلينا من أهل الشرك كلهم » ، فقال له أسد : « ما كنت لأكره غزوة على المسلمين وفي المسلمين خير كثير . » ، فأبى عليه الناس ذلك ، فأراد حرق المراكب ، فبدرت من ابن قادم كلمة بيته ، فقال

(١) من الأمانة القديمة ، أرياط الجبى التي لما عبر البحر إلى اليمن أحرق سفنه والتي هل جنده خطبة تبعه خطبة طارق في جنوده ثم تتكرر نفس الحادثة مع القائد الفارسي ومرز التي بعث كبرى مع سيف بن ذى إلى اليمن لتحريره من الإغاش وقد أحرق سفنه أيضا وقال لجنوده كلاما مشابها لكلام طارق .

راجع (الطبى : الامم والملوك - ٢ ص ١١٩ : جورجى زيدان : العرب قبل الاسلام طبعة دار الهلال ص ١٤٨ : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٧٩)

أسد : قد على أقل من هذا قتل عثمان بن عفان ، ثم تنازل أسد وحضره
ثلاثة أو أربعة أسواط ، وكأنه قد ضرب فيه دعوة التردد والحزيمة ، فتم له
ما أراد وعادت العزيمة إلى الأنفس ، فقاتل الروم قتالا شديدا حتى
قتلهم وهزمهم (١) .

وهناك قصة مماثلة يقدمها لنا التاريخ الاسباني وبطلها هو القائد ارنان
كورتس Hernan Cortes الذى فتح المكسيك سنة ١٥١٩ م ، فيرى
أن هذا القائد الاسباني اكتشف مؤامرة دبرها جماعة من قواده للهيب
بالسفن إلى أسبانيا ، عندئذ أمر كورتس بإزالة الجنود والأمتعة إلى الشاطئ
الامريكى ، ثم دس من خرق السفن وأغرقها ليلا كي يحول دون تنفيذ
هذه المؤامرة (٢) .

وهذه الرواية تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن قصة حرق المراكب - إن
صححت - كانت شائعة ومعروفة في أسبانيا لدرجة أن بعض القادة الاسبان
قد تأثروا بها وحاولوا تطبيقها في بعض أعمالهم الحربية .

(١) راجع (أبو عبد الله بن أبي عبد الله المالكي : كتاب ريان النفوس في طبقات
علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونداكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم ١ - ص ١٨٨ -
١٨٩ ، لفرح بن مؤلف (القاهرة ١٩٥٩)

(٢) أنظر Pérez Bustamante: Compendio de la Hist. de España
p. 245 and Aguado Bleye : Manual de la Hist. de España
II p. 500).

هذا ومن الطريف أن الاسبان مازالوا يستعملون مثلاً شعبياً يقول :

He quemado todos mis naves

ومعناه الحرقى أحرقى جميع سفنى ، ولكنه يستعمل بمعنى بذلك كل ما فى وسعى . فهل لهذا التعبير الشعبى علاقة بحرق السفن أيضاً ؟

أما من ناحية الخطبة التى ألفها طارق على جنوده فقد وردت فى عدة مراجع مثل تاريخ عبد الملك بن حبيب ^(١) ، وكتاب نفح الطيب للمقرئ ^(٢) ، وكتاب الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينورى ^(٣) ، وكتاب وفيات الاعيان لابن خلكان ^(٤) . أما عامة المراجع الاسلامية فإنها تهمر عليها بالصمت التام باستثناء عبارة ابن الكردبوس التى تلخص الخطبة فى كلمتين فقط : « فأنلوا أو موتوا » ^(٥) .

ولقد شك معظم المؤرخين المحدثين فى نسبة هذه الخطبة إلى طارق ، على اعتبار أنها قطعة أدبية فريدة لا يقدر طارق على صياغتها ، كما لا يقدر

(١) راجع القسم الخامس بالاندلس من هذا الكتاب ، نصر محمد مكى ، فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ١٩٥٧ ، المجلد الخامس ص ٢٧٢ .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ص ١ ص ٢٢٥ .

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ص ٢ ص ١١٧ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ص ٤ ص ٤٠٤ ، نشر محمى الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٤٩) .

(٥) القسم الخامس بالاندلس فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٦٥ (تحت الطبع) .

جنوده على فهمها لانهم جميعا - القائد وجنوده - من البربر .

على أن هذا التمليل وإن كان يبدو منطقيا ومعقولا ، إلا أنه لا يمنع من أن طارقا قد خطب جنده على عادة القواد والفاحين في مختلف العصور . وإن كما نعتقد في هذه الحالة ، أن الخطبة لم تكن باللغة العربية ، إنما كانت باللسان البربرى أو الغربى - كما يسميه المؤرخون القدامى .

ثم جاء كتاب العرب بعد ذلك ، فنقلوها إلى العربية في شيء كثير من الخيال والإضافة والتغيير على عاداتهم . وقد يؤيد ذلك أن هناك خطبا كثيرة من هذا النوع قيلت في هذه المناسبات ، فأبن صاحب الصلاة يشير إلى الخطب التي ألقاها الشيخ المرحدى أبو محمد عبد الواحد بن عمر في الجنود باللسان العربى تارة وباللسان الغربى تارة أخرى يحرضهم على قتال النصارى (١) . ويشير ابن الخطيب إلى شاعر المرينيين أبى فارس عزوز (ت ٦٩٧) الذى خلط المغرب باللسان الزناتى في مخاطبتهم (٢) . كذلك يشير المؤرخون إلى الكتب العديدة التي ألقاها المهدي بن تومرت بالعربية والبربرية ، لاهام الناس تعاليمه ومذهبه ، مثل كنب الامامة والقواعد والتوحيد (٣) .

(١) وابع (ابن صاحب الصلاة : كتاب المن بالامامة ص ٥٠١ نشر عن الهادى التنازى ، ابن هدارى : البيان المنرب ص ٤٠ ص ٩٧ ، تحقيق هوسى مبراند ، تطوان ١٩٦٠) .

(٢) ابن الخطيب : الاطاعة لوحه ٢٧٧ - ٢٧٩ (نسخة الاسكود بال) .

(٣) الحلال الموشى ص ٨٠ .

ولا زالت هذه العادة متبعة إلى اليوم في بلاد المغرب . فالحطوب والاختبار ما زالت تذاع بالراديو بالعربية والبربرية التي تقسم بدورها إلى لهجات متعددة مثل الشلحة وتمازوت والزناتية .

ومن هذا نرى أنه ليس بعيداً بالمرّة أن يكون طارق قد خطب جنوده البربر بلسانهم الغربي ، إذ أنه من غير المعقول أن يخاطبوا في ساحات الوغى وفي مقام الجدل بلغة لم يتعلموها أو يفهموها ، فكان استعمال اللسان البربري في هذا الموقف ضرورة لإحراز التأثير المطلوب والفائدة العاجلة .

سادساً - وقعة شملولة :

أقام طارق بن زياد في جبل طارق عدة أيام ، بنى خلالها سورا أحاط بجيوشه سماء سور العرب (١) . كما أعد قاعدة عسكرية بجوار الجبل على الساحل لحماية ظهره في حالة الانسحاب أو الهزيمة ، وهى مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras التى سميت أيضاً بجزيرة أم حكيم ، على اسم جارية لطارق كان قد حملها معه عند الغزو ، ثم تركها في هذه البلدة فنسبت إليها . وبلاحظ أن موقع هذه الميناء قريب وسهل الاتصال بمدينة سبتة على الساحل المغربى المقابل ، بينما يصعب اتصاله بأسبانيا ذاتها لوجود مرتفعات بينها ،

(١) ذكر ابن جزى - جل رحمة الله - ابن بطوطة (القرن الثامن الهجرى) أنه شاهد بقايا هذا السور الذى بناه طارق . راجع (رسالة ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٥٦ الطبعة الأوربية) .

وهذا يدل يدل على حسن اختيار طارق لهذا الموقع الاستراتيجي . كذلك أقام قاعدة أمامية أخرى في مدينة طريف بقيادة طريف بن مالك .

وفي ذلك يقول ابن خلدون : « فصيهرما عسكريين : أحدهما هلى نفسه ونزل به جبل الفتح فسمى جبل طارق ، والآخر هلى طريف بن مالك النخعي ، ونزل بمكان مدينة طريف فسمى به ، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن (١) » .

وعلم ملك أسبانيا القوطى رذريق Rodrigo خبر نزول المسلمين في بلاده ، وكان وقتئذ مشغولا في إخماد ثورة قام بها البشكنس Vascos سكان نافارا في أقصى شمال أسبانيا . ومن المحتمل جدا - كما يقول صافدرا Saavedra أن تكون هذه الثورة مفتعلة وبإيماز من أهداء الملك لشغل أنظاره عن عمليات نزول المسلمين في أسبانيا .

وكيفما كان الأمر ، فقد أسرع الملك القوطى بالعودة جنوبا بجميع قواته ومعداته وأمواله للملاقة المسلمين .

وفي خلال ذلك الوقت كان طارق قد زحف نحو الغرب ، متخذاً من المرتفعات الجنوبية الساحلية حامياً له من هذه الناحية الجنوبية ، كما اتخذ من بلدة طريف قاعدة يحمي بها مؤخرة جيشه ، ثم واصل زحفه حتى بلغ

(١) راجع القرى : فتح الطيب ١٣ ص ٢١٧ - ٢١٨ .

بحيرة تعرف باسم لاخندا Laguna de la Janda في كورة
شدونة Sldonia .

وهكذا نجد أن طارق قد اختار مكانا مناسباً لجيوشه في هذه المعركة ،
فقد جعل منطقة البحيرة أو المستنقعات حاجزا بينه وبين القوط من ناحية ،
كما ترك الطريق بينه وبين الجزيرة الخضراء مفتوحا لينسحب منه إذا
إضطرت الظروف إلى ذلك من ناحية أخرى .

ثم علم طارق من جواسيسه بأنباء الحشود الضخمة التي حشدتها له
ملك أسبانيا ، فأنزعج طارق لهذا الخبر ، وقد عبر المؤرخون عن هذا
الانزعاج بمبارات مختلفة مثل قول ابن قتيبة : « وكتب طارق إلى مولاه
موسى : إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية فالقوت القوت (١) »
وفي هذا المعنى أيضا يقول صاحب كتاب أخبار مجموعة : « وكتب طارق إلى
موسى يستغذّه ويخبره بأنه قد استولى على الجزيرة والبحيرة وأن ملك
الأندلس قد زحف إليه بما لا طاقة له به (٢) » .

واستجاب موسى لنداء طارق ووجه إليه مددا يقدر بخمسة آلاف
جندى فصار مجموع المسلمين بالأندلس حوالى اثني عشر ألفا .

ولقد أجمع معظم المؤرخين على أن المعركة الفاصلة التي دارت بين

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١٨ .

(٢) أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ٧ .

المسلمين والقوط والى توقف عليها مصير اسبانيا في يد المسلمين ، حدثت في كورة شدونة في جنوب غرب اسبانيا ، وأنها دامت ثمانية أيام من الأحد ٢٨ رمضان إلى الأحد ٥ شوال سنة ٩٢ هـ / ١٩ - ٢٦ يولية سنة ٧١١ م (١) ، ويصفونها بأنها كانت معركة قاسية اُقتل فيها الطرفان قتالا شديدا حتى ظنوا أنه الفناء (٢) ، وأنه لم تكن بالمغرب مقتلة أعظم منها ، وأن عظامهم بقيت في أرض المعركة دحرا طويلا لم تذهب (٣) وكان النصر في النهاية حليف المسلمين .

على أننا نلاحظ بصدد هذه الواقعة ، أن الروايات الاسلامية والمسيحية وإن كانت قد أجمعت على وقوعها في كورة شدونة ، إلا أنها قد اختلفت حول المكان الذي دارت فيه من هذه الكورة الواسعة :

(١) تحديد مدة المعركة بثمانية أيام ورد في عدة مصادر أهمها تاريخ المؤرخ القرطبي أحمد بن موسى الرزقي (ت ٣٣٤ هـ - ٩٥٥ م) الذي توجد ترجمته البرتغالية في : Crônica Geral de Espanha de 1344, edição critica de texto português pelo Louis Felipe Lindley Cintra Vol. II, p. 331 (Lisboa 1954).

راجع كذلك (كتب فتح الأندلس) مؤلف مجهول من ٨ نشر المتفكرى الأسباني خواكين جوثالث (الجزائر ١٨٨٩) ، ابن الشباط : صلة السمط وسمة المرط - القسم الخامس بالأندلس - التي أعددها لنفسه في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، القرى : فتح الطيب ١٠ من ٢٣٣ و ٢٤٣ ، الجبيري : الروض المطار من ١٦٦ ، ابن الأثير : الكامل ٢٤ من ٢٦٩) أما ابن القوطية وصاحب أخبار مجموعة فقد أشارا إلى الموقعة دون تحديد مدتها .

(٢) ابن عبد الحكم : كتاب فتوح أفريقية والأندلس من ٩٦ (نصروترجة جانو، الجزائر ١٩٤٨).

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ٢ من ١٠ (طبعة بيروت) ،

(١) فهناك فريق - أمثال ابن خلدون ، والحيرى ، والمؤرخ الأسباني دى رادا الطليطلى Jimenez De Rada - يرى أنها حدثت شمال كورة شذونة عند وادى لكته Guadalete ، بالقرب من شريش Jerez التي كانت قاعدة لهذه الكورة وتسمى أيضا باسمها شذونة . ولهذا سموها بمركة وادى لكه أو مركة شريش (١) .

(٢) وهناك فريق آخر تزعمه المستشرق الأسباني سافدرا Saavedra يرى أنها حدثت في جنوب كورة شذونة عند إقليم البحيرة ووادى البرباط Rio Barbate ، وهو النهر الذى يخترق هذه البحيرة ويصرف مياهها غربا في البحر المحيط . ولكى يدعم رأيه افترض أن اسم وادى لكه الذى ورد في المصادر العربية ما هو الا تحريف لاسم وادى بكته الذى كان يطلق أيضا على وادى البرباط ، لوقوع قرية عليه - اندرست الآن - اسمها بكته فسمى باسمها . (٢)

(٣) وهناك فريق ثالث وعلى رأسه المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال ،

(١) راجع (الجبرى : الروض المطارص ١٦٩ ، المرقى : نفح الطيب ١٠ ص ٢١٧-٢١٨)

وكذلك (Jimenez de Rada : De Rebus Hispaniae, cap.xx)

(٢) راجع (E. Saavedra : Estudio sobre la invasion de. Ios Arabes en Espana pp 68 - 69)

ويرى دوزى أن القمود بوادى لكه هو نهر سلاو Salado الذى يقع في شمال

البرباط (R - Dozy , Recherches I, p. 307)

يرى أن هذه المعركة حدثت عند البحيرة بالقرب من المكان السابق عند نهر سلاذر Rio Salado ، وعلى هذا الأساس فسر كلمة وادى لكه على أنها تعريب لكلمة Lago أو Locus ومعناها البحيرة (١).

(٤) هناك رأى رابع يرى أن الملك القوطى رذريق قتل فى مكان يسمى السواقى ، وقد افترض سافدرا أن هذا الاسم تحريف للفظ Segoyuela وهى اسم بلدة فى ولاية شلمنقة Salamanca فى شمال أسبانيا . وعلى هذا الأساس بنى نظريته القائلة بأن رذريق لم يمت فى معركة البحيرة التى انهزم فيها أمام طارق بن زياد ، بل فر شمالا إلى ولاية شلمنقة حيث التقى مرة أخرى مع جيوش المسلمين فى معركة ثانية عند البلدة المذكورة آنفا Segoyuela حيث انتهى الأمر بمقتله هناك سنة ٧١٣ م (٢) . غير أن هذه النظرية لم تلبث أن ثبت هدم صحتها بعد أن ظهرت نصوص جديدة لعريب بن سعد ، وابن الأثير ، ولؤرخ مجهول الاسم فى كتاب له بعنوان فتح الاندلس ، تشير كلها بوضوح إلى أن السواقى اسم مكان فى كورة شدونة وليس فى شمال أسبانيا (٣) .

ورأينا فى الموضوع بعد كل ما تقدم ، أن هذه المعركة التى توقف

(١) راجع (Lévi-provençal: Histoire de l'Espagne Musulmane) tome I p.20 - 21 (paris 1950)

(٢) راجع (Saavedra : Op . cit . p . 99 - 100)

(٣) راجع التفصيل فى (أحمد مختار المبادئ : تاريخ الاندلس ووصفه لابن الكردبوس وابن الشباط نعان جديدان ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بدمريد (تحت الطبع)

عليها مصير أسبانيا في يد المسلمين، كانت أكبر وأعظم من أن نجده بمثل هذه الأماكن المحدودة الضيقة، إذ يبدو - كما هو واضح من النصوص - أنها معركة واسعة النطاق بدأت طلائعها منذ نزول طارق أرض أسبانيا، وحدث فيها ملك القوط كل ما يستطيع حشده من مال ورجال وسلاح، لدرجة رجوت طارق وأزعجت وجهته يسارع في طلب المزيد من القوات . ولا شك أن معركة بمثل هذه الحشود الكبيرة، وهذا الهدف الخطير، وهذه المدة الطويلة التي استغرقتها في صراع وطراد ومتابعة، لابد وأن تكون معركة عظيمة تليق بهذا الفتح العظيم، معركة لم تقتصر رحاها على جنوب شذولة أو شالها بل شملت جميع أنحاء هذه المنطقة، فهي معركة كورة شذونة بأسرها وليست معركة مدينة شذونة قاعدتها.

ومن هنا جاز لنا أن نقول بأن ماورد في كتب التاريخ من تسميات مختلفة لهذه المعركة مثل : البحيرة، وادي لكة، وادي بككة، وادي البرباط، شريش، السواقي، ماهي في الواقع إلا تسميات لتلك الأماكن التي دارت وتشعبت عندها تلك المعركة الكبيرة في أراضي كورة شذونة .

هذا، وقد يشفع لنا في هذا الرأي، أن جميع المعارك التي كانت بعد ذلك في بقية أنحاء أسبانيا، كانت بمثابة مناوشات بسيطة بالنسبة لهذه المعركة الفاصلة، بحيث لم يستغرق إستيلاء المسلمين على أسبانيا بعد ذلك، رغم وهرة مسالكها وقسوة مناخها أكثر من ثلاث سنوات، وهذا يدل على أن المقاومة كانت قد انتهت تقريبا .

سابعاً : المهام فتح أسبانيا :

لا شك أن هذا الزهر العظيم الذي حققه طارق في معركة شذونة، قد فتح أبواب الإندلس للمسلمين، فالتجه طارق بالجيش الرئيسي شمالاً نحو

العاصمة طليطلة، وفي أثناء زحفه اعترضته قلعة استجته Ecija واستولى عليها، وفي الوقت نفسه أرسل أقساما من جيشه إلى المناطق الجبلية، فاتجه قسم إلى قرطبة بقيادة مغيث الرومي، مولى عبد الملك من مروان، فاستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة أشهر، واتجه قسم آخر إلى البيرة ونواحيها واستولى عليها.

وقد وجد طارق وقواده معاونة من اليهود المقيمين في أسبانيا بسبب اضطهاد القوط لهم، ولهذا اعتمد طارق عليهم في حفظ البلاد المفتوحة، في الوقت الذي كان فيه الجيش الإسلامي منفردا لعملية الغزو.

واستمر طارق في زحفه الحاطف نحو الشمال حتى بلغ العاصمة طليطلة، فدخلها دون مقاومة تذكر، إذ كان حكامها وأهلها قد فروا منها فكانت المدينة شبه خالية تقريبا^(١)، وهنا تشير المصادر العربية بأسهاب إلى الكفوز والذخائر التي غنمها المسلمون من كنائس المدينة وقصرها.

ثم خشي طارق أن يقطع عليه العدو الطريق في هذه البلاد الجبلية الوعرة، لا سيما وأن فصل الشتاء كان قد اقترب، وتعب المسلمون من الجهد الذي بذلوه، وثقلوا بالغانائم التي جمعوها، فاستجد طارق بقائده موسى ابن نصير.

وفي شهر رمضان ٩٣ هـ (يونيه ٧١٢ م) عبر موسى المضيق بجيش كبير

«١» ابن عذاري: الأحياء المغرب ج ٢ ص ١٧ «طبعة بيروت»

من ممانية عشر الف مقاتل ، معظمهم من العرب بعصياتهم الفيسية واليمنية
ومن بينهم عدد من التابعين ، وقد عرفت هذه الجماعة العربية الأولى
بطلالة موسى .

وسار موسى في طريق غربي غير الطريق الذي سلكه طارق ، واستولى
على مدن أخرى لم يستول عليها طارق ، مثل قرمونة Carmona واشبيلية
Sevilla ، وماردة Mérida ثم التقى بطارق عند نهر التاجو Tajo بالقرب
من العاصمة طليطلة .

ثم تابع الفائذان سيرهما نحو جبال البرت Pirinios في أقصى الشمال ،
وآخذت المدن تتساقط في أيديها تباعاً مثل سرقسطة Zaragoza ووشقة
Huesca ولاردة Lerida ، حتى بلغا شاطئ البحر الشبالي Cantabrico
هذه حدود فرنسا الجنوبية .

وهكذا انتهى كل من موسى وطارق من فتوحاتها ، وكانت أمير الخليفة
الوليد بن عبد الملك قد قضت برجعها إلى دمشق ، فرجع موسى ومعه
طارق ، بعد أن خلف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير
في أواخر ٩٥ هـ (٧١٤م) .

بقيت مسألة أخيرة يحسن أن نقف عندها قليلاً ، وهي ما أثارتها بعض
الروايات العربية من أن موسى لما علم بانتصار طارق ، حقد عليه ودخله
الحسد والغيرة ، وخشى أن ينسب إلى طارق شرف هذا النصر ، فصمم
على الاشتراك في القتال ، وأبى عليه نفسه أن يسلك نفس الطريق الذي
سلكه طارق من قبل ، فأقسم بأن يسير في طريق آخر أنفة وكبرياء .

وواضح أن أصحاب هذه الرواية ، قد نظروا الى مشروع هذا الغزو العظيم من زاوية شخصية ضيقة تافهة ، إذ لاشك أن كلا القائدين قد اهتم بمصلحة المسلمين العليا وسلامة أرواحهم قبل أى شئ اخر .

وواضح من تحركات الجيوش الاسلامية فى الاندلس ، أن خطة الغزو كانت موضوعة ومدبرة تدبيرا محكما ، وهى كما رأينا تشبه حركة الكهكاه فى المصطلح الحربى الحديث : طارق يسير من طريق ، وموسى يسير من طريق آخر مقابل له ، وتنتهى حركة الالتفاف أو التطويق هذه ، بالتقاء القائدين عند العاصمة القرطية نفسها .

وهكذا سقطت معظم شبه جزيره أيبيريا Iberia فى يد المسلمين ، ولم يبق منها إلا بعض الأطراف الشرقية والشمالية الغربية ، وهى كلها تصفية ختامية لعملية الفتح الكبرى .

أما شرق الاندلس El Levante ، فقد فتح على يد الامير عبد العزيز بن موسى بن نصير الذى خلف أباه على ولاية الاندلس ، وكانت المقاومة فى هذه المنطقه قد تركزت فى كورة تدمير^(١) وقاعدتها الحصنه أوربوله

(١) تدمير هو الاسم القديم لمدينة Murcia فى ٢١٦ هـ ٨٣١ م اختطت مدينة مرسية أيام الامير عبد الرحمن الاوسط على يد جابر بن مالك بن ليبد عامل تدمير يومئذ ولم تلبث مرسية بعد ذلك أن صارت قاعدة لـ ^١ كورة تدمير ثم سميت الكورة كلها باسمها .
راجع العذرى : المسالك والممالك ص ١ - ٢ نهر عبد العزيز الأهوانى ؛

أين الابار : الحلة الصبراء ج ١ ص ٦٣ ج ٢ ص ٣١٦ نشر حسين مؤنس ؛

الحيرى : الروض المطار ص ١٨١ نشر ليفى بروفنسال

Orthuela . وقد سميت هذه الولاية بهذا الاسم نسبة إلى اسم صاحبها الأمير القوطي تيودومير الذى استطاع بفطنته وذكائه أن يحصل من عبد العزيز على شروط حسنة ضمنت له استقلاله بولايته فى مقابل جزية سنوية . وتسوق الرواية الاسلامية فى ذلك قصة طريفة تتلخص فى أن تدمير حينئذ شمر بقائمة رجاله وخطورة الغزو الاسلامى ، أمر النساء بنشر شعورهن ، والوقوف مع القلة الباقية من رجاله على أسوار حصن أوريواله والرامح فى أيديهن ، فخيّل للمسلمين أن حامية المدينة ، كبيرة العدد فقبلوا مبدأ المفارقة ، ونزل اليهم تدمير بنفسه على هيئة رسول ، وأخذ يفارص عبد العزيز حتى استطاع أن يعتمد معه صلحا على نفسه وماله وأهل بلده . ولما تم الصلح كشف تدمير عن شخصيته ، وادخل المسلمين المدينة ، فلم يجدوا فيها إلا عددا قليلا من الرجال (١) .

على أن الذى يهمنا فى هذا الصدد هو نص هذه المعاهدة الذى وصل إلينا عن طريق المؤرخ الاندلسى الضبى (ت ١٢٠٢ م) فى كتابه بغية الملتبس (٢) . وهذا أمر مهم فى حد ذاته لأن المراجع العربية لم تحفظ لنا أمثال هذه المعاهدات القديمة التى يزخر بها التاريخ الاسلامى .

أما الركن الشمالى الغربى ، وهو الاقليم المسمى بأشتوريش Asturias ،

(١) راجع (المفرى : نفح الطيب ، ١ ص ٢٤٧ ، اخبار مجموعة .
ص ١٣ ، ٢٠) .

(٢) راجع نص هذه المعاهدة فى (الضبى : بغية الملتبس فى تاريخ علماء الأندلس
ص ٢٥٩) .

في منطقة جليقية أروغاليا Galicia ، فإن المسلمين في الواقع لم يفرضوا سلطانهم تماما على هذه النواحي لوعورة مسالكها وبرودة مناخها ، فأهملوا جانبها زهدا فيها واستهانة بشأنها . ولهذا استطاعت بعض قلوب الجيش القوطي المنهزم بزعامة قائدهم يدهى بلای Pelayo (ت ٧٢٧ م) أن تعتصم بالجبال الشمالية في هذه المنطقة ، وهي التي يسميها الاسبان بقسم أوروبا Picos de Europa وهي عبارة عن ثلاثة جبال شاذخة ، القمة القريبة منها تسمى أرنجا Onga وبها مغارة تعرف بكهف أرنجا Covadonga ^(١) ويسميها العرب صخرة بلای لأنه اختبأ فيها هو واصحابه حينما حاصروهم المسلمون ، وعاشوا على عسل النحل الذي وجسده في ثمرات الصنوبر ^(٢) . ولما أعيا المسلمين أمرهم ، تركوهم وانصرفوا عنهم متخفيا بشأنهم وقالوا : ثلاثون علجا ما صي أن يجيء منهم ؟ ^(٣)

والمصادر الاسبانية تجعل من انسحاب المسلمين عن كوفادونجا نصرا عسكريا وقوميا كبيرا للاسبان ، بل وتذهب إلى أن العناية الإلهية قد تدخلت في صالحهم ، فصارت سهام المسلمين ترتد إلى صدورهم ، كما انهارت عليهم قطعة من الجبل فقتلتهم عن آخرهم بما في ذلك قائدهم

(١) أصلها Cueva de Onga

(٢) مازالت خلايا النحل منتشرة في هذا المكان الذي أصبح من المناطق السياحية الهامة هناك - لعل الاسبان أرادوا بذلك أن يضعوا المشاهدين في نفس هذه الصورة القديمة .

(٣) راجع روايات الرازي والسهودي وابن سعيد حول هذا الموضوع في (المفرى : نفح الطيب - ٦ ص ٨٢ وما بعدها) وهي كلها تعترف بالخطورة التي نجمت عن أعمال أو انتقار المسلمين الأوائل لهذا الموقع .

المسمى علقه (١). أما المصادر العربية فانها وان كانت تعترف بانسحاب المسلمين عن هذه المنطقة القاحلة الباردة ، إلا أنها لا تذكر شيئا عن القائد علقه ولا عن الاساطير الخرافية السائدة الذكر (٢) .

وكيفما كان الامر ، فالمهم هنا أن في هذه البؤرة الصغيرة كوفادونجا ، نبتت نواة دولة أسبانيا النصرانية ، ونبتت معها حركة المقاومة الاسبانية التي أخذت تنمو وتنتشر حتى استولت على مدينة ليون ، وسيطرت على جميع المنطقة الشمالية الغربية التي صارت تعرف بمملكة ليون . ولقد احاطت هذه المملكة الاسبانية نفسها بسلسلة من القلاع والحصون لحماية نفسها من هجمات المسلمين . وعرفت هذه الحصون في المصادر العربية باسم منطقة القلاع ، بينما اسمتها المصادر الاسبانية Castellitas أى القلاع كذلك . وكان أمراء هذه القلاع تابعين لمملوك ليون ، إلا أنهم كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال الذاتي كي يتمكنوا من محاربة المسلمين ، كذلك كانت أنظمتهم الادارية بعيدة كل البعد عن النظام الاقطاعى السائد في مملكة ليون نفسها ، إذ انتشر بين أهالى تلك المنطقة نظام الملكيات الصغيرة ، حتى يتمكن كل فرد منهم أن يدافع عن أرضه وأهله وأمواله . ولم تلبث هذه القلاع أن انحدت في القرن العاشر الميلادى بزعمامة أقوى أمرائها فرنان جوثالك Fernan Gonzalez ، واستقلت عن مملكة ليون وصارت تعرف بإمارة Castilla وقد عرب المسلمون هذا اللفظ إلى قشتالة .

(١) Luciano Lopez : La Batalla de Covadonga © Historia del Santuario (Oviedo 1950).

(٢) يرى الدكتور حسين مؤنس أن المراجع الاسلامى وان كانت لم تذكر صراحة اسم هذا القائد علقه اللغوى ، إلا أنها أشارت في مناسبات أخرى إلى ولده عبد الرحمن وثام ، ضمن للقواد الذين حاربوا في جنوب فرنسا . راجع كتابه فخر الاندلس ص ٣٢١ وما بعدها .

-- ٤٢ --

ثم أخذت هذه المملكة الصغيرة ذات الأصل الساذج البسيط ، تنمو وتوسع شيئاً فشيئاً على حساب جيرانها المسلمين والمسيحيين على السواء ، حتى سيطرت على جميع أنحاء اسبانيا ، بل وامتد نفوذها بعد ذلك إلى أمريكا مع حركة الكشف الأسبانية الحديثة ، وصارت لغتها القشتالية هي اللغة الأسبانية الرسمية السائدة في أسبانيا ودول أمريكا اللاتينية فيما عدا البرازيل التي تتحدث البرتغالية .

وقد يكون في هذا الكلام شيء من الاستطراد ، ولكنه استطراد مفيد ما دام يعبر عن المعنى التاريخي الكبير الذي يستتر وراء حادثة بسيطة مثل حادثة كوفادونجا ، ومن هنا ندرك السبب الذي جعل الأسبان يهتمون بعارة هذا الموقع ، وجعله منطقة سياحية ، ويضعون بلاى في مصاف القديسين ، ويحجون إليه في كل عام ، لأن العبرة هنا ليست في التفاصيل المادية البسيطة لحادثة كوفادونجا ذاتها ، وإنما في الآثار والفوائد السياسية والقومية الكبيرة التي ترتبت عليها .

الخلافة في الغرب الاسلامى فى العصر الوسيط

موضوع الخلافة موضوع قديم واسع مشعب ، وقد كثر الكلام والجدال فيه بين العلماء القدماء والحديثين : فبعضهم يقيم هذا النظام على العقل ، لأنه لولا الولاة لكان الناس فوضى مهملين ، والبعض الآخر يقيمه على الشرع دون العقل ، لأن أول اختصاص للخليفة هو حفظ الشرع . وهناك جدال حول الشروط المعتبرة فى الخليفة ، وحول سلطة الجماعة أو أهل الحل والعقد ، إلى غير ذلك من الموضوعات التى لا أحب التعرض لها فى هذا الموضوع ، وحسبى أن أحيل القارئ إلى بعض ما كتبه علماء الأصول فى هذا الموضوع مثل الماوردى فى أحكامه السلطانية ، وابن خلدون فى مقدمته^(١) ، وسعد الدين التفتازانى فى مقاصد الطالبين ، وعبد القادر الفاسى فى رسالته عن الإمامة ، والسيد رشيد رضا فى بحثه القيم عن الخلافة والذى نشره بمجلة المنار القاهرة ١٩٢٣ ، وقد ترجمه إلى الفرنسية ، المستشرق الفرنسى هنرى لاوست^(٢) . هذا إلى جانب المستشرقين الذين كتبوا فى موضوع الخلافة أيضا مثل توماس

(١) ابن خلدون ؛ المقدمة ص ١٩١ .

(٢) راجع Henri Laoust : La Califat dans la Doctrine de

Rasid Rida. Beyrouth 1938.

آرنولد (١) . ووليام ميور (٢) ، وجب (٣) ، وغيرهم ، إذا لا يتسع المجال لذكر جميع أسماء من كتبوا هذا الموضوع ، فيكتفى ما ذكرت منها على سبيل المثال لا الحصر .

والنقطة التي أحب أن أتاولها في هذا الموضوع المثمن ، هي نظام الخلافة في الغرب الاسلامي ، وما ترتب عليها من أحداث سياسية في العصور الوسطى .

الخلافة ، والإمامة العظمى ، وإمارة المؤمنين ، ثلاث كلمات معنما واحد وهو رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا . وعلى هذا الأساس كان تعيين الإمام أو الخليفة واجبا حتميا على الجماعة الإسلامية .

خلافة الخوارج والشيعة في المغرب :

كانت الدعوة في المغرب والأندلس ، عقب الفتح الاسلامي ، قائمة لخلافة دمشق الاموية التي ما كاد ينتهي أجلها سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) حتى سيطرت على تلك البلاد دويلات وخرافات إسلامية تدين بمختلف المذاهب .

(١) Thomas Arnold : The Caliphate Oxford. 1929 & Ency. of Islam art. Khalifa by T. W. Arnold.

Muir ; The Caliphate Oxford 1902 (٢)

Gibb ; Al Mawardi's theory on the Khalifa, Islamic (٣) Culture Vol. XI.

وكان مذهب الخوارج في بادىء الامر ، أكثر المذاهب انتشارا بين قبائل البربر ، لأنه يقوم على مبدأ عدم حصر الخلافة في بيت معين أو جنس معين ، ويرى تركها لاختيار الأمة ، فهي التي تختار الشخص الصالح لها بغض النظر عن جنسه أو لونه ما دام مستوفيا لشروط الخلافة ، لهذا وجد البربر أن مذهب الخوارج يناسب وضعهم الاجتماعى والسياسى ، فاتخذوه عنوانا للمعارضة القومية ضد أى سيادة تفرض عليهم . وكانت الصفيرية والاباضية أكثر مذاهب الخوارج رواجاً في المغرب ، وأكثرها اعتدالا وتسامحا مع المخالفين ، إذا قورنت بغيرها من المذاهب الخارجية الأخرى مثل مذهب الأزارقة في المشرق ، فالصفيرية والإباضية لا يرون إباحة دماء المسلمين ، ولا يرون جواز سبي النساء والذرية ، بل ولا يرون قتال أحد سوى جيش السلطان (١) .

وعلى أساس هذه المبادئ السابقة ، قامت في المغرب دولتان خارجيتان : أحدهما تدعى بالمذهب الصفيرى ، والأخرى تدعى بالمذهب الإباضى .

أما الأولى فهي دولة بنى مدرار أو بنى واصل الصفيرية التي قامت في

(١) راجع (الشهرستانى : اللال والجل ص ١٦٨ ، البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٦١ : محمد أبو زهرة : المذاهب الإسلامية ص ١٢٤ - ١٢٥ ، سليمان البارونى النفوس : الأزهاد الرياضية في أئمة ملوك الإباضية ص ٢ س ١٤ وما بعدها) وقد ورد في تلك المصادر أن الصفيرية نسبة إلى زياد بن محمد الأصغر . ولهذا فهم يعرفون أيضا بالزيادية . أما الإباضية فنسبة إلى عبد الله بن إباض المرى ، وأنهم دخلوا المغرب في القرن الثاني للهجرة .

منطقة سجلماسة (تافيلانت الحالية) في جنوب المغرب الأقصى سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ م) ومؤسسها كان سودانيا أسود اللون يدهى عيسى بن يزيد المكناس الصفرى .

واستمرت هذه الدولة زمنا طويلا ، ويلاحظ أن بعض ملوكها خطبوا للخلافة العباسية في بغداد أمثال أبي القاسم الزناتى الصفرى الذى يقول ابن خلدون بأنه خطب في عمله للنصور ثم للمهدى من بنى العباس (١) ، كذلك يلاحظ أن عددا آخر من ملوكها ، دعوا للخلافة الشيعية الفاطمية عندما قامت في المغرب اتقاء لخطرهما (٢) ، وأخيرا جاء آخر ملوكها وهو محمد بن الفتح بن مدرار ، فاعتنق المذهب السنى المالكي وتسمى بأمر المؤمنين سنة ٣٤٢ هـ وتلقب بالشاكر لله ، وضربت بذلك الدراهم والدنانير ، فكانت تسمى بالدراهم الشاكرية . ثم انتهت عنده الدولة على يد قائد الفاطميين جوهر الصقلى سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) (٣) .

أما الدولة الخارجية الثانية ، فهي الدولة الرستمىة الإباضية التى قامت في المغرب الأوسط سنة ١٤٤ ق (٧٦١ م) . ومؤسس هذه الدولة رجل فارس الأصل - كما يقال - وهو عبد الرحمن بن رستم الذى بويع بالخلافة

(١) راجع (ابن خلدون : البرج ٦ ص ١٣ ، السلاوى . الاستعصا ١ ص ١٢٥) .
 (٢) راجع (ابن الخطيب : أعمال الاعلام . القسم الثالث الخاص بتاريخ المغرب ، نقر أحمد مختار البادى ، وابراهيم السكتانى ، ص ١٤٦ - ١٤٧ ، الدار البيضاء سنة ١٩٦٤) .
 (٣) راجع ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، المرجع السابق ص ١٤٨ ، البكرى : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ١٥١ ، ابن خلدون : البرج ٦ ص ١٣٢ .

وصار يلقب بالإمام هو وأبناؤه من بعده ، كما ينص على ذلك ابن صغير والباروني فيما كنباه عن أئمة الرستميين (١) .

وكانت عاصمة هذه الدولة مدينة تاهرت التي بناها عبد الرحمن ابن رستم سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) . وتقع تقريبا في مكان تياريت الحالية Tialet في ولاية وهران Oran غرب الجزائر . ولم تلبث هذه المدينة أن ازدهرت وهاجر اليها التجار والعلماء والطلبة من جميع انحاء العالم الاسلامي حتى صارت تسمى بالعراق الصغير تشبيها لها ببلاد العراق الصاخبة بمختلف الاجناس والملل والنحل (٢) .

ولقد عمل عبد الرحمن بن رستم على تدعيم دولته ، فعمد تحالفا مع الدولة الأموية في الاندلس ، وكذلك مع الدولة الخارجية الأخرى في سجلماسة وهي الدولة المدراية الصفيرية ، وتنتج عن هذا التحالف الأخير تلك المصاهرة التي تمت بزواج المنتصر بن اليسع بن مدرار على أروى (٣) بنت عبد الرحمن .

(١) راجع (Motylinski : chronique d'Ibn Saghîr sur les imams rostémides de Tahert , actes du xiv congrès des orientalistes, 3 partie 1907)

راجع كذلك (سليمان الباروني النفوس : الازهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية ص ٢ ص ١٤ — ٤٥ ، أبين خلدون ص ١ ص ١٥٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٦٨ ص ٣٧٨)

(٢) راجع (سليمان الباروني : المرجع السابق ، محمد بن تاويت : بزوغ الثقافة العربية بالمغرب ، مجلة نمودا ، تطوان ١٩٥٦)

(٣) يلاحظ أن والدة الخليفة عثمان بن عفان كانت تسمى بهذا الاسم أيضا . (الجهمياري : الوزراء والكتاب ص ٢٥٩)

ولقد انجب المنتصر من أروى ولدا سماه سيونا، وهو الذى خلفه فى الحكم بعد ذلك (١) .

ولما توفى عبد الرحمن بن رستم سنة ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) ، ترك الأمر شورى فى سبعة أشخاص من بينهم ابنه عبد الوهاب الذى مالت الأغلبية إلى مبايعته وسلمت عليه بالخلافة ، بينما اتخذ المخالفون بجانباً معارضا ، ولهذا سموا بالنكثاء أو النكثرية .

واستمرت هذه الدولة الرستمية تحكم المغرب الاوسط زمنا إلى أن قضى عليها الفاطميون سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م)

على أن سقوط هذه الدولة لم يكن معناه القضاء على مذهب الإباضية فى المغرب ، بدليل ثورة أبى يزيد الخارجى التى قامت فى جبال أوراس فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، وكادت أن تقضى على الدولة الفاطمية فى المغرب . وقد تلقب هذا الزعيم الزناتى الخارجى بلقب شيخ المؤمنين ، واعترف بخلافة عبد الرحمن الناصر فى قرطبة ، كى ينال تأييده ، غير أن الفاطميين تمكنوا من إخماد ثورته وقتله بعد كفاح مرير طويل سنة ٣٢٥ هـ (٩٤٧ م) (٢)

على أن دعوة الإباضية استمرت ، رغم ذلك ، قائمة فى المغرب ،

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الخاص بالمغرب ص ١٤٣

(٢) راجع (ابن عذارى ص ١ من ٣٠٧ ، رحلة التجانى ص ٣٢٦ وكذلك مقالنا عن

سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ١٩٥٧)

بدليل أنهم ما زالوا يعيشون إلى اليوم في جنوب طرابلس بمنطقة مزاب
وجبل نفوسة في ليبيا .

وللجوار هاتين الدولتين السابقتين . قامت في المغرب الأقصى دولة
هلوية حسنية سنة ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) ، وهى دولة الاشراف الادارسة ،
ومؤسسها هو أبو العلاء إدريس بن عبد الله الاكل بن الحسن بن الحسن
بن علي بن أبي طالب ، الذى فر إلى المغرب بعد هزيمة العلويين في موقعة
فخ بأحواز مكة سنة ١٦٩ هـ (٧٨٦ م) .

وهناك في المغرب الأقصى أقام إدريس الأكبر دولته ، وبني عاصمته
مدينة فاس الى أمها ابنه إدريس الأصغر من بعده .

وفهم من كلام المؤرخين أن الادارسة في المغرب كانوا يلقبون بلقب
الإمام (١) ، وأن هذه الامامة انتقلت إليهم بوصاية محمد النفس الزكية لاختيه
إدريس الأكبر ، على أساس أن محمد النفس الزكية اعتقدت له الإمامة
قبل بنى العباس ، وأنه لهذا السبب كان مالك بن أنس وأبو حنيفة
يرجحان أمانته على بنى العباس ، ويريان أن إمامته أصح من إمامة أبي
جعفر المنصور لاعتقاد هذه البيعة من قبل . كذلك يؤثر عن مالك أنه
كان يفتى أهل المدينة خلال ثورة النفس الزكية سنة ١٤٥ هـ بأنه ليس
على مكروه يمين أو طلاق ، وهو يقصد بذلك أن من بايع أبا جعفر
المنصور مكرها ، فهو فى حلال من بيعته ، وله أن يبايع محمدا النفس
الزكية . وقد لحق مالك أذى كبير من جراء ذلك ، إذ ضربه العباسيون

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٨ .

بالبساط ، ومنعوه من الخوض في هذا الحديث (١) ، ولا شك أن هذا الحادث جعل لملك بن أنس ومذهبه مكانة في دولة الإدارة بالمغرب ، بدليل ما رواه ابن خلدون من أن الإمام إدريس الأكبر قال في هذا الصدد : نحن أحق باتباع مذهب وقراءة كتابه - يعني الموطأ - وأمر بذلك في جميع عمالاته (٢) .

هذا ويفهم من كلام المؤرخين كذلك - أن هذه الدولة العلوية الإدريسية ، كانت أيضا موطن المعتبرة ، وأن قبيلة أوربة التي ساندت الإمام إدريس ، كانت تدين بمذهب الاعتزال ، وأن عبد الله الكامل والد الإمام إدريس ، كان يعتبر في الطبقة الثالثة من طبقات المعتبرة (٣) ولقد امتد حكم الإدارة بالمغرب من السوس الأقصى إلى تلمسان وهران في المغرب الأوسط . وتوجد في خزانة الرباط وثيقة هامة ، وهي قطعة من رسالة للإمام إدريس الأول إلى أهل مصر ، يذكرهم فيها بفضائل أهل البيت النبوي الذي ينتمي إليه ، ويصف التضحيات الغالية التي بذلوها في سبيل حقهم الشرعي الموروث عن الرسول ، ويطالبهم بتأييده ومساندته (٤) .

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٩ ص ٢٠٦ .

(٢) راجع (عبد الحى الكتاني : القرايب الادارية ١ ص ٨) .

(٣) راجع (المقور : كتاب البلدان ص ٢٨ ، نعردي خويه ، لندن ١٨٦٠ ، البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ١١٨ ، نعردي سنان ، الجزائر ١٩١١) .

(٤) هذه الرسالة حررت بنصها الكامل في الجزء الثاني من سيرة إمام اليمن المؤيد بالله محمد بن القاسم في رسالة له وجهها إلى أهل المغرب سنة ١٠٤٨ هـ . وهو مخطوط بمكتبة الامبروزيانا بميلانو تحت رقم ١١٥ ورقة ٧١ - ٧٥ . وتوجد صورة لها بمخازن الرباط .

ورسالة الإمام أدریس أو المولى أدریس - كما یسمونه المغاربة - إن دلت على شيء ، فإنما تدل على أن الإدارة ، لم یفکروا فی فصل المغرب عن بقية العالم الاسلامی كما یزعم البعض ، بل كانوا یریدون توحید العالم الاسلامی تحت قیادتهم ، مستندین فی ذلك إلى أصلهم الشریف وشرعیتهم فی الحكم .

ویتضح من الاحداث التاريخية التالية ، أن الخلافة العباسية ، قد خشیت على نفسها من اتساع أهداف الدولة الإدريسية ، فأقامت دولة الاغالبية فی أفريقية (أى القطر الترنسى) سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) . لتكون حدا فاصلا بین بلادها وبلاد الإدارة .

ولکن على الرغم من هذا الحاجز الذى أقامه العباسيون فی وجه المغرب ، حاول الإدارة من جانبهم ، استمالة الاغالبية ، وكسب صداقتهم . ففی هذا الصدد یقول لسان الدين بن فى الخطيب القسم الثالث من كتابه أعمال الاعلام :

« وكتب لإدریس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبی طالب ، القائم بالمغرب ، إلى إبراهيم بن الاغلب ، یتكفيه عن ناحيته ، ویذكره بقرابته من رسول الله (صلعم) . فأجابه عن كتابه وأودعه ، ولم تجر بینهما حرب ، (١) :

ویضيف ابن الخطيب فی موضع آخر من كتابه السالف الذكر :

« ذکر أن الخليفة المأمون ، وجه الى زیادة الله بن ابراهيم بن الاغلب ،

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام - القسم الخاص بالمغرب - ص ١٤ - ١٥ .

كتابا يأمره فيه بالدعاء لعبد الله بن طاهر في مصر ، فلم يرض بذلك زيادة الله ، وأمر بإدخال رسول المأمون عليه ليلة وهو ثمل ، ونار عظامه بين يديه في كوانين ، وقد احترت عيناه ، فقال الرسول منظره ، وكان من كلامه بعد تقرير شأنه وطاعة سلفه . يأمرني بالدعاء لعبد خراقة ؟ هذا ما لا يكون أبدا ، ثم مد يده إلى كيس بحبه فيه ألف دينار ، ودفعه الرسول وصرفه . وكانت في الكيس دنائير من المضروبة بأسماء بني إدريس الظاهر ملكهم يومئذ بالمغرب ، ففهم المأمون مغزاه ولم يعاتبه أبدا ، (١) .

وواضح من هذا النص ومن التصوص التي قبله ، أن الإدارة قد اتصلوا بأهل مصر كما اتصلوا بأهل تونس ، لدرجة أن بعض ملوك الأغالبة قد هدد فعلا بمبايعتهم والانضمام إليهم .

ثم قامت خلافة العبيدين أو الفاطميين في المغرب سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٠ م) . ولا شك أن دهوة العلويين الإدارة ، رغم كونها لا تدين بالمذهب الاسماعيلى الشيعى ، إلا أنها مهدت السبيل لدعاة الفاطميين في المغرب ، وهيات الاذهان بقبول دعوتهم لآل البيت . واستطاعت الدولة الفاطمية بفضل تأييد بعض القبائل المغربية ، أن تقضى على نفوذ الأغالبة والرستميين والمدرايين بل والإدارة أيضا ، وأن تحقق وحدة مغربية قاعدتها مدينة المهدية في أفريقية (٢) .

(١) ابن الخطيب : المرجع السابق ص ١٧ .

(٢) راجع مقالنا عن سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ، صحيفة معهد الدراسات

الإسلامية في مدريد ، المجلد الخامس (١٩٥٧) .

والخلافة أو الامامة الفاطمية ، خلافة دينية وراثية تقوم على أساس المذهب الشيعي الاسماعيلي ، وتستند إلى أساسين هامين : الأساس الأول هو العلم ^{الاندلسي} أو الإلهي الموروث عن النبي (صلمه) ، عن طريق علي بن أبي طالب ثم أولاده من بعده إلى الفاطميين .

فالإمام عند الفاطميين على هذا الأساس ليس شخصا عاديا بل فوق الناس جميعا : فهو المشرع وهو المنفذ ، ولا يسأل عما يفعل ، لأنه معصوم من الخطأ نتيجة لما ورثه من علوم لدنية عن النبي . وهناك نوعان من العلوم : علم الظاهر وعلم الباطن أي ظاهر القرآن وباطنه ، وقد علم النبي ، عليا بن أبي طالب هذين النوعين من العلوم ، فأطاعه على خفايا السكون والسر المسكون من هذه العلوم ، وكل لإمام ورث هذه الثروة العلمية لمن جاء بعده ، ولهذا كان الإمام معلما أكبر .

ومن هذه النظرة الشيعية للإمام نفهم السر في سبب تقديس الناس له ، والركوع عند مروره ، وتقبيل الأرض بين يديه .

ولعل شعر ابن هاني ^{الاندلسي} ، أكبر شاهد على ذلك ، مثل قوله في مدح الخليفة المعز لدين الله الفاطمي .

هذا ابنٌ وحى الله تأخذُ هديما عنه الملائكُ مَبْكُرةً وأصيلا
وعلمتَ من مكنون سرِّ الله ما لم يؤتَ في الملكوت ميكانِلا (١)

(١) راجع (ديوان ابن هاني ^{الاندلسي} ، تحقيق ^{أكرم البستاني} ، بيروت ١٩٥٧) .

أما الأساس الثاني للإمامة الفاطمية، فهو مسألة الوصية أو النص على ولاية العهد. والمعروف في ذلك أن الخلافة الفاطمية خلافة رافضية أى أنها ترفض أمامة أبى بكر وعمر بن الخطاب، وتقرى، كما يرى الشيعة عموما، أن عليا يستحق الخلافة بعد النبي لا عن طريق الكفاية وحدها، بل عن طريق النص عليه بالإسم. فالإمامة عندهم ليست من المصالح العامة التى تفرض على نظر الأمة، وإنما هى ركن الدين والإسلام، ولا يمكن للنبي أن يتركها للأمة، بل كان عليه تعيين إمام لهم معصوما من الخطأ، وأن عليا هو الذى عينه النبي إماما بعده.

ويستشهدون فى ذلك برواية الرسول عقب حجة الوداع وفى مكان يسمى بالغدير حيث قال: « من كنت مولاء فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ». وقوله: « على منى بمنزله هارون من موسى » ... الخ.

ومن هنا نشأت فكرة الوصية، ولقب على بالوصى، بينما لقب من جاء بعده بالائمة، ومرتبة الوصاية عندهم أعلى من مرتبة الإمامة وتلى مرتبة النبوة. ثم انتشرت الوصية بين الشيعة عامة والفاطميين خاصة، فقالوا: إن الإمامة تنتقل من الآباء إلى الأبناء، ولا تنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين. فالأب ينص على ابنه فى حياته، ولا يقوم النص فى الإمامة على أساس تولية الابن الأكبر، فالإمام يستطيع أن ينص على أى ابن له، فهذا أمر يخصه وحده لأنه يتلقى علمه وروحيه من الله.

ولقد حاول الفاطميون فرض مذهبهم الشيعي الاسماعيلي على رعاياهم بقوة
السيف ، كما حاولوا صبغ الوحدة المغربية بتلك الصبغة المذهبية المتطرفة .
غير أن المغرب لم يقبل بهذه السيطرة المذهبية الشيعية التي لا تلائم
مزاجه وطبيعته ، فخرج عن طاعة الفاطميين ، وأخذ يتطلع إلى
خلافة سنية جديدة قامت في الأندلس في ذلك الوقت ، وهي الخلافة
الأموية .

الخلافة الأموية بالأندلس

قامت الخلافة في الأندلس متأخرة زمن عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٦ هـ
(٩٢٩ م) ، وذلك نتيجة للظروف السياسية التي أحاطت بالأندلس في
ذلك الوقت . أما قبل ذلك التاريخ ، فقد مرت الأندلس في دورين
أساسيين : -

الدور الأول : تمتد من سنة ٩٢ - ١٣٨ هـ (٧١١ - ٧٥٦ م) أي منذ
الفتح الإسلامي للأندلس إلى قيام الدولة الأموية بها وفيه كانت الأندلس
أمانة غير مستقلة وغير وراثية ، تتبع الخلافة الأموية بدمشق ويحكمها
والى يعرف بالأمير يتبع أمير أفريقية من الناحية الإدارية ، بمعنى .
أن أمير القيروان هو الذى كان يعين ولاية الأندلس في غالب
الأحيان .

الدور الثانى : تمتد من سنة ١٣٨ - ٣١٦ هـ (٧٥٦ - ٩٢٩ م) أي منذ
مجيء عبد الرحمن الأول (الداخل) الأندلس وينتهى بإعلان عبد الرحمن
الثالث نفسه أميراً للمؤمنين وتلقبه بالناصر لدين الله .

وفي هذا الدور كانت الاندلس أمانة ورائية مستقلة سياسيا عن خلافة المشرق العباسية .

أما من الناحية الروحية فيفهم من كلام بعض المؤرخين أمثال ابن الكردبوس (١) وابن أبي دينار (٢) أن جميع أمراء بني أمية الذين حكموا الاندلس قبل عبد الرحمن الناصر قد دعوا في خطبهم الدينية لحلفاء بني العباس ببغداد رغم العداء السياسي الذي كان قائما بين هاتين الدولتين ، فقالا في هذا الصدد : وكان - أي الناصر - من تقدمه من آباءه ينظرون لبني العباس .

غير أن هذه الرواية في الواقع لم يقم عليها دليل أو إجماع تاريخي خصوصا وأن ابن أبي دينار السالف الذكر هاد ثانية وناقض هبارته الأولى بقوله : ودانت لعبد الرحمن (الداخل) البلاد ، وبقي ملكا ثلاثا وثلاثين سنة ، وتداولها بنوه من بعده ولم يخطب أحد منهم لبني العباس ولم يدخل تحت طاعتهم ، إلى أيام عبد الرحمن الذي تلقب بالناصر لدين

(١) راجع عبد الملك بن الكردبوس . كتاب الاكتفاء في أخبار الحلفاء القسم الخامس بالاندلس نشر أحمد مختار العبادي ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمغريد من ٦٠ - ٦١ ، المجلد ١٣ ، ١٩٦٥ (تحت الطبع)

(٢) انظر محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار : المؤسس أخبار أفريقية وتونس من ٩٧ ص ٤٦ - ٤٣ (تونس ٢٨٦ هـ)

الله وتسمى بأمير المؤمنين (١) .

أما ثقة مؤرخى الاندلس ، أمثال ابن حزم وابن الأبار والمقرئ فقد حددوا مدة الدعاء لبني العباس في الاندلس بفترة قصيرة فقط في بداية عهد عبد الرحمن الاول (الداخل) ثم قطع الدعاء لهم بعد ذلك .

فابن حزم في كتابه « نطق العروس » يقول ان الدعوة للعباسيين استمرت مدة سنوات ثم قطعها عبد الرحمن الاول (٢) . كذلك يقول ابن الأبار في كتابه « الحلة السيرة » وأقام عبد الرحمن (الاول) أشهرا دون السنة يدعو لابن جعفر المنصور . . . متقيلا في ذلك يوسف الفهرى في الدعوة للعباسيين (٣) .

أما المقرئ ، فقد أورد لنا رواية لطيفة لعلها نقلها عن ابن حيان يبين فيها الظروف والملابسات التي تم فيها انقطاع هذه الدعوة للعباسيين فيقول : « وفر من الشام الأمير عبد الملك بن عمر بن مروان الاموى خوفا من المسودة (أى العباسيين) ، فمر بمصر ومضى الى الاندلس وقد غلب عليها الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداهل ، فأكرمه ونوه به وولاه أشيلية لانه كان قعدد بن أمية . ثم لانه لما وجد الداخل يدعو لابن جعفر المنصور العباسى ، أشار عليه بقطع اسمه من الخطبه ، وذكره

(١) ابن أبى دینار . المرجع السابق ص ٤٢ — ٤٣ ، ٩٧

(٢) ابن حزم . كتاب نطق العروس ص ٧٥ نشر حقوقى ضيف

(٣) ابن الأبار . الحلة السيرة ص ١٠ — ٣٥ — ٣٦ نشر حسين مؤنس

بسوء صنيع بنى العباس بنى أمية، فتوقف عبد الرحمن في ذلك، فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء له ، وذلك أنه قال له حين أمتع من ذلك : إن لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسى ، فقطع حينئذ عبد الرحمن الخطبة للنصور بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر . (١)

من هذه التصوص السابقة يدور لنا أن ما يتعلق بدعاء بنى أمية في قرطبة لعباسيين أمر مبالغ فيه ، وأن هذه الدعوة لم تدم أكثر من فترة قصيرة من بداية عهد عبد الرحمن الاول ثم قطعت بعد ذلك نهائيا .

على أنه يلاحظ أن أمراء بنى أمية الذين حكموا قبل الناصر، وإن كانوا قد قطعوا الدعاء لبنى العباس ، إلا أنهم لم يلقبوا أنفسهم بلقب خليفه، واكتفوا بتلقيب أنفسهم بأبناء الخلائف (٢) وهناك فرق كبير بين لقب خليفه وابن خليفه بطبيعة الحال .

ولا شك أن السبب في ذلك هو شعورهم بأن الخلافة وحدة لا تتجزأ ولا تتمدد، وأن الخروج عنها عصيان ، وأن الخليفة الشرعى هو حامى حمى الحرمين الشريفين ، أى المسيطر على الحجاز أصل العرب والملة ومركز العصبة (٣) .

(١) المفرى نفع الطيب ٤٠٠ ص ٥٩

(٢) المفرى . نفع الطيب ١٠ ص ١٩٨

(٣) راجع (مقننة ابن خلدون ص ٢٢٨)

هذا هو الاصل النظرى للخلافة السنية ، غير أن مصلحة العمل ومقتضيات السياسة وتغيرات الظروف فيما بعد ، حثمت الخروج عن ذلك الاصل النظرى ووضعه محل الاجتهاد . ومن ثم أجاز السنيون أنفسهم تعدد الخلافة ، مادامت هناك ، مصلحة تقضى بذلك (١) ، واعترفوا بشرعية إمامين يتوليان الحكم فى وقت واحد على شرط أن تكون بينهما مسافة كبيرة ومساحة شاسعة لمنع الاصطدام والفتنة بين المسلمين ، وقد يؤيد ذلك ما رواه صاحب كتاب الحلل المرشدة ، من أن الاندلسيين أنفسهم هم الذين بايعوا وحملوا الامير عبد الرحمن بن محمد (الثالث) على حمل هذين الاسمين : أمير المؤمنين والناصر لدين الله ، وصاروا يتخاطبونه باسم الخليفة قبل إعلانه رسميا وفى ذلك يقول . « وكان بعض أولى الفضل والتأمل من الناس سموه بهذا الاسم قبل أن يلبسه دهره ، وخاطبه به كثير من خاصته فى كتبهم وأشعارهم ، فكثرت ذلك عليه ووافاه من كل ثنية ، وجاءه من كل ناحية ، حتى اضطره إلى حمله ، وحاجره بأن يكون اسمه لنفسه فى رفضه ، وهو قوى على مخالفة آبائه فى اقتصارهم على سواء ، واستشهدوا عليه بما فطمه الله سليمان فى الحكمة دون والده عليه السلام »

(١) يقول رشيد رضا فى هذا العدد : « أصل العزم أن يصحكون رئيس الحكومة وهو الامام واحدا وهذا أمر إجماعى عند جميع الأمم كالمسلمين . لقوله (صلى الله عليه وسلم) إذا بويح الخليفةين فاقتلوا الآخر منها ، . . . ثم تطور الأمر بعد إتساع رقعة الاسلام فأجاز الائمة التعدد . راجع (وعيد رضا الخلافة أو الامامة العظمى) (مطبعة المنار ، ١٩٢٣)

العلاقة والسلام (١) .

واضح بما تقدم أن نظرية الخلافة السنية قد تمكنت تكيفا جديدا
تبعاً للواقع وللضرورة السياسية ، والنظريات دائماً تتبع الواقع وتتأثر به .
وعلى أساس هذا المفهوم الجديد للخلافة ، أعلن عبد الرحمن بن محمد
(الثالث) نفسه خليفة للمسلمين . ولاشك أنه كان مدفوعاً في ذلك بمصالح
مختلفة في الخارج والداخل أهمها :-

(١) قيام خلافة شيعية فنية معادية في المغرب، وهي الخلافة الفاطمية التي
كانت تنفرد إلى الأندلس بعين لا تخلو من طمع وغدر .

(٢) ضعف الخلافة العباسية في المشرق أيام المقتدر، واستبداد القواد
الأتراك بها، وعجزها عن حماية العالم الإسلامي .

(٣) ضعف مكانة الأمير الأموي في قرطبة نتيجة للثورات والفتن
الداخلية التي شغلت عهده ثلاثة من الأمراء قبله ، بحيث أصبحت الحاجة
ماسة إلى رفع مكانته ومنزله السياسية والدينية ، لاسيما وأن تلك الثورات
الداخلية قد قضت عليها في بداية عهد عبد الرحمن الثالث .

(٤) الاستجابة لرغبة الأندلسيين في أن يكون خليفة للمسلمين .

يروى ابن عذارى أنه « في سنة ٣١٦ هـ ، قرر عبد الرحمن بن محمد

(١) كتاب العلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول ص ١٩

(نصر علوش ، الرباط ١٩٣٦)

أن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبات منه في جميع مايجرى ذكره فيه، بأمر المؤمنين لما استحقه من هذا الاسم ، فعهد إلى احمد بن بقى القاضي صاحب الصلاة بقرطبة، بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذى الحجة بذلك (١) ، . وفي اليوم التالى ٢ ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ أصدر الخليفة الجديد منشورا عاما إلى عماله فى الكور والمدن الأندلسية يقول لهم فيه : ... وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين وخروج الكتب عنا ، وردودها علينا كذلك . إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا متحمل له ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه . وعلينا أن التحدى على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعنا واسم ثابت أسقطناه . فر الخطيب بمرضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله ، (٢) .

كذلك أمر الناصر لدين الله بأبواب عبارة الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، فى أعلامه وطرأزه ودنانيره ودراهمه ، ونفذ الأمر بذلك (٣)

وهكذا تحولت الأندلس من إمارة الى خلافة، واستمر لقب خليفة فى ذرية عبد الرحمن الناصر من بعده حتى سقوط الدولة الأموية سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ - م) .

وبلاحظ أن نظام الخلافة الأموية فى الأندلس ، كان نظام ملك يقوم على أساس التوريث ، ويستند الى السياسة أولا ثم الى الدين ثانيا ، فهى

(١) ابن هذارى البيان المغرب ٢٠ ص ٢٩٧

(٢) (الجلال الوشيع من ٢٠ ، ابن هذارى . البيان المغرب ٢٠ ص ٢٩٨) راجع

كذلك Levi Provençal Garcia Gomez :Una Cronica anonima de Abd al -Rahman III Al-Nasir p. 79 (Madrid 1958)

(٣) الجلال الموشية من ٢٠

تختلف تماما عن خلافة الإسلام الاولى أيام الخلفاء الراشدين، التي كانت تقوم على الشورى والانتخاب . على أننا مع ذلك إذا قارنا خلافة الاندلس بالخلافات الأخرى المعاصرة لها كخلافة العباسيين أو الفاطميين ، فأننا نجد أن الخلافة الاندلسية كانت أكثر ديموقراطية منها . فالخليفة العباسي كان يحكم بتفويض من الله وقد صرح بذلك أبو جعفر المنصور حينما قال : « إنما أنا سلطان الله في أرضه »، وهذه العبارة تشبه تماما نظرية الحق الإلهي في الحكم . Divine Right of Rule التي كانت سائدة بين الفرس قديما والتي سادت أوروبا في العصور الحديثة .

كذلك كان الخليفة الفاطمي يرى نفسه إماما معصوما من الخطأ، ولا يسأل عما يفعل ، لأنه وارث العلوم الدينية بما فيها من سر مكنون وغامض مصون من خفايا الكون .

وهذه القداسة لانجدها في الخلافة الأموية الاندلسية ، فالخليفة إنسان عادي ، قد يخطئ أو يصيب ، والناس أحرار في نقده وإن استطاعوا عزله عزله . ومن أمثلة هذه الروح الديموقراطية التي إمتازت به الخلافة الأموية بالاندلس، أن عبد الرحمن الناصر حينما بنى مدينة الزهراء وصرف عليها جزءا كبيرا من وقته ومن مال الدولة ، قامت ضده مظاهرات شديدة تزعمها قاضي قرطبة المنذر بن بن سعيد البلوطي ، فقد أخذ هذا القاضي يعرض بالخليفة في المساجد أيام الجمعة^(١) ، وقد أثمرت هذه المعارضة غضب

[١] يروى في هذا الصدد أن الناصر شك ذلك لولده الحكم وقال : والله لقد تعدى المنذر

الخليفة الناصر فأقسم ألا يصلي خلفه صلاة الجمعة أبداً، ولكنه لم يستطع إبداءه أو عزله .

ومثل هذه المعارضة تفسر ظاهرة فريدة في نوعها في ذلك الوقت، إذ أنه من المعروف أن أموال الشعب كانت في العصور القديمة والوسطى ملكاً لرئيس الدولة .

من هذا نرى أن نشأة الخلافة الاندلسية تخالف نشأة الخلافة في الممالك الإسلامية الأخرى، من حيث أنها لم تستند على ما يسمى «بالحق الطبيعي» الموروث، الذي يأتي عن طريق فاطمة الزهراء بنت الرسول كما يقول الشيعة، أو عن طريق الميراث عن العباس بن عبد المطلب هم النبي كما يقول العباسيون على أساس أن العم في الميراث مفضل على ابن البنت مثل قول شاعرهم :

أنى يكون وليس ذاك بكائن
لبنى البنات ورائة الأعمام

أما في الاندلس فلم يحدث شيء من هذا التعقيد، كل ما هنالك أن عبد الرحمن الناصر رأى أن يكون خليفة لأنه أحق من غيره بها ولا سيما

== بخطبته، وما عني بها غيري، فأسرف على وأفرط في تقريري وتقريري . ولم يحسن السياسة في وعظي فزعزع قلبي، وكاد بهاء يقرعني . ثم أقسم الناصر أن لا يصلي خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل ياتهم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة ويحجب الصلاة بالزهراء . راجع تفاصيل ذلك في (المقرئ . نفح العليق ٢٠ ص ١٠٦)

الفاطمين ، وعرض الامر على الامة فقبل الناس ذلك وبايعوه ، فهي أشبه بعقد بين الحاكم والمحكوم .

ومن حسن الحظ أن وثيقة الادلان التي وزعها الناصر على عمالة في هذا الشأن محفوظة لدينا في كتب بعض المؤرخين أمثال ابن عذارى ، وصاحب الحلل الموشية ، وفي تاريخ مؤلف مجهول^(١) ، وقد أوردنا جزءا منها آنفا ، ويلاحظ فيها البساطة في العرض والطلب ،

ويبدو أن الخليفة الناصر أراد أن يتم أبهة الخلافة الجديدة ويزيد في هيبتها فبنى قصرا خلفا أسماه الزهراء . وما زالت آثار هذه المدينة باقية الى اليوم على نحو ثمانية كيلو مترات شمال غرب قرطبه . وهي تشهد برقي هذا العصر وبعظمة الخلافة الاموية .

أما من حيث المظهر العام للخليفة فانه كان يشبه تماما ما كان يحدث في خلافة بغداد أو القاهرة ، فالخليفة الاموي له حاشيته من خدم وحراس ، وله بلاط يستقبل رجال الدولة وسفراء الدول الاجنبية ويضم العلماء والشعراء وأهل الفن . وكثيرا ما تحاك فيه الدسائس والمؤامرات بين رجال الدولة وأحيانا تشترك فيها نساء القصر ، وقد أعطانا المؤرخون أمثال ابن حبان^(٢) وابن خلدون^(٣) وصفا تفصيليا للحفلات التي كانت تقام

(١) راجع الصفحات القليلة السابقة .

(٢) ابو مروات ابن حبان : المتنبس في أخبار بلاد الاندلس ص ٩٤ ، نهر : عبد الرحمن حجي (بيروت ١٩٦٥) .

(٣) ابن خلدون البربر ص ٤٥ م ١٤٥

في قصر قرطبة أو قصر الزهراء ، بمثابة استقبال ملوك أسبانيا ، أو ملوك وزعماء العدو المغربية وهى كلها تعبر همما كان يمتاز به عصر الخلافة الاموية من قوة وتقدم ورخاء .

الصراع بين خلافتي المغرب والاندلس :

لاشك أن قيام خلافتين متجاورتين ، وعلى أسس مذهبية مختلفة ، كان من شأنه أن يحدث صداما بينها ، وهذا ما حدث فعلا بالنسبة للخلافة الفاطمية الشيعية بالمغرب ، وخلافة الامويين السنية بالاندلس ، فالفاطيون منذ قيام دولتهم بالمغرب ، فكروا في غزو الاندلس ، ومهدوا لذلك بالدعاية الشيعية من جهة ، وبالجابوسية من جهة أخرى ، لمعرفة أحوال تلك البلاد ومواطن الضعف والقوة فيها . وكان يقوم بتلك المهمة دعايتهم وجواسيسهم الذين كانوا يخفون أهدافهم الحقيقية بستار من المصالح المشروعة كالتيجارة أو العلم أو السياحة الصوفية . . وكان هؤلاء الرجال في العادة على قسط كبير من المهارة والخبرة بالطبيعة البشرية وما فيها من ضعف كي يتمكنوا من إحراز النجاح المطلوب .

ومن بين الجواسيس الذين أرسلهم الفاطميون إلى الاندلس ، نذكر الرحالة أبا القاسم ابن حوقل النصيبى (ت سنة ٩٦٧ - ٩٧٧م) الذى يبدو أنه تاجر بالتجارة عند دخوله الاندلس ، اذ يسميه ياقوت بالتاجر الموصلى^(١).

وقد اهتم ابن حوقل في تقريره الذى رفعه إلى الفاطميين ، بإظهار خيرات الاندلس الزراعية والمعدنية مع الإشارة إلى ضعف أهلها من الدفاع عنها ، ليحمل مولاه على غزو تلك البلاد . ومثال ذلك قوله :

(١) معجم البلدان ج ١ ص ٣٤٨

« وليس لجيوشهم حلالة في العين ، لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها ، وإن شجعت أنفسهم ، ومرنوا بالقتال ، فإن أكثر حروبهم . تتصرف على الكيد والحيلة ، وما رأيت ولا رأى غيرى بها انسانا قط جرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه في الركابيين ، ولا يستطيعون ذلك ، ولا يلفئ من أسند منهم لحوفهم من السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قوطم ... ومن أعجب هذه الجزيرة بقاؤها على من هم في يده مع صفر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ، ولقاء الرجال ، ومراس الانجاد والابطال ، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جبايتها ومواقع نعمها ولذاتها » (١) .

ولاشك أن ابن حوقل كان متحاشيا على الاندلسيين في كلامه ؛ ومبالغا في اتهامه لهم بالضعف ، ولهذا لم يظفر مشروعه بالتأييد من جانب الحكومة الفاطمية (٢) .

على أن نجاح الدعاية الفاطمية في اجتذاب أنصار لها في الاندلس كان محدودا ، وذلك لما كان للذهب السني هناك من قوة متصلة في نفوس الاندلسيين ، وإن كان ذلك لا يمنع القول من أن الفاطميين أفلحوا في ضم بعض الشخصيات الاندلسية إلى صفهم ، ومن أمثلة ذلك الثائر الاندلسي عمر بن حفصون الذي ثار بجنوب اسبانيا ضد الحكم الاموي أواخر القرن الثالث الهجري ، واعترف برهامة الخليفة عبيد الله المهدي الفاطمي

(١) راجع ابن حوقل : صورة الارض ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٨ طبعة بيروت ، محمود مي
 لانتشيع في الاندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد الثاني (١٩٥٤)
 (٢) قام ابن سعيد بالرد على ابن حوقل واتهمه بالظلم والتعصب . راجع (القرى : فتح
 الطليب ج ١ ص ١٩٧)

(٢٩٧ - ٣٢٢ هـ) ودعا له في مساجد بلاده . وقد أمده المهدي بالذخيرة والأسلحة (١) ، كما أرسل له داعيين أقاموا عنده ، وأخذ يحرضانه على التمسك ببطاعة الفاطميين ، وإقامة دعوتهم . غير أنه يبدو أن ابن حفصون لم يكن مخلصا للدعوة الفاطمية ، وإنما اتخذها وسيلة ليمكيد بها الأمويين في قرطبة بدليل أنه في أواخر أيامه ، استغنى عن الداعيين ، وأعادهما بهدية إلى الخليفة الفاطمي (٢) .

وهناك أيضا القائد علي بن حمدون الجندامي ، المعروف بابن الاندلسي الذي ورد إلى المغرب من الاندلس ، واتصل بالمهدي ثم بانه القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) وقد عهد إليه هذا الأخير ببناء مدينة المسيلة ، وهي التي سميت بعد ذلك بالمحمدية ، ثم عقد له على ولاية الزاب في جنوب المغرب الأوسط .

ولما قامت فتنة أبي يزيد الحارجي في جبال أوراس ، كتب الخليفة القائم على ابن حمدون يطلب منه المدد بقبائل البربر في الزاب ، فكانت لابن حمدون جولات مع أبي يزيد تجلى فيها جلدته وقوة نفسه إلى أن سقط من بعض الشوامق فمات سنة ٣٣٤ هـ . وعقد الخليفة اسماعيل المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ هـ) لجمفر بن علي بن حمدون على المسيلة والزاب فصارت له هناك دولة مزدهرة ، وقصده العلماء والشعراء ، مثل الشاعر الغرناطي ابن هاني الاندلسي الذي مدحه بقوله :

(١) راجع (ابن عذارى : البيان المغرب - ٢ ص ٢٤٧) .

(٢) محمود بكى : المرجع السابق ، وكذلك

(Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne II , p. 125)

المدنقات من البرية كلها جسمى وطرف بابلى أحبور
والهشقات التيسيرات ثلاثة الشمس والقمر المنير وجعفر (١) .

وهذا الشاعر ، ابن هانيء الأندلسى (ب ٣٦٢ هـ) ، يعتبر أيضا من
الدخسيات الأندلسية الهامة التى فرت من الأندلس إلى المغرب حيث التحق
بخدمة الجلينة المعز لدين الله الفاطمى (٣٤١ - ٣٦٥ هـ) ، ويعتبر شعره
فى مدح هذا الخليفة ، وثيقة هامة لنظريات العقيدة الاسماعيليه (٢) .

ولقد زاد من خطورة الدولة الفاطمية ، أنها كانت تمتلك قوة بحرية
منظمة فى المغرب وصقلية ، ورمتها عن الأغلبة ، ثم عملت على تنميتها
وتقويتها منذ قيام دولتها ، وبني الخليفة المهدي على الساحل التونسى بين
سوسة وصفاقس مدينة المهدية التى أشاد المؤرخون بدار صنعها التى نفرت
فى الجبل ، وبقوة أسوارها وضخامة أبوابها وكثرة مراحليها ، حتى إنه يقال
إن المهدي لما فرغ من بنائها قال : « آمنت اليوم على الفاطميات » ، وهذا دليل
على حصانتها (٣) .

ولعل القصيدة التى أوردها الشاعر على بن محمد الإيادى التونسى ، فى وصف
الاسطول الفاطمى على عهد الخليفة محمد القائم ، تعطينا فكرة عن قوة الاسطول
فى ذلك العهد ، وفيها يقول :

(١) راجع (أين خلصكان : وفيات الاعيان ١ - ص ٣١١ ، مفاخر البربر ص ٧ ، سيرة
الاستاذ جودى ص ١٧٥)

(٢) راجع ديوان محمد ابن هانيء ؛ تحقيق وشرح كرم البستاني ، بيروت ١٩٥٢)

(٣) الميرزى : أنفاظ الخفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ص ٩٣ - ٩٧ ، ابن
عزادى ص ١٦ ، ٢٢٧ ، ابن الاثير : الكامل ص ٨٠ - ٢٠ - ٢١ . راجع كذلك

أعجب بأسطول الامام محمد وبحسنه وزمائه المستغربين
لبست به الامواج أحسن منظر يبدو لعين الناظر المتمجب
شرعوا جوانبها مجاذف اتعبت شادى الرياح لها ولما تعب
والبحر يجمع بينها فيمكانه ليل يقرب عقربا من عقرب
وعلى جوانبها أسود خلافة تحتال في عدد السلاح المذهب^(١)

على أن الحكومة الاموية في الأندلس ، لم تقف مكتوفة الايدي أمام
أطماع الفاطميين في المغرب والأندلس ، إذ كان لها هي الأخرى هيون
ووسطاء منبثون في أنحاء المغرب . وكان هؤلاء الجواسيس يوافقون حكومتهم
بما يهمها من أخبار هذه البلاد . وساعد هؤلاء في مهمتهم وجود جاليات
أندلسية على طول الساحل المغربي في طنجة ، ووهران Oran ، وتلس Tenés ،
وبونه (عنها الحالية شرقى الجزائر) ، وبجاية ، ومرسى الدجاج . وكانت
هذه الجاليات ، قوية التمسك بالعقيدة السنية ، شديدة الكراهية للذهب
الشيغي^(٢) .

وحسبى أن أضرب مثلا لهذه المقاومة المالكية الداخلية ، بالنص الذى
أورده المالكي في كتابه رياض النفوس ، تعقيا على احتلال الإمام هبذ الله
المهدى لأفريقية ، إذ يقول فيه بأن فقيها مالكيا يدعى جبلة ، ترك
رباطه بقصر الطوب ، وأقام في مدينة القيروان ، فقيل له : أصلحك
الله ، كنت بقصر الطوب تحرس المسلمين وترابط ، فتركت الرباط والحرس ،

(١) راجع (المقرئ : فتح الطبيب - ص ١٩٩ - ٢٠٠ : ابن الأبار : العدة السيرة

ص ٢٨٥) .

(٢) البكري : المرجع السابق ص ٨٢، ٦٥، ٥٥ ، وروى ابن عذارى (ص ١٨٤) أن في

سنة ٢٩٠ هـ أسست مدينة وهران على يدى محمد بن أبى غوث بن عبدوس ونجاء من الأندلسيين .

ورجعت الى هاهنا ١ : ٠ فقال : وكما نحرس عدوا بيننا وبينه البحر ، فتركناه وأقبلنا نحرس الذى قد حل بساحتنا ، لانه أشد علينا من الروم ١ ، ٠ .
فهذا النص يدل بوضوح على مدى الإنقسام الدينى الذى أحدثه حلول
الفاطيين فى المغرب (١) .

وكان يحكم الأندلس فى ذلك الوقت ، رجل قوى الشخصية ، بلغت
الأندلس فى هذه ذروة القوة والاستقرار ، وهو الخليفة عبد الرحمن
بن محمد ، الناصر لدين الله ، الذى حكم الأندلس مدة نصف قرن (٢٠٠ -
٣٥٠ - ٩١٢ هـ - ٩٦٦ م) .

وقد اضطر هذا الرجل أن يقوم بخطوات إيجابية لمحاربة النفوذ
الفاطمى ، نلخصها فيما يلى :

أولاً : إعلان نفسه خليفة

أعلن عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة ، وتلقب بالناصر لدين الله أمير
المؤمنين سنة ٣١٧ هـ - ٩٢٩ م . وكان الدافع الاساسى لهذه الخلافة
السنية الجديدة ، هو - كما ذكرنا آنفاً - مقاومة الخلافة الشيعية الفاطمية
فى المغرب . وقد اعتبر الفاطميون هذا العمل تعدياً على حق من حقوق
أئمتهم ، ولهذا فرضوا قتاله ، واستحلوا دمه ، وفى ذلك يقول الخليفة
المعز الفاطمى فى خطاب له وجهه إلى الأندلس :

(١) ورد هذا النص فى الجزء الثانى من كتاب ريان النفوس الذى لم ينشر بعد ،
ومن المعروف أن الجزء الأول منه نشره حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥١) وقد نقلنا هذا
النص عن معجم دوزى المعروف باسم :

(R. Dozy ; Supplement aux Dictionnaires Arabes. I.p.269)

« وهو يزعم أنه أمير المؤمنين ، كما تسمى دون من سلف من آباءه ،
 وإمام الأمة بدعواه وانتحال له . ونحن نقول : « اننا أهل ذلك دونه
 ودون من سواه ، ونرى أن فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك
 دوتنا وادعاه ، مع بن أسلافاً وأسلافه ومن مضى من القديم والحديث
 من آبائنا وآبائه ، من العداوة القديمة الأصلية والبغضة في الاسلام
 والجاهلية ... الخ ، (١) » .

وراضع من هذه الرسالة وغيرها من المراسلات التي تبودلت بين
 الخلافتين أنه كان من المتعذر التوفيق بينهما .

ثانياً : تقوية الأسطول الأندلسي

اهتم الناصر منذ بداية حكمه ، بإعداد أسطول بحري كامل الاعداد والتنسيق
 وبذل في ذلك جهوداً جبارة لدرجة أن عمال دور الصناعة - كما يقول
 درزى - لم يجدوا وقتاً للراحة . وبذلك استطاع أن يشحن موانيه بالسفن
 والعتاد الحربي والجنود . ولقد أصدر الناصر أوامره إلى الأتول بفرض
 حراسة مشددة على مضيق جبل طارق ، ومنع وصول إمدادات الفاطميين
 إلى الثائر الأندلسي عمر بن حفصون الذي كان قد اعترف بخلافة الفاطميين ،
 وفي ذلك يقول عذارى : « وفي سنة ٣٠١ هـ ، ألفت للمشرك عمر بن
 حفصون مراكب في البحر كانت تميره من العداوة ، فأحرق جميعها . » (٢)

(١) راجع القاضي النعمان بن حنون : المجالس والمسابرات ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٣٤ ،
 حسن ابراهيم ، وطه شرف : الممز لدين الله ص ٣١١ وما بعدها)
 (٢) ابن عذارى : البيئات المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ .

ثالثا : تحصين الثغور الاندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب

عمل الناصر على تحصين سواحله وثغوره ولا سيما في المنطقة الجنوبية التي كانت عرضة لاي غزو مفاجىء يقوم به الفاطميون من المغرب على بلاده . ويروى المؤرخون أن هذا الخليفة ذهب بنفسه إلى هذه المنطقة ٣٠٢ هـ (٩١٤ م) حيث أشرف على الاعمال الدفاعية في طريف Tarifa والجزيرة الخضراء Algeciras ولا يزال القصر الذى بناه في طريف باقية آثاره إلى اليوم (١) أما الجزيرة الخضراء فيروى الحميرى أن الناصر بنى فيها دار صناعة للأساطيل ، آتقن بناؤها ، وعلا أسوارها ، لان مرساها هو أيسر المراسى وأقربها من بر العدو ، ويحاذيه مرسى مدينة سبتة (٢) . ونظرا لاهمية موقع هذا الثغر وخطورته ، فقد حرص الامويون على جعله هو وما حوله من ثغور ، فى يد أمير من الاسرة الاموية . (٣)

رابعا . احتلال الثغور المغربية المطلة على المضيق .

استولى عبد الرحمن الناصر على بعض ثغور الساحل المغربى المواجهة لساحل بلاده ، فيروى البكرى أنه فى سنة ٣١٤ هـ (٩٢٧ م) استولى الناصر على مدينة مليلة Melilla ، وبني سورها ، وجعلها معقلا للزعيم المكناسى موسى بن أبى العافية حاكم هذه المناطق الشبالية ، الذى انضم إليه وخلع طاعة الفاطميين ، وأرسل بعض أسراهم إلى قرطبة لعرضهم فى شوارعها . وفى ذلك يقول المؤرخ المعاصر أحمد بن موسى الرازى:

(١) (Terrasse: Histoire du Maroc, I. P.156)

(٢) راجع [الحميرى : الروى المطاوع ٧٣ - ٧٤]

(٣) فتح الطيب ١٠ ص ١٥٧

والملك الناصر دين الله فيما يحوط الدين غير ساء
بنى لموسى عمدة مدينه صنيعة شاهقة حصينة
ذلك لها تاهرت والافارقة ولم يطف ببناءها العالقة
وفي ربيع الاول سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) احتل عبد الرحمن الناصر
مدينة سبتة Ceuta على يد قائده فرج بن عفير، وعمل على تحصينها لأهمية
موقعها. وقد وصف ذلك ابن عذارى بقوله :

وشكها بالرجال ، واتقنسا بالبنان ، وبني سورها بالكندان ، وألزم
قيها من رضىه من قواده واجناده ، وصارت مفتاحا للغرب والعدرة من
الاندلس ، وبابا اليها ، كما هي الجزيرة وطريف مفتاح الاندلس من العدو
المغربية ، وقامت الخطبة فيها باسم أمير المؤمنين ثلاث خلون لربيع الاول
من العام المؤرخ . (٣) .

هذا وقد كان يشير البكرى إلى أنه كان يعيش بسبته جالية أندلسية
كبيرة من أهالي مدينة قلانة Calsena هاجروا اليها واستوطنوها أيام
المحل (الجذب) الذي حل بالاندلس (١٣١ - ١٣٦ هـ) ، وأنهم كانوا يؤدون
الطاعة إلى قريش العدرة من الحسينيين (أى الادارة) . حتى افتتحها عبد الرحمن
الناصر . (٤)

-
- (١) راجع البكرى كتاب المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ص ٨٩
(٢) يؤرخ ابن خلدون سقوط سبتة في يد الناصر ، سنة ٣١٧ هـ . وهذا يتنافى مع
تاريخ البكرى [نفس المرجع ص ١٠٤] وابن عذارى البيان المغرب ص ٣٠٧ الذي
هو مبين في المتن .
(٣) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٣٠٧ .
(٤) البكرى نفس المرجع ص ١٠٤ وحول سنوات المحل بالاندلس راجع ابن عذارى
ص ٢٠٠ .

وكان من الطبيعي بعد احتلال سبتة ، أن يحتل الناصر ثغر طنجة المجاور لها ، وقد أشار ابن عذارى إلى التحصينات التي أقامها عاهل الأندلس في هذه المدينة (١) .

كذلك يروى البكري أن عبد الرحمن الناصر ، حاول في سنة ٢٢٠ هـ (٩٣٢ م) ، احتلال موقع هام بالقرب من سواحل تلمسان في المغرب الأوسط ، وهو جزيرة أرشقول ، التي تسمى اليوم رشجون Rachgoun أمام مصب نهر تافنا بالجزائر . وهي جزيرة عالية منيعة ، تحصن بها أحد أمراء الإدارة ، واسمه الحسن بن عيسى بن أبي العيش . فحاصرها الأسطول الأندلسي مدة طويلة حتى كاد أهلها يهلكون من العطش بعد أن فرغت جبابهم من المياه ، ثم تداركهم الله بغيث وابل روى ظمأهم عندما اضطر الأسطول الأندلسي أن ينصرف عنهم عائدا إلى المرية (٢) .

وعلى الرغم من فشل عبد الرحمن الناصر في احتلال هذه القاعدة الجزائرية ، إلا أنه استطاع عن طريق القواعد الأخرى مثل سبتة وطنجة ومليلة ، أن يسيطر على الملاحة في مضيق جبل طارق ، وأن يتدخل في سياسة المغرب لاثارة قبائل البربر ضد النفوذ الفاطمي .

خامسا : اصطناع ملوك ورؤساء القبائل في المغرب

عمل الناصر على اصطناع رؤساء الدويلات التي كانت قائمة وقتذاك في شمال المغرب الأقصى ، مثل دولة الإدارة التي كان نفوذها يبعد القزو

(١) ابن عذارى - ص ٣١٦

(٢) راجع (البكري : نفس المرجع ص ٧٧ - ٧٨)

الفاطمي قد انحصر في المناطق الجبلية الشمالية بنواحي البصرة ، وأصيلا ، وقلعة
الزمر أو حجر الزمر بين قبائل غمارة . ومثل إمارة فكور أو بني صالح ، وهي
إمارة عربية سنية مالكية بمنطقة الريف ، وكان يحكمها في ذلك الوقت
الأمير صالح ابن سعيد . ومنسب هذه الأسرة إلى قائد عربي يعني من
قواد عقبة بن نافع اسمه صالح بن منصور الحميري ، كان قد استقر في
هذه المنطقة ودفن بها ، وصار قبره هناك يعرف بقبر العبد الصالح . ثم
خلفه أبناؤه من بعده في حكم هذه المنطقة . ولقد لعبت إمارة فكور
دورا كبيرا في نشر الاسلام واللغة العربية بين أهل الريف من بربر
غمارة وصنهاجة ، كما أنها في الوقت نفسه قاومت تيار الخوارج والشيعة ،
واقبت من وراء ذلك غناء كبيرا خفف من حدته تأييد الأمويين في
الاندلس لها (١) .

ولم يقتصر الناصر على محاربة هذه الدويلات المغربية الشمالية ، بل
تخطاها إلى ما وراءها من قبائل البربر ولاسيما قبيلة زناته التي عمل على تخریبها
ودفعها إلى قتال صنهاجة حليفة الفاطميين . وقد شرح لنا صاحب كتاب
مفاخر البربر هذه السياسة بقوله : -

« وتخطاهم عبد الرحمن إلى من سكن خلفهم من زعماء قبائل البربر ،

(١) عادت فكور بعد ذلك مدة طويلة إلى أن افتتحها أهل الرابطين يوسف بن تاشفين
وخرّبها سنة ٤٧٣ هـ . ومدينة فكور وإن كانت قد اندست ، إلا أنه لا يزال يوجد
بعض أعمالها وموانئها مثل نهر الزمة الذي حرقه الإسبان إلى Alhucemas ثم عرب المسلمون
هذا اللفظ إلى الحامية العالية . راجع (البكري ص ٩٠ - ٩١ ، ٩٦ ؛ ابن عذاري ص ١
ص ٢٤٢ ، ٢٥٢ ، أحمد المسكني : المدن المدرسة في شمال المغرب ٤ - ٥) .

يستألفهم، ويحمل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم، مُمدداً لمن عجز برجاله، مقويًا لمن ضعف بماله، متمهداً بوجوه زسله وخواصه، إلى أن تميز أكثر برادى زفاته في حربه، وارتمسوا بطاعته، ولاسيا عند امتياز اضدادهم صنهاجة في حزب أعدائه بنى عبيد الله، وجرت بأسباب ذلك بين الطائفتين من أولياء الدعوتين حروب يطول القول فيها، ووقائع يبعد تفصيلها، وهلك باختلافها من ملوك الدعوتين، وزعماء الطائفتين جماعة كبيرة^(١).

سادسا : تأييد ثورة أبي يزيد الخارجي

عمل الناصر على تشجيع وتأييد جميع الثورات والحركات المعادية للدولة الفاطمية، نذكر منها ثورة الخوارج الخطيرة التي قامت في تونس والجزائر برعاية أبي يزيد محمّد بن كيداد الزناتي الخارجي ضد الدولة الفاطمية. وقد شغلت هذه الثورة عهد الخليفة محمد القائم، وجزءا من عهد واده اسماعيل المنصور^(٢) (٢٣٤ - ٣٤١ هـ)، ولم يردّد خليفة قرطبة في تأييدها وإمدادها بالمساعدات المالية والعسكرية، وفي مقابل ذلك اعترف أبو يزيد الخارجي بالسيادة الأموية ودعا للخليفة الناصر في البلاد التي خضعت له فيروى ابن عذارى أنه في سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤)، أرسل

(١) مفاز البربر مؤلف مجهول ص ٤، وكذلك

(٢) (Levi Provençal : la politica africana de Abd al Rahman III , Al Andalus Vol XI fasc. 2, 1946.)

(٢) راجع (ابن عذارى ص ٢٠ - ٣١٨ - ٣٣١، وكذلك مفازنا عن سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد؛ المجلد الخامس ١٩٥٧).

أبو يزيد إلى الناصر وفدا يخبره بتغلبه على القيرون ورقادة وما جاورهما ،
وهزيمته لجند القائم الشيعي ، ويظهر له خضوعه واعترافه بولايته . وفي
السنة التالية (٣٣٤ هـ) أرسل أبو يزيد إلى الناصر سفارة ثانية من علماء
القيروان برئاسة تميم بن المحدث المشهور أبي العرب التميمي . وفي السنة
التي تلتها (٣٣٥ هـ) أرسل سفارة ثالثة برئاسة ولد أيوب . فأكرمهم
الناصر ، وأنزل في قصر الرصافة وأمدّه بمبلغ كبير من المال لتعزيز مركز
والده ، وعلى الرغم من أن هذه الثورة قد شكلت خطرا كبيرا على
الدولة الفاطمية إلا أنها انتهت أخيرا بالنشل وبقتل صاحبها سنة ٣٣٦ هـ
(٩٤٨ م)^(١).

سابعها : التحالف مع أعداء الدول الفاطمية من ملوك أوروبا والشرق

لم يتردد الناصر في إبرام اتفاقيات تحالف مع ملوك الدول المعادية
للفاطميين ، فتحالف مع ملك إيطاليا هوج دي بروفانس Hugues de Provence
الذي كان يريد الانتقام من الفاطميين بسبب تخريبهم لميناء جنوة . كذلك
تحالف مع قسطنطين السابع أمبراطور الدولة البيزنطية الذي كان يرغب في
استعادة جزيرة صقلية من حوزة الفاطميين . وهنأ تشييد المصادر الاندلسية
بالاحتفالات الفخمة والحفاوة البالغة التي استقبل بها الناصر رسل الروم
في سنتي ٣٤٤ هـ (٩٤٥ م) ، ٣٣٨ هـ (٩٥٠ م)^(١) أما المصادر الاسماعيلية
فإنها تؤكد وجود اتفاق حربي مشترك بين الامويين والبيزنطيين على حصار

١٥ راجع ابن عذاري : البيان المغرب ٢ ص ٣١٩ — ٣٢٢ وكذلك مقالنا عن
سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ، (المراجع السابق)

الفاطميين : هؤلاء من المغرب ، وأما من الشرق ، وفي ذلك يقول
القاضي النعمان :

« وكتب (الناصر) إلى طاغية الروم يسأله النصرة ، وأهدى إليه هدايا
وأرسل إليه رسلا من قبله فأجابه إلى ذلك . وجاءت أساطيل الروم من
القسطنطينية ، ومراكب بنى أمية من الأندلس . »

والواقع أننا لانستطيع الحكم على مثل هذا التواطؤ الحربي المشترك
لأسباب وأن المصادر الأندلسية لم تشرح لنا تفاصيل تلك المعاهدات التي
أبرمت بين الناصر والبيزنطيين . وأغلب الظن أنها كانت على غرار
المحالقات السابقة التي أبرمت بين الأمير عبد الرحمن الثاني والامبراطور
تيوفيل ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) وهي تقوم على ترك الحرية للبيزنطيين في قتال
أعداء الدولة الأموية ولكن دون الارتباط معهم في عمل حربي مشترك (٢)

كذلك حرص الناصر على توطيد علاقاته مع الاخشيديين ملوك
مصر ، فأرسل اليهم عشرة الاف ديناراً لتوزيعها على علماء المذهب المالكي
لمحاربة الدعاية الشيعية هناك . وجدير بالذكر أن رئيس المدرسة المالكية
في مصر في ذلك الوقت كان غالما أندلسياً اسمه أبو اسحاق محمد بن القاسم
يعرف بابن القرطبي ، وكان هذا الفقيه يذم الفاطميين ويسبهم ويدعو

(١) راجع النعمان : المجالس والمسيرات - ١ ص ٢٢٦ . - ابن ابراهيم وطه شرف

المعز لدين الله ص ٤٠]

(٢) راجع Lévi-Provençal : Histoire de l'Espagne

musulmane, II P. 144-145

على نفسه بالموث قبل مجيء دولتهم وقد توفي فعلا في سنة ٣٥٥ هـ أى قبل الغزو الفاطمى لمصر بنحو ثلاث سنوات (١)

على أن النزاع بين الفاطميين والامويين لم يقتصر على هذه الحرب الباردة القائمة على التسابق فى السلاح ، واحتلال المواقع الهامة واثارة الفتن بين قبائل البربر ، وتغيير المؤامرات من وراء ستار ، بل تطور الأمر إلى اشتباك مسلح بينهما . وقد أعطانا ابن الاثير وصفا لبدية هذا الاشتباك بقوله :-

وفى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) أنشأ عبد الرحمن الناصر الاموى ، صاحب الاندلس ، مركبا كبيرا لم يعمل مثله ، وسير فيه أمتعة إلى بلاد المشرق فلقى فى البحر مركبا فيه رسول من صقلية إلى المعز لدين الله الفاطمى فقطع عليه أهل المركب الاندلسى ، وأخذوا ما فيه ، وأخذوا الكتب التى إلى الماز ، وبلغ ذلك المعز فعمر أسطولا واستعمل عليه الحسن بن على صاحب صقلية ، وسيره إلى الاندلس فوصلوا الى المرية فدخلوا المرسى وأحرقوا جميع ما فيه من المراكب ، وأخذوا ذلك المركب ، وكان قد أتى من الاسكندرية ، وفيه أمتعة لعباد الرحمن وجوار ومغنيات وصعد من فى الاسطول الى البر فقتلوا ونهبوا ، ورجعوا سالمين إلى المهديّة (٢)

واضح من هذا النص السابق ، أن السبب الاساسى للاشتباك المسلح بين الدولتين ، هو تلك الرسائل التى كان قد بعث بها والى الفاطميين

(١) عمود مكى : انتشار فى الاندلس (المرجع السابق) ابن قرقون : الديباج

المذهب ص ٢٤٨

(٢) راجع (ميشيل أمارى . المكتبة العربية الصقلية ص ٣١٢)

بصفيلة الى الخليفة المعز بالمهدية . وقد رجح دوزى أن تكون هذه الرسائل تتعلق بمشروع هجوم فاطمى على الأندلس ، وأن قائد السفينة الأندلسية كان على علم بخطورتها ولهذا لم يتردد فى الاستيلاء عليها (١).

ولقد كان رد الناصر على هذا الاعتداء ، أن أمر عماله بإطلاق اللعن على ملوك الشيعة بجميع منابر الأندلس ، كما أمر بملوكه غالب بن هبذ الرحمن الناصرى بالإبحار فوراً والإغارة على سواحل الفاطميين فى إفريقية . (٢) إلا أنه يبدو أن القائد غالب لم يوفق كثيراً فى هذه الغارة ، إذ يقول ابن الإثير فى هذا الصدد :

« فنزلوا ونهبوا ، ثم قصدتهم عساكر المعز ، فعادوا إلى مراكبهم ، ورجعوا إلى الأندلس وقد قتلوا وقتل منهم ، (٣) على أن القائد غالب لم يتردد فى معاودة الكرة فى السنة التالية (٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م) ، فهاجم بأسطول من سبعين سفينة ، مدينة الحزر - حالياً La Calle - ، وكانت كما يقول البكرى ، قاعدة بحرية تبنى فيها المراكب الحربية (٤) ، فأضرم النار فيها ، كما خرب منطقة سوسة وطبرقة شرقى بنزرت . (٥)

هذا ، ويعطينا ابن عذارى وصفاً طريفاً يصور لنا بروز إحدى هذه الحملات الموجهة ضد الفاطميين ، من العاصمة قرطبة ، ومدى الحماس

(١) انظر Dozy : Hist. des Musulmans D'Espagne II, p. 165

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ٢ ص ٣٣٠

(٣) أمارى : نفس المرجع السابق ص ٣١٢

(٤) البكرى : نفس المرجع ص ٥٥

(٥) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٢٣٨

والمرج الذى انتاب الاهالى والجنود خلال هذا الاحتفال الشعبي ،
ومثال ذلك قوله :-

« وفى سنة ٣٤٧ هـ ، فى أول المحرم ، أمر الناصر صاحب الشرطة
القائد أحمد بن يعلى بالخروج غازيا فى الاسطول الى بلد الشيعى معمد
ابن اسماعيل (المعز) صاحب أفريقية . فبرز ابن يعلى الى محلة الربض لغزاته
هذه ، يوم الخميس لثمان خلون منه ، وكان بروزه فمخا خرج اليه من
النظارة من أهل قرطبة رجالهم ونساؤهم وأبنائهم وولداتهم ، خلق لا يحصيهم
الا خالقهم ، فانتشروا بأكناف الربض على عادتهم ، فأخذ السفلة منهم
والغوغاء ، يتقاذفون بالحجارة حاكين صفى القتال ، فدخل فى عرضهم
قوم من الطنجيين من جنود السلطان ، حشروا الضراب حتى حمى وطيسه ،
وقد تكنف صفيهم من النظارة بالرجال والنساء خلق عظيم فلم يك إلا
ساعة ، ودارت بينهم جولة ظهر فيها أحمد صفيهم ، فمالوا على مغلوبهم
وأنبسطوا عليهم فامتد الطنجيون بغالب شرهم وجهامهم إلى نهب مغلوبهم
من الرجال ، وتخطوهم إلى من حرلهم من النظارة ، وانبسطوا على النساء
فسلبوهن ثيابهن ... وشرح ذلك بطول (١)

واستمرت الغارات والاشتباكات البحرية متبادلة بين الطرفين دون
توقف تقريبا فيما تلا ذلك من سنين ، كما استمر الامويون فى إثارة البربر
عند الفاطميين عن طريق قواعدهم العسكرية وجالياتهم الاندلسية على
الساحل المغربى .

(١) راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ٢٠ ص ٣٣١ — ٣٣٢)

واضططر الخليفة الممّر الفاطمي في سنة ٣٤٧هـ (٩٥٨م) أن يبعث قائده جوهر الصقلي أو الصقلي إلى المغرب الأنصلي لاختضاع البربر لسلطان الفاطميين والقضاء على النفوذ الأموي بالمغرب ونجح جوهر في إخضاع البربر ^(١) ولكنه لم يستطع القضاء على القواعد الأموية الساحلية التي حرص الأمويون على التمسك بها والدفاع عنها ، وفي ذلك يقول ابن عذاري :

وفي سنة ٣٤٨هـ ، أوصل الناصر إلى نفسه حريز بن منذر في جماعة من وجوه الموالي والعرفاء ورجال الجند ، يأمرهم جميعاً بالخروج إلى مدينة سبتة من أرض العدو مع بدر الفتي الكبير صاحب الميف ، لتنفيذ العدد فيها من أجل جولان جوهر ، قائد معد الشيعة صاحب القيروان بأرض العدو ، فنفذوا لأمره ومكثوا لذلك إلى أن أمنت الحادثة ، فانصرفوا مع القائد بدر ، آخر ذي الحجة من السنة ^(٢)

ثم توفي الخليفة الناصر ، وخلفه ابنه الحكم الثاني المستنصر بالله (٣٥٠ - ٣٦٦هـ = ٩٦١ - ٩٧٦م) الذي سار على سياسة والده العدائية نحو الفاطميين . فيروي ابن عذاري أنه في سنة ٣٥٣هـ تحرك الحكم بنفسه من قرطبة إلى ثغر المرية ترفعا لما يصدر من صاحب أفريقية المحاذي لاهل الأندلس ، ولماينة ما استكملها بها من الحصانة ، ومطالمة رابطة القبطة - حاليا Gabo De Gata ومشاركة حال الرعايا بتلك الجهة. ^(٣)

(١) مفاخر البربر ، ژاب مجهول ص ٦

(٢) ابن عذاري : فتي المرجع ص ٢٠٣

(٣) ابن عذاري نفس المرجع ص ٢٠٣-٣٥٣

ومن هذا كله . يبدو أن الفاطميين شعروا باستحالة غزو الأندلس، كما شعروا أن بقائهم بالمغرب أمر مخوف بالمخاطر أمام وثبات البربر وتغلباتهم ، وأمام غارات الامويين ودسائسهم ، ولعل هذا هو السبب الحقيقي الذي جعلهم يهيمون على إخلاء هذا الميدان والتحول إلى مصر. (١)

وفي عام ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) ، تمكن القائد جوهر من الاستيلاء على مصر وتأسيس العاصمة الجديدة القاهرة . وهذا الغزو يعتبر فريداً في نوعه ، إذ لم يسبق أن فتحت مصر من حدودها الغربية إلا في أيام الفراعنة ، حينما غزاها الليبيون أيام الاسرتين ٢٢ ، ٢٣ . ثم لحق الخليفة المعز بقائده جوهر في مصر سنة ٣٦٢ هـ تاركاً حكم المغرب في يد حلفائه بني زيري زعماء صنهاجة .

واستمرت السيادة الفاطمية والاموية في المغرب قائمة على مبدأ المنافسة بين قبائل صنهاجة وزناتة وضرب بعضها ببعض . وأخيراً تمكنت صنهاجة ، أو بمعنى آخر الدولة الزيرية ، من بسط سيطرتها باسم "فاطميين على جميع النصف الشرقي من المغرب ، أما القسم الغربي من نهر ملوية إلى طنجة ، فقد سيطرت عليه زناتة وحلفاؤها الامويون .

وهكذا حدث نوع من توازن القوى بين الخلافتين المتنازعتين وحلفائهما في المغرب ، وبالتالي خفت وطأة الشيعة على المغرب الأقصى والأندلس (٢).

(١) راجع كتاب سيرة الأستاذ جوذر ص ١٠٧ ، ١٢٣ حيث ترد بعض الرسائل التي كتبها الحليفة المعز إلى مولاه جوذر والتي يشير فيها إلى انتاعب التي يلاقيها الأئمة الفاطميون في حكمهم للمغرب .

(٢) انظر (A.Julien: Histoire de L'Afrique du Nord p' 68)

على أن ابتعاد الخلافتين عن بعضها ، لم يحل دون استمرار العداء بينهما ولا أدل على ذلك من الخطب الذي أرسله الخليفة العزيز بالله الفاطمي الى خليفة الاندلس الحكم المستنصر يهجو فيه ، وقد رد عليه الخليفة الأموي بعبارة موجزة حاسمة ، وقد عرفتنا فبهجوتنا ولو عرفناك لاجبتناك ،^(١) وفي هذا إشارة إلى العطن في نسبه

كذلك يروي ابن حجر العسقلاني أن رجلا أندلسيا حاول اغتيال قاضي قضاة مصر الحسين بن علي الفاطمي أثناء تأديته الصلاة في أحد مساجد القاهرة سنة ٣٩١ هـ وأنه منذ ذلك الوقت أضطر القضاة إلى اتخاذ حرس خاص أثناء الصلاة .^(٢)

هذا ولم يتردد الأمويون في إظهار نواياهم وأطماعهم في الاستيلاء على ملك الفاطميين في مصر والشام . ونجد ذلك واضحا في شعر حاجبهم المنصور بن أبي عامر على عهد الخليفة هشام المؤيد مثل قوله :

عن قريب ترى خيول هشام يُبلغ النيل خطوها والشأما^(٣)
ومن الغريب أن ما تنبأ به المنصور من شعر هنا ، قد كاد أن يتحقق فعلا بعد وفاته بقليل . إذ يروي المؤرخون أنه في عام ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) ،

(١) الثعالبي : بئيمة الدهر - ١ ص ٢٥٥

(٢) ابن حجر العسقلاني : رفع الأمر عن قضاة مصر (في آخر كتاب السكدي الولاية والقضاة ص ٥٩٦)

(٣) المفري : فتح الطيب ١ ص ٣٨٢

قامت في إفليم برقة ثورة سنية خطيرة ضد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي ، قام بها أحد أفراد البيت الأموي ، ويسمى الوليد بن هشام من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل ، ويلقب بأبي ركرة . وكان قد خرج من الأندلس مظهرا النصف ، واشتغل بتعليم الصبيان ، ولما قوى أمره دعا هلى الماهر باسم الخليفة الأندلسي هشام المزيدي ، وكان يلحق الحاكم بأمر الله وآبائه ، واستولى على برقة ، وانتصر على الجيوش التي وجهها اليه الحاكم ، واستطاع في سنة ٢٩٧ هـ (١٠٠٧ م) ، أن يطارد الجيوش الفاطمية حتى أهرام الجيزة ، ولكنه انهزم أخيرا وأسر ، وهرضه الحاكم في شوارع القاهرة عرضا مزريا ، إذ جعل وراءه فردا يصفعه على رأسه ثم قتله وصلبه . (١)

على أنه يبدو أن هذه الثورة الأموية السنية، وإن كانت قد فشلت في القضاء عن دولة الفاطميين في مصر . إلا أنها قد تركت أمرا سنية معادية للفواطم في مناطق نفوذهم بالمغرب الأدنى . ويظهر ذلك جليا في سياسة المعز بن باديس الصنهاجي . ملك الدولة الزيرية ، حينما فتك بالشيمة في ولايته سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) . ويقال في تعليل ذلك إن المعز وقع تحت تأثير استاذ سني المذهب كان قد تولى تربيته منذ صغره (٢) .

(١) الفريزي: انماظ العنفا ص ٣٠٥

(٢) انظر (A. Julién : Op. cit. p. 69)

ويروى ابن الاثير ، أن المعز بن باديس كان ماشيا مع القيروان والناس يدعون له ، فاجتاز بجماعة هناك ، فقبل له هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر ، فقال المعز : رضى الله عن أبي بكر وعمر ، فانصرفت العامة من فورها إلى درب المقل بالقيروان ، وهو مكان يجتمع به الشيعة فقتلوا فيهم ثم انتشرت المذابح في أنحاء الدولة الزيرية . وكانت الشيعة تسمى في المغرب بالمشاركة نسبة الى عبد الله الشيعي الداعي الذي يعرف أيضا بالشرقي لأنه جاء من المشرق . (١)

ولم يقتصر أمير أفريقية على اضطهاد الشيعة بل أخذ يحمل الناس على إعتناق المذهب المالكي وترك مادونه من المذاهب الأخرى حتى يتم له بذلك الانفصال الروحي أو المذهبي عن الدولة الفاطمية في مصر (٢) وهكذا نرى مما تقدم ، أن النزاع بين هاتين الخلافتين ، كان نزاعا مذهبيا هنيئا يتعذر حله ، ولا يرجى صلاحه ، ولهذا استمر قائما بينهما الى أواخر أيامها .

(١) أثير الاثير : السكامل ٩ ص ١٠٠ - ١٠٥ وانظر المني الخاص للنظ تهرقي في المغرب تعليق حنين مؤنس على رياض النفوس للمالكى ص ١٠٩ حاشية ٣
(٢) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٥٣ - ٢٥٤ (القسم الخاص بأسبانيا)
هذا ومن المعروف أن الدولة الزيرية قد انفصلت نهائيا عن الدولة الفاطمية وقطعت الخطبة للخليفة المنتصر بالله الفاطمي ودعمت لخليفة بغداد القائم بأمر الله العباسي سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م)

راجع مقالنا عن سياسة الأاطميين نحو المغرب والأندلس (المراجع السابق ص ١٢٨)

نهاية الخلافة الاموية بالاندلس

استمرت الخلافة الاموية في الاندلس تجمع بين السلطين الزمنية والروحية ، إلى أن جاء الحاجب المنصور بن أبي عامر وبنائه من بعده ، فأنزعوا منها السلطة الزمنية على عهد الخليفة الاموي هشام المؤيد . واستبدوا بالامر على الخليفة الشرعي فكان مثلهم في ذلك مثل البويهيين والسلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية في بغداد ومثل أسرة بدر الجمالي التي سيطرت على الخلافة الفاطمية في القاهرة .

ولا شك أن هذا الفصل بين السلطين الزمنية والروحية ، كان مقدمة لنهاية الخلافة الاموية بالاندلس ، لاسيما بعد أن طمع عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر ^(١) فيها لم يطمع فيه أبوه المنصور ولا أخوه عبد الملك المظفر من قبل .

ذلك أنه طمع فيما بقي للخليفة الاموي من سلطة روحية وأراد أن يستأثر لنفسه بالسلطة الشرعية في الدولة أى بالخلافة نفسها ، وكان الخليفة هشام رجلا طيبا لا يرد طلبا فيتقدم اليه عبد الرحمن بأن يعهد اليه بولاية العهد . فوافق هشام وكذب عهدا بذلك مضمونه أن الخليفة لم يجد من هو أصالح لولاية العهد بعده من هذا الفحطاني عبد الرحمن . وقد هز هذا

(١) يعرف في المراجع العربية باسم شجنول أى Sanchuelo سانشويلو ، وهو تصغير للفظ سانشو وهو اسم جده لأنه Sancho Garcés II Abarca . وكان المنصور بن أبي عامر قد تزوج ابنته التي اعتنقت الاسلام وتسمت باسم عبده ، وانجب منها المنصور عبد الرحمن هذا الذي أطلق عليه أمه اسم سانشويلو أى سانشو الصغير ذكرى لابنها وكان هذا الشاب أحما طائشا كما يدل على ذلك مصرفة .

الحادث الدولة الاموية هذا عنيقا ، وعز على المضربين أن ينتقل العرش إلى اليمانيين (١) وأن تبعد الخلافة عن قرش فانبعثت للعصبية السرية ، وانتهر الامويون والمضربون فرصة غياب عبد الرحمن العامري في الشمال وقاموا بحركة قوية فخلعوا هشاما عن العرش ، رولوا رجلا من احقاد الناصر ، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر واقبوه المهدي بالله .

ولما بلغت الاخبار عبد الرحمن ، رجع من الشمال وكان كلما اقرب من قرطبة انفض عنه جماعة من جيشه حتى صار في قلة من أصحابه ، فاعترضه من خصومه معترض فقبض عليه وحز رأسه وحمله للمهدي وجماعته . وبموته انتهت دولة بني عامر سنة ٢٩٩ هـ . ويلاحظ أن نهاية هذه الدولة يدل على تعاق الناس بالخلافة ، وحرصهم على أن تكون من قرش (٢)

والفترة الباقية من العصر الاموي بالاندلس ، مليئة بالفتن والاضطرابات تصارع فيها العناصر المختلفة في الدولة كالبربر والصقالبة وأهل قرطبة . ويكفي للدلالة على مدى انقسام الدولة واضطرابها في هذه الفترة الاخيرة أن عدد الخلفاء الامويين الذين حكموا فيها كان يزيد على عدد الخلفاء الذين حكموا قبلهم منذ بداية الدولة الاموية في الاندلس .

وفي سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) سقطت الدولة الاموية بعد عزل آخر خلفائها هشام الثالث المعتمد بالله وإجلاء من تبقى من الروانية عن

(١) كان الدامريون من أسرة عربية تنتمي الى قبيلة معافر الميعنية ، وأنهم كانوا من أوائل الذين دخلوا الاندلس صحبة طارق بن زياد .

(٢) واجع (عبد الحميد المبادئ : المجلد في تاريخ الاندلس من ١٥٤)

قرطبة وفي ذلك يقول ابن الخطيب: ومشي البريد في الاسواق والاربابض بأن لا يمتنى أحد بقرطبة من بنى أمية، ولا يكتفهم أحد^(١). ثم أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور انتهاء رسم الخلافة جملة لعدم وجود من يستحقها وصيرورة الامر شورى بأيدي الوزراء وصفوة الزعماء أو ما أسماه بالجماعة. وهكذا تحول الحكم في قرطبة إلى نظام شبيه بالحكم الجمهوري عرف في كتب التاريخ بحكم الجماعة^(٢).

تعدد الخلافة في عصر دول الطوائف

نتج عن سقوط الدولة الأموية أن انقسمت الأندلس إلى دويلات صغيرة متنازعة، واستقل كل أمير بذاتيته، وأعلن نفسه ملكا عليها فدخلت البلاد بذلك في عصر جديد هو عصر ملوك الطوائف، أو عصر الفرق كما يسميه ابن الكردبوس^(٣).

ولقد انضوت هذه الدويلات الطائفية تحت لواء ثلاثة أحزاب كبيرة عمل كل منها على بسط سلطانه على الأندلس:

الحزب الاول: ويمثله أهل الأندلس، وهم أهل البلاد الذين استقروا فيها من قديم والذين تأسسوا أو انصهروا في البوثة الاسبانية بمرور الزمن وصاروا أندلسيين، بغض النظر عن أصلهم العربي أو المغربي أو الصقلي أو الاسباني المسيحي وقد عرف هؤلاء بأهل الجماعة:

(١)، (٢) راجع (ابن الخطيب: أعمال الأعلام — القسم الخامس باسبانيا — ص ١٣٩ وما بعدها).

(٣) المرجع السابق، هذا ويبرأين سعيد المغربي إلى أن بعض هؤلاء الملوك خطب الخلفاء المروانيين وإن لم يبق لهم خلافة وأن بعضا آخر خطب الخلفاء الباسيين المجمع على امامتهم راجع (المقري: فتح الطيب ص ١٨٨).

وكان من زعمائهم بنو عباد النخعيون^(١) في إشبيلية وبنو جهود في قرطبة وبنو هود الجذاميون في الثغر الأعلى سرقسطة ، وبنو صبادح أو بنو تيجيب في المرية ، وبنو برزال في قرمونة ، وبنو خزرون في أركش ، وبنو نوح في مورور Moron وعبد العزيز بن أبي عامر في بلنسية^(٢) . . الخ

أما الحزب الثاني فيمثله المغاربة أو البربر الحديثو اتعهد بالاندلس ولا سيما الصنهاجة الذين استقروا بها في أيام المنصور بن أبي عامر . ومن زعماء هذا الحزب بنو زيري الصنهاجيون في غرناطة وهم فرع من بني زيري حكام الدولة الزيرية في إفريقية على عهد الفاطميين ، وكذلك بنو هود الادارسة النخعيون العلويون ، وهم من سلالة الامير أبي حفص عمر بن إدريس الثاني الذي كان يحكم بلاد غبارة في شمال المغرب على شاطئ البحر المتوسط . و خلال الفترة التي عمت الاندلس عقب سقوط الخلافة الأموية انتدز أمير من سلالة الامير أبي حفص عمر وهو د علي بن هود ، وكان واليا على طنجة وسبتة ، فاستولى على مالقة ثم تقدم إلى قرطبة وقتل صاحبها الخليفة الاموي سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن والملقب بالمستعين ، وذلك سنة ٤٠٧ هـ وأسس دولة الحموديين التي كانت

(١) يقول ابن خالكان إن ملوك بني عباد يتسبون إلى الزمان من المنذر النخعي آخر ملوك الحيرة وأول من هاجر إلى الاندلس من أجدادهم هو نعيم وإبنة عطا ف وكانت في الاصل من اهل بلدة العريش المصرية ثم انتقلوا إلى الاندلس حيث استوطنوا إشبيلية .

راجع (ابن خالكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١١٢ وما بعدها طبعة محي الدين عبد الحميد

(٢) راجع (Henri Pérès : La poesie andalouse en arabe)

classique aux XI siècle p. 9 (Paris 1953).

قاعدتها مالقة (١) ويلاحظ أن هؤلاء الحموديين كانوا يحكم استقرارهم بين البربر في المغرب مدة طويلة قد صاروا منهم يتكلمون بلسانهم البربري ومثال ذلك ما يرويه ابن الخطيب من أن علي بن حمود السالف الذكر كان بربري اللسان وأنه حينما قتل سليمان المستعين قال : لا يقتل الزلطان إلا الزلطان . (٢)

أما الحزب الثالث فيمثلته كبار الصقالبة الذين استقلوا بشرق الاندلس Levante وهؤلاء الصقالبة كانوا في الاصل رقيقا أو عبيدا من سبي الشعوب السلافية الذين بيعوا إلى عرب الاندلس ، ولذا أطلق العرب عليهم اسم الصقالبة ثم توسع الاندلسيون في استعمال هذا الاسم ، وأطلقوه على مواليتهم الذين جلبوا من مختلف البلاد الأوروبية بما في ذلك شمال أسبانيا المسيحية . وجاء أغلب هؤلاء الصقالبة أطفالا من الجنسين إلى قرطبة حيث ربى الذكور منهم تربية عسكرية اسلامية واستخدموا في أعمال القصر والحرس والجيش ثم تدرجوا في الرقي حتى صار منهم الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة الاموية ، كما برز منهم الادباء والشعراء وأصحاب المكتبات الكبيرة والضياع الواسعة .

(١) راجع (محمد الفاسي . الشريف الادريسي . المدونان ، المجلد الاول ١٩٥٢)
كذلك راجع (Louis Seco' de Lucena : Los Hammudies Sénorés
de Malagá y Algeearas p.11-21)

(٢) أرى السلطان راجع (ابن الخطيب . الاطاعة بأخبار غرناطة لوح ، ٣٦٥) نسخة
الاسلوريال . اعمال الاعلام ١٤٨ — ١٤٩ القدم الخامس باسبانيا نعر ليفي يروفسال)

وفي أثناء اضمحلال الخلافة الأموية ، شارك هؤلاء الصقالبة في المؤامرات التي قامت في قرطبة ومراكز البلاد وتزعمهم خيران العامري ورئيس حوز الصقالبة في العاصمة . وبعد سقوط الدولة الأموية ، تكونت من هذا الحزب الدويلات الإسلامية الصغيرة التي قامت في شرق الأندلس ، والتي كانت تجمعها راب تحالف وتسمى بالدولة العامرية الصقلبية ، لأن أصحابها كانوا من بماليك المنصور بن أبي طاهر وأبنائه . ومن كبار زعماء الصقالبة الذين برزوا في هذه المنطقة نذكر مجاهد العامري الذي استقل بدانية ثم استولى على الجزر الشرقية (البليار) وغزا جزيرة سردينيا وسواحل إيطاليا وسيطرت أساطيله على غربي حوض البحر المتوسط (١)

ولقد حاول كل فريق من هذه الأحزاب السابقة أن يحيط ملكة بسية شرعي روصي ليستمد منه سلطانه وذلك بإقامة خليفة بجواره .

فبنو عباد باعتبارهم أقوى ملوك الحزب الأول ، جاءوا بشخص فقه يسمى خلف الحصري ، كان يعمل حصريا في مصنع للحلفا ، وكان شدة الشبه بالخليفة الأموي هشام المؤيد المشكوك في موته ، فأقاموه خليفة : أنه هشام صاحب الجماعة وموهوبا به على الناس زمنا إلى أن أظهر مو المعتضد بن عباد ولعاه إلى رعيته سنة ٤٥٥ هـ واستظهر بعهد هذه له الخليفة هشام المزعوم بأنه الأمير بعده على جزيرة الأندلس . (٢)

(١) أحمد مختار العبادي: الصقالبة في أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية (مديرية س ٩٥٣

وكذلك ركلينا سارنلي : مجاهد العامري (القاهرة ١٩٦١)

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام (القسم الخامس بالأندلس) س ١٧٩ - ١٨٠ هـ : عبد الوار

الراكهي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٩٦ نقر سميد المريان ومحمد العربي العلوي

ابن خلدكان : وفيات الأعيان ص ٤٠ س ١١٣ .

أما الحزب المغربي في الأندلس ، فقد تزعمته خلافة بني حمود مستندة إلى أصلها العلوي الشريف . ولاشك أن تاريخ الإدارة الطويل بالمغرب قد أكسبهم زعامة روحية بين المغاربة حتى صار الخليفة الحمودي يعرف بصاحب البربر ، وهو يقابل صاحب الجماعة في الحزب الأول . على أن نفوذ بني حمود في الأندلس وإن كان قد امتد إلى قرطبة فترة قصيرة من الوقت ، إلا أنه كان قاصرا على منطقة مالقة والجزيرة الخضراء أي في الجزء الجنوبي من الأندلس المجاور لممتلكاتهم في شمال المغرب ، ولم يلبث بنو حمود أن انقسموا على أنفسهم ، وصار كل واحد فيهم يدعى الخلافة لنفسه ويلقب نفسه بلقب خلافي مثل المهدي والعالی والمستعلی والسامی والتأييد . (١)

ولم يلبث نفوذ بني حمود أن انتهى في الأندلس بأن استولى بنو زيري ملوك غرناطة على مالقة ، كما استولى بنو عباد على الجزيرة الخضراء فانهى بذلك ملك الحموديين الذين عادوا ثانية إلى مقرهم الأصلي في العدة المغربية .

أما الفريق الثالث وهو الحزب الصقلي ، فقد حاول بعض ملوكه كذلك إحياء الخلافة في مملكته ، ونذكر على سبيل المثال أبا الجيش بجاهد العامري الصقلي الذي أقام في مملكته بدانية والجزر الشرقية ، خليفة قرشيا من أشراف قرطبة ينتسب إلى الأمويين وهو الفقيه أبو عبد الله بن الوليد المميطي ، ولقبه بالمنتصر بالله ، وأثبت اسمه في سكتته وأعلامه سنة ٤٠٥ هـ . ولكنه

(١) عبد الواحد المراكشي ؛ المعجب ص ٦٣ - ٦٨ ، ابن الخطيب أعمال الأملام ص ٩٤

وكذلك (Louis Seco de Lucena : Op. cit. p.14 & Henri)

Peres : Op. cit p. 10)

سرعان ما عزله وطرده من مملكته عندما علم بأنه قد تأمر ضده أثناء غيابه في غزو جزيرة سردانيا . وقد لجأ المعيطى الى مدينة بجاية بالمغرب الاوسط حيث اشتغل معلما لصبيان البربر الى أن مات سنة ٤٣٢ هـ (١)

وهكذا نجد أن الخلافة في الأندلس قد تعددت بتعدد ملوك الطوائف واصطدمت مصالحها لقرب المسافات بينها ، وهذا يعتبر مظهرا من مظاهر الفوضى وهاملا من عوامل الفتنة في تلك الفترة . وعلى الرغم من أن أئمة المسلمين كانوا قد أجازوا تعدد الخلافة للضرورة والمصلحة وهى إتساع رقعة الاسلام وتباعد أطرافه وصعوبة المواصلات فيه ، إلا أنهم اشتراطوا في ذلك وجود مسافة كبيرة بين الخليفة والآخر منعا للتصادم والتشاحن ، ولحماية المسلمين من شرور الفتنة ، ولكننا نرى أن الأندلس في هذه الفترة قد خرجت عن هذا الأصل الشرعى لأنها أجازت العقد لخلفاء هديدين في صقع متضايق الاقطار ، فتكبدت بذلك وزر هذا العمل من فتنة واضطراب ، ولعل خير تعقيب على ذلك قول أبى محمد بن حزم في هذا الصدد : واجتمع عندنا بالأندلس في صقع واحد خلفاء أربعة كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بموضعه ، وتلك فضيحة لم ير مثلا ، أربعة رجال في مسافة

راجع (ابن الخطيب . أعمال الاعلام من ٢٠٢ - ٢٥٣ نحو مختار العبادى الصفاية في اسبانيا (مدريد ١٩٥٣) راجع كذلك .

(F. Codera : Mochehid Conquistador de Cerdéna,
Centenario della Nascita di Michele Amari, Vol. II
p. 115-133, Palermo 1910) .

ثلاثة أيام كلهم يسمى بالخلافة وامارة المؤمنين وهم : خلف الحصرى بأشبيلية
 هلى أنه هشام من بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام وشهد
 له خصيان ونسوان ، فخطب له هلى منابر الاندلس وسفكت الدماء من
 أجله . ومحمد بن القاسم خليفة بالجزيرة الخضراء ، ومحمد بن إدريس
 خليفة بمالقة وادريس بن يحيى بن على ببشتر^(١).

ومن الغريب أن معظم هؤلاء الملوك الطائفين قد عهدوا إلى تقليد
 الخلفاء العباسيين والفاطميين في حياتهم وفي القابهم وعرثهم الخلافة وفي ذلك
 يقول الشاعر أبو الحسن بن رشيق القيرواني .

ما يزهدي في أرض الاندلس أسماء معتمد فيها ومعتمد
 القاب ملكة في غير موضعها كالمحكي انتفاخا صورة الأسد^(٢)

هذا وقد بلغ من أمر تقليد هؤلاء الملوك لخلفاء الشرق أن بنى حمود
 الادراة في مالقة، كانوا إذا حضرهم شاعر أو زائر كان عليه أن يتكلم
 معهم من وراء حجاب أوستر ، والحاجب واقف عند الستر يجاورب
 بما يقوله الخليفة .

(١) راجع ابن الخطيب . اعمال الاعلام ص ١٤٢ — ١٤٣ كذلك بروى عبد الواحد
 الراكشى . (المعجب ص ٦٣ — ٦٨) مثل هذه العبارة الساخرة بقوله .
 وصار الامر في غاية الاخلاق (الاضحكة) والاضحية . أربعة كلهم يقدمى بأمر المؤمنين
 في رقعة من الارض مقدارها ثلاثون فرسخا في مثلها .

(٢) القرى : نفع الطيب ج ١ ص ١٩٨ ابن الخطيب : المرجع السابق ص ٤١ .

فبروى في هذا الصدد أنه لما حضر الشاعر ابن مقان الإشبوني أمام
الخليفة لإدريس بن يحيى الحمودى وأنشده قصيدته الثنوية التي مطلعها :
وكان الشمس لما أشرقت فانفتحت عنها عيون الناظرين
وجه لإدريس بن يحيى بن هلى ابن حمود أمير المؤمنين
إلى أن قال : أنظرونا نقبس من نوركم
لأنه من نور رب العالمين

عندئذ رفع الخليفة الحمودى الستر بنفسه وقال : انظر كيف شئت
وانبسط مع الشاعر (١)

وهذا الحادث يرينا مدى الروح الديمقراطية التي ظلت تسود حكام
الغرب الاسلامى رغم هذه القداصة المصطنعة التي حاولوا تقليد المشرق فيها .

الرابطون والخلافة العباسية :

وبينما كانت الأندلس تعاني من هذا التفكك السياسى والاجتماعى تحت
حكم ملوك الطوائف ، إذا بالمغرب يتمتع بوحدة سياسية ودينية قوية
في ظل دولة المرابطيين وزعيمها ابن يعقوب يوسف بن تاشفين المستوفى
الصنهاجى (٢) :

(١) راجع [المقرئ فتح الطيب ١ ص ١٩٩ - ٢٠٠ ابن الأبار الحلة السراء ٢ ص ٢٨

(٢) عن نشأة هذه الدولة راجع مقالنا [الصفحات الأولى من تاريخ المرابطيين . مجلة

كلية الاداب جامعة الاسكندرية ١٩٦٧]

ولاشك أن تاريخ بلاد العدوتين المغربية والأندلسية ، الذى هو وليد جغرافيتها ، يجعلنا ندرك تماما بأن هذه التوة المراقبة الفتية الطدوحة ماكانت لتقف وجها لوجه أمام الأندلس مكتوفة الأيدى عند هذا الحد الشمالى للغرب ، لأن منطق الأحداث التاريخية ، من قبل ومن بعد ، كان يفرض عليها الانتشار والتوسع فى العسدة الأندلسية المقابلة ، خصوصا بعد أن امتلك المرباطون ثغور المراز المغربية مثل سبتة وطنجة ومليلة . وقد يؤيد هذا الكلام تلك القصة التى أوردها صاحب المعجب عن مخاوف الأندلسيين من هذا الغزو المرباطى منذ أن بدأت طلائعه تخرج من صحراء شنجيت (موريتانيا الحالية) وتتدفق نحو المغرب الأقصى (١) . إلا أنه يبدو أن الظروف السياسية قد خدمت المرباطين فى هذه الناحية ، فجعلت الأندلس تحت ضغط الغزو المسيحى من الشمال هى الساقية فى طلب المعونة من المغرب قبل أن تفرض عليها فرضا . وقد روى فى هذا الصدد أن المعتمد بن هباد حينما عزم على الاستنجد بالمرباطين قال جملته المشهورة التى عبرت عن شعور المسلمين فى ذلك العصر : « رعى الجمال عندى خير من رعى الخنازير » ، وهذا التصریح الجليل يدل بوضوح على أن المعتمد كان يعلم تماما بأن ملكه ضائع سواء على يد المرباطين فى الجنوب أو الأسبان فى الشمال ، إلا أنه كان يفضل السيادة الإسلامية بطبيعة الحال .

(١) راجع (عبد الواحد المراكش : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٠٠ - ١٠١ ، أحمد مختار العبادى : دراسة حول كتاب الحلال الموشية بحملة تطران العدد الخامس ١٩٦٠)

ثم عبر المرابطون الأندلس وانتصروا على ملك أسبانيا الفونسو السادس في وقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م). ثم أعقبوا هذا الانتصار بالاستيلاء على الأندلس، وخلع ملوك الطوائف بعد أن ثبت تخاذلهم وتواطؤ بعضهم مع العدو، وبذلك أصبح هذان القطران (المغرب والأندلس) -، يكوanan دولة واحدة قوية عاصمتها مدينة مراكش. وعلى الرغم من ضخامة هذه المملكة المغربية فإن المرابطين لم يحاولوا تلقيب أنفسهم بأقب خليفة أو أمير المؤمنين بل اكتفوا بلقب أمير المسلمين ودعوا للخليفة العباسي ببغداد^(١) وفي هذا الصدد يقول صاحب الحلل الموشية: ولما ضخمت مملكة يوسف بن تاشفين واتسعت عمارته، إجمعت إليه أشياخ قبيلته وأعيان دوله وقالت له: أنت خليفة الله في أرضه وحفك أكبر من أن تدعى بالامير، بل ندعوك بأمير المؤمنين. فقال لهم: حاش الله أن تتسمى بهذا الاسم، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ولأنهم ملوك الحرمين: مكة والمدينة وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم فقالوا

(٢) لم يمنع ذلك من أن بعض المؤرخين والشعراء، قد لقبوا يوسف بن تاشفين بلقب أمير المؤمنين، ومثال ذلك أحمد بن يوسف القرمان في كتابه أخبار الدول وأثار الأول (ص ٢٥٤ طبعة بغداد)، والشاعر الأندلسي الأعمى النطيلي في قوله:

نضاه أمير المؤمنين مهندا لكل دم منه وإن عز سافك

راجع (محمد بن شريفه: أسرة بني عشر، مجلة تطوان من ص ١٩٦ العدد العاشر سنة ١٩٦٥)، كذلك يذهب عبد الحمى الكشاني في كتابه الترايب الإدارية (ص ١٠ ص ١٠) إلى أنه كان يحتفظ في مكتبته الخاصة بدراهم ليوسف تاشفين رسم عليها وصفه بأمير المؤمنين. غير أن كل هذه الأقوال تتعارض مع ما ورد في كتب التاريخ والسكة كما هو مبين في المتن، وأعلمها تحريف أو سهو من النساخ.

له لابد من اسم تمتاز به فأجاب الى أمير المسلمين وناصر الدين وخطب له بذلك في المنابر وخطب به من العدوتين (١).

وفي هذا المعنى أيضا يقول السلاوي الناصري : وإنما احتاج أمير المسلمين الى التقليد من الخليفة العباسي مع أنه كان بعيدا عنه وأقوى شوكة منه لتكون ولايته مستندة الى الشرع . . . وإنما تسمى بأمير المسلمين دُرْن أمير المؤمنين أدبا مع الخليفة حتى لا يشاركه في لقبه ، لان لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة والخليفة من قريش (٢).

وبعض المؤرخين مثل ابن رزق في كتابه روض القرطاس يرون أن يوسف بن تاشفين، قد اتخذ لقب أمير المسلمين بعد انتصاره في موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) وهذا الرأي مشكوك في صحته والدليل على ذلك هو الظهير الرسمي الذي أصدره يوسف بن تاشفين الى رعيته لتلقيه بأمير المسلمين وناصر الدين ، وهذا الظهير ينص على تاريخ صدوره وهو نصف المحرم سنة ٤٦٦ هـ أى قبل موقعة الزلاقة بثلاثة عشر عاما. وقد ورد هذا الظهير في كتاب الحلل الموشية السالف الذكر (٣).

كذلك يروى بعض المؤرخين أن دعاء الرابطين للخليفة العباسي قد تم بعد موقعة الزلاقة أيضا وهذا يبدو غير صحيح كذلك لان النقود المرابطة تثبت لنا أنهم دعوا للخلفاء العباسيين ونقشوا اسمهم على السكة منذ سنة

(١) الحلل الموشية ص ١٧ - ١٨ ، كذلك راجع نص الظهير الرسمي الذي صدر بشأن تلقيه بهذه الاسماء ، في نفس هذا المرجع ص ١٨ - ١٩ .

(٢) السلاوي : الاستقصاء لآخبار دول المغرب الأقصى ص ٢٠ ص ٥٣ .

(٣) الحلل الموشية ص ١٨ - ١٩ عبد الله جنون : كتاب النبوغ المغربي في

الأدب العربي ص ٢٠ ص ٨٤ .

٥٥٠ هـ أى منذ بداية دولتهم فى عهد الامير أبى بكر بن عمر . غير أنه يلاحظ أن اسم الخليفة العباسى المنقوش على السكة المرباطية كان يكتب فى هذه الصيغة « عبد الله أمير المؤمنين^(١) » وقد رجح البعض أن المقصود بهذا الاسم هو عبد الله بن ياسين مؤسس الدولة المرباطية ولكن هذا الرأى غير صحيح كذلك لأن عبد الله بن ياسين لم يتخذ لنفسه لقباً خلافاً ولم يتجاوز سلطته كفقيه ، والرأى الصائب هو ما رواه العالم الأثرى الألمانى فان برشم Van Berchem من أن الخلفاء العباسيين كانوا يكونون عن أنفسهم بأقب عبد الله فى النقوش أو النقود ، ولم يذكروا أسماءهم المجردة ، وقد فعل المرباطون بالمثل فاكتفوا باستعمال صيغة عبد الله وهى كنية يمكن أن تخالف على أى خليفة عباسى ، ثم أضافوا إلى جانبها لقب أمير المؤمنين^(٢) .

هذا وينبغى أن نشير إلى أن المرباطين قد اتخذوا السواد شعاراً لهم فى ملابسهم وأعلامهم . وهذا اللون الأسود كما هو معروف هو شعار العباسيين الذين أصبحت لهم السيادة الروحية على تلك البلاد الغربية بعد انقطاع طوئيل .

(١) راجع (ابن الخطيب: الاساطة لوجه ٣٩٣) نسخة الاسكوريال حيث يقول وكان درهمه فضة وديناره نبر محض فى إحدى صفحاته لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وفى الدائرة ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ، وفى الصفحة الأخرى الامام عبد الله أمير المؤمنين ، وفى الدائرة تاريخه وضربته وموضع سكته .

(٢) راجع (Max Van Berchem: Titres Califien d'Occident), Journal asiatique, IX, 1907) .

راجع كذلك (حسن احمد محمود : قيام دولة المرباطين ص ٢٣٥ - ٢٣٦) .

بقت مسأله أخيرة تسترعى الانتباه والاهتمام وهى معرفة اسم الخليفة العباسى الذى أرسل الى يوسف بن تاشفين تقليده واهترافه بشرعية حكمه على تلك النواحي الغريبة ، وكذلك اسم الرسول الذى حمل الرسالة الخلافة إلى العاهل المغربى . وقد نص ابن خلدون على أن يوسف بن تاشفين خاطب الخليفة العباسى المستظهر بالله ، وأوفد عليه بديعته ، عبدالله بن العربى وولده القاضى أبى بكر من مغيخة اشيلية يطلبان توليته إياه على المغرب وتقليده ذلك ، فانقلبوا إليه ومهد الخلافة له على المغرب^(١) .

وعلى الرغم من هذا النص الصريح الذى يحدد اسم الخليفة العباسى ، والرسول المغربى ، فإن بعض المؤرخين قد كتب اسم الخليفة على أنه المقتدى أو المستنصر بالله^(٢) ١ ، كذلك نلاحظ أن المؤرخين والكتاب الذين ترجعوا حياة القاضى أبى بكر بن العربى ، قد تكلموا عن رحلته وأشياخه ومؤلفاته وأشعاره فى شيء من التفصيل ، إلا أنهم لم يبرزوا الدور السياسى الهام الذى قام به هو ووالده خلال هذه الرحلة^(٣) . بل ويذهب عبد الحى

-
- (١) راجع (ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٩) .
 (٢) أنظر (حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٢٣ - ٣٤٣) :
 (٣) حول هذا العالم المحدث القاضى أبى بكر محمد بن عبد الله بن العربى المعافرة المالكى ، راجع (المقرئ : نفح الطيب ص ٢٢٣ - ٢٥٠ ، أزهار الرياض فى أخبار عياض ص ٣٦٢ - ٦٥٠ ، ص ٨٨ - ٩٥ ، ابن بركوال : كتاب الصاة ترجمة رقم ١١٨١ ، الحسن النباهى : المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ص ١٠٥ - ١٠٧ ، ابن أب زرع : الانيس المطرب بروض القصر طاس ص ١ =

الكثاني إلى إنكار هذا الدور السياسي من أساسه ، وتنقض رواية ابن خلدون بقوله :

دوما ذكره ابن خلدون في هذا الصدد منقوض ، فإن ابن العربي ووالده ذهباً للمشرق فرارا من يوسف بن تاشفين لما سقطت دولة المعتمد بن عباد بدليل أن عبدالله بقى بالمشرق متجولا إلى أن مات هناك اجماعا^(١) ، وولده أبو بكر بقى بعده ، ورجع لبلده لا لمراكش ، وفي مدة إنتقالهما وجولانها بالمشرق ، اعتقلت أملاكها عليهما إلى أن رجع أبو بكر فتشفع في ردها عليّة الحافظ أبو علي الصدقي^(٢) .

== ص ١٤٩-١٤٢ ، الزركلي : كتاب الاعلام = ٧ ص ١٠٦ ، أبو بكر بن العربي :
 العواصم من القواصم ، مقدمة الناشر محب الدين الخطيب) هذا وقد عاصر ابن العربي
 قيام دولة الموحدين ، وبإيع الخليفة عبد المؤمن في مدينة مراكش على رأس
 وفد من أعيان أشبيلية ، وفي أثناء عودته توفى بالقرب من مدينة فاس سنة ٥٤٣ هـ
 ودفن هناك خارج الباب المحروق ولا يزال مقامه هناك بجوار مقام الوزير الغرناطي
 لسان الدين بن الخطيب . هذا ومن المعروف أن هناك عالما أندلسيا آخر بهذا
 الاسم أيضا وهو الفيلسوف المتصوف محي الدين بن عربي : (١١٦٥ - ١٢٤٠ م)
 الذي ولد في مرسية وأقام في أشبيلية ورحل إلى المشرق حيث مات في دمشق ومن
 مؤلفاته الفتوحات المكية .

(١) هو أبو محمد عبدالله بن عمر الاندلسي الاشبيلي ويعرف بابن العربي ، وهو
 والد القاضي أبي بكر ، وقد توفى بمدينة الاسكندرية سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩)
 (٢) راجع (عبد الحى الكثاني : الترايب الادارية = ١ ص ١٢ - ١٣ .

والواقع إن ما ظهر بعد ذلك من وثائق ولصوص حول هذا الموضوع ، يتفق مع ما جاء في كلام ابن خلدون ويناقض رأى عبد الحى الكتانى . فمن حسن الحظ أنه توجد لدينا الآن قطعة خطية من كتاب « ترتيب الرحلة لأرغيب فى الملة » لهذا العالم المشهور أبى بكر بن العربى للمعافى المالسى قاضى قضاة أشيلية على عهد المرابطين (٤٦٨ - ٥٤٢ هـ = ١٠٧٦ - ١١٤٨ م) . ففى هذا الكتاب تحدث ابن العربى عن رحلته التى قام بها إلى المشرق صعبة والده سنة ٤٨٥ هـ وكان عمره إذ ذاك لم يتجاوز السبعة عشر ، كما أورد فى كلامه خطابات ووثائق رسمية هامة تضمنت الحقائق التالية : -

أولاً : أن الغرض من هذه الرحلة هو طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة يشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب إلى الأمير ناصر الدين يوسف بن تاشفين ليكون رئيسهم ورؤوسهم تحت طاعته ، وأن من خالف أمره فقد خالف أمر أمير المؤمنين ابن عم صيد المرسلين ، ويتعين جهاده على كافة المسلمين .

ثانياً : أن الخليفة العباسى فى ذلك الوقت هو الخليفة أحمد المستظهر بالله (٤٨٧ - ٥١٢ هـ = ١٠٩٤ - ١١٩٨ م) الذى استجاب لهذا الطلب وسلم ابن العربى ووالده تقليده وعهده للأمير يوسف بن تاشفين موقعا عليه بعلامته « القاهر بالله » .

ثالثاً . نص خطاب الوزير العباسى أبى منصور محمد بن جهمر إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى هذا المعنى أيضا .

وأما : فص الفتيا التي طلبها ابن العربي ورأى من أنيلسوف أبي حامد الغزالي الطوسي (٥٠٠ - ٥٥٥ هـ) حول المشاكل التي تتعلق بشرعية حكم الأمير يوسف بن تاشفين ، وإجابة الغزالي عليها ، ثم نص الخطاب الذي بعث به الغزالي إلى يوسف بن تاشفين وقد أشارت الفتيا إلى الموقف العدائي الذي وقنه ملوك الطوائف في الأندلس تجاه يوسف تاشفين ورفضهم الجهاد معه لأنه ليس إماما من قريش أو نائبا عن إمام ، وإتهامهم له بالاحتيال لعدم وجود ما يثبت ذلك لديه . وقد نص الغزالي في إجابته على أن تأخر منشور التقليد الخلافي عن يوسف بن تاشفين . لاعتراض المواقف المانعة من وصوله ، لا يمنع من أن يكون ابن تاشفين نائبا عن الإمام بحكم قرينة الحال ، وأن على الإمام أن يتدارك مثل هذه الأحوال بالسرعة الواجبة منعا لوقوع الفتن .

هذه هي خلاصة بعض الحقائق التي تضمنتها الوثائق السالفة الذكر ، ونظرا لأهميتها رأينا أن ننشرها كضميمة في آخر هذا الكتاب .

خلافة الموحدين :

وخلفت دولة المرابطين في حكم المغرب والأندلس ، دولة مغربية أخرى هي دولة الموحدين . وقد قامت هذه الدولة على أساس دعوة دينية إصلاحية ، طابعها التجديد والعظمة وهدفها تحقيق وحدة إسلامية شاملة .

ومؤسس هذه الدعوة هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن نور محمد المرغني المصمودي السوسي . وواضح من اسمه أنه من قبيلة هرغ. إحدى بطون مصموده الساكنة في بلاد السوس بجهال أطلس .

رحلى ابن تومرت في شبابه إلى المشرق ، وطاف بعواصم الحجاز والشام والعراق ومصر ، طلبا للعلم ، ولمس حالة الضعف التي كان يعانيها المجتمع الاسلامي في ظل الخلافتين الهرميتين : العباسية والفاطمية ، ونجاح الصليبيين في تأسيس إمارات لهم في الرها وانطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، عندئذ لم يطق صبرا على ذلك ، وأبرزى يهاجم الارضاح السائدة بكل شدة وعنف : يروي ابن القطان في هذا الصدد :

« ونزل المهدي مدينة الاسكندرية ، فرأى بها مناكر فغيرها ، وأغلظ في أمرها ، فقامت عليه العامة والغرغاء ، وصاروا يقطعون عليه طريقه إلى مجلس أبي بكر الطرطوشي ، فلما فقد الطرطوشي بحث عنه حتى أعلم بمكانه ، فتصد إليه وهو في مسجد الأضر على ساحل البحر ، فترامى عليه وصافحه ، وسأله عن سبب غيبته عن مجلسه ، فعرفه بشأن أولئك الغرغاء ، وأنه يريد الذهاب إلى المغرب ، فودعه وانصرف (١) . »

ثم يستمر ابن القطان في وصفه لرحلة ابن تومرت من الاسكندرية إلى المغرب بحرا وبراً ، كذلك نجد وصفاً أكثر تفصيلاً لهذه الرحلة في كتاب أخبار المهدي ابن تومرت لأبي بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق (٢)

(١) راجع (ابن القطان : جزء من كتاب نظم الجمان ، نشر محمود مدى ص ٣٨ - ٣٩) .

(٢) نشر هذا الكتاب المستشرق الفرنسي ليني بروفنسال تحت عنوان :

Lévi Provencal . Documents inédits d' histoire Almohade (Paris 1928)

وهو من تلاميذ ابن تومرت ، ونخرج من هذا الوصف وذاك ، أن ابن تومرت كان طوال رحلته سواء في تونس أو الجزائر أو المغرب الأقصى ، كان يعمل على محاربة البدع ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وأنه كثيرا ما استخدم عصاه ، واصطدم بالاهالي وخرج هاربا ساخطا من بلد إلى آخر .

ولاشك أن ابن تومرت ، قد أيقن بعد هذه الرحلة الطويلة في المشرق والمغرب ، أن علاج هذه الحالة يقتضى إنشاء خلافة إسلامية جديدة تضم تحت لوائها العالم الاسلامى كله ، وتتولى علاجه واصلاحه .

ومن ثم شرع ابن تومرت في نشر دعوته بين ذويه وعشيرته المعتمدة في أقصى المغرب ، ولقب نفسه بالمهدي والشيخ وأمغار - ومعناها الشيخ بالبربرية - ، كما اتخذ قاعدته في بادية الامر في جبل ايجليز عند مدخل مدينة مراکش ، وكان يسمى أيضا بالجليلين . ولما اشتدت حركته انتقل إلى قلعة حصينه منيعة في قلب جبال أطلس الكبير وهي قلعة تينمل (١) التي أشاد المؤرخون والجغرافيون بمحصاتها.

وكان حكام المغرب والاندلس في ذلك الوقت هم المرابطون ، وهم جماعة سلفيه على مذهب أهل السنة والجماعة ، يتمسكون بمذهب مالك

(١) تكتب أيضا على شكل تانملا ، وتينمل وتيمال راجع (الادريسي: وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية ، قطعة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق ص ٤١٣ ، ٤١٤ ، نشر هنري بيريس (الجزائر ١٩٥٧) .

ابن أنس، ويكرهون المتكلمين وعلم الكلام، وينفرون من الرأي والتأويل والخوض في مسائل التوحيد. ويرون الاقتداء بالسلف في قبول النصوص على علانها، وإقرار المتشابهات كما جاءت والإيمان بها كما هي. فالمهدي بن تومرت هاجم المرابطين وفقهاء المالكية من هذه الناحية، وقال بضرورة تأويل النصوص، ونفى الصفات والتشبيه عن الخلق، وأنهم المرابطين بالنجس والشرك لأنهم يقرون الصفات إلى الله تعالى وهي شبهة اشراك غيره معه، بينما سعى أصحابه بالموحدين تعريضا بالمرابطين في أخذهم بالعدول عن التأويل، وهو يعني بذلك أن أصحابه هم الذين يفهمون معنى التوحيد الخالص ومعنى تنزيه الذات الإلهية من الصفات المشبهة (١).

والواقع أن ابن تومرت قد تأثر في هذه الناحية بآراء المعتزلة الذين كانوا يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد. ومذهب الاعتزال معروف من قديم في المغرب، وقد أشار اليعقوبي والبكري والإدريسي إلى أن قبيلة أوربة التي ساندت المولى إدريس، كانت تدين بالاعتزال، وأن ملكة الأدارسة كانت موطنها للاعتزال، وأن عبد الله والد المولى إدريس، كان يعتبر في الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة (٢).

(١) راجع مقالنا (الموحدون والوحدة الإسلامية في مجلة التربية الوطنية بالمملكة المغربية؛ العددان ١، ٢ مارس - أبريل ١٩٦٢)

(٢) راجع (اليعقوبي: كتاب البلدان ص ٢٨؛ البكري: المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب ص ١١٨)

فابن تومرت من هذه الناحية لم يأت بشئ جديد على المغرب ، وإنما هو نوع من التجديد .

كذلك مزج ابن تومرت دعوته بفكرة المهدوية والعصمة ، ولقب نفسه بالمهدي المنتظر والامام المعصوم وعقيدة المهدوية كانت معروفة في المغرب من قديم ، واستغلها الفاطميون من قبل ، ونجحوا في تأسيس دولتهم بالمغرب .

وكان لهذه العقيدة المهدوية إقبال ورواج في بلاد المغرب أكثر منها في بلاد المشرق ، وذلك بسبب ماأذاعه البعض من أحاديث نبوية ، لم تثبت صحتها تنبؤ بظهور المهدي المنتظر في أرض المغرب وأنه يقوم برد الدين الصحيح .

كذلك مزج ابن تومرت دعوته ببعض ماقال به الظاهرية ، والمذهب الظاهري كان أيضا معروفا بالمغرب على يد الفقيه الاندلسي أبي محمد ابن حزم الظاهري في القرن الخامس الهجري . وتقسم دعوة ابن حزم الى قسمين :

القسم الاول وهو الجانب الفقهي ، وفيه يرى ابن حزم عدم التقيد بأراء مذهب من المذاهب السنية المعروفة وهو ما يسمى بالتقليد أى ماتمسك به الآباء من المذاهب .

فابن حزم حارب التقليد ، وقال بإئن كل انسان حر في أن يحكم فكره فيما يراه مناسبا ، بشرط أن يستند في ذلك الى حجج القرآن والسنة واستمرار العمل ، أى ما أجمع عليه الصحابة والتابعون . وعلى هذا

الأساس هاجم ابن حزم فقهاء المالكية الذين كانوا قد تعاونوا مع السلطان وكونوا دكتاتورية مالكية في الأندلس .

أما الجانب الثانى من دعوة ابن حزم ، فيتناول مسألة العقيدة . ويرى فيه ابن حزم ضرورة التفسير الحرفى للظاهر للقرآن والسنة ، وعلى هذا الأساس أنكر التأويل ، وهاجم المعتزلة القائلين به .

فالمهدى ابن تومرت ، رأى أن يستغل هذا المذهب الظاهرى لصالحه ، وأن يأخذ منه ما يراه مناسباً لدعوته ، فترك الجانب الاعتقادى الظاهرى ، لأنه يتعارض مع مذهب الاعتزال الذى يدين به ، وأخذ الجانب النقي الظاهرى الذى يحارب التقليد والاحتكار المذهبى . وكان غرضه من ذلك هو محاربة فقهاء المالكية الذين قوى نفوذهم على عهد المرابطين (١) .

ومن الطريف أن المهدى بن تومرت ، قد وضع كتاباً أسماه موطأ المهدى ، وهو عبارة عن الأحاديث النبوية التى وردت فى موطأ مالك بعد حذف معظم الاسناد منها للاختصار (٢) وهذا يدل على أن ابن

[١] راجع Goldziher : Le livre de Mohammed Ibn Toumart, Mehdi des Almohades pp. 50-70 (Alger 1903)

[٢] نشر موطأ المهدى بن تومرت فى مطبعة فونتانة الشرقية بالجزائر سنة ١٩٠٧ ، وتوجد بالحزنة العامة بالرباط نسختان خطيتان من هذا الكتاب تحت رقمى

تومرت لم يكن يهدف الى مهاجمة المذهب المالكي في حد ذاته ، وإنما اراد مهاجمة نفوذ فقهاء المالكية .

وبخلاصة القول ، ان المهدي بن تومرت ، اراد أن يضمن لدهوته النجاح ، فجعلها مزيجاً من هذه التيارات والافكار الثقافية والفقهية والاعتقادية المختلفة التي كانت معروفة في المغرب ، ولكنها كانت في معظمها ممنوعة من الظهور ومحزنة على الناس (١) . فاحياؤه لها مجتمعة في دعوة اصلاحية جديدة يعتبر حركة من حركات التجديد في الإسلام .

وهل هذا الاساس رأى الموحدون أنهم أحق الناس بالخلافة لأنهم أكثرهم إيماناً ومعرفة وإتحاداً ، ولأنهم دون غيرهم الموحدون المؤمنون فأقاموا لأنفسهم خلافة شرعية خاصة تستند إلى هذه العقيدة الموحدية الجديدة ، ولقبوا أنفسهم بأمرأ المؤمنين. يقول صاحب كتاب المعجب :

وأقر المهدي على الجيش عبد المؤمن بن علي ، وقال : أنتم المؤمنون وهذا أميركم ، فاستحق عبد المؤمن من يومئذ إمرة المؤمنين (٢) .

ولكن كان لابد أن تستند خلافتهم أيضاً إلى الاسس الشرعية اللازمة كالنسب النبوي أو الاصل العربي . لهذا قالوا باتباع كل من المهدي وعبد المؤمن الى الرسول عن طريق الادارسة ، واتخذوا اللون الأخضر

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٠١ .

(٢) عبد الواحد المراكشي : المرجع السابق ص ١٩٢ .

شعاراً لهم كي يظهروا ميالهم الى الدعوة العلوية ، كما تشبهوا بالرسول في تصرفاته وأعماله . وإذا تصفحنا مثلاً كتاب البيهقي السالف الذكر نجد شجرة طوييلة للذهب كل من المهدى وخليفته عبد المؤمن وكلهما ترتفع الى الرسول (١) .

أما من جهة الأصل العربي ، فيروى ابن الأثير أن ابن تومرت حينما سأل عبد المؤمن عن نسبه في أول لقاء لهما ، أخبره بأنه من قيس عيلان ثم من بني سليم فقال ابن تومرت : هذا الذي بشر به النبي (صلى الله عليه وسلم) حين قال : إن الله ينصر هذا الدين في آخر الزمان يرسل من قيس ، فقيل من أي قيس فقال من بني سليم ، ووضح أن سليم وقيس ينتميان الى مضر التي منها قريش .

كذلك يروى المؤرخون ، أن عبد المؤمن بن علي ، كان يقول لمن يذكر له اسم قبيلة كومية البربرية التي ينتمي اليها ، وهي من بطون زناتة بنو احى تلمسان : « أنا لست منهم ، وإنما نحن لقيس عيلان ... » ولكومية علينا - في الولادة بينهم ، والمزناً فيهم ، وهم الاخوال (٢) . وقد حرص مؤرخو هذا العصر وشعراؤه على اثبات هذا الأصل العربي في كتاباتهم فأطلقوا على عبد المؤمن كنية القيسى بدلا من الكومية (٣) .

[١] أبو بكر الصنهاجي المسكن بالبيهقي : كانت أخبار المهدى بن تومرت وأبتداء دولة المرحدين ص ٢١ وما بعدها .

[٢] عبد الواحد المراكشي : المرجع السابق ص ١٩٧ .

[٣] ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٦٦ (القسم الخاص بالاندلس) .

كذلك استغل الموحدون هذا الأصل العربي في اصطلاح القبائل العربية المقيمة في افريقية ، للاشتراك معهم في جهاد المسيحيين في أسبانيا (١) . فوجد شعراء الموحدين يدعونهم بأبناء العم ، ويذكرونهم بعسلة النسب ووشائج القرى التي تجمع الموحدين مع العرب في قيس عيلان (٢) . وكان لهذه الدعاية أثرها في هجرات هذه القبائل العربية الى المغرب الانصى مما ساعد على تعريب هذه البلاد وصيغها بالطابع العربي .

وكيفما كان الأمر ، فإنه يبدو أن هذه الدعوة الموحدية الجديدة قد بهرت عقول المغاربة ، بدليل هذه السرعة العجيبة التي انتشرت فيها ، والنجاح العظيم الذي احرزته على المرابطين في وقت قصير . كذلك كان لهذا النجاح صدى كبير بين المشاركة أيضا بدليل كتابات المعاصرين لهذه الفترة . ومثال ذلك شاعر جنوب الجزيرة العربية نجم الدين عمارة النني الذي عاش بمصر في أواخر العصر الفاطمي ، فقد أراد هذا الشاعر أن يضرب مثلا للاحداث الجارية في عصره فلم يجد فيها اعظم من شخصية بن تومرت الذي ارتفع في رأيه الى أعلا درجات المجد والنفوذ فيقول :

هذا ابن تومرت قد كانت بدايته

كما يقول الوري لحما على وضم

وقد ترفى إلى أن أمسكت يده

من الكواكب بالانفاس والكظم

[١] ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ١٧٢ .

[٢] راجع على سبيل المثال (ان صاحب الصلاة : كتاب المن بالامامة على

المستضعفين ص ٤١١-٤١٣ ، نشر عبد الهادي التازي)

وكان أول هذا الدين من وجل

سمى الى أن دعوه سيد الامم (١)

وليس من شك في أن الموحدين قد عبأوا كل دعائهم وانصارهم وكتابتهم للقيام بالدعاية اللازمة للخلافة الموحدية في العالم الاسلامي .
ففي كتاب البيذق نجد باباً عن أصحاب المهدي المقيمين في مصر ، وقد بلغ عددهم واحداً وخمسين رجلاً ذكر المؤلف اسماءهم واحداً واحداً ، ثم قال بأنهم كانوا للمهدي بمثابة أعضائه وجسده ، سامعين لقوله ، مجيبين لأوامره ، مؤمنين بدعوته (٢) . وهذا الكلام يدل على أن المهدي كانت له جمعية من أنصاره ودعائه تعمل على نشر دعوته في مصر وغيرها من بلاد الشرق الاسلامي .

وفي كتاب نظم الجمان لابن القطان ، نجد صورة مقارنة بين الخلافتين الفاطمية بمساوئها ، والموحدية بمجاسنها ، يخرج منها المؤلف نتيجة واحدة وهي أن الخلافة الموحدية هي أجدر الخلافات بحكم العالم الاسلامي (٣) .

أما الرحالة الاندلسي المشهور ابن جبير الذي عاصر قيام دولة الموحدين وظاف بانحاء المشرق الاسلامي في تلك الفترة ، فقد وصف الحالة في تلك البلاد وقال بأن المصريين كانوا يتقربون بمجيء الموحدين ،

(١) راجع Hartwig Derenbourg : Omara du Yemen, sa vie et son oeuvre, tome, I p. 354 (Paris 1909)

(٢) البيذق نفس المرجع ص ٣٠-٣٢

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٨٩

ويؤولون بعض الظواهر الطبيعية على أنها تعبير عن قرب مجيئهم للدرجة أن بعض فقهاءهم قد أعد خطبا مناسبة لإقامتها بين يدي الخليفة المرحدى هند قدومه (١) .

هذا ويقدم لنا ابن فرحون فى كتابه الديباج المذهب ، دليلا آخر عن الفكرة التى كانت سائدة بين الناس حول قرب سيطرة الخلافة الموحدية على العالم الاسلامى . فيقول فى ترجمة أبى الوليد القرطبي ، إنه قدم الى مصر هاربا من عبد المؤمن ودولته لما ظهر على المغرب ، ثم خاف من استيلائه على مصر فقدم الحجاز ، فخاف أن يهيج فدخل اليمن ، ثم خاف ان يظهر على اليمن ، فأراد أن يتوجه الى الهند ولكنه مات بزييد (٢) ، واستمرت فكرة الوحدة الاسلاميه مهيمنة على عقول خلفاء الموحدين ولاسيما فى عهد الخليفة يعقوب المنصور الذى ينسب اليه صاحب المعجب تصريحات تدل على رغبته فى الرحلة الى المشرق وتطهيره من عبويه (٣)

وتد عبر عن هذه الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس ابن عبد السلام الجراوى فى بعض اشعاره فن قوله يمدح الخليفة يوسف بن عبد المؤمن :

(١) رحلة ابن جبير ص ٥٥ - ٥٧ (بيروت ١٩٥٩)

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب فى معرفة اعيان المذهب ، ص ٣٢٢

(القاهرة ١٣٢٩ هـ)

(٣) عبد الواحد المراكشى ، نفس المرجع ص ٢٨٤

ستملك أرض مصر والعراقا

ويجرى نحوك الأمم استباقا (١)

وقوله في مدح الخليفة يعقوب المنصور :

إن الخلافة نالت من محاسنكم

أوفى الحظوظ فأبدت منظرا دججا

أعلى المراتب من بعد النبوة قد

حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبنا

سينظم السعد مصراً في ممالكه

حتى يدوخ منها خيله حلبا

إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى

أقصى خراسان يتلو بهجته الرعبا

هو الذي كانت الدنيا تؤمله

وكل هصر له مازال مرتقباً (٢)

في خلال هذا الوقت وفي عهد الخليفين يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور ، قامت في مصر والشام دولة صلاح الدين الايوبي على انقاض الدولة الفاطمية ، ويستفاد من بعض وصايا صلاح الدين الى سفرائه ، أن الموحدين قد استأثروا من قيام دولته ، وما ترتب على ذلك من ظهور شعائر العباسيين ، من جديد في تلك البلاد (٣) . وهذا الكلام صحيح في جوهره ،

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ٩٤

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٤ ص ١٥٤ - ١٥٥ ، نشر هوثي ميراندا .

(٣) أبوشامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ج ٢ ص ١٧٠-١٧٢ ، محمد رضا الشبيبي : أدب المغاربة والاندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية ص ٣٦ - ٤٠ (مطبوعات الجامعة العربية ١٩٦١)

لأن الموحدين - كما ذكرنا من قبل - لم يعترفوا بخلافة العباسيين ، وكانوا يرون أن دار الخلافة الشرعية هي مدينة مراکش لا بغداد .

ويبدو أن صلاح الدين - رغم تبعيته للخلافة العباسية - قد حاول توثيق علاقته بالموحدين ، فأرسل سفيانا من قبله ، وهو الأمير عبد الرحمن ابن منقذ إلى خليفة المغرب يعقوب المنصور .

ويستفاد من كلام المؤرخين أن أغراض هذه السفارة احيطت بسرية تامة وغموض كبير ، فيروى ابن عذارى في كتابه البيان المغرب .

وفي شهر رجب سنة ٥٨٦ هـ وصل إلى المنصور أمير المؤمنين ، مخاطبات السيد أبي زيد من افريقية والسيد أبي الحسن من بجاية ، بوصوله ابن منقذ إلى تلك البلاد ، وما قابلوه من المبرة وتوطئة المهاد ، والتعريف منهم بكتابه لسبب وصوله ... فزوجهم السادات بالشكر على ما قابلوه به من الإكرام ، وأن لا يبحث عنه بشيء من الاستفهام ... ثم استقر الرسول بمدينة فاس ، فأقام بها إلى أن انقضت حكمة المنصور في الاندلس . فاستدعى الرسول المذكور ، فوصل إليه ، وقعد بين يديه : وخلا به على اختصاص وانفراد ، فتلقى الجواب من المنصور بجملا ، واحيل على ما يرضه له الوزراء مفسرا ومكملا ، وخرج الرسول من الحضرة بعد ذلك بخمسة أيام ولم يعلم به (١) .

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٤٢ ؛ وكذلك (كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ص ١٠٧ ؛ نشر سعد زغلول ، (مطبوعات جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٨) .

أخذ المؤرخون بعد ذلك يعاقبون على هذه السفارة بمختلف الآراء والتكهنات : فصاحب كتاب الاستبصار - الذى يظن أنه كان من كتاب المنصور - يعتقد أن هذه الزيارة لم تكن إلا لإعلان الولاء والخضوع من جانب صلاح الدين إلى الخليفة الموحدى ؛ على حين يذهب غيره من المؤرخين إلى أن الغرض من هذه السفارة هو رغبة صلاح الدين فى تدخل الأساطيل الموحدية لوقف الامدادات الصليبية إلى الشرق . ثم يعود المؤرخون إلى الاختلاف فيما بينهم ، فبعضهم مثل السلاوى الناصرى يقول إن الخليفة المنصور قد أرسل فعلا جزءا من أساطيله إلى الشرق للمشاركة فى العمليات الحربية هناك ^(١) ، بينما يقول البعض الآخر - وهم الغالبية - إن المنصور قد رفض أن يجيب صلاح الدين إلى طلبه لأنه - أى صلاح الدين - لم يعترف بخلافة المنصور ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين فى الخطاب الذى أرسله إليه مع رسوله عبد الرحمن بن منقذ ^(٢) . وهذه المسألة قد تكون لها أهمية خاصة على أساس أن الاعتراف بالخلافة الموحدية معناه الاعتراف أيضا بصدق العقيدة الموحدية وبشرعية الدولة الموحدية .

(١) السلاوى : الاقتصار ٢ ص ١٦٣ ؛ عبد الله جنون : مدخل إلى تاريخ المغرب ص ٦١

(٢) أنظر سعد زغلول : العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب ، مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٣

عبد القادر الصحراوي : جولات فى تاريخ المغرب ص ٦٩ (انذار اليقظة سنة ١٩٦١)

وإذا أضيف إلى هذا أن الموحدين كانوا من أصل بربرى ويريدون اكتساب الأصل العربى والنسب النبوى ، صار الامر أشكالا نفسيا أيضا وقد تبدو هذه العقدة النفسية واضحة فى المحنة التى نزلت بالفيلسوف أبى الوليد ابن رشد أيام المنصور الموحدى حينما قال فى شرح كتاب الحيوان لأرسطو ، إنه رأى الزرافة عند ملك البربر، ويقال إنه عاد وقال عند ملك البرين ليخرج من هذه الورطة ^(١) . كذلك تبدو هذه الحالة النفسية أيضا فى صيغة الدعاء لخلفاء الموحدين فى خطبة الجمعة : واللهم وارضى عن المجاهد فى سبيلك المعجى سفة رسولاك الخليفة الإمام أبى يوسف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين. ^(٢) فهذا الحرص على تكرار لفظ أمير المؤمنين دون ذكر أسماء الخلفاء قد يكون له صلة بهذه الحالة النفسية .

ومما يمكن من شئ ، فإن هذا الخلاف السياسى الذى وقع بين عاهلى المشرق والمغرب ، لم يحل دون تعاون شعوبها فى السراء والضراء كما هو الحال فى كل زمان ومكان ، فمن المعروف من كتب التراجم المختلفة أن عددا كبيرا من المغاربة ، قد ساهموا فى الحروب الصليبية إلى جانب اخوانهم المشاركة ، واستشهد منهم عدد كبير دفن فى فلسطين .

ويشير الرحالة المعاصر ابن جبير إلى الضريبة الإضافية التى فرضها الإفرنج فى الشام على تجار المغاربة دوناً عن سائر تجار المسلمين ، لأن

(١) راجع (عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣٠٥ - ٣٠٧)

(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٥١

طائفة من أنجاد المغاربة غزت مع السلطان نور الدين محمود زنكي أحد الحصون فكان لهم في أخذها غنى ظهر واشتهر ، فجازاهم الأفرنج بهذه الضريبة المكسية الزموها رؤوسهم ، فشكل مغربي يزن على رأسه الديباج المذكور في اختلافه على بلادهم . « ثم يشير ابن جبير في مكان آخر من كتابه إلى اهتمام الملوك وأهل اليسار والخوانين من النساء في الشرق العربي بقداء الأسرى من المغاربة : فشكل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها ، إنما يعينها في اقتكك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم » . (١)

ومن الطريف أن بعض الروايات الإسلامية ، أشارت إلى أن الخليفة يعقوب المنصور لم يمت بأرض المغرب وإنما مات في فلسطين بعد أن ترك خلكه وبلاده ورحل إلى الأراضى المقدسة لجهاد الصليبيين بل ويذهب ابن خلكان إلى أنه رأى في البقاع قبرا بالقرب من بلدة المجدل بفلسطين ، وأن الناس هناك يؤكدون على أنه قبر يعقوب ملك المغرب ويتباركون به (٢) . ولا شك أن هذه الروايات لا تدخل إلا في نطاق الأساطير الشعبية ، وقد كذبها جبهة من المؤرخين وهى رأسهم الشريف الغرناطى الذى قال بأنهم نخروا وأباطيل (٣) ، بل إن ابن خلكان نفسه رغم روايته السالفة ، هاد وقال إن المنصور قد مات

(١) (راجع رحلة ابن جبير ص ٢٧٤ ، ٢٨٠ ، طبعة بيروت)

(٢) (راجع ابن خلكان : وفيات الأعيان ص ٢٣١ - ٤٣٢) ولعل هذه المقبرة كانت للمغاربة الذين استشهدوا في فلسطين ثم أطلق عليها أسم يعقوب المنصور كرمز تذكارى لها باعتباره المجاهد الأكبر وسلطان هؤلاء المجاهدين .

(٣) الشريف الغرناطى : رفع الحجب المستورة ص ١٥٥ .

ودفن بالمغرب وهذا هو الثابت المعروف. ولا يستلزم في تفسير هذه الروايات إلا على أنها تعبير عن انطباعات شعبية لما كان يدور في خلد المسلمين من آماني وآمال نحو اخراج الصليبيين المستعمرين من بلادنا شرقا وغربا ، ونحو التفاء المغرب بالمشرق من جديد .

خلافة الحفصيين بتونس

وبعد زوال دولة الموحدين بالمغرب والاندلس ، ظلت دهورهم مستمرة في المغرب على أيدي أقربائهم الحفصيين حكام أفريقيا أو البلاد التونسية .

والحفصيون فرع من الموحدين ، وينتسبون الى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمر لآتي الهنتاتي شيخ قبيلة هنتانة إحدى بطون مسمودة التي قامت على اكتافها دولة الموحدين . وكان هذا الشيخ الحفصي من كبار القائمين بدعوة المهدي بن تومرت ومن كبار المشيدين لسلطان الموحدين في المغرب والاندلس .

وصلت الحفصيين بالبلاد التونسية ترجع الى أيام ابنه محمد عبد الواحد ابن أبي حفص الهنتاتي الذي كان صبورا للخليفة المنصور الموحدي ، والذي ولاء بعد ذلك الخليفة الناصر بن المنصور على تلك البلاد التونسية سنة ٦٠٣ هـ (سنة ١٢٠٦ م)

وكانت افريقية منذ بدايسة عصر الموحدين مركزا للعناصر المعارضة لدولتهم ونخص بالذكر بني غايبة المسرفيين المرابطين حكام جزر البليار

الذين كثيرون ما اتحدوا مع العناصر المقيمة في إفريقية مثل الأعراب والاعراب الذين جاءوا من مصر واستقلوا بحكم هدد من المدن التونسية. وقد اضطر خلفاء الموحدين الأوائل الى محاربتهم وطردتهم من هذه البلاد ؛ إلا أنهم كانوا يعرّدون اليها ثمانية كلما سذحت لهم الفرصة . واخيرا رأى الخليفة الموحدي الناصر ، أن سلطان الموحدين لن يستقيم في إفريقية إلا إذا أقام عليها واليا دائما من قرابته يكون مسمو الكلمة بين الموحدين ، وله مطلق التصرف في إدارتها كي يستطيع القيام باعبائها . واختار لهذا الغرض ثقتة ووزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن أبي حفص الهنتاتي السالف الذكر . وقد روى المؤرخون هذا المعنى حوارا لطيفا بين الخليفة والوالي يعبر عن بدأ ارتباط الحفصيين بهذه الولاية ، فيقولون إن الخليفة الناصر قال للشيخ عبد الواحد : يا أبا محمد أنت تعلم ما تجسمناه من المشاق والصوائر في استنفاد هذا القطر ، ولا آمن عليه من عدو متوثب ، ولا يقوم بحمايته إلا أنا أو أنت . فامض الى حفظ ممالكنا المغربية وأقوم أنا ، أو أقم أنت وأرجع أنا ، فأذن الشيخ عبد الواحد للإقامة في إفريقية واشترط شروطه التي تخول له شبه استقلال بهذه الولاية ، وهي أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الأحوال وتقطع أطاع الميورقي ابن غانية عنها ، وأن يحكمه الناصر فيمن يبقيه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية ، وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل ، فقبل الناصر شروطه ، ومن هنا ورثت الملوك الحفصيون سلطنة تونس وإفريقية ^(١).

(١) راجع (السلاوي : الاستنفا ج ٣ ص ١٩٣ : رحلة النجاشي ص ٣٦٢

ولما هزم المرحدون أمام الجيوش الصليبية المتحالفة في موقعه العقاب Las Navas de Tolosa سنة ٥٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) وأنهار تفوذهم في المغرب والأندلس بعد هذه الكارثة ، أعلن الأمير أبو زكريا الحفصى^(١) استقلاله بحكم إفريقية عن خلافة بني عبد المؤمن في مراکش سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م)^(٢) ، ولكنه مع ذلك اقتصر على لقب الأمير حتى انه زجر الشاعر الذي مدحه بأمر المؤمنين ، ولم يقبل قوله .

الأصل بالأمير المؤمنين فأنت بها أحق العالمين^(٣)

على أن هذه الامارة لم تلبث أن تحولت إلى خلافة في عهد ولده أبي عبد الله محمد^(٤) الذي تسمى بالمستنصر بالله أمير المؤمنين .

(١) حكم الأمير أبو زكريا يحيى الاول من سنة ٦٢٥ - ٦٤٧ هـ (١٢٢٨ - ١٢٤٩ م)

(٢) راجع الاحداث الخاصة بهذا الانفصال في (ابن عذارى : البيان المغرب ٤ ص ٢٩٧ ، ٢٧٥)

(٣) ابن أبي دينار : لمؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ١١٨ محمد الباجي المسمودي . الخلاصة النقية في أمراء إفريقية ص ٦١ .

(٤) حكم من سنة ٦٤٧ - ٦٥٧ هـ (١٢٤٩ - ١٢٧٧ م) . وقد أشار كل من الزركشى ص ٢٧ ، ٢٨ ، وابن أبي دينار ص ١٢٦ ، ١٢٤ ، أن مملوك الحفصيين كانوا يضعون تاجا على رؤوسهم في المراكب ، ويركبون بغلة عالية .

وهناك خلاف حول تاريخ اعلان الخلافة الحفصية السنية بتونس ،
فالزركشى يقول :

وفي يوم الاثنين ٢٤ ذى الحجة من سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٣ م) ،
رأى المولى المستنصر أن الافتصار على لفظ الامير قصورا ، فتسمى
بأمر المؤمنين ، وأمر أن يذكر في الخطبة ويطبع بالذهب ، وفي
ذلك اليسوم فلقب بالمستنصر بالله ^(١) أما محمد بن أبي القاسم الرهيني
القيرواني المعروف بابن أبي دينار ، فقد جعل تاريخ هذه الخلافة في
سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) عقب سقوط خلافة بغداد في أيدي المغول ،
ومبايعة شريف مكة لسلطان تونس بالخلافة ^(٢) .

ويبدو أن رأى الزركشى هو الاصح نظرا لاتساع نفوذ الدولة
الحفصية ومبايعة أهل المغرب والاندلس لسلطانها قبل سقوط الخلافة
العباسية .

وكيفما كان الامر ، فلقد استند الحفصيون في اعلان خلافتهم
الجديدة إلى الأسس الشرعية اللازمة في هذا الصدد ، كالاصل العربي ،
والنسب النبوي ، الى جانب قربانهم للموحدين . فزعموا أنهم من سلالة

(١) الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٣٦

(٢) ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار تونس ص ١٢٠

الخليفة أبي حفص عمر بن الخطاب (١) ، وعمر كما نعلم من أشراف قريش وكانت إليه السفارة في الجاهلية ، وقد تزوج النبي ابنته حفصة . فالحفصيون بحكم هذا الأصل القرشي ، وهذا النسب النبوي ، وبحكم قرابتهم للموحدين ، وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المتناهية .

ولقد حرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الأصل ، وأظهره في كل مناسبة . ونجد ذلك واضحا في أقوال كتائبهم وشعرائهم ، التي أطلقت على دولتهم اسم العمريّة والفاروقية (٢) أو كقول ابن خلدون في قصيدة يمدحهم بها .

قوم أبو حفص أب لهم وما

أدراك الفاروق جد أول (٣)

(١) ابن أبي دینار : المرجع السابق ص ١١٦ ؛

محمد الباجي المسعودي : المرجع السابق ص ٥٦ ؛

الفلة شندی : صبح الاعشى - ٥ ص ١٢٣ - ١٢٤ ؛

ابن خلدون : العبر - ٦ ص ٢٧٥ .

(٢) أنظر

(Brunschvig : La Berbérie Orientale sous les
Hafsides, II, P.18)

(٣) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٢٣٥

ولقد جاء إعلان الخلافة الحفصية في ظروف سياسية مناسبة ، إذ لم تمض سنوات قليلة على قيامها حتى سقطت الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول وقتل آخر خلفائها المستعصم بالله سنة ٥٦٦هـ (١٢٥٨م) وعقب ذلك أرسل شريف مكة وأهل الحجاز بيعتهم بالخلافة للخليفة الحفصي المستعصم بالله ، واعتبروه وريثا للخلافة العباسية المنهارة . ولاشك أن هذه المبايعة قد دعمت أركان الخلافة الحفصية لأنها أكسبتها أساسا شرعيا وهو الإشراف على الحجاز وأصل العرب والمسلمة ومقر الحرمين الشريفين^(١) . وفي ذلك يقول المستشرق فان برشم : « أن الحفصيين قد ورثوا خلافة الموحدين في الوقت الذي اكتسبوا فيه من سقوط بغداد شيئا من هيبة الخلافة العباسية^(٢) . ولم يقتصر نفوذ الحفصيين على الأراضى الحجازية ، بل نجد أن الدعاء للخليفة الحفصي قد عم مساجد المغرب والأندلس فترة من الزمان ، فالأندلس بعد كارثة العقاب ، قد سقط معظمها في يد الأسبان ولم يبق للمسلمين منها سوى منطقة غرناطة الجبلية في الركن الجنوبي الشرقى لإسبانيا ، حيث قامت هناك مملكة بني نصر أو بني الأحمر . وقد رأى سلطانها أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر (الغالب بالله) أن يعمل على تدعيم دولته الناشئة

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٧ (في القلب بأمير المؤمنين)

(٢) راجع (G. Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, t. IV p. 437-438 & Wiet : Précis de l' Histoire d' Egypte, t. II, p. 250. & Ency of salam art. Hafsides)

بمبايعة السلطان الحفصى أقوى ملك فى المغرب فى ذلك الوقت (١).

وكما فعل بنو الأحمر فى غرناطة ، فعل كذلك بنو زيان فى تلمسان
بالمغرب الأوسط ، وبنو مرين (أو بنو عبد الحق) فى المغرب الأقصى .
وهاتان الدولتان قامتتا على أنقاض دولة الموحدين فى المغرب ، وكانتا
فى حاجة أيضا إلى تأييد جارهما الحفصى ولو بصفة مؤقتة ، وفى
هذا الصدد يقول السلاوى الناصرى : « ولما نبغ بنو مرين بالمغرب ،
وغلّبوا على الكثير من ضواحيه ، كانوا يدعون إلى أبى زكريا الحفصى
تأييدا لأهل المغرب ، واستجلابا لمرضاتهم ، وإتيانا لهم من ناحية أهوائهم
إذ كانت صبغة الدعرة الموحدية قد رسخت فى قلوبهم . » ، ثم يضيف
بعد ذلك أن السلطان يعقوب بن عبد الحق المرىنى هو أول من قطع مع
الدعرة للحفصيين (٢) ، وهكذا ظهرت فى المغرب من جديد وبالقرب من
حدود مصر الغربية خلافة قوية وهى الخلافة الحفصية التى أمتد سلطانها
الروحى على الحجاز شرقا وعلى المغرب والأندلس غربا ، وصارت هاصمتها
تونس مركزا سياسيا وثقافيا هاما جذب السفراء والعلماء من مختلف
أنحاء العالم .

(١) المقرئ : نفح الطيب ٦ ص ١١٩ هذا ويلاحظ أن سلطان غرناطة
المذكور قد دعا قبل ذلك للخلافة الموحدية فى مراكش ، ثم دعا أخيرا للخلافة
الحفصية بتونس راجع (ابن الخطيب : كتاب اللعة البدرية فى الدولة النصرية)
(٢) السلاوى : الاستقصا ٢ ص ٢٨ - ٢٩

ولقد شعرت مصر بخطورة أهداف هذه الخلافة الجديدة ، لأن السياسة المصرية كانت تهدف دائما إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية وسياسية واقتصادية أهمها السيطرة على البحر الأحمر وتجارته ، فجميع الحكام الذين استقلوا بمصر كالطولونيين والاشيدين والفاطميين قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز ثم جاء بعد ذلك الايوبيون والمماليك والصليبيون ، فساروا على نفس هذه السياسة لدرجة أنهم لقبوا أنفسهم بلقب «خدام الحرمين» (١) .

وكان يحكم مصر أيام الخليفة الحفصي المستنصر بالله (٦٤٧-٦٧٥هـ = ١٢٤٩-١٢٧٧م) ، السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨-٦٧٦هـ = ١٢٦٠-١٢٧٧م) ، وهما السلطان يعتبر من أقوى السلاطين الذين حكموا مصر ، إذ استطاع أن ينتصر على المغول عند الحدود العراقية ، وعلى الصليبيين في الشام حتى صارت سيرته مخرجا للأمثال كما هو واضح في الملحمة الشعبية المعروفة بالسيرة الظاهرية .

ورأى السلطان بيبرس أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع السياسة التقليدية المصرية ، ولهذا عمد إلى إحياء الخلافة المباسية في القاهرة سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) ، فأتى بأمر من أمراء العباسيين الفارين من المغول وبأيامه بالخلافة في احتفال كبير بالقاهرة واقبه بالمستنصر بالله

(١) راجع مقالنا عن نظام الخلافة في المغرب في - مجلة جمعية نبراس الفكر بتطوان عدد سنة ١٩٦١ .

أمير المؤمنين . وعلى الرغم من ان المراجع العربية تنص على ان هذا اللقب هو لقب أخيه الخليفة المستنصر (١٢٢٦ - ١٢٤٣ م) بأن المدرسة المستنصرية ببغداد (١) إلا أننا نلاحظ أيضا ان هذا اللقب هو نفس اللقب الحفصى بتونس ، وما أظن أن تطابق اللقبين ، مجرد مصادفة أو تـؤرد خواطر ، ولكنه يبدو أنه نوع من باب التحدى أو المنافسة .

وكيفما كان الامر فإن الخليفة الجديد بعد أن تمت مبايعته ، قام بدوره وقلد السلطان بيبرس حكم مصر والشام والحجاز ، وما يغزوه من بلاد الأعداء .

وهكذا اكتسب بيبرس بهذا العمل نفوذا أدبيا وروحيا فى الأوساط الإسلامية ، ولكن المهم هنا هو أن إحياء بيبرس للخلافة العباسية لم يكن عملا روحيا محضا لأنه نظر الى النتائج المادية المترتبة على هذا العمل ، وهى النزاع الحرمين من نفوذ الحفصيين ، ومد سلطانه باسم الخلافة على الحجاز والبحر الأحمر وذلك تمشيا مع السياسة التقليدية التى حرصت عليها مصر فى كل وقت (٢) . ولتنفيذ هذه السياسة عمليا ، قام بيبرس أولا بعدة إصلاحات بالحرم النبوى الشريف وأرسل الكسوة الى الكعبة ، كما أرسل الصدقات والشموع والزيت والطيب . . . الخ ثم أدى بيبرس فريضة الحج وأظهر خشوعا وكرما لا ينتهى . ولكنه لم يفس مصالحه السياسية إذ أزال أنصار الحفصيين ، وأمر بالدعاء للخليفة العباسى على

(١) راجع (أبو شامة الذيل على الروضتين ص ٢١٣ ، المقرئى . السلوك

ج ١ ص ٥١)

Gaston Wiet: Précis de l' Histoire d'Egypte II p. 250 & (٢)

„ „ : Histoire de la Nation Egyptienne IV p. 437

منابر الحجاز بدلا من الخليفة الحفصى (١) كما أقام الأمير شمس الدين مروان شبه مندوب له إلى جانب شريف مكة (٢).

ويبدو أن التنافس بين خلافة القاهرة وخلافة تونس ، قد دفع بعض الأمراء الطموحين إلى المفاضلة بين هاتين الخلافتين لتحقيق مآربهم الشخصية ، فيروى ابن خلدون مثلاً أنه في سنة ٥٦٦٣هـ (١٢٦٤م) ثار إلى طنجة المدعو ابن الأمير ، وخطب للخليفة الحفصى صاحب إفريقيا ، ثم خطب للخليفة العباسى فى القاهرة ، ثم خطب لنفسه ، وانتهى الأمر بقتله سنة ٥٦٦٥هـ (٣).

وبعد مضى وقت قصير ، ضعف نفوذ كل من الخلافتين وصار سلطانها محدودا فى المنطقة التى تعيش فيها . فالخلافة الحفصية بعد انقضاء القرن السابع الهجرى ، ضعف أمرها وتوقف الدعاء لها فى المغرب والأندلس ، ثم لم تلبث أن دبت فيها الحروب الأهلية واستقلت بحماية عن تونس ، وانتهر بنومرين هذه الفرصة ، وأخذوا يتدخلون فى شئون الدولة الحفصية واستولوا على تونس عدة مرات (٤) وعلى الرغم

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٥٤٤

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٧٩ ، ٥٨١ - ٥٨٢

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ١٩٦ ، السلاوى الاستقصا ج ١ ص ١٧

(٤) فى السنوات ١٣٤٦ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥٧ ، راجع :

(Robert Brunschvig : La Berberie oriental sous les Hafsides, Tome I, p. 178)

من أن سلاطين بني مرين قد لقبوا أنفسهم بلقب أمير المسلمين، إلا أن بعضهم قد اتخذ القابا خلافة من باب التشريف، ومثال ذلك السلطان المريني أبو عثمان فارس الذي يصفه ابن بطوطة بالأمام الأكرم أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبي عثمان^(١). كذلك يروى أن الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب حينما ذهب في سفارة إلى هذا السلطان المريني أبي عثمان انشده قصيدة مغلما :

خليفة- الله سبحانه القدر

علاك ملاح في الدجى قمر^(٢)

وكذلك قوله بعد ذلك في مدح السلطان أبي زيان المريني :

يا ابن الخلافة يا سمى محمد • يامن علاه ليس يحصر حاصر
ألفت اليك يد الخلافة أمرها • إذ كنت أنت لها الولي الناصر^(٣)

وقد علق المؤرخ المعاصر ابن خلدون على هذا الوضع في أيامه بقوله : « ولما انتفض الأمر بالمغرب وانتزعته زنقة (يقصد بني مرين وبني زيان) ذهب أولهم مذاهب البدارة والسذاجة في عدم استعمال اللقب بأمر المؤتمين أدبا مع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبني عبد المؤمن أولا ، ولبن أبي حفص من بعدهم ، ثم نزع المتأخرون منهم إلى اللقب بأمر المؤتمين »

(١) راجع (رحلة ابن بطوطة ج٤ ص ٢٣٢-٢٣٣ ، نشر وترجمة :

Defremery et Sanguinetti باريس ١٩٢٢

(٢) راجع (المقرى : أزهار الرياض ج٩ ص ٢٠٦-٢٠٧)

(٣) راجع (ابن الخطيب : نقاضة الجراب في علالة الاغراب ص ٢٥٤)

واتحلره لهذا العهد استبلاغا في منازع الملك وتتبيا لمذاهبه وسبائه . (١)
وما يقال عن سلاطين بنى برين ، يقال ايضا عن ملوك بنى الاحمر
سلاطين غرناطة الذين خوطبوا بالقب الخلافة من باب التشريف ، وإن
كان اللقب الرسمى الذى اتخذوه هو دأمر المسلمين ، (٢) ونلاحظ ذلك
في قصائد شاعر الحمراء عبد الله بن زمرك الذى لا يزال ديوانه منشورا
بأحرف من ذهب على جدران قصر الحمراء .

وأقتدى بهم في ذلك ملوك بنى زيان بتلمسان ، فلقبوا أنفسهم
بلقب أمير المسلمين . وفي خزانة الرباط (المكتبة الكتانية) مصحف
انتسخه بيده السلطان ابو زيان محمد الثانى سنة ٨٠١ هـ ووقع في آخره وصفه
بأمر المسلمين . ولعل كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف ملوك
بنى زيان (٣) للحافظ محمد بن عبد الجليل التنسى ، لخير دليل على محاولة
انتساب هؤلاء الملوك للأصل النبوى الشريف رغم كونهم من زناتة ،
ويعرفون أيضا ببني يغمراسن ومعناها بالزناتية رئيس القوم .

أما الخلافة العباسية بالقاهرة ، فانها هى الأخرى لم تكسب
بأحيائها إلا كسبا زائفا ، إذ صار الخلفاء منذ ذلك الوقت سيجناء تقريبا
في أبراج قلعة الجبل وكان عملهم قاصرا على حضور حفلات السلطان
وتزيين مجالسه للوفود والسفراء .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣٠

(٢) انظر (المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٠١)

(٣) ترجم هذا الكتاب الى اللغة الفرنسية بعنوان :

(Barges : Histoire de Beni Zeiyan Rois de Tlemecen

(Paris 1852) راجع كذلك عبد الحى الكتانى : الترايب الادارية ج ١ ص ١١)

ومن الغريب أن كثيرا من الدول الإسلامية الأخرى ، لم تعترف أصلا بخلافة القاهرة أو خلافة تونس ، وظلت ، على ولائها لخلافة بغداد حتى بعد زوالها وقتل آخر خلفائها المستعصم بالله ، فالحمد مثلا ظلت تدهو للخليفة العباسي المقتول وتنقش اسمه على السكة مدة قرن من الزمان كما لو كان حيا يرزق (١) ، وكذلك كان الحال في اليمن ، إذ يروى الخزرجي الذي كان حيا سنة ٧٩٨ هـ أن الدعاء للخليفة العباسي المستعصم بالله ، كان مستمرا في اليمن على ألبانه أي في أواخر القرن الثامن الهجري (٢) ،

هذا ويبدو أن المصريين أنفسهم كانوا يشكون في صحة نسب الخلفاء العباسيين الذين أقامهم سلاطين المماليك في القاهرة ، ومن يتصفح كتب المؤرخين المعاصرين ، يجد عبارات تدل على هذا الشك في صحة نسبهم ، مثل قولهم الخليفة الأسود ، أو الزرابيني أو ذكر مبايعة شخص بالخلافة ، أو الخليفة المدعو فلان (٣) . كذلك نجد في النسخة الخطية لكتاب ، الذيل على الروضتين

(١) مثال ذلك السلطان غياث الدين بلبان ، سلطان دولة المماليك في دلهي بالهند ، الذي ظل ينقش اسم الخليفة المستعصم على نقوده ويذكر اسمه في الخطبة على المنابر طوال عهده (١٢٦٥ - ١٢٨٧ م)

راجع (T. Arnold : The caliphate p. 87)

(٢) راجع (الخزرجي : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ص ٦٩)

(٣) راجع (دكتور محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الأول سنة ١٩٣٦)

لابي شامة^(١)، وهو مؤرخ معاصر لإحياء الخلافة بالقاهرة، يذكر بجوار اسم بعض الخلفاء عبارة أمير المنافقين بدلاً من أمير المؤمنين. وقد ظن ناشر هذا الكتاب أن المؤلف أو الناسخ قد أخطأ في كتابة هذه العبارة وصححها في المتن إلى «أمير المؤمنين»^(٢)، مع أنها قد يكون لها مدلول تاريخي هام كما هو واضح.

يتضح مما تقدم أن كلا من خلافة القاهرة أو خلافة تونس، لم تسد الفراغ الروحي الذي تركته خلافة بغداد، فلماذا بقي نفوذهما ضعيفا ومحدودا إلى أن قضى عليها معا الأتراك العثمانيون في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)^(٣)، وصار السلطان العثماني بعد ذلك يجمع في يديه السلطتين الزمنية والروحية، فكان ذلك لبداية عصر جديد.

(١) توجد نسخة خطية من هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء بمكتبة البلدية بالاسكندرية رقم ٣٥٥٣ ر. وقد نشر هذا الكتاب الأستاذ عزت العطار الحسيني الدمشقي بعنوان: تراجم رجال القرنين السادس والسابع (القاهرة ١٩٤٧).

(٢) قارن بين النسخة الخطية لوجه ٢٣٥ والكتاب المطبوع ص ٢١٣.

(٣) خلافة القاهرة انتهت في سنة ١٥١٧ م (٩٢٢ هـ) بينما انتهت خلافة

تونس سنة ١٥٧٤ م، (٩٨١ هـ).

- ٣ -

الوزارة والحجابة

في المغرب والاندلس

الوزارة في المشرق :

بعد الخلافة تأتي الوزارة من حيث الأهمية الإدارية في النبوة : ونظام الوزارة فارسي قديم وليس من مستحدثات الاسلام . ولهذا اختلف اللغويون حول أصل وزير هل هو فارسي من كلمة Wi - chir ^(١) ، أي الرئيس الذي يحكم ، أم هو عربي من الوزر وهو الثقل والعبد ، أو من الوزر وهو الملجأ أو المعتصم ، بمعنى أن الوزير يحمل الثقل عن الخليفة أو أنه ملجأ يلجأ اليه الخليفة في الامور الهامة ^(٢) .

ومها يكن من شيء ، فقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم ^(٣) ، وعرفه

(١) راجع :

(Concise Encyclopaedia of Arabic civilization, art. Vizier p.555)

(٢) راجع حسن ابراهيم حسن و علي ابراهيم حسن : النظام الاسلامية

ص ١١٢ ، طبعة ١٩٦٢ .

(٣) قال تعالى : واجعل لي وزيراً من أهلي ، عارون أخى ، أشد به أزرى

وأشركه في أمرى .

(سورة طه ٢٠ : ٢٩ - ٣١)

العرب أيام الرسول (١) ، وفي عهد الخلفاء الراشدين ، وخلفاء بني أمية (٢) ، من حيث أن الخلفاء كانوا يرجعون إلى مستشارين ، أو أصحاب رأى فيما يحتاجون إليه من أمور . فمؤلاء الأشخاص كانوا يقومون بعمل الوزير ، إلا أنهم لم يحملوا هذا اللقب إلا نادرا .

ثم جاءت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، ومتأثرة بتقاليدهم ونظمهم ، فجعلت الوزارة اختصاصات معينة وقواعد معينة ، من أهمها الاشراف على الشؤون المالية ، فالوزير هو المختص بحسابات الدولة من دخل وخرج ونفقات ، وهذا كان يتطلب منه دراية واسعة بإيرادات الدولة ومواردها الاقتصادية في مختلف الأقاليم والامصار . وقد حفظت لنا المراجع الاسلامية عددا من قوائم الخراج التي كانت تمثل إيرادات الدولة العباسية ، مثل قائمة الجهشيارى (٣) (ت ٨٣٣) في كتابه الوزراء والكتاب ، وهي تمثل الخراج في عصر الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) ، وقائمة ابن خلدون في مقدمته ، وهي منسوبة إلى عصر المسأبون (٤) (١٨٩ -

(١) يقال إن العرب الذين اختلطوا مع الروم والفرس قبل الاسلام وعرفوا هذا الاسم عنهم كانوا يسمون أبا بكر وزير النبي ، كذلك كان حال عمر مع أبي بكر .

(٢) كان الكاتب يقوم مقام الوزير في الدولة الاموية .

(٣) راجع (الجهشيارى . الوزراء والكتاب ص ٢٨١ ، محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج في الدولة الاسلامية ص ٢٢ وما بعدها) .

(٤) راجع (مقدمة ابن خلدون ص ١٧٩ ، محمد الخطرى : محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ص ٢٧١ ، جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ص ٢٦) ومحمد ضياء الدين الرئيس ص ٢٨٨ .

(١٢٨ هـ) ، وقائمة ابن خرداذبة في كتابه المسالك والممالك ، وهي تمثل خراج الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري^(١) ، وقائمة قدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) في كتابه الخراج وصناعة الكتابة ، وهي تمثل الخراج الكلى للدولة العباسية^(٢) .

فالوزير بحكم اختصاصه كان هو المشرف على ديوان الخراج في الدولة (الدخل) ، كما كان هو المشرف أيضا على ديوان النفقات (المنصرف) ، وهي النفقات المنصرفة على قصر الخلافة . وقدرة الوزير تظهر حينما يرى المعجز في الميزانية بين الدخل والمنصرف ، فيتخذ التدابير اللازمة لتلافي الأمر وسد العجز . وإلى جانب هذه النواحي المالية والاقتصادية ، كان الوزير أيضا هو المختص بفن الانشاء ، وذلك - كما يقول السارودي - كي يسترق قلوب الرجال بخلاصة لسانه وحسن بيانه . لهذا جرت العادة أن يكون الوزير من بلغاء اللغة ، لانه هو الذى يتولى بنفسه الاشراف على ديوان الرسائل الذى سمي فيما بعد بديوان الانشاء ، وأيضا على ديوان الخاتم الذى تختم فيه رسائل الدولة . كذلك كان على الوزير أن يلم بأصول الآداب السلطانية ليعرف كيف يعامل الخلفاء ، وأن يكون دارسا كذلك لعقلية الجماهير ليعرف كيف يسوسهم ... الخ . هذا وكان للوزير العباسى لباس خاص عرف بالسواد وهو شعار الدولة العباسية ،

(١) ، (٢) لشردى غوية De Goeje نبدأ من كتاب الخراج اقدمه بن جعفر مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة (لیدن ١٨٨٩ م)
راجع كذلك (محمد ضياء الدين الرئيس : المرجع السابق ص ٤٣٥)

كما كانت له دار خاصة عرفت بدار الوزارة بجوار قصر الخلافة .

وهكذا نجد أن الوزارة أيام العباسيين ، أصبح لها من حيث المظهر والاختصاص والتسمية ، طابع جديد لم يوجد من قبل ^(١) ، وفي هذا يقول ابن خلدون : -

« فلما جاءت دولة بني العباس ، واستفحل الملك ، وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد ، وتعيين مرتبته في الدولة ، وعنت لها الوجوه ، وخضعت لها الرقاب ، وجعل لها النظر في ديوان الحسبان ، لما تحتاج إليه خطته من قسم الاعطيات في الجند ، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه ، وأضيف إليه النظر فيه . ثم جعل له النظر في القلم والرسيل لصون أسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور ، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذباع ، ودفع إليه ، فصار اسم الوزير جامعاً لحظي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دعى جعفر بن يحيى البرمكي ، بالسلطان أيام الرشيد ، إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة التي هي القيام على الباب ، فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك . » ^(٢)

هذا ويلاحظ أن معظم وزراء العباسيين كانوا من عائلات فارسية ،

(١) راجع (S.D.) : The origin of the vizirate and its true character; in Islamic Culture, Vol XVI 1942).

(٢) ابن خلدون . المقدمة ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

كأسرة البرامكة ، وبني سهل ، وبني طاهر ، وبني الفرات ، وبني الجراح ،
وبني خاقان ، وبني وهب ... الخ (١) .

وحينما ضعف نفوذ الخلفاء العباسيين ، تحول السلطان والنفوذ من الخلافة
إلى الوزارة ، وهنا أخذت الوزارة معنى آخر ، فبعد أن كانت وزارة
تنفيذ ، أصبحت وزارة تفويض (٢) ، أى بعد أن كان الخليفة يأمر
والوزير ينفذ ، صار الخليفة يفوض إلى وزيره تصريف جميع أمور الدولة ،
بينما بقي هو كالمحجور عليه .

ولما استبد بالخلافة العباسية أسرة بني بويه الفرسى ، أنف هؤلاء من
اتخاذ لقب وزير ، وطمعوا فى ألقاب الامارة والسلطنة ، فاتخذوا لقب أمير
الامراء ، ثم جاء من بعدهم الأتراك السلاجقة ، فغيروا هذا اللقب ، واتخذوا
لقب سلطان ، وصار بيدهم ، كما حدث للبويهيين من قبل ، الأمور
السياسية والحربية مما . أما لقب وزير ، فقد ظل باقيا ، إلا أن مكانته
انحطت بعد أن زالت عنه جميع اختصاصاته ، وصار عمله محدودا كـ كاتب
للخليفة أو كاتم لأسراره .

وما يقال عن وزارة العباسيين ، يقال أيضا عن وزارة الخلافة الفاطمية
فى القاهرة ، من حيث أنها بدأت هى الأخرى ، منذ خلافة العزيز بالله ،

(١) راجع (حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ١٢٦)
(٢) راجع الفرق بين إختصاصات وزارات التنفيذ والتفويض فى كتاب
(الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٣٦ وما بعدها)

بوزارة تنفيذ ، ثم أصبحت وزارة تفويض حينما ضعف نفوذ الخلفاء الفاطميين ، وسيطر على الدولة أمير الجيوش بدر الجمالي وأولاده من بعده ^(١) . فنظام إمرة الجيوش في أيام الفاطميين ، كان يشبه نظام إمرة الأمراء في عهد العباسيين .

هذا عن نظام الوزارة باختصار في المشرق الاسلامي .

الوزارة في المغرب :

أما في بلاد المغرب ، فنلاحظ أن الدول الاسلامية الاولى التي قامت هناك ، لم يظهر فيها لقب وزير ، باستثناء دولة الاغالبة التي اتخذ بعض أمرائها وزراء في دولتهم ، مثل الاغلب بن عبد الله المعروف بقلون الذي كان وزيرا لاختيه الأمير زيادة الله الاول بن الاغلب ^(٢) ، ومثل نصر بن حمزة وزير أبي العباس محمد بن الاغلب ^(٣) ، وعبد الله بن الصائغ الذي كان وزيرا وصاحب البريد في عهد زيادة الله الثالث الاعلى ^(٤) . إلا أنه يلاحظ أن نفوذ وزراء الاغالبة كان ضعيفا ، حتى كاد لقب الوزير عندهم أن يكون لقباً تشريفيًا . ولعل السبب في ذلك يرجع الى أن الاغالبة - رغم استقلالهم - كانوا يحكمون باسم خلافة بغداد ، وقد اعتادوا أن يكونوا عمالا لها من قديم في هذه المنطقة مما جعلهم يباشرون أعمالهم بأنفسهم منذ بداية دولتهم .

(١) راجع (عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ١٥ ص ٧٨)

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ١ ص ١٢٤ ، ١٢٥

(٣) ابن عذاري : نفس المرجع ص ١٤٢

(٤) ابن عذاري : نفس المرجع ص ١٨٣

أما الإدارة في فاس ، والرساميون في تاهرت ، والمداريون في سجلماسة ،
والفاطميون إبان حكمهم في المغرب ، فعلى الرغم من أنهم استعانوا بمن
عاونهم في الحكم ، إلا أنهم لم يطلقوا عليهم لقب وزير . فالفاطميون
مثلا لم يتخذوا الوزراء إلا في القاهرة ومنذ أيام الخليفة العزيز (٣٦٥-٤٣٨٦هـ) ،
وفي ذلك يقول المقرئ : « وأول من قيل له الوزير في الدولة الفاطمية ،
الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله ، ^(١) . هذا ، وقد ذكر استاذنا
الدكتور حسن إبراهيم حسن ^(٢) ، دون أن يشير إلى المصدر الذي نقل
عنه ، أن الخليفة المعز لدين الله ، اتخذ جوهر الصقلي وزيرا له سنة ٣٤٧ هـ .
بالمغرب ، وأغلب الظن أن كتاب الخطط للمقرئ ، هو مصدر هذه الرواية ،
إذ يقول : « وجوهر هذا مملوك رومي ، رباه المعز لدين الله ، وكناه
بأبي الحسين ، وعظم محله عنده في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، وصار
في رتبة الوزارة ، فصيده قائد جيوشه . » ^(٣) وهذه العبارة السالفة ، قد
تعني أيضا أن جوهر الصقلي ؛ قد ارتفع شأنه عند مولاه المعز حتى صار في
مرتبة الوزير ، ولكنه لم يحمل لقب وزير ، بل كان قائدا لجيوش
الدولة . وقد يؤيد ذلك قول ابن خلدون بصدد خطة الوزارة :

« ثم جاءت دولة الشيعة بإفريقية والقيروان ، وكان للقائمين بها رسوخ

(١) المقرئ : الخطط ٢ ص ٣٠٤ (طبعة النيل)

(٢) راجع (حسن إبراهيم حسن وطلحة شرف : المعز لدين الله ص ١٤٦-١٤٧)

(٣) راجع (المقرئ : الخطط ٢ ص ٢٠٥) (طبعة النيل) ، انمعاظ

(الختفا ص ١٣٥)

في البداية ، فأغفلوا امر هذه الخطط أولاً ^(١) .

على أن الفاطميين وإن كانوا قد أغفلوا خطة ^(٢) الوزارة في المغرب ، إلا أنهم لم يغفلوا خطة الحجابة منذ قيام دولتهم . وقد أعطانا ابن عذاري قائمة بأسماء حجاب الخليفة عبيد الله المهدي بقوله :

« واستحجب أبا الفضل جعفر بن علي ، وأبا أحمد جعفر بن عبيد وأبا الحسن طيب بن اسماعيل المعروف بالحاضن وأبا سعيد عثمان بن سعيد المعروف بمسلم السجلباني ^(٣) » .

ويلاحظ أن معظم هؤلاء الحجاب كانوا من القادة العسكريين الذين شاركوا في الأعمال الحربية برا وبحرا ولاسيما في صقلية . وهم في هذا يشبهون حجاب ^(٤) الأغلب الذين حكموا هذه البلاد قبل الفاطميين .

ولقد برز من حجاب الفاطميين ، أبو أحمد جعفر بن عبيد الذي غزا جنوب إيطاليا عن طريق صقلية في سنة ٣١٣ هـ (٩٢٤ م) ^(٥) وكذلك

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٠

(٢) الخطة (بضم الخاء) تعني النظام Institution ، والجمع خطط .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ص ٢٠٩

(٤) من حجاب الأغلب نذكر محمد بن قرقب ، والحسن بن أحمد بن نافذ على عهد إبراهيم الثاني الأغلب . راجع (ابن الخطيب : أعمال الاعلام - القسم الخاص بالمغرب - ص ١١٠ ، ص ١١٩)

(٥) ابن عذاري : البيان المغرب ص ٢٠٧

الحاجب أبو الفضل جعفر بن علي بن حمدون ، الذي استمر في منصبه في عهد الخليفة محمد القائم ^(١) بن المهدي ، وشارك في إخضاع ثورات الخوارج وغيرها من العمليات العسكرية الأخرى . ويروي المقرئ أن المعز لدين الله ، لما عزم على الرحيل إلى مصر استدعى جعفر بن علي ، وعرض عليه أن يكون نائبه في المغرب ، غير أن جعفر اشترط لقبول هذا المنصب شروطا تجعله شبه مستقل عن مصر . وقد غضب المعز لذلك وقال له : « يا جعفر ، عزلتني عن ملكي ، واستبددت بالأعمال والأموال دوني اثم فقدت أخطأت حظك » ، ثم استدعى يوسف بلطكين بن زيري بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة ، وأسند إليه ولاية المغرب بعد أن حدد كثيرا من اختصاصاته. ^(٢)

الوزارة في الأندلس :

أما في الأندلس ، فقد وجدت خطة الوزارة منذ قيام الدولة الأموية ، ويشهد بذلك ابن عذارى الذي أورد في ترجمة كل أمير أموي ، عدد وزرائه وأحيانا يذكر أسماءهم أيضا ^(٣) . وكان منصب الوزير في بادئ الأمر ، يشبه في مدلوله ما كان سائدا في بقية أنحاء العالم الإسلامي ، ثم جاء الأخير

(١) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٢٩٥

(٢) المقرئ : المخطوط ٢ ص ١٦٥ - ١٦٦ ، انماط الخلفاء ص ١٤٢ -

١٤٣ .

(٣) راجع تراجم أمراء وخلفاء الأندلس في الجزء الثاني من كتاب البيارات

المغرب لابن عذارى .

عبد الرحمن الثاني (٢٠٧ - ٢٣٨ = ٨٢٢ - ٨٥٢ م)، الذي أعاد ترتيب الجهاز الحكومي في الأندلس، وأجرى تعديلات في الوظائف العامة التي كانت الوزارة واحدة منها، فخصها بعنايته وقسمها إلى عدة وزارات مختلفة. وقد أمدنا كل من ابن حيان وابن خلدون، وابن سعيد، بمعلومات هامة عن هذه القاعدة الثانية في الدولة، فقال ابن حيان :-

والأمير عبد الرحمن، أول من ألزم الوزراء على الاختلاف إلى القصر كل يوم والتكلم معهم في الرأي، والمشورة لهم في التوازل. وأفرد لهم بيتا رفيعا داخل قصره مخصوصا بهم، يقعدون إليه، ويجلسون فيه فوق أرائك قد فضدت لهم. فكان يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه جماعة وأشتاتا، ويخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته، ويفحص معهم الرأي فيما يبرمه من أحكامه، وإذا قعدوا في بيثهم (أى بيت الوزارة)، أخرج رقاعة ورسائله إليهم بأمره ونهيه، فينظرون فيما يصدر إليهم من عزائمه ... ويجرى على ذلك من تلامه، (١).

ويشير ابن عذارى إلى أن وزراء الأمير عبد الرحمن الثاني كانوا تسعة، وأن رزق كل واحد كان ثلاثمائة دينار (٢).

ولم يحدد ابن عذارى المدة المستحقة لهذا الراتب، وإن كان يبدو

(١) ابن حيان : المقتبس في أخبار بلد الأندلس لوحة ٩٩٦، الجزء الخامس بعصر الحكم الرضوي وولده عبد الرحمن الثاني، نشر محمود مكي (تحت الطبع).

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦١ - ٦٢

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ص ٢ - ١٢١

أنه عن كل شهر في الغالب^(١)، وهذا يعتبر قليلا إذا قورن براتب الوزير في بغداد أو القاهرة أو في قرطبة فيما بعد^(٢)، كما يعتبر في الوقت نفسه مناسبا إن قورن مثلا براتب وزير الخفصيين في تونس^(٣).

أما ابن خلدون ، فقد أمدنا ببعض التفصيلات عن اختصاص كل وزير في الخطة بقوله :-

«وأما دولة بني أمية بالاندلس ، فأبقوا^(٤) اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافا ، وأفردوا لكل صنف وزير ، فجعلوا لحسبان المال وزيرا ،^(٥) وللرسيل وزيرا ، وللنظر في حوائج

(١) راجع (Lévi-Provençal : Histoire de L'Espagne

musulmane, tome III p.18.

(٢) من أمثلة ذلك الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز الفاطمي بالقاهرة ، ويحيى بن هبيرة وزير المقتنى العباسي في بغداد ، وأحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير عبدالرحمن الناصر في قرطبة ، الذي بلغ راتب كل منها حوالي مائة ألف دينار السنة وهو رقم مبالغ فيه . راجع (Levi-provençal : Op.cit. III p.21)

حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ١٣٨) .

(٣) راجع (ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، الجزء الخاص بوصف إفريقية - ص ٢٠ نشر حسن حسني عبد الوهاب)

(٤) وردت هذه الكلمة في الأصل : فأنفوا ، وأعلمها فأبقوا ، على أساس أن منصب الوزير كان موجودا في الدولة الأموية منذ قيامها ، ثم أدخلت عليه تعديلات اقتضت تقسيمه على عدد من الوزراء

(٥) يفهم من عبارة ابن خلدون ، أن حسان المال أي الإشراف على =

المتظلمين وزيرا ، ولتنظر في أحوال أهل الثغور وزيرا ، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش متضدة لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ، ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم ، وتخصوه باسم الحاجب . ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم (١) .

هذا ، ويعتقد ابن سعيد المغربي ، أن مناصب الوزارة في الاندلس . كانت لأهميتها كالتوارثة عندهم في البيوت والعائلات المعروفة (٢) .

من هذه النصوص السابقة ، نفهم انه كان يوجد بالاندلس على عهد

== الشئون المالية من دخل وخراج في الدولة كان من اختصاص وزير من وزراء الدولة الاموية ، غير أن ابن سعيد المغربي جعلها في يد شخص آخر يسمى بصاحب الاشغال الخارجية ، وكيفما كان الامر ، فلقد أمدتنا كتاب المحالك في كلامها عن الاندلس ، بمعلومات هامة عن جباية الاندلس في عهد الامويين ، ومشال ذلك أن جباية الاندلس من الكور والقرى في أيام عبد الرحمن الاوسط . كانت ألف ألف دينار في السنة . وكانت قبل ذلك لآنزيد على ستائة ألف دينار . أما في عهد عبد الرحمن الناصر فقد بلغت الجباية خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفا من السوق ، والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار . وقد قسم الناصر هذه الجباية على ثلاثة أثلاث : ثلث للجند ، وثلث للبناء ، وثلث مدخر . راجع (المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٤١ ص ١٩٦ ابن عذارى ج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٢)

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣٩ - ٢٤٠

(٢) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، ومشال ذلك بنو حدير ، وبنو أبي عبدة ، وبنو شهيد ، وبنو فطيس ، وكلهم من موالى الامويين المشرقيين أو الاندلسيين راجع (ابن الأبار : البحلة السيرة ج ١ ص ١٢٠ حاشية ٣) .

الدولة الاموية ، وزارة متعددة المناصب ، لها رئيس وزراء وهو الحاجب الذى يتصل بالخليفة . وهذا التعدد فى مناصب الوزراء ، لانجده فى نظام الوزارة بالشرق العربى ، حيث كانت السلطة مركزة فى يد وزير واحد وقلم واحد وزيران . أما فى الاندلس . فكل ناحية من نواحي الادارة العامة لها وزير مختص بها ، ثم هناك الرئاسة العامة وهى الحجابة ، وهناك بيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء فى قصر الخليفة . فالوزارة فى الاندلس كانت قرية الشبه بنظم الوزارات الحديثة ، وهى فى هذا تختلف عن نظام الوزارة المعروف فى المشرق فى العصر الوسيط .

ومن الطريف أن ابن حيان حينما يتكلم عن وزراء الامير عبد الرحمن الارسط ، يذكر من بينهم وزيرا سكندريا ذهب إلى الاندلس فى صباه وظل يترقى إلى أن صار وزيرا ، فيقول : « ومن وزرائه عبد الواحد ابن يزيد الاسكندرانى الذى حضر إلى الاندلس وهو فقى ، وكان يشدو شيئا من الغناء على مذهب الفتيان ، فأمره الحاجب عيسى بن شهيد بقوله : أمسك عن الغناء البتة ، فإنه يربيك لدينا ، وتحقق بأدبك ، وتنبه لحظك ، فلك خصال تجذب بصنعك . » ففعل عبد الواحد ذلك ، ولزم عيسى ، فظل يترقى فى منازل الخدمة حتى رقى إلى الوزارة والقيادة (١) .

هذا ويلاحظ أن ابن حيان ، قد ذكر فى موضع آخر من كتابه (٢) اسم هذا الوزير السكندرى ضمن قواد الامير عبد الرحمن الثانى ، وهذا يثبت

(١) ابن حيان : المرجع السابق لوجه ١٩٧ ، ولعله يريد بغناء الفتيان هذا

هو ملاكان شاعرا من غناء بين فتيان قرطبة .

(٢) ابن حيان : المرجع السابق ورقة ١٩٧ .

ماقاله آنفا من أنه قد رقى إلى الوزارة والقيادة .

وفى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، أعلق لقب « ذوالوزارين » على بعض الوزراء والحجاب فى الأندلس . وقد سبق أن استخدم هذا اللقب فى المشرق أيضا على عهد العباسيين ، ومثال ذلك الخليفة المأمون الذى منحه لوزيره الفضل بن سهل . والمراد بتلك التسمية هنا ، أن صاحبها يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية معا ، ولهذا يقال له أيضا : صاحب السيف وصاحب القلم ، وقد يجمعان معا فيقال « ذوالوزارين » أو « ذوالرياستين » (١) .

إلا أنه يبدو أن استعمال هذا اللقب فى الأندلس ، قد اختلف فى مدلوله عن المشرق ، إذ يلاحظ أن الخليفة عبد الرحمن الناصر ، قد أنعم به على وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٩) ، نتيجة للهدايا الثمينة الفاخرة التى أتحنف بها هذا الوزير الثرى ، عندئذ ضاعف له الخليفة راتبه ولقبه بذى الوزارتين .

وقد وصف المقرئ هذه الحادثة نقلا عن ابن حيان وابن خلدون بقوله :
وكان الناصر قد استحجب موسى بن محمد بن حدير : واستوزر عبد الملك بن جهور وأحمد بن عبد الملك بن شهيد . وأهدى له ابن شهيد هديته المبهورة المتعددة الأصناف ، وقد ذكرهما ابن حيان وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين ، قال ابن خلدون :

(١) محمد الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - ٢ ص ٢٥٠

وهي مما يدل على ضخامة الدولة الآدوية ، واتساع أحوالها ، وكان ذلك سنة سبع وعشرين وثلثمائة ، ثمان خلون من شهر جمادى الأولى ، وهي هدية عظيمة الثمن ، اشتهر ذكرها إلى الآن ، وانفق على أنه ثم يهاد أحد من ملوك الأندلس ، بلها ، وقد أعجبت الناصر وأهل مملكته جميعا . وأقروا أن نفسا لم تسمع بإخراج مثلها ضربة عن يدها ، وكتب معها رسالة حسنة بالاعتراف للناصر بالنعمة والشكر عليها ، فاستحسنها الناس وكتبوها وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصا وأسمى منزله على سائر الوزراء جميعا ، وأضعف له رزق الوزارة ، وبلغه ثمانين ألف دينار أندلسية ، وبلغ معروفه إلى ألف دينار ، وثنى له العظمة لثنيته له الرزق فسماه « ذا الوزيرين » ، لذلك ، وكان أول من تسمى بذلك بالأندلس امثالا لاسم صاعد بن مخلد وزير بنى العباس ببغداد ، وأمر بتصدير فراشه في البيت ، وتقديم اسمه في دفتر الارتزاق أول التسمية . فعظم مقداره في الدولة جدا . (١)

وأضح من هذا النص السابق أن لقب « ذى الوزيرين » الذى لقب به ابن شهيد لم يكن معناه صاحب السيف والقلم ، بل كان لقباً تشريفياً مثل لقب « ذو السيفين » الذى منحه الخليفة الحكم المستنصر لقائده غالب بن

(١) راجع (المقرئ نفتح الطيب - ١ ص ٣٣٣ - ٣٣٤ . وقد ورد فى نفس هذا المرجع تفصيل لهذه الهدية نفلا عن ابن خلدون وابن الفرضى وهى كالآتى : خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين ، وأربعمائة رطل من التبر ، ومصارفه خمسة وأربعين ألف دينار ، ومن سبائك الفضة مائتا بكرة ، واثنان عشر رطلا من العود الذى يتختم عليه كالشمع ، ومائة وثمانون رطلا من العود المختير .

عبد الرحمن . بعد أن قلده سيفين عقب انتصاره على الإدارة في المغرب
سنة ٣٦٤ هـ (١)

ولما ضعفت الخلافة الأموية في الأندلس ، أخذ نفوذ الحاجب يقوى
شيئا فشيئا حتى استبد بكل أمور المملكة دون الخليفة ، وصار اختصاصه
يشمل الشؤون المدنية والعسكرية . وتنفيى الإشارة هنا إلى ما سبق أن
بيناه آنفاً ، وهو أن الحاجب في الأندلس ، لم يكن ذلك الرجل الذى
يقف بباب الخليفة ليحجبه عن الخاصة والعامة ، كما كان الحال في الشرق ،
ولمّا قصد به رئيس الوزارة أو ما يسمى بالوزير في المشرق (٢) .

ولقد برز من هؤلاء الحجاب الأقوياء في الأندلس : جعفر بن هشان
المصحف ثم المنصور بن أبي عامر وأبناؤه من بعده . وحسين بن
نقيب هنا بعض فقرات لابن عذارى يصف بها مدى النفوذ الذى
بلغه المنصور بن أبي عامر بقوله :

وفى سنة ٣٧١ هـ تسمى ابن أبي عامر بالمنصور ، ودعى له عسلى
المنابر استيفاء لرسم المالك ، فكانت الكتب تفضل عنه . من الحاجب

(١) مفاخر البربر مؤلف مجهول ص ١٢ ، راجع كذلك

(Lévi - Provençal Histoire de L'Espagne Musulmane
tome III , p.21 - 22) .

(٢) يلاحظ أن بعض الحجاب الأقوياء أمثال المنصور أبي عامر قد سمي
الخليفة هشام عن رعيته ، ولكن هذا كان إلى جانب صفته الاسامية كرئيس
للوزراء .

المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر إلى فلان . وأخذ الوزراء بتقبيل يده ، ثم تابعتهم على ذلك وجوه بني أمية ، فكان من يدخل عليه من الوزراء وغيرهم يقبلون يده ، ويخضعون له عند كلامه ومخاطبته ، فانقاد لذلك كبيرهم وصغيرهم ... فسأرى محمد بن أبي عامر الخليفة في هذه المراتب ، وشاركه في تلك المذاهب ، ولم يحمل فرقا بينهم وبينه إلا في الاسم وحده في تقدير الكتب عنه ، حتى تامت حاله في الجلالة . وبلغ غاية العز والقدرة (١) .

ويبدو أن لقب وزير في ذلك الوقت ، قد أخذت مكانته تضيف نتيجة لازدياد سلطة الحاجب في الدولة . وقد يدل على ذلك ما رواه ابن خلدون في كتابه "المقدمة" ، من أن زعيم قبيلة مغراوة الزانية ، زيري ابن عطية ، احتقر لقب الوزير الذي انعم عليه به المنصور بن أبي عامر ، لدرجة أنه صاح غاضبا في وجه أحد رجاله حينما ناداه بالوزير : وزير من بالكع ! لا والله إلا أمير بن أمير . راجعا لما بن أبي عامر ومخرقته ، لأن تسمع بالمعدي خير من أن تراه ! ، والله لو كان بالاندلس رجل ، مانرکه على حاله (٢) .

ولما سقطت الدولة الأموية ، وقامت على انقاضها دويلات ملوك الطوائف ، ترفع هؤلاء الملوك عن استعمال لقب وزير ، وأخذ بعضهم لقب الحاجب مثل سابور الفارسي ، أول من استقل بمنطقة بطليوس ،

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٤١٧ - ٤١٨

(٢) راجع (ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ٤٠ ، ابن أبي زرع : روض القرطاس

ج ١ ص ١٦١ - ١٦٢ ؛ السلاوي : الاستقصا ج ١ ص ٢١١)

وباديس بن جبرس ملك غرناطة ، واحمد بن قاسم أمير ولاية البونث Alpuente من أعمال بلنسية (١) . كذلك زاد استعمال الألقاب التشريعية المزدوجة في أيام ملوك الطوائف مثل : ذو الوزارتين ، ذو الرياستين ، ذو السيادتين ، ذو المجدين ، بالإضافة إلى ألقاب الملك والسلطنة والخلافة . وهكذا انحطت مرتبة الوزير عندهم ، وصارت تمنح للطبقة الوسطى من الموظفين والكتاب وشيوخ القرى (٢) .

الوزارة على عهد المرابطين :

ولما جاء المرابطون ، أعادوا لهذه الخطة مكانتها القديمة ، واحتل الوزير في أيامهم مكانا بارزا في الدولة . ويلاحظ أن كتابات المعاصرين - أمثال ابن عبدون والطراطشى - قد أشادت بالمركز الممتاز الذى كان يحتله الوزير في نظم المرابطين ، على اعتبار أنه الشخص المقرب من السلطان ، والذى يحضر مجلسه ، فهو - على حد قول الطراطشى - « بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه ، وفى الأمثال نعم الظهير الوزير » (٣) .

ومن المعروف أن دولة المرابطين ، كانت دولة إسلامية مجاهدة ، يقوم

(١) الحميرى : الروض المعطار ص ٥٦ والترجمة الفرنسية ص ٧١ .

(٢) أنظر (Levi-provençal : Histoire de L' Espagne musulmane tome III p. 20 - 21; Inscriptions arabes d'Espagne p. 66 et note 2)

(٣) أبو بكر الطراطشى : مراجع الملوك ص ٧٠ ، ابن هيدون : رسالة فى القضاء والحسنة ص ١٤ - ١٥ نشر ابنى بروفنسال (القاهرة ١٩٥٥) : حسن أحمد

محمد : قيام دولة المرابطين ص ٣٦٢

نظام الحكم فيها على أسس عسكرية ، فأُمير المسلمين هو قائد الجيش الأعلى ، ومعاونوه هم قواد الجيش . لهذا كان من الطبيعي أن يتسم منصب الوزير بالطابع العسكري كذلك . ولكن لما كان الأمر يتطلب من الوزير أيضا ، كتابة الوثائق والمراسيم وصياغتها ، وهو ما يقابل عندنا في مصر كاتب ديوان الانشاء في العصر الوسيط ، فقد وجد في دولة المرابطين صنفان من الوزراء :

- (١) وزراء عسكريون من قادة الجيش ، وهم من قرابة السلطان عادة أو من قبائل لمتونة وصنهاجة التي قامت على أكتافها دولة المرابطين .
- (٢) وزراء كتاب وهم من الفقهاء .

وينبغي أن نلاحظ هنا أن كلمة فقيه في الاصطلاح العلوي الاسلامي ، هو العالم بالاحكام الشرعية الا انه لم يلبث أن تطور استعمال هذا اللقب في المشرق ، وصار يطلق على دارس الفقه عموما من الطلبة . ومثال ذلك قول الذهبي متحدثا عن المدرسة المستنصرية ببغداد : « وعدد فقائها مائتان وثمانية وأربعون فقيها من المذاهب الاربعة ، وأربعة مدرسون^(١) » . فأطلق لقب الفقهاء على الطلاب فحسب ، وبمثل ذلك أطلق ابن السبكي لقب الفقيه والفقهاء على الطلاب^(٢) . أما في المغرب والاندلس ، فلم تكن كلمة

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٨٥ ، محمد عبد الرحيم غنيمه : تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى ص ٢٣٠
 (٢) ابن السبكي : معجم النعم ص ١٠٨ : محمد عبد الرحيم غنيمه : المرجع السابق .

فقيه قاصرة على المشتغل بالغة فحسب . وإنما توسعوا في استعمالها ، فأطلقوها على الرجل المتف بصفة عامة ، وفي ذلك يقول ابن سعيّد : « وسنة الفقه عندهم جليّة ، حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذى يريدون تنويمه بالفقيه ، وهى الآن بالمغرب بمنزلة القاضى بالشرق ، وقد يقولون للكاتب والنحوى والمغوى فقيه لأنها عندهم أرفع السمات (١) » .

بهذا المعنى العام لكلمة فقيه ، كان وزراء المرابطين الكتّابيون وقضائهم ، وقد نص صاحب كتاب الحلل الموشية على أن يوسف بن تاشفين ، اتخذ وزيراً عسكرياً وهو ابن عمه وصهره سير ابن أبى بكر (٢) الذى قضى على ملوك الطوائف بالأندلس ، كما اتخذ وزيراً كاتباً وهو الوزير الفقيه أبو محمد بن هبة الغفور ، الذى كان - على حد قوله - « علم بلاغة به يهدى ، وإمام شرف قدمه العلم والندى ، وعاصر مجدهم الغاية والهدى » (٣) . ثم يضيف صاحب الحلل الموشية ، أن هذا الوزير الأخير ، هو الذى كتب باسم يوسف بن تاشفين نص ولاية العهد لابنه الأمير أبى الحسن هلى بن يوسف بن تاشفين (٤) .

(١) المقرئ : نفح الطيب ١ ص ٢٠٦ ويلاحظ على سبيل المثال أن ملك غرناطة محمد الثانى بن الأحمر كان يلقب بالفقيه .

(٢) الحلل الموشية لمؤلف مجهول ص ١٣ ، ٥٩

(٣) ، (٤) الحلل الموشية ص ٦٣ - ٦٤ وقد ورد نص عقد البيعة فى نفس المرجع والصفحة .

ولما ولي أمير المسلمين على بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ = ١١٠٦ - ١١٤٣ م) ، استوزر القائد يفتان أويثيان بن عمر الذي كان قائدا لفرة الحشم ، ثم بعد ذلك في أواخر عهده ، استوزر ولده إسحاق بن يثيان بن عمر الذي كان شابا في الثامنة عشرة من عمره ، يتوقد ذكا ، وبلا وفها ، فأعجب به أمير المسلمين اعجابا كثيرا ، وجعل له أيضا النظر في المظالم والشكايات ، فانتفع به الناس . وقد تولى هذا الوزير في أواخر أيام دولة المرابطين ، قيادة الحملة التي استسلمت للخليفة الموحدى عبد المؤمن بن علي^(١) سنة ٥٤١ هـ (١١٤٧ م) .

كذلك اتخذ السلطان على بن يوسف ، وزراء ومستشارين من الفقهاء وكبار العلماء ، ونخص بالذكر منهم الوزير الفقيه مالك بن وهيب الاشيلي الذي شارك في جميع العلوم ، ونظم الشعر ، وكتب مؤلفات في الفلسفة والتاريخ ، نذكر منها كتابه الذي سماه « قراضة الذهب في ذكر لثام العرب » ، ضمنه لثام العرب في الجاهلية والاسلام ، وضم إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب .

ولقد كان لهذا الوزير موقفا تاريخيا مشهورا خلال المناظرة التي قامت في حضرة السلطان على بن يوسف ، بين فقهاء المرابطين والفقيه محمد بن تومرت ، الذي كان نائرا على الاوضاع الاجتماعية في الدولة المرابطية . فبروى المؤرخون أن مالك بن وهيب لما سمع كلام ابن تومرت ، استشعر سدة نفسه ، وذكا خاطره ، واتساع عبارته . فأشار على أمير المسلمين

(١) راجع (كتاب الحلل المشية لمؤلف مجهول ، ص ٩٨ ، ٨٣) وكذلك :
(J. Hopkins : Medieval Muslim Government in Barbary. P.7)

بقتله أو اعتقاله قبل أن يستفحل خطره ، لأنه رجل مفسد ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه . غير أن علي بن يوسف توقف في قتله أو اعتقاله ، وأبى ذلك عليه فإنه إدم ثبوت التهمة عليه (١) . وقد صح ما توقعه مالك بن وهيب ، إذ أنه على يد هذا الفقيه السوسى ابن تومرت قامى دولة الموحدين التى قضت على دولة المرابطين فى المغرب والأندلس .

الدولة هي هذه الموحدين :

ودولة الموحدين تشبه دولة المرابطين فى وجوه كبيرة ، إذ أنها قامت هى الأخرى على أسس دينية اصلاحية ، واصطلغت نظمها بالصيغة العسكرية ، وكان جهاد الصليبيين فى الأندلس من أهم أهدافها .

وفى بداية عهد هذه الدولة ، اعتمد المهدي ابن تومرت فى إدارة حكومته على عدد من كبار اتباعه ، كانوا بمثابة وزراءه ، وعرفوا باسم العشرة أو أهل الجماعة . وقد أورد صاحب كتاب الانساب (٢) بعض اختصاصات هؤلاء العشرة مع ذكر أسمائهم بقوله :

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٨٤ .
١٨٥ ، المقرئ : نفع العلي ص ٢٧ .

(٢) نشر المبتشرق الفرنسى قطعة من هذا الكتاب مع نصوص أخرى أهمها أخبار المهدي بن تومرت وتاريخ الموحدين لابن بكر الصنهاجى المسكن بالبيضاء ، مع ترجمة فرنسية لها تحت عنوان :

(Lévi - provençal : Documents inédits D'histoire Almohade
(Paris 1928)

وفن ذلك أهل الجماعة ، رضى الله عنهم : أمير المؤمنين أبو محمد عبد المؤمن بن علي ، كان الإمام المهدي يسميه صاحب الوقت ، واختصه بفرس أخضر ، وسليمان آخضري وكان يكتب الرسائل عن إذن الإمام المهدي ، وأبو إبراهيم اسماعيل بن يسلاى الهزرجى ، وكان يقضى بين الناس عن إذن الإمام ، وأبو عمران موسى بن تمارى الجدميوى ، وكان أمين الجماعة ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان وكان يؤم فى الفريضة عن إذن الإمام ، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاقى (١) واختصه الإمام المهدي بالدفقة ودعا له بالبركة ، وأيوب الجدميوى وهو الذى تولى فسة الاقطاع بين الموحدين فى أمر (٢) .

وفى عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي (٥٢٤ - ٥٥٥ = ١١٢٠ - ١١٦٣ م) تغير هذا النظام ، وصار للدولة وظائفها الادارية المعروفة كالوزارة والكتابة والقضاء ، ولكن بقيت مع ذلك مشيخة الموحدين للرأى والمشورة عند السلطان ، وقد عرفوا بأشياخ الرأى أو أشياخ البساط ، ولم يكن

(١) كان اسمه البربرى الاصلى فصكة بن ومزال ثم سماه ابن تومرت بأبى حفص عمر وهو المشهور بعمر ايتى ، وبأزناج ، واليه ينسب الحفصيون فى تونس ، وينسبه البعض إلى الخليفة أبى حفص عمر بن الخطاب .

راجع (المراكشى : المعجب ص ٢٢٧ ، القلشندي : صبح الأعشى ص ٥٣ ص ١٢٢ - ١٢٤ ، ابن خلدون : العبر ص ٦ ص ٢٧٥)

(٢) أبو بكر الصنهاجى (البيهقى) : أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ص ٢٣٣ .

فيما يبدو أنه من آراء مايجد من إرادة الخليفة ، إذ يقول العمري في ذلك :
« وكان لعبد المؤمن وأبنائه أشياخ من أعيانهم لعدة لهم ولأجند ، كعدة
الأمراء بمصر ، بل المرء منهم بنفسه فقط ، وإنما هم أعيان الجماعة ممن
يحضر عند سلطانهم للرأى والمشورة ، ولكل طائفة مزوار وهو كبير لهم
يقول النظر في أحوالهم ، (١) »

وكان منصب الوزير من المناصب الهامة في الدولة الموحدية ، وقد
شغله عدد من أبناء الحلفاء وأخوتهم من بني عبد المؤمن الذين كانوا يسمون
بالسادة أو الأسايد ، كما شغله عدد من أصهارهم وقوادهم وكنابهم كما كان الحال
أيام المرابطين من قبل . وكان الوزراء من السادة أى الأمراء يتخذون لأنفسهم في
غالب الأحيان ، وزراء بين أيديهم تميزا لأنفسهم عن سائر الوزراء . وعلى
الرغم من أن المصادر التى لدينا لاتسعدنا في تحديد اختصاصات الوزير
على عهد الموحدين ، إلا أنه يفهم منها أنه كان وزير تنفيذ في غالب
الأحيان ، وأنه كان يقوم بعمل الكاتب ، وبعمل الحاجب - بمذلوله
الأصلى - أى كرميس للتشريفات الذى يحجب الخليفة عن الخاصة والعامة
وبأذن للوفود بالدخول عليه مع تقديم كل فرد بذكر اسمه ونسبه
وبلده (٢) . كذلك كان الوزير ، مع ذلك النظر في الحساب والاشغال

(١) ابن فضل الله العمري مسالك الأبصار ، القسم الخاص بوصف افريقية

والأندلس ص ١٨

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٤٥٧

المالية (١) ، وإن كان البعض يجعل هذه الشؤون المالية في يد شخص آخر يعرف بصاحب الأشغال (٢) .

وكيفما كان الأمر، فإن الوزير على عهد الموحدين لم يكن صاحب النفوذ الحقيقي في الدولة ، بل كان مجرد منفذ لأوامر الخليفة . أما أصحاب النفوذ الفعلي في الدولة فهم السادة أو الأُمراء من بني عبد المؤمن الذين كان يمين منهم الولاية في المغرب والاندلس ، ويختار منهم نائب السلطان الذى ينوب عن الخليفة أثناء غيابه عن العاصمة مراكش . (٣)

هذا ويرى ابن خلدون أن خلفاء الموحدين لم يتخذوا لأنفسهم حجابا لاشتغالهم بالوزراء بهذه المهمة ، ولهذا فإن اسم الحجاب لم يكن معروفا في دولتهم (٤) إلا أننا مع ذلك نجد في السكتب المعاصرة ما يفيد من وجود حجاب لخلفاء الموحدين منذ أيام إمامهم المهدي بن تومرت . ومثال ذلك أبو محمد واسنار الذى اختصه المهدي لخدمته لما رأى من شدته في دينه وكميانه لما يرى ويسمع ، فكان يتولى وضوؤه وسواكه والإذن عليه للناس وحجابه ، والخروج بين يديه . وكان رجلا أسود من مدينة أغمات (٥)

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٢) أنظر

(Brunschvig: La Berberie orientale sous les Hafsides, II, p. 84)

(٣) أنظر

(Hopkins ; Medieval muslim government in barbary p. 11)

(٤) ابن خلدون المقدمة ص ٢٤١

(٥) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣٣٨ - ٣٣٩

أما حجاب خلفاء الموحدين بعد ذلك فأغلبهم كان من الموالى الخصيان
أشال كافور ، وعنبر ، وفضيل ، وربحان ، ومبشر وفارح (١) . وأغلب
الظن أنهم كانوا من فتيان أو عماليك الخليفة ، وأن مهمتهم كانت قاصرة على
خدمته وملازمته في جلوسه وفي غدواته وروحاته .

ومن أهم وزراء عبد المؤمن نذكر أبسا جعفر بن عطية القضاعي
المراكشي ، وأصله القديم من طرطوشة في شمال شرقي إسبانيا . وقد
جمع هذا الوزير بين الكتابة والوزارة في بادئ الأمر ، ثم انفرد بالوزارة
بعد أن استكتب عبد المؤمن رجلا من أهل بجاية يقال له أبو
القاسم القالمى .

وكان ابن عطية في الأصل كاتباً لاسحاق بن علي بن يوسف في دولة
المرابطين ، فلما انقضى أمرهم هرب وغير هيئته وتشبه بالجند ، وكان
يحسن الرمي ، فانتحط في حملة للموحدين كانت متجهة إلى رباط ماسة
في بلاد السوس جنوباً لإخماد ثورة هناك قام بها رجل ادعى الهداية اقتداءً
بالمهدي بن تومرت ، واسمه محمد بن هرد الماسي ، ولما أخذت تلك الثورة
وقتل صاحبها سنة ٥٤٨ هـ ، طلب الشيخ عمر الهنتاتي قائد الجيش الموحدى ،
من يكتب عنه بأخبار هذا النصر إلى عبد المؤمن ، فعرف بابن عطية ،
فأمر بمحضوره فحضر وكتب عنه إلى الموحدين رسالة في شرح الحال ،

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب ص ٢٦٣ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، ابن عذاري

استحسنها عبد المؤمن ^(١) ، فعينه كاتباً لدولته ، ثم ارتفعت مكانته حتى فاستوزره . وكان هذا الوزير متزوجاً أميرة لمتونيه تعرف ببنت الصحراوي وهي حفيدة عامل المرابطين يوسف بن تاشفين . وكان أخوها يحيى بن أسكر بن يوسف ، ويعرف أيضاً بابن الصحراوية من فرسان المرابطين المشهور وله بلاء شديد في مقاومة الموحدين ، ثم انقاد لهم أخيراً حين لم يجد بداً من الانقياد ، فمظمت مكانته عندهم ، وولوه قائداً على من وحيه (بتشديد الحاء) من المرابطين . ^(٢)

ويبدو أن هذه الصلة السياسية والعائلية التي تربط ابن عطية بالمرابطين كانت أساساً نكبته التي انتهت بقتله سنة ٥٥٣ هـ . إذ استغلها أعداؤه واتهموه بالتعاون مع أعداء الدولة من المرابطين ولاسيما بنى غانية حكام ميورقة ^(٣) وقالوا في ذلك شعراً يحرضون فيه الخليفة على قتله ، مثل :

قل للامام أدام الله مدته قولا تبين لذي لب حقايقه

(١) راجع نص هذه الرسالة في (السلاوي : الاستقصا - ٢ ص ١٠٠ وم بعدها) ، كذلك نشر إيفي بروفنسال عدة رسائل من إنشاء هذا الوزير الأديب في مجموع الرسائل الموحدية (ص ٣٢ - ٢٦ و ص ٧١ - ٩٣) وانظر كذلك ما رواه عنه من أشعار ونوادير في (السلاوي - ٢ ص ١١٧ - ١٢٠ ، محمد المنوفي : العلو والآداب والفنون على عهد الموحدين ص ١٦٦)

(٢) عبد الواحد المراكشي . المعجب ص ١٩٨ - ٢٠٠

(٣) راجع ابن عذارى : البيان المغرب - ٢ ص ٢٦ - ٢٧ ، ص ٣٥ - ٣٦

(Huici Miranda : Historia politica del Imperio Almohade . tomo I , p.182) .

إن الزاجين^(١) قوم قد وترتهم وطالب النار لم تؤمن بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميل لذاك ما كثرت فيهم علانقه
فبادر الحزم في اطفاء نورهم فربما عاق من أمر هوائقه
الله يعلم أنى ناصح لكم والحق أبلغ لا تخفى طرائقه
هم العدو ومن والاهم كهم فاحذر عدوك واحذر من يصادقه^(٢)

كذلك يروى صاحب المعجب أنه نقل عن الفارس يحيى بن الصحراوية إلى عبد المؤمن أشياء كان يفعلها ، وأقوال كان يقولها ، أحفنته عليه وهم باعتفاله ، فرأى الوزير ابن عطية أن يحذر صهره ، فقال لامرأته أخت يحيى المذكور : « قولى لأخيك بتحفظ ، وإذا دعرائاه غدا ، فليعتل ويظهر المرض ، وإن قدر على الهروب والحقا بجزيرة ميورقة فليفعل ، فأخبرته أخته بذلك ، فتمارض وأظهر المأبى به ، فزاره وجوه أصحابه وسأله عن عتبه ، فأسر إلى بعضهم ما بلغه عن الوزير ، فخرج ذلك الرجل الذى أسر إليه فنقل ذلك كله بجملته إلى عبد المؤمن ، فكان هذا هو السبب فى قتل الوزير أبى جعفر بن عطية^(٣) .

وواضح من كل ما تقدم ، أن نكبة الوزير كانت مرتبطة بمسألة أمن الدولة وسلامتها ، بدليل أن الخليفة لم يقتصر على قتل أبى جعفر فقط ، بل قتل أيضا أخاه أبا عقيل عطية بن عطية ، كما سجن يحيى

(١) أطلق الموحدون على المرابطين عدة تسميات مثل الزا-نه والمجسمة

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٣٦ .

(٣) عبد الواحد المراكشى المعجب ص ١٩٨ - ٢٠٠

بن الصحراوي الى أن مات في سجنه ، وهذا يذكرنا بشكبة البرامكة
وزراء العباسيين .

واستوزر عبد المؤمن بعد ذلك عبد السلام بن محمد الكومي نسبة الى
كومية قبيلة عبد المؤمن (١).

وقد كانت لهذا الوزير مصاهرة مع الاسرة الحاكمة حيث أن والد
عبد المؤمن تزوج أم الوزير عبد السلام ، وكانت له معها بنت أسمها
« بنده » (٢) أو فنده ، لهذا كان هذا الوزير يدعى بالمقرب ، لشدة
تقريب عبد المؤمن إياه (٣) . ويبدو أنه قد اعتمد على هذه القرابة
في تصرفاته كوزير ، إذ أخذ عليه الاستبداد بعمله والاستئثار بالسلطة ،
فضلا عما اتهم به من الغلول في غنائم قابس ، وشكايات أهل الأندلس
من العمال الذين وجههم هذا الوزير اليهم ، الأمر الذي جعل عبد المؤمن
يأمر باعتقاله وسجنه أثناء حملته التي دخل فيها تلمسان سنة ٥٥٥ هـ .

(١) كومية إحدى بطون بني فاتن من البربر البتر ، وقد تعربت منذ فوجير الاسلام ،
وكانت تسكن الجبال الممتدة بين تلمسان والبحر المتوسط .

راجع (ابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ١٧٩ ، السلاوي : الاستقصا ج ١ ص ٦٤)
(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالأمانة ص ١٨٠ وقد تزوج هذه الأميرة الشيخ
الموحدي أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني . جد الملوك الحفصيين ، إلا أنها لم تخدم
عشرة فهالقها برأى اختيارها الخليفة عبد المؤمن وعوضه خير أمها (نفس المرجع ص ١٨١)
(٣) عبد الواحد المراكشي : المصعب ص ٩٩ ، ابن أبي زرع : الروض
القرطاس ج ٢ ص ١٧٢ .

ثم احتال في قتله بأن دس له سماً سهلاً افقده قواه ، حتى لم يبق فيه إلا عيناه ، ، على حد تعبير ابن صاحب الصلاة (١)

وأخيراً وزير لعبد المؤمن ابنه السيد الأعلى أبو حفص عمر بن عبد المؤمن الذي ظل في منصبه حتى وفاة والده (٢).

وفي عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ = ١١٦٣ - ١١٨٤ م) ، استمر منصب الوزارة في يد شقيقه (٣) أبي حفص عمر مدة يسيرة حتى استقرت الأحوال لأخيه ، فتنحى عنها لابن العملاء إدريس بن إبراهيم بن جامع الذي كان يعمل في الوزارة تحت إدارته (بين يديه) منذ أيام عبد المؤمن (٤).

وكان والد هذا الوزير ، إبراهيم بن جامع ، من أصل أندلسي ، نشأ بساحل مدينة شريش في بلدة روطه على البحر المحيط ، ثم انتقل إلى الدولة المغربية واتصل بابن تومرت وصار من جملة أصحابه (أهل الدار) ،

[١] ابن صاحب الصلاة المرجع السابق ص ١٨٠ ، ابن عذارى البيان المغرب

ج ٤٣-٤٤ .

[٢] عبد الواحد المراكشي : نفس المرجع ص ١٩٨ .

[٣] كان أبو حفص عمر وأبو يعقوب من أم واحدة وهي زينب بنت موسى الضرير أحد أعيان تينمل (المعجب ص ٢٣٧)

[٤] ابن صاحب الصلاة المرجع السابق ص ٢٢٤ ، ٢٨٥ ، ابن عذارى : البيان

المغرب ج ٤ ص ٥٦ .

وكان من أبنائه إدريس المذكور الذي وُزر للخليفة يوسف بن عبد المؤمن^(١)، وأبو محمد عبد الله بن جامع الذي ولى في ذلك العهد على مدينة سبتة بالاضافة الى ولاية الاسطبل في جميع أنحاء الدولة^(٢).

وباشتر هذا الوزير عمله بمعرفة أخوته وبنيه ، وكذلك عاونه شيخ الطلبة أبو محمد الملقى الذي كان عنده في سلاح - أى رتبة - وزير ، على حد قول ابن صاحب الصلاة^(٣) وقد ورد ذكر الوزير ابن جامع ومعاونيه في مناسبات عديدة في كتاب المن بالامامة^(٤) ، وهي كلها تعطينا صورة من بعض مهام الوزير في ذلك العهد ومثل ذلك قوله :-
« وركب الخليفة أبو يعقوب يوسف على جواده العتيق ، ووزيره أبو العلا إدريس بن جامع راجلا لصق ركابه ماشيا بخدمته ، ويأمر الخليفة بالأوامر فينفذ إدريس المذكور فيها ثم يرجع إليه . »^(٥) ، وقوله حينما مرض الخليفة المذكور :

وكان يدخل اليه وزيره أبو العلا إدريس بن جامع يعلمه بالمخاطبات الواصلة ؛ والخبار المسلية السارة المتجاملة ، ويحضر معه الاطباء الاولياء أبو مروان بن قاسم وأبو بكر بن طفيل وغيرهما^(٦) .

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٤ حاشية ٢

(٢) راجع عبد الواحد المراكشي : المرجع السابق ص ٣١٠-٣١١

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٤١٠

(٤) راجع فهرس المن بالامامة تحت اسم ابن جامع إدريس

(٥) ابن صاحب الصلاة المن بالامامة ص ٢٨٩

(٦) نفس المرجع ص ٤١٠

وقوله عندما شفى الخليفة من مرضه :

« وجلس رضى الله عنه ، ودخل عليه اشياخ الموحدين واشياخ
طلبة الحضر ، والوزير أبو العلاء ادريس بن جامع وأخوه أبو محمد
عبد الله (١) قائمان به ترتيب الدخول بالناس ، وسلموا عليه ودعوا له
وهنوه على عافيته وشفائه (٢) .

وقوله يصف أول خروج للخليفة بعد شفائه في موكب رسمى :

« والوزير أبو العلاء ادريس بن جامع ، مدير لهذه الحال الشريفة ،
لا يصدر شيء إلا عن رأيه ، ولا تفتجر عدة من أمر الخليفة إلا عن
شفاعته وسعيه ثم استوى أمير المؤمنين على صهوة فرسه الأشقر
الأغر ، وهى أول ركبة خرج فيها من حين مرضه ، والوزير
أبو العلاء راجلا على قدميه بين يديه لصق ركابه ، على حجابيه ، مها
أراد أحد من الرافعين أو الملتصكين أو من أهل الحاجات وذوى اللبانات كلاما أو
إشارة ، خرج اليهم مستغها كلامه موصلا لإعلامه (٣)

والى جانب هذه الاعمال المختصة بحجابة الخليفة ، كان الوزير فى
بعض الأحيان ، يكلف ببعض الاعمال الأخرى التى قد تقتضى سفره

(١) سبقت الإشارة الى أن أبا محمد عبد الله هذا قد ولاه الخليفة أبو يعقوب
قيادة الاسطول وولاية مدينة سبتة وأعمالها، ويرجح المراكشى أنه قتله بعد ذلك

راجع (المعجب : ص ٣١١)

(٢) المن بالامامة ص ٤٢٠

(٣) نفس المرجع ص ٤٣٠-٤٣١

بعيدا عن العاصمة مراكش ، ومثال ذلك الوزير أبو جعفر بن عطية السالف الذكر حينما بعثه عبد المؤمن الى الاندلس لمباشرة الأمور واصلاح الاحوال هناك ^(١). وكذلك الوزير أبو العلاء أدریس بن جامع الذى كلفه أبو يعقوب يوسف بالاشراف على بعض أعمال البناء والتعمير فى اشبيلية، فكان هذا الوزير وابنه يحيى ملازمين للخدمة بالجلوس على ذلك من وقت شروق الشمس إلى المساء حتى كمل البناء ^(٢).

وظل ادریس بن جامع واخوته وبنوه محل تجملة واحترام طيلة خمس عشرة سنة . وفى سنة ٥٧٣هـ على قول ابن عذارى ^(٣) أو فى سنة ٤٧٧هـ كما يقول عبد الواحد المراكشى ^(٤) ، سخط عليهم الخليفة أبو يعقوب يوسف ، فقبض عليهم وأستصنى أمرهم ، ثم أبعدهم الى ماردة فى الاندلس ^(٥) ثم وزر لابن يعقوب يوسف ابنه وولى عهده أبو يوسف يعقوب (المنصور) الذى اتخذ بين يديه أى تحت إدارته الوزير أبا بكر بن يوسف

(١) السلاوى : الاستقصا - ٢ ص ١١٧

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٤٦٨

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١١٢

(٤) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٤٤

(٥) ظل بنو جامع فى منقام بمدينة ماردة ستة أعوام مغربين مهجورين الى أن مات أبو يعقوب فى غزوة شنترين سنة ٥٨٠هـ ، ثم لما استخلف أبو يوسف يعقوب المنصور عفا عنهم وعن سواهم . راجع (ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٢٣٨ حاشية ٢ ، وابن عذارى المغرب ج ٤ ص ١١٢)

١٩٧ -

الكمي^(١) ، وهذا يذكرنا بما فعله من قبل السيد الوزير أبو حفص بن عبد المؤمن من قبل حينما اتخذ بين يديه الوزير الشريف بن جامع في خلافة والده عبد المؤمن ، وفي بداية خلافة أخيه أبي يعقوب يوسف . ولعل الغرض من ذلك هو وضع الامراء اقرباء الخليفة في مكانة تسو عن الوزراء^(٢)

ولقد اكتسب يعقوب المنصور من هذا العمل الوزاري الذي تولى اعباءه ، خبرة جلييلة ، نفعته في أيام خلافته بعد ذلك ، إذ يقول المعجب في هذا الصدد :

ولى الوزارة أيام أبيه ، فبحث عن الامور بحما شافيا ، وطالع احوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع إليه الامور مطالعة افادته في معرفة جزئيات الامور ، فديرها بحسب ذلك ... وكان لا يكاد يظن شيئا إلا وقع كما ظن ، مجربا للامور ، عارفا بأصول الشر والخير وفروعهما^(٣)

وفي خلافة يعقوب المنصور (٥٨٠-٥٩٥ = ١١٨٤-١١٩٩ م) ، شغل منصب الوزارة عدد من اخوته مثل السيدين أبي عبد الله ، وابراهيم^(٤) ، كما شغلها أيضا جماعة من أشياخ الموحدين وأعيانهم ومعظمهم من زعماء

(١) ابن عذارى نفس المرجع ص ١٤٠

(٢) Hopkins: Medieval Muslim Government in Barbary p.9

(٣) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٦٣ ، السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٧٧ ؛

(٤) ابن عذارى . نفس المرجع ص ١٤١ ؛ الحلل الموشية ص ١٣٢-١٣٣

قبيلة هنتانة احدى بطون مصمودة التي قامت على اكتافها دولة الموحيدين.

ومن هؤلاء نذكر أبا يحيى بن الشيخ أبي حفص عمر الهنتاني ، الذي استشهد في معركة الأرك Alarcos المشهورة التي أحرز فيها المنصور نصرا حاسما على الأسبان سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) (١) ويقول صاحب المعجب إن أمر الوزارة قد اضطرب قليلا (٢) بعد وفاة هذا الوزير القائد ، ثم وقع اختيار الخليفة المنصور لشغل هذا المنصب ، على ابن عم للشهيد اسمه أبو عبد الله ويلقب بالفيل ، فبوزر أياما يسيرة ثم ترك الوزارة محتارا وهرب الى نواحي اشبيلية ، فخلع ثيابه ولبس عباءة وتزهد ، فأرسلوا اليه من رده ، وأعفوه من الوزارة. ثم وزر للمنصور أبو زيد عبد الرحمن بن يوجان الهنتاني ، فلم يزل وزيرا الى أن مات المنصور (٣)

والى جانب هؤلاء الوزراء ، هناك أندلسى أديب طبيب شاعر خديم في بلاد الموحيدين ، وشارك في بعض أعمالهم المعمارية الى جانب عمله كطبيب لهم ، وهو الوزير الاجل أبو بكر محمد بن الوزير أبي مروان عبد الملك بن الوزير أبي العلاء بن زهر الايادي (٤) (توفي سنة ٥٩٥ هـ - ١١٩٩ م) وواضح من اسمه أنه من سلالة وزراء أطباء ، وكانت لهم شهرة

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٦٢ ، ٢٨٣

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٢

(٣) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٦٣ ، ابن عذارى البيان المغرب ج ٤ ص ١٤١

(٤) عبد الواحد المراكشي : المرجع السابق ص ٨٨

وزعامة في عالم الطب والجراحة حتى صار اسم ابن زهر، علما معروفا
في الأرساط الملية الأوربية Avenzoar (١)

قال السلاوى : وهذا الوزير ابو بكر ابن زهر ، هو أحد أعيان
وزراء الدولة الموحدية ، وزر المنصور ولأبيه من قبله ، وكان يتكرر
وروده على الحضرة بمراكش فيقيم بها ويرجع الى الأندلس . وكان ساذقا
بصناعة الطب والجراحات وهو من أطباء الخليفة المنصور وله كتاب في
طب العين (٢) كما أن ما كتبه من أزجال وموشحات يعتبر نموذجا لهذين
النئين (٣) وعلى الرغم من المراجع المعاصرة لا تدرج اسم أبي بكر بن زهر
في عداد الوزراء العاملين في الدولة ، إلا أنها تجمع على تلقيبه بالوزير .
فهل كان هذا اللقب لقباً تشريفياً ورثه عن أبيه وجده تقديرًا لخدماتهم
الطبية ؟ قد تكون الإجابة بنعم لو أن الأطباء الآخرين الذين خدموا
معه في بلاط الموحدين أمثال بن رشد الحفيد ، وابن طفيل ، وابن مروان
بن قاسم ، قد حملوا لقب وزير ، ولكننا نجد اسماءهم خالية منه .

(١) كان أعظم هؤلاء الأطباء من بني زهر هو مروان عبد الملك بن أبي العلاء
بن زهر والد أبي بكر الذي توفي بمراكش سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) ثم نقل جثمانه
الى بلده أشيلية حيث دفن في مقبرة بني زهر . وقد اعتبره ابن رشد أعظم طبيب
بعد جالينوس . وله عدة مؤلفات طبية مثل كتاب الاقتصاد وكتاب التيسير الذي
أهداه الى ابن رشد وكان له تأثير كبير في الطب الأوربي . (راجع جنتالك بالنيثيا :
تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ص ٤٧١)

(٢) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٧٩-١٨٠

(٣) بالنيثيا : المرحع السابق ص ١٢٩ ، ١٥٧

وأغلب الظن أن ابن زهر قد قال هذا اللقب نتيجة قيامه بأعمال شبيهة بأعمال الوزراء العاملين في الدولة . فلقد ذكر ابن صاحب الصلاة أن كلا من الخليفين أبي يعقوب يوسف^(١) ويعقوب المنصور^(٢)، قد عهد إلى ابن زهر بالاشراف على بناء جامع اشبيلية ومثال ذلك قوله : وتعطل بناء الصومعة إلى أن وصل أبو بكر بن زهر من حضرة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين (أى المنصور) في عام ٥٨٤ هـ . وقد أمر بأعادة بناء الصومعة المذكورة ، وبناء ما اختل في الجامع فشرع فيها ... ودام ذلك أعواما يعمل في الصومعة أحيانا ، ويسافر عن اشبيلية فيتعطل في المدد التي كان يعاود فيها البناء .^(٣)

هذا الاشراف الفنى الذى قام به زهر على مباني الموحدين ، يذكرنا تماما بالوزير ادريس بن جامع حينما قام بعمل مشابه في اشبيلية ذكرناه آنفا . لهذا فانه من المحتمل جدا أن يكون الموحدون قد منحوا أبا بكر بن لقب وزير نظير مشاركته لولاية اشبيلية في هذه الاعمال الادارية الداخلية . وبدون ذلك وجود حالات متشابهة رواها ابن عذارى عند قوله :

(١) المن بالامامة ص ٤٧٢

(٢) المن بالامامة ص ٤٨٢

(٣) المن بالامامة ص ٤٨٢

وفي سنة ٥٦١ نظر (ابو يعقوب يوسف) في حديث اشيلية ، إذ كانت تحتاج إلى والي ، فاختار لها الشيخ أبا عبد الله بن أبي ابراهيم ، وهقده له رابئين في مجلسه الكريم ، وعين له وزيرا يسوس احواله وينظر أعماله وأشغاله وهو ابو زكرياء بن سنان (١)

على أن وزارة أبي بكر بن زهر لم تقتصر مهامها على اشيلية وحدها ، إذ كان كثيراً ما يتردد على العاصمة مراکش ، ويشارك في مجالس الخليفة المنصور وبأمر منه ، فيروى أبو الفضل التيفاشي أنه جرت مناظرة بين يمدى ملك المغرب يعقوب المنصور ، وكانت بين الفقيه أبي الوليد بن رشد المعروف بالحفيد ، والرئيس الوزير أبي بكر بن زهر بضم الزاي ، وكان الأول قرطيبيا ، والثاني اشيليا ، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبه : « ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم باشيلية فأريد بيع كنبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبه فأريد بيع آلاته حملت إلى اشيلية (٢) .

كذلك يروى المقرئ ، أن ابن زهر قال أثناء مقامه بمراكش أبياننا من الشعر يعبر فيها عن شوقه إلى ولد له صغير تركه باشيلية ، فلما سمعها يعقوب المنصور ، أرسل المهندسين إلى اشيلية ... من غير علم من ابن زهر - وأمرهم أن يحيطوا علما ببيوت ابن زهر وحارته ثم يبنوا مثلها بحضرة مراکش ففعلوا ما أمرهم به في أقرب مدة ، وفرشوا

(١) ابن عداوى : البيان المغرب ج٤ ص ٩٧

(٢) السلاوى : الاستقصا ج٢ ص ١٧٩

بمثل فرشه ، وجعل فيها مثل آلاته ، ثم أمر بنقل عيال بن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه الى تلك الدار ، ثم احتال عليه حتى جاء الى ذلك الموضع فرآه اشبه شيء ببيوته وحارته ، فاحتار لذلك وظن أنه نسائم وان ذلك أحلام ، فقليل له : ادخل البيت الذى يشبه بيتك ، فدخله فاذا ولده الذى يتشوق اليه يلعب فى البيت ، فحصل له من السرور مالا يزيد عليه ولا يعبر عنه (١).

وولى بعد وفاة المنصور ابنه محمد الناصر لدين الله (٥٩٥ - ٦١١ هـ = ١١٩٩ - ١٢١٤ م) ، فاستبقى وزير أبيه أبازيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان ، ثم عزله بعد مدة يسيرة وولاه بعد ذلك على مدينة تلسان (٢) ثم ولى الخليفة فى الوزارة أخاه ابراهيم بن يعقوب المنصور الذى انفصل به المراكشى صاحب كتاب المعجب ، ومدحه بقوله : « وهو خير أبناء أبي يوسف يعقوب وأجدرهم بالامر (أى بالخلافة) لو كانت الأمور جارية على إثبات الحق وإطراح الهوى ، لا أعلم فيهم أنجب منه ... وكان يذهب مذهب أبيه فى الظاهرية » (٣).

(١) السلاوى : نفس المرجع ص ١٨٠ ومن هذه الايات التى قالها ابن زهر يتشوق الى ولده :

ولى واحد مثل فرخ القطا	•	صغير تخلف قلبى لديه
تشوقنى وتشوقته	•	فيسكنى على وأبى عليه
لقد تعب الشوق ما بيننا	•	فمنه الى ومنى الى

(٢) ابن عذارى ح ٤ ص ٢٢٩ - ٢٣٠

(٣) المراكشى : المعجب ص ٣٠٨ ، ٣١٠

وبقى الأمير إبراهيم في الوزارة حتى سنة ٦٠٥ هـ حينما ولاه أخوه الخليفة على اشبيلية ، وعين مكانه في الوزارة أبا عبد الله محمد بن موسى الضريير . وكان لهذا الوزير صلة نسب مع بني عبد المؤمن ، إذ أن عمته زينب بنت موسى الضريير كانت زوجة لعبد المؤمن بن علي ، وأنجبت منه أبا يعقوب يوسف جد الناصر (١) :

ويروى صاحب المعجب أن هذا الوزير كان من أحسن الوزراء سيرة وسريرة ، وأنه كان دائما يحض الناصر على فعل الخير بجهده ونشر العدل حسب طاقته ، والاحسان إلى الرعية والاجناد فرأى الناس في أيام وزارته من الخصب وسعة الرزق وكثرة العطاء مثل الذي رأوا أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أو قريبا منه (٢) .

واستمر هذا الوزير مدة ثم عزله الناصر لأسباب لا نعرفها ، وولى مكانه أبا سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع (٣) .

وهذا الوزير الجديد من عائلة معروفة في تاريخ الموحدين ، وقد سبق أن أشرنا إلى جده إبراهيم الذي كان من أصحاب المهدي بن تومرت ،

(١) عبد الواحد المراكشي : نفس المرجع ص ٢٣٧ ، ٣١٠

(٢) المرجع السابق ص ٣١٠

(٣) يسميه ابن أبي ذرع (روض القرطاس ص ٩٥١) بالوزير الأكبر ويحمل معه وزيرا مساعداً اسمه ابن مذشا . وفي الحلال الموشية (ص ١٣٤) واستوزر رجلاً خاملاً يعرف بابني حتى .

ثم إلى والده عبد الله الذى كان قائدا للأساطيل الموحدية وواليا على سبتة ، ثم إلى عمه أبى العلاء ادريس الذى كان وزيرا لكل من عبد المؤمن وأبى يعقوب يوسف بعده .

واستطاع هذا الوزير ابو سعيد عثمان أن يسيطر على الخليفة الناصر وينال ثقته ، إلا أن عددا من المؤرخين اتهموه بالفساد والتخديعة وكره زعماء الموحدين والاندلسيين ، وجعلوه سبب الكارثة التى أودت بجيوش المسلمين فى وقعة العقاب المشهورة Las Navas de Tolosa فى صفر سنة ٦٠٩ هـ (يوليو ١٢١٢ م) فيقول صاحب القرطاس والسلوى مثلاً : وكان الوزير ابو سعيد قد تمكن من الناصر ، فأقصى شيوخ الموحدين وذوى الحنكة والرأى منهم عن بساطه ، وانفرد هو به ، فكان يشير على الناصر فى غزواته هذه بأراء كانت سبب الضعف والوهن وجلبت الكثرة على المسلمين (١) .

والواقع ان أسباب تلك الهزيمة لا ترجع إلى فساد هذا الوزير ، بل إلى فساد الادارة كلها فى الدولة واضطراب الشئون المالية فيها . وقد لاحظ ذلك صاحب المعجب عند قوله :

« وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلاف قلوب الموحدين : وذلك أنهم كانوا على عهد أبى يوسف يعقوب يأخذون العطاء ، فى كل أربعة أشهر ،

(١) السلوى الاستقصا ج ٢ ص ١٩٧ - ١٩٨ ، ابن زرع : روض القرطاس

١٥١ ، أشباح . تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ص ١١٥

لايخل ذلك من أمرهم . فأبطأ في مدة عيادته هذا عنهم العطاء ، وخصوصا في هذه السفرة ، فذهبوا ذلك إلى الوزراء . (١)

وقد يؤيد ذلك أيضا ، حركة التطهير الشاملة التي أجراها الناصر قبيل هذه الموقعة ضد الفساد وسوء الإدارة في جميع أنحاء مملكته . وقد نسكب في هذه الحركة عدد غير قليل من كبار عمال الدولة وشيوخها (٢) وتحدث الإشارة هنا ، لإنصافا للوزير بن جامع ، أن الذي قام بعملية التطهير ، ونسكب أشياخ الموحدين ، شخص آخر كان الخليفة الاصر قد فوض اليه مهمة الأشغال العملية أي الأمور المالية وهو صاحب الأشغال ابو محمد بن ابى على بن مثنى ، الذي ضرب به المثل في ذلك فقالوا : مدها قل لابن المثنى يردّها . (٣)

هذا وينبغي أن نضيف إلى هذا العامل الداخلي ، عاملا خارجيا كانت له خطورته في تقرير مصير هذه المعركة . ذلك أن الأوضاع السياسية في العالم المسيحي عامة وفي اسبانيا خاصة ، قد تغيرت في عصر تناصر عما كانت عليه في عصر والده المنصور . فالممالك الاسبانية النصرانية في أيام المنصور كانت متعادلة ومتفرقة الكلمة ، وهذا مكن المنصور من أن يفرد بأعدائه متفرقين ، وينتصر عليهم واحدا بعد الآخر . وكان لهذه

(٢) عبد الواحد المراكشي : المذهب ص ٣٢٢ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٢٦ - ٢٢٧

(١) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٢٤١

الانتصارات ، ولاسيما انتصار الأرك - رد فعل شديد في الأوساط الأوروبية المسيحية دفع ثمة غالبا فيها بعد ولده الناصر . ذلك لأن ملوك أسبانيا وأجبارها قد استغلوا هذا الشعور المسيحي العام ضد الموحدين ، في توجيه حركة الاسترداد الإسبانية Reconquista إلى وجهة صليبية عالمية . بعد أن كانت قاصرة على القوى الإسبانية المحلية في معظمها ، وقد كلل مساعدهم بالنجاح عندما نادى البابا إينوسنت الثالث Innocent III بتوجيه حملة صليبية ضد عرب أسبانيا في الغرب على غرار الحملات الصليبية في الشرق ، كما أخذ يعمل في الوقت نفسه على تسوية الخلافات القائمة بين ملوك أسبانيا لتوحيد جبهتهم أمام أعدائهم . ولم تلبث جموع هذه القوى صليبية ، وأكثرها من الإيطاليين والفرنسيين ، أن أخذت تفتال على باينا ، اثني عشر الجراد في الكثرة والإفساد - على حد قول الناصر في إحدى رسائله ^(١) - ثم انضمت إلى قوات الممالك النصرانية الإسبانية المتحدة ، وتقدم الجميع نحو المسلمين وكلهم عزم على عبور وصية هزيمة الأرك ، بالانتصار على الموحدين . يضاف إلى ذلك أن صناعة السلاح والدروع وفن الحرب بصفة عامة كان قد تقدم تقدما كبيرا في غرب أوروبا في ذلك العهد .

وهكذا نجد أن هذه المعركة التي خاضها الناصر في وديان تولوسا عند قصر العقاب ^(٢) ، كانت تختلف عن المعارك التي خاضها أسلافه من قبل

(١) راجع نص هذه الرسالة الهامة في (ابن عذاري المرجع السابق ص ٢٤١

- ٢٤٣)

(٢) يطلق اسم نافاس Navas في اللغة الإسبانية على الوديان الفسيحة أو ==

في طبيعتها وأهدافها ، وهذا كان له دخل كبير في نقيجتها المحزنة .

ولم يمض الحليفة محمد الناصر بعد هذه الكارثة سوى مدة قصيرة ، وتوفي في شعبان سنة ٦١٠ هـ وقد هلك ابن الخطيب على وفاته بقوله : ولم يمد بعده الى الاندلس أحد من ملوك الموحيدين إلى أن انقرضت أيامهم (١) أما الوزير أبو سعيد عثمان بن جامع ، فإنه قد عاد بعد هذه الكارثة الى سابق منصبه ، واستمرت وزارته بعد وفاة الناصر في خلافة ولده أبي يعقوب يوسف الثاني الملقب بالمستنصر بالله ، فقام بتدبير الامر مع مشيخة الموحيدين إلى أن عزل من الوزارة في سنة ١٦٥ هـ ، وولى بعده

= الاراضى الوطيفة ، والمقصود هنا الوديان التي تنساب بين جبل الشارات ، وقد وقعت هذه الموقعة في أحد الوديان القريبة من بلدة تولوسا ، ولهذا عرفت في المصادر الامباتية بأسم لاس نافاس دى تولوسا Las Navas de Tolosa أما التسمية العربية فهي العقاب (بضم العين) نسبة الى حصن أو قصر قديم درافع ينسب الى الامويين وقد أشار ابن عذارى الى أن المنصور بن أبي عامر في القرن الرابع الهجرى ، بعث في طلب القائد المغربي جعفر بن علي بن خندون المعروف بابن الاندلس وكان مقبياً في المغرب ، فمهر المضييق بجيشه إلى الأندلس ونزل قصر العقاب بعد أن أعيد له ما به. لمح فيه . راجع (البيان المغرب ج ٢ ص ٤١٦) . هذا وما زالت بقايا هذا الحصن باقية الى الآن ، كما لا يزال الاسم الاسباني لاس نافاس دى تولوسا يطلق على قرية هنالك في ولاية جيان Jaen تخليداً لذكرى هذه الموقعة . انظر : (Henri Terrasse : Histoire du Maroc I, p 341)

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٧٠

وزير اسمه زكريا بن يحيى بن أبي إبراهيم الحزرجي ، وكان أيضا من ذوى القرابة للأسرة المالكية ، إذ أن والدته كانت من بنات محمّد بن المنصور^(١) . غير أن دولة المرحدين في الواقع كانت بعد هذا الكارثة قد ذهب ريحها وتهدم صرحها : ففي الأندلس ، أخذت ممالك المسلمين تتساقط في يد الأسيان في كل جهة ، وفي المغرب ظهرت قوة زنانية قتيبة كانت تسكن صحراء فجيج^(٢) في منطقة وجدة بشرق المغرب الأقصى على حدود الجزائر ، وهم بنو مرين الذين اقتحموا المغرب في عهد هذا الخليفة وأغاروا على مختلف نواحيه في تازا وفاس وبلاد الريف ، وهزموا الجيوش الموحدية التي تعرضت لهم . وتركوا جنودها عراة يخفون أجسادهم بأوراق نبات هناك يعرف بالمشعلة ، فسميت تلك السنة (٥٦١٣ هـ) بسنة المشعلة .^(٣) حدث كل هذا بينما كان الخليفة المنتصر الموحدى ، قابعا في قصره ، لاهيا بترويض أبقاره التي كان يستوردها من اسبانيا ، وكأنه يذكرنا بمصارعى الثيران فيها . ولم تلبث حياته أن انتهت بين ميرائه ، إذ طعنته بقرّة شرود في صدره فقتلته في حينه سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٤ م) . وكانت وفاة المنتصر الفجائية دون أن يخلف خبا ، سببا في

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣٢٤

(٢) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٢ ، وكان موطنهم الاصلى في جنوب الزاب في صحراء الجزائر . وهم يدعون أن نسبهم يجتمع في قبس عيلان لاكتساب الاصل العربى القرشى . ابن ابى دينار : المونس في أخبار أفريقية وفرنس ص ١٢٩

(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٢٠٣-٢٠٤

إنارة المنازعات بين بني عبد المؤمن حول المرش ، واستبداد الأشياخ
والوزراء بنواحيهم مما أدى الى اضطراب فتن وحروب أهلية هبطت
بمقروط دولة المرشدين .

ولقد قاموا على انقاض هذه الامبراطورية الموحدية أربعين دولة
مستقلة هي :-

١- الدولة الحفصية في تونس سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠م)

٢- دولة بني عبد الواد في تلمسان ولواحيها بالمغرب الاوسط سنة
٦٢٣هـ (١٢٣٥م)

٣- دولة بني مرين أو أبو بني عبد الحق في فاس وهي الدولة التي
استقلت بالمغرب الأقصى بعد أن قضت على سلالة المرشدين ثانيا
سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م)

٤- ملكة غرناطة وهي آخر ما تبقى للمسلمين من ممتلكات في اسبانيا وقد استقر
بها بنو الأحمر أو بنو نصر سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٨م).

الوزارة على عهد الحفصيين :

للمرشدتين ديلتان : المؤمنية في مراكش ، نسبة الى عبد المؤمن بن
علي ، والحفصية في تونس نسبة الى أبي حفص عمر بن يحيى الحنتالي
شيخ قبيلة هنتانه المصمودية ، وأحمد القائمين بدولة المهدي بن تومرت
والخليفة عبد المؤمن من بعده . فالدولة الحفصية شعبة من دولة الموحدن
كما هو واضح من أصلها .

وعلاقة الحفصيين بأفريقية ترجع الى سنة ٥٦٠٣ (١٢٠٦ م) حينما فوض الخليفة الموحدى محمد الناصر أمر أفريقية الى وزيره وصهره الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني ، ومنحه جميع السلطات التي تخول له حكما مستقلا بهذه الولاية. وهذا الحدث يعتبر في الواقع إيذانا بانفصال أفريقية عن الدول الموحدية في مراكش. ثم حدث الانفصال الرسمي النهائي على يد أبي زكريا بن عبد الواحد الحفصي سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م).

والسبب الحقيقي الذي شجع هذا الأمير على الاستقلال بولايته هو انهيار دولة بني عبد المؤمن في المغرب والاندلس عقب الهزيمة التي حاق بها يحيوشا في موقعة العقاب سنة ١٢١٢ م. اما السبب المباشر لهذا الاستقلال فهو الاعلان^(١) الذي أصدره الخليفة الموحدى إدريس المأمون في مراكش سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩). والذي رفض فيه تعاليم المهدي بن تومرت ، ثم أزال اسمه من السكة والخطبة كما قتل المعارضين لسياسته من أشياخ الموحدين ، ومعظمهم من هنتاته ، قبيلة الحفصيين. عندئذ تمار الأمير أبو زكريا الحفصي على المأمون ، ورفض مبايعته ، واتخذ من هذا الاعلان ذريعة للخروج عن طاعة بني عبد المؤمن والاستقلال بولايته، كما اعتبر نفسه أحق بميراث المهدي بن تومرت منهم .

ولهذا حرص الحفصيون منذ بداية دولتهم على التمسك بتعاليم أمامهم المهدي ، وذكر اسمه في الخطبة والسكة ، كما طبقوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولتهم الناشئة. وإذا استثنينا بعض التعديلات التي اقتضتها ظروف الزمان والمكان ، فان ماورد في تاريخ الدولة الحفصية

(١) راجع نص هذا الاعلان في (ابن عذارى: البيان المغرب ج٤ ص ٢٦٧، ٢٧٥)

من أنظمة وتقاليده ، يعتبر استمرارا للدولة المؤقتة لأن كلاهما من الموحدين . وبدأت هذه الدولة كإمارة مستقلة في عهد أبي زكريا يحيى الأول ثم تحولت إلى خلافة في عهد ولده أبي عبد الله محمد المستنصر بالله أمير المؤمنين ، واستمرت هذه الدولة مدة طويلة إلى أن سقطت في يد العثمانيين نهائيا سنة ٩٨١ هـ (١٥٧٤ م) ، وكان نظام الملك فيها وراثيا ، وغالبا ما يكون بالعهود من السلطان السابق ، وأحيانا يكون بالغلبة والفهر من أحد القرابة .

أمّا عن حدود هذه الدولة ، فقد كانت تشمل على الأراضي التي تقابلها اليوم طرابلس الغرب في ليبيا ، والجمهورية التونسية ، وجزء كبير من الجمهورية الجزائرية الذي يشمل ولايات بونه أو عنابة (بلاد السحاب) وقسنطينة ، وبجاية وتندلس التي تسمى حاليا دلس Dellys غربا ، وما بعد ورقلة في الصحراء الجزائرية جنوبا (١) .

وكانت مدينة تونس هي عاصمة المملكة الحفصية ، بينما كانت بجاية وأحيانا قسنطينة هي قاعدة المنطقة الغربية منها أي الجزائر الحفصية التي

(١) يقول العمري في مسالك الأبصار ص ٢ : وأول مدنها مما يلي برقة ، وتندلس هي آخر مدنها فيما يلي الغرب الأوسط . وحدها من الجنوب إلى الصحراء الفاصلة بينها وبين بلاد جنادرة (غينيا) المسكونة بأمم السودان ، ومن الشرق آخر حدود طرابلس وهي داخلة في المحدث . ومن الشمال البحر الشامي . ومن الغرب آخر حدود تندلس المجاور للجزائر بني مزغنة . راجع كذلك (عبد الرحمن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام - ٢ ص ١١ ، مبارك بن محمد الهلالي الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث - ٢ ص ٣١٠) .

كثيرا ما استقل ولاتها عن تونس واتخذوا الوزراء والمحجباب والكتاب
مثل سلاطين تونس

وكان يماون السلطان في الحكم ، أقارباً وأهباخ الموحدين الذين كانوا
ينتمون إلى القبائل الموحدية التي قامت على أكتافها دولة الموحدين من
قبل ، مثل مرغه التي ينتمى إليها ابن تومرت ، وهنتامة قبيلة الحفصيين ،
وأهل تينمال ، وجنيفسة وهسكورة ، وهم جميعاً من المصامدة وموطنهم
الأصلي جبال أطلس ، ثم قبيلة كومية التي ينتمى إليها عبد المؤمن بن علي
الكومي ، وكان موطنها الأصلي منطقة ندرومة الحالية بالجزائر .

وكان لكل قبيلة مزوار أو أمزوار ، وهي كلمة بربرية معناها
الابن البكر ، ثم صارت تستعمل في معاني كثيرة مثل كبير القبيلة ،
وحاجب السلطان ، ورئيس الجند ، ونقيب الاشراف ، ومؤقت المؤذنين (١)
والمعنى المقصود هنا هو شيخ القبيلة. وهؤلاء الاشياخ كانوا يكونون مجالس
العشرة والحسين التي كانت تحيط بالسلطان وتذكرن مشورته ، وكان يرأسهم
واحد منهم يسمى شيخ الموحدين أو الشيخ المعظم لصوب مكائنه وارتفاع

(١) راجع (مجد بن جعفر الكتاني : سلوة الأنفاس ١ ص ٩٣) وكذلك :
(R. Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes, I, p. 613)
هذا وما زالت كلمة مزوار تستعمل إلى الآن بين البربر في المغرب ، وتطلق
على الشيخ الصالح الذي يتبارك برأيه في المسائل الزراعية والسياسية أيضا .
أنظر كذلك :

(Nopkins : Medieval Muslim Government in Barbary
p. 95) .

شأنه ، وهو وزير الراى والمقصورة عند السلطان (٤) ، ولهذا كان يختاره السلطان بنفسه ، ومن بين قرابته فى أغلب الاحيان ، رئيسا ما يسمونه اليه بمهام خطيرة فى الدولة مثل وزارة الجند أو الحرب أو خطه الحجابة أو هما معا . هكذا نجد أن شيخ الموحدين كان بمثابة رئيس الوزراء فى الدولة . ونذكر على سبيل المثال شيخ الدولة أبا سعيد عثمان بن محمد الهنتافى المعروف بالعمود الرطب (٢) (ت ٦٧٣ هـ) ، وعائلة بئى أبى هلال الهنتافى فى عهد الخليفة المستنصر الحفصى ، وشيخ الدولة محمد المزدورى الذى أخذ البيعة للسلطان الحفصى أبى يحيى زكريا المعروف بالحياى لطول لحينه (٣) (٧١١ - ٧١٧ هـ) .

وإلى جانب طبقات الموحدين ، كانت هناك الجاليات الاندلسية التى هاجرت إلى تونس عقب سقوط بلادها فى يد الاسبان . ونذكر من أعلامها ابن الأبار ، وابن الجنان ، وابن محرز ، وابن سيد الناس ، وابن عميرة ، وحازم القرطاجنى وغيرهم . وقد أحسن الحقصيين استقبال المهاجرين الاندلسيين ، واستعانوا بهم فى إدارة دولتهم التى كانت مازال ناشئة وفى حاجة إلى رجال من ذوى الخبرة والاختصاص فى مختلف

(١) العمرى : مسالك الابصار ص ١٤ ، ١٧ ، القلقشنندى : صبح الأعشى

ص ٥٣

(٢) الزركشى : تاريخ الدولتين ص ٢٦

(٣) ابن أبى دینار : المؤنس فى أخبار تونس ص ١٢٦ ، محمد الباجى

المسعودى : الخلاصة النقية فى أمراء افريقية ص ٦٩ (تونس ١٢٢٣ هـ)

الميامين . وقد أشار ابن خلدون إلى أن هجرة الاندلسيين إلى البلاد التولسية كانت أكثر من هجراتهم نحو البلدان الإسلامية الأخرى . وعلا ذلك باستعمال الدولة الحفصية . أما الأستاذ حسن حسني ، الوهاب فيعلل ذلك أيضا بالعلاقة التي كانت موجودة من قبل بين الاندلسيين وبين أمراء الحفصيين الذين سبق لبعضهم أن باثروا الحكم في الاندلس في عهد الموحدين .

وكيفما كان الأمر ، فإن هجرة الاندلسيين إلى الدولة الحفصية كان من أكبر العوامل التي ساعدت على تقدمها وإزدهارها ، ، إذ أنهم أدخلوا فيها أساليب زراعية جديدة ، وأسهموا بقسط وافر في تدعيم الحياة الإدارية فشاركوا في مناصب القضاء والوزارة والحجاية ، كما شاركوا في نشر الحركة العلمية والأدبية مما أعطى هذه البلاد لونا من الحضارة والتقاليد الاندلسية^(١) . ويمكن أن نحيل هنا على كتاب عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة للسابغة ببجاية ، نرى مدى إسهام الاندلسيين في نشر الثقافة والحضارة في مدينة بجاية وحدها وقس على ذلك في بقية المدن الأخرى^(٢) .

ومن المناصب الهامة التي شارك الاندلسيون في إدارتها إلى جانب الموحدين ، هي خطة الوزارة . يروي الحمري نقلا عن ابن سعيد المغربي ،

(١) راجع (محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة الخزومي ص ١٤٩ - ١٥٤ ، وما بها من مراجع)

(٢) راجع (أبو العباس أحمد الغبريني : عنوان الدراية ، الجزائر ١٩٣٨ هـ ، وكذلك محمد بن شريفة : المرجع السابق)

أن وزراء السلطان الحفصى كانوا ثلاثة وهم : وزير الجند وهو بمثابة
الحاجب بمصر ، ووزير المال وهو المعروف بصاحب الخشغال ، ووزير
الفضل وهو كاتب السر (١) .

أما وزير الجند أو الحرب فكان في غالب الأحيان هو شيخ الموحدين فهو بمثابة رئيس الوزراء . ولهذا كان يلقب بالقداب تدل على منزلته مثل شيخ أو رئيس الدولة أو صاحب الدولة أو رئيس الدولة ، كما كان ينوب عن السلطان عند غيابه عن عاصمته : ويجلس بين يديه في مجالسه مع أشياخ الرأي والمشورة ، وله النظر في الولايات وقادة الجيوش في الحروب (٢) .

أما وزير المال أو الاموال وهو المسمى أيضا بصاحب الاشغال ، فهو - كما يقول ابن خلدون - المختص بالحسبان ، وبالنظر المطلق في الدخل والخرج ، وبحاسب ويستخلص الاموال ، ويعاقب على التفريط (٢) .

وقد ولي وزارة المالية في بادىء الامر واحد من شيوخ الموحدين ، ثم شغلها بعد ذلك أناس من ذوى الاختصاص فى الشؤون المالية ، من خارج طبقة الموحدين .

ويعتني هؤلاء الوزراء كانوا من الأفارقة أمالي البلاد الأصليين ،

(١) الممرى : مسالك الأبصار ص ١٣

(٢) العصرى نفس المرجع ص ٩ ، ١٤ ، ٢٠ ابن خلدون: المقدمة ص ٢٤١

(٣) ابن خلدون نفس المرجع والصفحة

أمثال أبي العباس أحمد اللباني^(١) على عهد الخليفة المستنصر ، أو من الموالي
أمثال الملوك مدافع على عهد الواصل بالله بن المستنصر ، إلا أن أغلبهم
كان من الأندلسيين أمثال أبي عثمان سعيد بن أبي الحسين الذي ينتمي
لاسرة بني سعيد المشهورة في التاريخ أصحاب قلعة يحصب الأندلسية
بجوار غرناطة (La alcala' la Real) ، وقد تول وزارة المالية في
عهد المستنصر وأوائل عهد ابنه الواصل بالله^(٢) ، وأبي بكر محمد بن خلدون
جد المؤرخ المعروف بن خلدون على عهد الخليفة أبي إسحاق ابن الواصل ،
ومثل محمد بن يعقوب ، وأبي القاسم بن طاهر وغيرهم ممن شغل هذا
النصب في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن الهجري^(٣) . وكل هذا يدل
على أن وزارة المال لم تكن شرطا قاصرا على الموحدين الأولين كما يقول
الزركشي^(٤) وابن خلدون^(٥) . وإنما كانت تمنح لذوى المعرفة والدراية
بالشئون المالية .

(١) اللباني نسبة إلى قرية ساحلية من أعمال المهديّة تعرف بلبانة ، يضم
اللام الأولى وكسر الثانية .

راجع أخباره وأشعاره في (رحلة النجاشي ص ٣٧١ وما بعدها)

(٢) ابن خلدون المقدمة ص ٢٤٥

(٣) أنظر

(R. Brunschvig : La Berbérie Orientale sous les Hafsides
I, p. 38 , 72, II p. 57)

(٤) الزركشي : تاريخ الدولتين ص ٢٢ ، ٣٩

(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤١

ومن سوء الحظ أن وزير المالية أو صاحب الاشغال في هذه الدولة الحفصية ، كان عرضة دائما للقتل أو السجن والتعذيب ومصادرة الاموال. فاللياني قتل المستنصر سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م)^(١) ، وسعيد بن أبي الحسين قتله الواثق بالله وصادر أمواله سنة ٦٧٦هـ (١٢٧٨م)^(٢) ، وأبو بكر محمد بن خلدون قتل مقتصب المرش ابن أبي عمارة سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) وقد شرح حفيده ابن خلدون خبر مصرعه بقوله : « واستقل أبو اسحاق بملك افريقية ، ودفع جدنا أبا بكر محمدا الى الاشغال في الدولة على سنن عظام الموحدين فيها قبله ، من الانفراد بولاية العمال وعزلهم ، وحسابهم على الجباية ، فاضطاع بتلك الرتبة. ولما غلب ابن أبي عمارة على ملكهم بتونس ، اعتقل جدنا أبا بكر محمد ، وصادره على الاموال ، ثم قتل خنقا في محبسة^(٣) ويبدو أن التنافس الذي كانت سائدا بين المهاجرين الاندلسيين وبين بعض أشياخ تونس من الموحدين ، كان له دخل في هذه التكبكات^(٤) .

ولقد استمر هذا المنصب يشغله صاحب الاشغال الى أن حدث تغيير في تلك التسمية على عهد السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز أو هرونز (٧٩٦-٨٢٧ = ١٣٩٤-١٤٢٣م) ، إذ صار يطلق عليه اسم المنفذ

(١) راجع (رحلة النجاشي ص ٢٧١)

(٢) انظر (Brunschvig : Op. cit I, p. 72)

(٣) ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ١٢ .

(٤) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٤٠ نشر حنمين مؤنس

أى صاحب الجباية والتنفيذ فى الدولة . وكان يختار من بين كبار رجال
الموحدين ويتشبع بنفوذ كبير فى المملكة^(١) .

أما وزير الفضل أو كاتب السر ، فهو المختص بديوان الانشاء أى
الذى يتولى المكاتبات والأوامر السلطانية ، وكذلك كتابة العلامة ، وهى
جملة أو عبارة التوقيع التى تضاف الى هذه المكاتبات ثم ترفع الى السلطان
ليضع خاتمه : عليها كذلك كان هذا الوزير يشرف على أرباب العلم وسائر
فنون الفضل ولهذا سعى بوزير الفضل . وكان يشترط فيه أن يجسن
الانشاء ، ويجيد الترسيل باللغة العربية الفصحى ، وأن يؤتمن على كتمان
الاسرار ، ولهذا سعى أيضا بكاتب السر^(٢) . ولم يشترط الحفصيون
النسب فى صاحب هذه الخطة أى أن يكون من قرابتهم أو من طبقة
الموحدين كما فعلهم فى معظم الولايات والمناصب الرئيسية ، وقد علل ابن
خلدون ذلك بأن الكتابة والترسيل لم تكن من متحصل القوم بسبب
رطابة أنسنتهم ، وما يغلب عليهم من العجمة وثخلف الملكة^(٣) ولهذا
نجد أن هذه الخطة شغلها عدد كبير من الأندلسيين الذين كانوا يجيدون
هذا الفن من الكتابة :

هذا ويرى ابن سعيد والزركشى ، أن علامة الحفصيين التى اختارها
خليفهم الأول المستنصر بالله ، كانت « الحمد لله والشكر لله » ، ثم رأى شيخ

(١) راجع (Brunschvig : Op. Cit . II , p. 58)

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤١

(٣) المرجع السابق .

الموحدين في عهده أبو سعيد عثمان المثنائي المعروف بالعمود الرطب ، أن
الأمور السلطانية قد تنفذ بأمور صغيرة لا ينبغي الكتابة بمثلها عن الخليفة
لعل قدره ، ولهذا قسم العلامة الى علامتين : كبرى وصغرى . فالأمور
الكبرى الصادرة عن الخليفة تكتب بالعلامة أو العبارة السالفة الذكر .
أما الأمور الصغيرة التي يكبر قدر الخليفة عنها فتصدر بعلامة أخرى عن
أمر نائب الخليفة . وكان صاحب العلامة الكبرى هو وزير الفضل
ويوقعها السلطان نفسه ، وتكتب بعد البسملة بالقلم الغليظ في أعلا الصفحة
أما العلامة الصغرى فتكتب في أسفل المذمور وتصدر عن وزير الجند
الذي كان في العادة هو شيخ الموحدين أو نائب الخليفة . وللتمييز بينهما
كانت كتب السلطان تصدر في ورق أصفر ، بينما كان ما يكتب عن وزير
الجند يصدر ورق غير الأصفر . ومن عادة المقاربة كماهم أن لا تطول كتبهم
ولا يبعد بين أسطرهم كما جرت به العادة في مصر والشام وإيران . (١)
ولقد أورد أبو الوليد بن الأحرار في كتابه مستودع العلامة أسماء كتاب
العلامة على عهد الخلفيين إلى ما بعد سنة ٨٥٥ هـ (٢) .

ومن أبرز الكتاب الأندلسيين الذين تولوا هذه الخطبة على عهد
المستنصر الحفصي ، نذكر أبا عبد الله محمد بن أبي بكر القضاة البانسي
المعروف بابن الأبار (٥٩٥ - ٦٥٨ هـ) وتذكر المراجع أنه كان يكتب

(١) التمرى : مسالك الأبصار ص ١٧ - ٢٨ ، أبو الوليد بن الأحرار :
مستودع العلامة ومستبدع العلامة ص ١٠ - ١١ نشر محمد التركي ومحمد
بن تاروت .

(٢) راجع كتاب مستودع العلامة السالف الذكر ص ٢٨ - ٢٦ .

العلامة بخطه الشريف ، ولكن السلطان وغب في أن تكون بالخط المشرق
ريثاذا أمر بأن يكتب ابن الأبار بأسماء المكاتب ، ويدع العلامة للوزير
أحمد بن إبراهيم القسافي ، فغضب ابن الأبار لذلك واستمر يكتب العلامة
على ما يشتهه من رسائل ، فموتب في ذلك وروجم ، فاستمر خطها
ورس بالعلم وأنشد ممثلا بيت للنفي :

أطلب العز في لظى وذو الذل (م) ولو كان في جنان الخلود

ورسل الخبر إلى السلطان ، فعزله عن عمله . وأحسن ابن الأبار بخطا
تصرفه ، فكتب كتابا بمناسبة اعتذار للسلطان أسماه « إعتاب الكتاب » ،
ويتضمن حكايات كتاب سبق اليهم غضب السلاطين ثم حلت بهم نعمة
الرضا فأعجبهم . وعفا عنه السلطان بعد ذلك إلا أنه يبدو أن ابن الأبار
ظل على كبريائه ومهاجمة خصومه ولا سيما الوزير أحمد بن إبراهيم القسافي
فأوغروا صدر المستنصر عليه وأوصوه بأنه يتآمر ضده ، فأمر بقتله
وإحراق مؤلفاته ، فقتل قهصا بالراسخ سنة ٩٥٨ هـ (١٢٩٠ م) ^(١)

والى جانب هذه الاعمال ، كان يهتد إلى وزير الفضل في كثير من
الاحيان ، الاشراف على مكتبة القصر الملكي ، والنظر فيما تحتاج اليه
من كتب ^(٢) . وقد ذكر الكاتب المعاصر ابو محمد هيد الله التجاني في

(١) ابن الأبار : الحلة السراء ص ٩ - ٣٩ - ٤٥ نشر حسين مؤنس ،
الركشي : تاريخ الدولتين ص ٢٧ الوليد بن الأحمر : مسودم العلامة ومستبدع
العلامة ص ١١ .

(٢) العمري : مسائلك الابصار ص ٢٥

رحلته أن أول من ابتدأ في جمع هذه الخزانة أو المكتبة هو أبو زكريا يحيى الأول ، وأنه عهد إلى صاحب خطة العلامة الكبرى الحسن بن معمر الموارى الطرابلسي النظر في خزانة الكتب بالقصبة ، ثم أن الخليفة المستنصر بالله تغير عليه فنفاه إلى المهدي سنة ٦٦٧ هـ ، ولكنه عفا عنه السنة التالية ورجع ابن معمر إلى تونس . ولما مات المستنصر وبويع لولده الواثق ، استدعى الحسن بن معمر وأمره بالنظر في خزانة الكتب وذلك في سنة ٦٧٥ هـ . ويروى أنه لما سئل الحسن عن هذه الخزانة ، ذكر أنها كانت ثلاثين ألف سفرا حين كانت نظره أولا ، وأنه لما أعيد إليها واختبرها في هذه المرة ، فوجدها تقصر عن ستة آلاف سفر ، فسئل عن موجب ذلك ، فقال : المطر وأبدى البشر (١) . ويبدو أن ضياع هذه الخزانة الضخمة يرجع إلى الحفصيين أنفسهم ، بدليل ما يرويه الزركشي وابن أبي دينار من أن السلطان أبا يحيى زكريا بن أحمد بن اللحياني (٧١١-٧١٧ هـ) لما رأى اضطراب ملكه ، وظهر له خروج الأمر من يده ، باع جميع النفائس التي كانت بالقصبة ومن جملتها الكتب التي اقتناها أبو زكريا الأكبر ، وخرج من تونس إلى طرابلس واستوطنها عام ٧١٧ هـ (٢) .

من كل ما تقدم نرى أن الوزارة الحفصية كانت تتألف من عناصر السيف والقلم والمال والعلم ، وأن السلطان كان يهيمن عليها ويهتمهم

(١) راجع رحلة التهامي ص ٢٧٤ - ٢٧٦

(٢) الزركشي : تاريخ الدولتين ص ٥١ ، ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار

تونس ص ١٢٧ ، العمرى : مسالك الأبصار ص ٢٥ حاشية ١ .

بوزرائها في كل يوم تقريبا وقد أوضح ابن سميذ هذا اللقاء الذي كان يتم بين السلطان ووزرائه بقوله :

« وعادته في مدينه مملكته - يعنى تونس - أنه يخرج كل يوم باكرا إلى موضع يعرف بالمدرسة ، ويبعث خادما صغيرا يستدعى وزير الجند من موضعه المعين له ، فيدخل عليه رافعا صوته بسلام عليكم ، من بعد أن يوصى برأسه . ولا يقوم له السلطان ، ويجلس بين يديه ، ويسأله السلطان ، عما يتعلق بأمر الجند والحروب ، ثم يأمره باستدعاء من يريد من أشياخ الجند والعرب أو من له تعلق بوزير الجند ، ثم يأمره باستدعاء وزير المال ، وهو المعروف بصاحب الأشغال ، فيأتى معه ويسلمان جميعا من بعد على السلطان ، وإن كان قد تقدم سلام وزير الجند ، ولكنه عادة الدخول عليه ، فيتقدم وزير المال إلى بين يدي السلطان ، ويتأخر وزير الجند إلى مكان لا يسمع فيه حديثهما ، ثم يخرج وزير المال ، ويستدعى من يتعلق به ، ثم يحضر صاحب الطعام بطعام الجند ويعرضه على وزيرهم لئلا يكون فيه تقصير . ثم يقوم السلطان من المدرسة إلى موضع مخصوص ، ويستدعى وزير الفضل ، يعنى كاتب السر ، ويسأله عن الكتب الواردة من البلاد وعما تحتاج إليه خزائن الكتب ، وعما تجدد في الحضرة وفي البلاد مما يتعلق بأرباب العلم وسائر فنون الفضل والقضاء ويأمره باستدعاء من يختص من المكاتب ، ويطلب عليهم وزير الفضل عما أمر بكتابته ويعلم عليه وزير الفضل بخطه » (١) .

الحجابه في الدولة الحفصية

أما خطة الحجابه في هذه الدولة ، فقد هبت في أدوار مختلفة من ضعف إلى قوة ثم ضعف واضمحلال . ويذهب المستشرق الفرنسي روبرت بروندشفيج في كتابه القيم عن الحفصيين ، إلى أن هذه الخطة لم تظهر في الدولة الحفصية إلا في أيام السلطان أبي اسحاق ابراهيم الأول (٦٧٨ - ٦٨٣ هـ) الذي عاش في الأندلس فترة قبل اعتلائه العرش ، فتأثر بهذه الخطة التي كانت شائعة هناك ، واتخذ في خلافته حاجبا أندلسيا وهو أبو القاسم بن الشيخ (١) تلميذ الكاتب الأندلسي المعروف ابن عميرة . إلا أنه يبدو أن هذه الخطة كانت قائمة في تونس قبل ذلك التاريخ ، إذ يروي ابن عبد الملك المراكشي أن أبا القاسم بن الشيخ كان حاجبا للخليفة المستنصر الحفصي جده أبي اسحاق المذكور (٢).

وكيفما كان الامر ، فإن خطة الحجابه في بداية الدولة الحفصية ، لم يكن لصاحبها نفوذ سياسي كبير ، إذ كان عمله قاصرا على إدارة قصر السلطان أو كما يقول ابن خلدون : كان بمثابة قهرمان خاص بداره ، ينظر في أحواله ويجريها على قدرها وتزنيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في

(١) راجع

(Robert Brunschvig : La Berberie orientale sous les Hafsides, II, p. 45)

(٢) ابن عبد الملك المراكشي الذيل والنكته لكتابي الموصول والصلة السفر الأول ورقة ٧٤ مخطوط بالقرويين في فاس رقم ٦٢٦ ل نشر منه احسان عباس السفيرين الرابع والخامس ويقوم بنشر هذا السفر الأول محمد بن شريفه .

المطابخ والاصطبلات وغيرها ، وربما اضافوا اليه كتابة العلامة على السجلات
لذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة ، وربما جعلوه لغيره (١).

ويستمر ابن خلدون في شرح تطور هذه الخطة في الدولة الحفصية فيقول :
« واستمر الأمر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس ، فصار
هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم ، ثم جمع له آخر الدولة
السيف والحرب ثم الرأى والمشورة ، فصارت الخطة أرفع الرتب وأوعبها
للخطاط ، ثم جيب الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر
منهم - أبي حفص عمر الثاني - ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان
أبو العباس على نفسه ، وأذهب آثار الحجر والاستبداد بإذهاب خطة الحجابة
التي كانت ملما اليه وبأمره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد والأمر
على ذلك لهذا العهد . » (٢)

ونسخ من كلام ابن خلدون ومن الأحداث التاريخية بهذه الدولة ،
أن الحجابة قد ارتفع شأنها بعد أن كانت قاصرة على نظارة قصر السلطان
فصار صاحبها رئيسا للوزراء ، وحل محل وزير الجند وشيخ الموحدين من
حيث الاختصاص ، أو بمعنى آخر صار شيخ الموحدين يلقب بالحاجب
أيضا . ثم تآنى بعد ذلك مرحلة استبداد الحجاب بالخلفاء وهذا يذكرنا
بالحاجب المنصور ابن أبي عامر في الأندلس ، وكان صنوه في تونس

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤١ - ٢٤٢

(٢) المرجع السابق

هو الحاجب ابو محمد بن تفرাজين ^(١) الذى استبد بكل من أبى حفص عمر الثانى بن أبى بكر (٧٤٧-٧٥٠هـ) وأبى اسحاق ابراهيم الثالث (٧٥١-٧٧٠هـ) ، وسلم عليه سلام الملوك ، كما تزوج ابنته السلطان ابواسحاق المذكور سنة ٧٦٦هـ بصادق قدره ١٢ ألف دينار و٣٠٠ خادما وتوفى ابن تفرাজين بعد ذلك فى تلك السنة ^(٢) . وبعد وقت قصير خلفه حاجب آخر وهو أحمد اليقالى الذى استبد بالسلطان خالد بن إسحاق (٧٧٠-٧٧٢هـ) ، ولم يترك له شيئا ^(٣) . ثم جاء بعده السلطان أبو العباس أحمد الثانى (٧٧٢-٧٩٦هـ) فباشر الحكم بنفسه وقضى على كل نفوذ لهذه الحطة التى كانت مصدر الاستبداد والتغلب ^(٤) .

(١) هو شيخ الموحدين أبو محمد بن عبد الله بن تفرাজين ، وبیت بنى تفرাজين من بيوت الموحدين منذ بداية الدولة الموحدية . راجع أخبارهم فى (ابن خلدون : المعبر ص ٦٣ - ٣٤٨ - ٣٥٣ وفى نفح الطيب ص ٤٤ - ٩٥ رسالة لابن الخطيب إلى محمد هذا كما توجد رسائل رسمية متبادلة بين هذا الحاجب ابن تفرাজين وبين سلطان غرناطة محمد الخامس الغنى بالله (سنة ٧٩٣هـ - ١٣٩٢ م) أوردها ابن الخطيب فى كتابه ربحانة الكتاب ونشرها المشرق الاسباني جاسبار راميرو فى كتابه :

«Gaspar Remiro : Correspondencia diplomática entre Grnada y Fez p. 343 - 347)

(٢) ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار تونس ص ١٣٢ - ١٣٤ ، محمد الباجي المسعودى : الخلاصة النقية فى أمراء افريقية ص ٧٢ - ٧٤ ، ابن خلدون : المعبر ص ٦٣ - ٣٧٣ وما بعدها .

(٣) ابن أبى دينار : المصدر السابق ص ١٣٤

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤١ - ٢٤٢

هذا والمجدير بالذكر أن المؤرخ ابن خلدون الذي أمدنا بهذه المعلومات
القيمة قد تولى هو الآخر خطة الحجابة المطلقة للأمير بجماعة أبي عبد الله
محمد سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) .

وقد شرح هو نفسه حدود عمله الجديد بقوله : « كتب لي الأمير
أبو عبد الله بخطه عهدا بولاية الحجابة ، ومعنى الحجابة في دولنا بالمغرب ،
الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته ، لا يشاركه
في ذلك أحد » (١) .

وظل ابن خلدون حاجبا لهذه الإمارة الحفصية الجزائرية مدة عام
تقريبا ، ثم اضطر إلى الفرار منها إلى مدينة بسكرة قاهدة الزاب بالجزائر
وذلك عقب مقتل خليفة الأمازيغ محمد واستيلاء ابن عمه أبي العباس هلي بجماعة
سنة ٧٦٧ هـ (٢) ويضيف ابن خلدون أن ملك تلمسان أبو حمزة موسى
الثاني ، كتب إليه يستدعيه من بسكرة ليؤاياه حجابته (٣) لما كان يعمل من
نموذ في بجماعة وما . ولها من القبائل ، وأرسل إليه بالفعل مرسوم الحجابة
ولكن ابن خلدون اعتذر عن قبول هذه الخطة ، وأرسل إليه أخاه الأصغر
يحيى نيابة عنه (٤) .

(١) ابن خلدون . التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٩٧

(٢) ابن خلدون : التعريف ص ٩٩

(٣) راجع نص هذه الرسالة في كتاب التعريف بابن خلدون ص

١٠٣ - ١٠٤

(٤) كان أبو زكريا يحيى بن خلدون يهقر أخاه عبد الرحمن بعام واحد ، =

وفي أواخر أيام الدولة الحفصية انفصلت الحجابة نهائياً عن رئاسة الوزراء وصار الحاجب - كما يقول الحسن الوزان المعروف باسم ليون الأفريقي - القرن ١٦ م ، في المرتبة السادسة في الدولة الموحدية الحفصية واقتضرت مهمته على الإشراف على فرش قاعة السلطان بالأسطة والوسائد ، وتنظيم جلوس الحاضرين في الأماكن المخصصة لهم (١).

الوزارة والحجابة في دولة بني عبد الواد

تنتمي هذه الدولة الى قبيلة بني الواد إحدى بطون زنانة التي كانت ترتاد جبال وصحراء المغرب الأوسط . ولما فتح الموحدون هذه البلاد ، كان بنو عبد الواد عوناً لهم على ذلك ، فقالوا ثمة الموحدين ، وحصلوا منهم على اقطاعات وفيرة بأحواز تلمسان ، فاستقروا فيها منذ ذلك الوقت . ولما انتهت دولة الموحدين ، استقل يغمراسن بن زيان ملك بني عبد الواد بهذه المنطقة سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) مؤسساً بذلك دولة بني عبد الواد التي عرفت أيضاً بدولة بني يغمراسن باعتباره أول ملوكها ،

وقد كتب كتاباً في تاريخ بني حمو أو بني عبد الواد أو بني يغمراسن ملوك تلمسان وعنوانه « بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، نشره وترجمه الى الفرنسية ألفريد بل Alfred Bel ، الجزائر ١٩٠٣ . وقد قتله السلطان أبو تاشفين في رمضان سنة ٧٨٠ هـ .

(١) راجع

(Brunschvig ; Op. Cit II, p.56: Leon L. Africain : Description de l'Afrique) (alger 1906) p 144 - 146.

وبدولة بني زيان أو الزبانية نسبة إلى اسم والده^(١).

وكانت حدود هذه الدولة غير ثابتة ، إذ أنها كانت تضيق وتتسع حسب قوة جيرانها من بني حفص شرقا ، وبني مرين غربا ، إلا أنه يمكن القول بأن حدودها كانت تمتد طولا من البحر المتوسط شمالا إلى صحراء الجزائر جنوبا ، وعرضا من جبال سعيدة ووادي مينة شرقا إلى وادي ملوية ومدينة وجدة غربا^(٢) .

وكثيرا ما كانت هذه الدولة في أيام قوتها تغير على جيرانها ، وتتوغل في أراضيهم شرقا وغربا ، إلا أنها في نفس الوقت كانت تعاني من الأخرى من غاراتهم ولاسيما بني مرين الذين تمكنوا من احتلال عاصمتهم تلمسان (بكر التاء واللام وسكون الميم) مرات عديدة .

ولقد كانت الصحراء جنوبا هي معقل بني عبد الواد ومأواهم الذي يحتمون به حينما تضرع بلادهم لغزو جيرانهم المرينيين ، فيظنون بها أني أن يترحل حدة هذا الغزو بانسحاب السلطان المريني أو بموته ، وعندئذ يعودون إلى قاعدتهم تلمسان ويستردون ملكهم مرة أخرى .

ولم يخفف من متاعب هذه الدولة الزبانية سوى تأييد ملوك غرناطة لها لما كانوا يخشونه من أطماع بني مرين في ملك الأندلس كما فعل المرابطون والموحدون من قبل . ومن ثم عمل بنو الأحمر على تأييد بني زيان بشتى الوسائل كي يظلوا شوكة في جنب الدولة المرينية فيشغلونها عنهم .

(١) يقال إن أول من أطلق على هذه الدولة اسم الزبانية بدلا من العبيد الوادية هو السلطان أبو حمو الثاني.

(٢) القلقشندي : صبح الأهرى - ص ٥٠٩ الجليل : تاريخ الجزائر العام ٢٠ ص ١٢١ ، الميلي : تاريخ الجزائر ٢٠ ص ٣٤٨ .

وكان من نتائج هذه السياسة ، أن ارتبطت تلمسان بمجلة غرناطة في مختلف الميادين السياسية والحضارية حتى صار لها طابع أندلسي تلمسه بوضوح في مصاجدها ومدارسها ومبانيها ، وقد ساعد على تدعيم هذه الروابط ، أن معظم ثغور هذه الدولة الزيانية كانت عامرة بالجاليات الأندلسية من قديم ، بل إن بعضها كان من بناتهم . ومن أهم تلك الثغور نذكر : هنين^(١) التي تقابل المربة Almeria في شرق الأندلس ، ووهران التي بناها الأندلسيون وتقع شرقي تلمسان بقليل ، ومستغانم التي تقابل دانية Dania في شرق الأندلس^(٢) . ولهذا كانت العلاقة بين البلدين محكمة وطيدة تبودلت فيها السفارات والهدايا والمراسلات السلطانية^(٣) .

أما عن ترتيب هذه المملكة ، فالظاهر أنها تشبه مملكة تونس في الحال والترتيب أو قريب من ذلك^(٤) . وكان الحاجب عندهم هو الرجل الأول في الدولة ، ويشمل نفوذه اختصاص الوزارة والحجابة معاً ، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك في مقدمته حين قال :

(١) هنين - بضم الهاء وفتح النون - كان موقعها في شمال غرب تلمسان ، وفي مكانها الآن مدينة بني ساف Beni Saf أنظر التعريف بابن خلدون ص ٣٨ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ص ٥ ص ١٥٠

(٣) يحيى بن خلدون : بغية الرواد ص ٢ ص ١٧٠ - ١٨١ ، ٢٨٠ - ٣٠٧ ،

المقرئ : أزهار الرياض ص ١ ص ٢٤٩ - ٢٦١

عبد الرحمن بن خلدون : التعريف ص ١٢٢ ، ١٢٧

(٤) القلقشندي : المرجع السابق ص ١٥١

وأما دولة بني عبد الواد ، فلا أثر عندهم لشيء من هذه الألقاب ولا تمييز الحطط ليدواة دولتهم وقصورها ، وإنما يخصون باسم الحاجب في بعض الأحوال منفذ الختام بالسلطان في داره كما كان في دولة بني أبي حفص ، وقد يجمعون له الحسبان والسجل كما كان فيها (١)

وكلام ابن خلدون هنا ينطبق على معنى الحجابة المطلقة التي سيطرت على مملكة تونس فترة من الزمان. وقد شرح كذلك خطة الحجابة في تلمسان سلطانها أبو حمور الثاني في خطابه الذي أرسله إلى ابن خلدون يدهره فيه إلى تول حجابته ، وفيه يقول :

« وكانت خطة الحجابة بآنا العلى - أسماه الله - أكبر درجات أمثالكم ، وأرفع الحطط لنظرائكم ، قريبا منّا ، واختصاصا بمقامنا ، وإطلاعا على خفايا أسرارنا ، آثرناكم بها لإثارة ، وقدمناكم لها اصطفا ، واختيارا ، فاعملوا على الوصول إلى بآنا العلى ، لما لكم فيه من التنويه ، والقدر النبيل ، حاجبا لعل بآنا ، ومستودعا لأسرارنا ، وصاحب الكريمة علامتا ، إلى ما يشاكل ذلك من الانعام العميم ، والخير الجسيم ، لا يشارككم مشارك في ذلك ، ولا يواحدكم أحد الخ (٢)

وكل هذا يدل على أن مدلول الحاجب هنا هو الوزير أو رئيس الوزراء المستقل بالدولة والوسيط بين السلطان وبين أهل دولته (٣) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٤٣

(٢) ابن خلدون : التعريف ص ١٠٣

(٣) ابن خلدون : التعريف ص ٩٧

على أن الشيء الذي تلاحظه في هذا الصدد ، هو أن عددا كبيرا من وزراء هذه الدولة كانوا من أهل الأندلس. ففي عهد أبي حمو موسى الأول (٧٠٧-٧١٧ = ١٣٠٧-١٣١٨ م) ، ولي الوزارة على التعاقب محمد بن ميمون بن الملاح ، وولده من بعده محمد الأشقر ، فأبراهيم ، ثم عمها علي بن عبد الله . وكان بنو الملاح هؤلاء من مشاهير رجال المال ومن أسرة قرطبية الأصل اشتهرت بالعدل والصدق والتقوى . وقد انقضى أمر هذه الاسرة يوم اغتيال أبي حمو الاول سنة ٨٧١٨ ، إذ قتلوا معه وانتهت أموالهم (١).

وفي عهد ولده أبي تاشفين عبد الرحمن الاول (٨١٧ - ٨٣٨٧ = ١٣١٨ - ١٣٣٦ م) ولي الوزارة مملوك من أصل قطلاني اسباني اسمه هلال ، ولد في غرناطة وتربى في بلاط بني الأحمر ، ثم أهداه سلطان غرناطة الى أبي حمو الاول الذي أعطاه بدوره الى ابنه أبي تاشفين الذي ولاه حجابته حينما صار سلطانا. وتصف المراجع هلالا هذا بالغلظة والفظاظة والمهابة ، وقد انتهت حياته في السجن سنة ٨٧٢٩ بعد أن غضب عليه سلطانه أبو تاشفين (٢).

ويعتبر عصر أبي حمو موسى الثاني من أزهر عهود الدولة الزيانية

(١) يحيى ابن خلدون : بشية الرواد ج ١ ص ١٧٢ نشر وترجمته الفرد بل Alfred Bel. (الجزائر ١٩٥٢)

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٢٣١ والترجمة الفرنسية ص ١٨٩ حاشية ٥٤ .

٧٥١-٨٧٩ (= ١٢٥٢-١٢٨٩م). وكان هذا السلطان قد ولد في غرناطة سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢٣ م) ، وقضى فيها فترة شبابه ، عندما كان والده نفياً^(١) ، فتأثرت شخصيته بالحضارة الأندلسية الراقية التي كانت سائدة في غرناطة في ذلك الوقت ، مما كان له أثر كبير في ذلك الازدهار الحضارى الذى نعمت به تلمسان حتى صارت صورة من غرناطة في عهده^(٢) ويبدو من تاريخ هذا السلطان أنه كان قبل كل شيء جندياً بأسلاً ، إلا أنه كان في نفس الوقت أديباً فيلسوفاً وشاعراً فناناً. ويظهر ذلك بوضوح في كتابه ونظم السلوك في سياسة الملوك^(٣) الذى صنفه على شكل نصائح لولده وولى عهده أبى تاشفين عبد الرحمن. والكتاب فى مجمله تلخيص للكتاب سلوان المطاع، لابن ظفر العقلى^(٤) (ت سنة ٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م) ، إلا أن أبا حو ضمنه الكثير من نظمه وماجرى له من الحوادث مع معاصريه من ملوك بنى مرين ، ومشايخ العرب ،

(١) نفس المرجع ٢٣ - ١٤ - ١٥

(٢) راجع L'Abbé Bargés : Complement de l'histoire des Beni Zeiyan, Rois de Tlemecen, ouvrage du Muhammad Abd al Jalil al Tenessi pages. 152-153)

(٣) طبع هذا الكتاب بتونس سنة ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) وقد ترجمه الى اللغة الإسبانية ماريو جاسبار Mariano Gaspar سنة ١٨٩٩ .

(٤) ترجم المستشرق الإيطالى ميشيل أمارى Amari هذا الكتاب الى اللغة الإيطالية تحت عنوان (Conforti Politici, Firenze, 1851)

وزعماء المغرب وغيرهم^(١) . ولقد أحاط هذا السلطان نفسه بطبقة من العلماء والشعراء فخص بالذكر منهم بعض الاندلسيين أمثال الكاتب يحيى ابن خلدون ، والشاعر أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي الأندلسي^(٢) .

وقد سبقت الإشارة الى ان هذا السلطان في سنة ٥٧٦٩ (١٣٦٨ م) دعا لحجابه المؤرخ المشهور عبد الرحمن بن خلدون ، ولكن هذا الأخير اعتذر عن تلبية رغبته وأتاب عنه أخاه أبا زكريا يحيى بن خلدون ، فشغلها مدة طويلة انتج خلالها عدة أعمال أدبية وتاريخية مثل كتاب « بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد » ، وقصيدة في السيف والقلم ، ومراسلات سلطانية مع ملك غرناطة محمد الخامس الغني بالله ووزيره لسان الدين بن الخطيب^(٣) . وقد مات يحيى بن خلدون قتيلاً على يد ولي العهد ابن تاشفين سنة ٥٧٨٠ (١٣٦٩ م) لما طلته إياه بمقعد ولاية وهران ، وكانت هذه المماطلة عن أمر السلطان أبي حمو^(٤) . أما

(١) راجع (المقرئ : أزهار الرياض ج ١ ص ٢٤٩) وكذلك

(Menéndez y Pelayo : Orígenes de la novela, I, p. 69-70)

(٢) يحيى بن خلدون : بغية الرواد ج ٢ ص ٤٤ ، ١٧٠-١٨١

(٣) ابن خلدون : التعريف ص ١٢٢ ، ١٢٧

(٤) الميلي : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٣٥٨ ، الجيلالي : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٤٧

وفي كتاب مسودع العلامة لأبي الوليد بن الأحمر ص ٦٥ أنه قتل بسبب شقيقه عبد الرحمن الذي التجأ في هذه السنة ٥٧٨٠ الى أبي العباس الحفصى بعد رحيله من قلعة بني سلامة كما ورد في كتابه التعريف ص ٤٣٠ .

أخوه عبد الرحمن ابن خلدون ، فقد كان قبيلا ذلك الوقت قد دعاه أبو حمو مرة أخرى للعمل معه سنة ٥٧٧٦ (١٣٣٥ م) ، ولكنه امتنع وآثر التخلي عن السياسة ، والانقطاع للدرس والبحث ، فنزل بأهله قلعة ابن سلامة أو بني سلامة أو بني تاوغزوت في جنوب غرب مدينة فريدة Frenda بمقاطعة وهران في الجزائر ، حيث أقام أربعة أهوام (٧٧٩ - ٧٨٠ هـ) كتب مقدمة تاريخه المشهورة (١).

ولقد استطاع أبو حمو بفضل تدبير وزيره الحاج موسى بن علي بن برغوث ، أن يسيطر على بلاد المغرب الاوسط فترة من الزمان ، وأن يأسس مملكة غرناطة في جهاها مع الاسبان بالمال والمؤن والرجال ، إلا أنه لم يلبث ان اصيب بخيبة أمل كبيرة عندما ثار عليه ولده ابو تاشفين ، وتآمر ضده مع السلطان أبي العباس المريني ، فقام من مور- لسان كدولة مستقلة ، وصارت تابعة لسلطان فاس (١٣٨٩ م) ، وبموته انتهت مملكة تلسان كدولة مستقلة ، وصارت تابعة لسلطان فاس (١٣).

(١) ابن خلدون : التعريف ص ٢٢٨-٢٢٩ وما بها من حواشي .
(٢) ابن خلدون : المعبر ج ٧ ص ٣٦٢ : الفلقشدي ج ٥ ص ٢٠٢ .

الوزارة والحجابة على عهد بني مرين أو بني عبد الحق :

كان بنو مرين من القبائل الزناتية ^(١) التي لم تنشأ الخوض لنفوذ الموحدين على عكس أبناء عموماتهم بني عبد الواد . ولهذا آثروا الهجرة إلى الصحراء جنوبا على الدخول في طاعة الموحدين . وسياة الصحراء كانت توافقهم لأنهم من البدو الرحل . وكانوا في فصل الربيع يرحلون إلى شمال المغرب الأقصى لرعى أبلهم ومواشيهم . فيقضون شهورا من السنة نازلين بين فيجيج (فكيك) وملوية ، حتى إذا اقترب فصل الشتاء رجعوا إلى بلادهم ^(٢) .

وقد لاحظ بنو مرين أثناء ذلك ما بدأ يطرأ على جسم الموحدين من ضعف واختلال بعد هزيمة العقاب ، فشجعهم ذلك على الطردوح للملك والاستيلاء على البلاد وخيراتهما ^(٣) . وكان أول قيام بني مرين في سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ، على عهد أميرهم أبي محمد عبد الحق بن محيو الذي احتل مكناسة وتازا وأخذ يغير غربا على بلاد الهبط ^(٤) في شمال المغرب

(١) رغم هذا الأصل الزناتي البربري ، فإن المرينيين يرفعون نسبهم إلى مضر حيث يعتمدون بنسب الرسول د صلعم ، راجع « أبو الوليد بن الأخر : روضة السرير ص ١٤ » .

(٢) ، (٣) راجع د محمد الماسي : نشأة الدولة المرينية ، ومميزات العصر المريني الأدبية ، مجلة البيئة ، ديسمبر سنة ١٩٦٢ هـ .

(٤) كانت بلاد المغرب الأقصى تنقسم إلى أربع مناطق رئيسية وهي :
١ - الغرب وهي المنطقة التي تشمل مصب وادي سبوف شرق المغرب الأقصى . =

ثم تدعمت أركان هذه الدولة في عهد عثمان بن عبد الحق سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م)، وأخيراً جاء أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني وقضى على آخر خلفاء الموحدين ، أبي دبروس ، واستول على عاصمتهم مراكش سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) فانقرضت بذلك دولة الموحدين .

وقد تلقب يعقوب بعد ذلك بلقب أمير المسلمين بدلاً من لقب الأمير الذي كان يدعى به ، كما قطع الدعاء للخلافة الحفصية بتونس ، وبني في الناحية الغربية من مدينة فاس ، عاصمة للدولة الجديدة سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥) صارت تسمى بالمدينة البيضاء وبالبلد الجديد وفاس الجديدة ، تميزا لها عن جارتها فاس البالية أو القديمة التي بناها الإدارة من قبل (١) .

هذا ، ويلاحظ أن هذه الدولة المرينية ، لم تستند في قيامها إلى دعوة إصلاحية دينية خاصة كما فعلت الدول التي سبقتها ، بل قامت نتيجة للاضطراب والفساد الذي حل بالمغرب عقب كارثة العقاب ، فانتخدت من ذلك مبررا كافيا لقيامها (٢) . على أن هذا لا يمنع القول بأن هذه

٢ - الهبط وهي المنطقة التي تقع في شمال عرباوة والقصر الكبير في الشمال .

٣ - دكالة وهي البساتين العربية المطلة على المحيط الاطلسي غربا .

٤ - الحوز وهي المناطق الخصبة الجنوبية، وكانت قاعدتها قديمًا مدينة أغمات ثم حلت محلها مدينة مراكش

(١) ابن خلدون : العبر ٨ ص ١٩٥ ، أبو الوليد بن الأحرار : روضة

النسرين ص ١٩ - ٢٠

من المرجع السابق

الدولة كانت مثل سابقتها ، دولة عسكرية مجاهدة ، جعلت من الجهاد في الأندلس هدفا مباشرا لقيامها .

ولقد حاولت هذه الدولة الزناتية أن تجمع كلمة المغرب العربي ، وتعمل على توحيده كما كان الحال في عهد بني عبد المؤمن ، ونجحت فعلا في بعض فترات قوتها ، أن تمت نفوذها إلى نواحي كثيرة من القطر الجزائري بل والتونسي أيضا ؛ إلا أنها اصطدمت هناك بمقاومة عنيفة من جانب بني عبد الواد والحفصيين ، واقتصر نفوذها آخر الأمر على بلاد المغرب الأقصى بين نهر ملوية شرقا والمحيط الأطلسي غربا ، وسجلت في « تافيلالت ، جنوبا .

أما في الشمال ، فقد حرص المرينيون على الجهاد في أسبانيا ، ومساعدة مملكة غرناطة الإسلامية . واقتضت منهم هذه السياسة العمل على الاحتفاظ بقواعد عسكرية في جنوب الأندلس مثل رندة وجبل طارق ، والجزيرة الخضراء ، وطريف ، ومربلة ، لتكون بمثابة رأس جسر لهم هناك عند القيام بهذا الواجب المقدس ، إلا أنه يلاحظ في الوقت نفسه ، ان اهتمام المرينيين بهذه القواعد الأندلسية . لا يرجع فقط الى الرغبة في مساعدة أخوانهم في الدين سكان غرناطة ، بل يرجع أيضا إلى الدفاع عن نفوذهم في مضيق جبل طارق ، ومنع أي خطر يهدد المغرب من هذه الناحية الشمالية .

وقبائل بني مرين كانت كثيرة العدد ، نذكر منها : بني عبد الحق ، وبني عسكر ، وبني وطاس ، وبني الكاس ، وبني يابان ، وبني فودود ،

وبنى برنيان ... الخ وكلها تنتمي إل زنانة (١) ، إلا أن نظام الملك فيها
انحصر في بيت بنى عبد الحق لأنهم - كما يقول ابن الخطيب - يمسوب
زنانة (٢) .

وكان العظماء من ملوك بنى مرين يباشرون القضايا المهمة بأنفسهم
بمشور انقصر الملكي بفاس الجديدة ، ويحيط بهم مجلس من الخاصة وأهل
العورى من أشباخ بنى مرين الذين كان يرأسهم كبير منهم يدعى بشيخ
بنى مرين (٣) . وهذا المجلس يذكرنا بدشيخة الموحدين على عهد بنى
عبد المؤمن والخفصيين .

وقد أشار العمري إلى أن هؤلاء الأشباخ كانوا يجلسون مع السلطان
متقلدين سيوفهم ، بينما يجلس السلطان على فرش مرفوعة . وكان الجميع
بما في ذلك السلطان والجنود ، يتعممون بعمائم طوال ، قليلة العرض من
كان ، ويعمل فوقها احرامات يلفونها على أكتافهم ، ويتقلدون السيوف
تقليدا بدويا ، ويلبسون الخفاف في أرجلهم ، وتسمى عندهم بالانمقة
كما في أفريقية (أى تونس) ، ويشدون المياميز فوقها ، ويتخذون
المناطق (وهى الحرائص) ويمبرن عنها بالمضيات من فضة أو ذهب .

(١) العمري : مسالك الأبصار ، القسم الخاص ، بالمغرب الأقصى ، نشر محمد
المنوني ، مجلة البحث العلمى ، يناير سنة ١٩٦٤ ، الرباط .

(٢) المقرئ : نقح الطيب ص ٧ ص ٣٨

(٣) العمري : المرجع السابق وكذلك (محمد المنوني : نظم الدولة المرينية ،
مجلة البحث العلمى ، مايو سنة ١٩٦٤ ، الرباط)

وربما بلغت كل مضمة منها ألف مثقال ، ولكنهم لا يشدونها إلا في يوم الحرب أو يوم التمييز ، وهو يوم عرضهم على السلطان . ويختص السلطان بلبس البرنس الأبيض الرفيع ، لا يلبسه ذو سيف غيره ^(١) .

. وإذا كانت السلطنة في دولة بني مرين قد انحصرت في بيت بني هبد الحق ، فانه يلاحظ أن خطة الوزارة أو رئاسة الوزراء قد استأثرت بها عائلات من القبائل المريفية المعروفة السالفة الذكر ، فنسمع عن عدد كبير من الوزراء باسم القودودي أو اليرنياني أو الياباني أو العسكري أو ابن الكاس أو الوطاسي ، بل إن بعضهم كانت تربطه بملوك بني مرين روابط المصاهرة ^(٢) . ولهذا فان الوزير في عهد هذه الدولة كان يعتبر من أرباب السيف ، ومن أشيـاخ بني مرين ، وقد شرح ابن خلدون اختصاصه بقوله : « وأما رئاسة الحرب والعساكر فهي الوزير » . ^(٣)

وبطبيعة الحال كان هؤلاء الوزراء ، باعتبارهم من القادة العسكريين ، يرافقون السلاطين في غزواتهم سواء في المغرب أو الأندلس . وقد ذكر ابن مرزوق أسماء من استشهد منهم في العمليات الحربية التي خاضها السلطان أبو الحسن المريني في طريف والجزائر وتونس ، ووصفهم بأوصاف

(١) العمري : المرجع السابق ص ١٤٩ ، القلقشندي : صبح الأعشى ص ٥

ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٢) مثال ذلك الوزير عمر بن عبد الله بن علي الياـباني الذي تزوج أخت السلطان أبي سالم إبراهيم المريني .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٢ .

تدل على مكانتهم الحربية كالبطولة والفروسية وسيوف الله المسلوله^(١) . ويضيف ابن مرزوق أنه كان من اختصاص الوزير أيضا ، الاشراف على الجبايات والنظر في الولاة ، ورفع الشكايات السلطان ومباشرة الحكم في بعضها^(٢)

وبعد وفاة السلطان أبي عنان فارس سنة ٥٧٩ هـ (١٣٥٨ م) ضعف نفوذ ملوك بني مرين لصغر سنهم وتحول النفوذ الى الوزراء . وإذا استثنينا فترات قصيرة تمكن فيها بعض الملوك من الإنفراد بالحكم ، فانه يمكن القول بصفة عامة بأن كل نفوذ في الدولة قد صار بيد الوزراء حتى نهاية الدولة المرينية .

أما من ناحية إدارة الشؤون المالية ، فقد كانت في يد كاتب يعمل تحت إدارة الوزير ، ويسرف بصاحب الاشغال أو كاتب الاشغال ، ويتولى حسابات العطاء والحراج ، كما يتولى ديوان الجيش ، فيشرف على إحصاء الجنود بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم ، وهو مسؤول أمام السلطان أو الوزير ، وخطه معتبر في صحة الحسابات في الجباية والعطاء^(٣) ويرى ابن مرزوق أن ديوان هذه الخطة ، كان يشتمل على كتاب الحراج ، وأهل الحساب والمساحة ، وأن من ملحقاته شهود بيت المال الذين كانوا يشهدون على الحاصل في بيوت الأموال دخلا وخرجا ، وترجع اليهم

(١) نشر المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال قطعة من كتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن للخطيب ابن مرزوق في مجلة هسبيريس (Hespéris , tome V , 1925 p.18 - 39) مع ترجمة فرنسية وتعليقات مفصلة .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٢

سائر الاعمال ، وترفع لهم جرائد الحسابات وهى أشرف خطط العدالة^(١).
ومن توابع هذه الخطة أيضا ، عمال الزكاة ، وهم الذين يخرجون
للتواشى لاقتضاء ضرائب سكان البادية . وقد ذكر ابن مرزوق أسماء
من تولوا خطة الاشغال فى أيام السلطان أبى الحسن المربنى ، أمثال أبى
الحسن القبائلى ، وأبى محمد عبد الله بن أبى مدين العثمانى ، وأبى الحسن على
محمد بن مسعود ، ووصفهم جميعا بالحسب ، والفضل ، ونزاهة النفس
والأمانة^(٢) ، ثم يضيف ابن مرزوق بأن من فضائل السلطان أبى الحسن
المربنى ، أنه لم يستعمل أحدا من أهل الذمة فى هذه الخطة أو غيرها
كما استعمله غيره فى المشرق والمغرب والأندلس . وضرب مثلا على ذلك
بابن نغزالة أو نغزلة اليهودى وزير باديس بن حبوس بن زيرى ملك غرناطة
(٤٣٠-٤٦٦ هـ) على عهد ملوك الطوائف ، وكيف أن العامة قتلته هو
وأهل ملته على أثر القصيدة الحماسية التى قالها محرضا ضد اليهود الشاعر
الصوفى أبو اسحاق إبراهيم الإلبيرى^(٣) .

والواقع ان هذه السياسة الحكيمية التى اتبناها السلطان أبو الحسن
المربنى ازام أهل الذمة ، لم تكن قاعدة عامة عند جميع ملوك بنى مرين
فلقد سبق أن اتخذ كل من يوسف بن يعقوب بن عبد الحق (ت سنة
٥٧٠ هـ) ، وحفيده أبى الربيع سليمان (ت سنة ٥٧١ هـ) حاجبا يهوديا

(١) ابن مرزوق : المسند ص ٢٩ ، محمد المنوفى : نظم الدولة المرينية ، مجلة
البحث العلمى ، مايو سنة ١٩٦٤

(٢) ابن مرزوق : المسند الصحيح ص ٢٩ - ٣٠

(٣) ابن مرزوق : المرجع السابق ص ٣٠ وراجع القصيدة فى (ابن الخطيب
أعمال الاعلام ص ٢٣١) .

يدعى خليفه بن حيون بن رقاصة^(١) ، كذلك اتخذ عبد الحق (الثاني) ابن سعيد ، آخر ملوك بني مرين جماعه من اليهود مثل هارون الذى جعله وزيره ، وشاويل الذى عينه حاكما على فاس . وقد عجلت هذه السياسة الاخيرة بنهاية الدولة المرينية ، إذ ثار الاهال باليهود وسلطانهم وقتلهم جميعا سنة ٨٧٥ هـ (١٤٧٠ م)^(٢) .

أما عن صاحب خطة الكتابة والانشاء ، فقد ورد ذكره بصيغ مختلفة مثل صاحب القلم الاعلى^(٣) ، والفقير الكاتب^(٤) ، وشيخ الكتاب^(٥) أو رئيس الكتاب^(٦) ، وكاتب السر أو كاتب السر والانشاء^(٧) .

وواضح من هذه التسمية واختصاصها ، أنها تشبه تماما وظيفة وزير الفضل وكاتب السر على عهد الحفصيين ، فهي إذن فى مرتبة الوزارة وان كانت المراجع المرينية لم تشر صراحة الى أن صاحبها كان يسمى بالوزير ، هذا ويثير ابن خلدون الى أن هذه الخطة كانت أحيانا تجمع فى شخص

[١] ابن الأحمر: روضة السرين ص ٢١ ، ٢٣

[٢] السلاوى : الاستقصا ص ٩٨ - ١٠٠

[٣] ابن الأحمر : مستودع العلامة ص ٢٠ وما بعدها

[٤] المصدر السابق .

[٥] ابن مرزوق المسند ص ٢٩

[٦] ابن خلدون : التعريف ص ٤٠

[٧] القلقشندي : صيغ الأعشى ص ٥٥ - ٢٠٥ ، ابن خلدون :

التعريف ص ٧٠

واحد ، وأحيانا نفرق في هذة أشخاص ^(١)

وكيفما كان الأمر ، فإن هذه الخطة كانت تقتصر من المناصب المرموقة في الدولة ، وكان صاحبها من المقربين للسلطان فيذكر العمرى أن كاتب السر كان يقابل السلطان كل يوم ليعرض عليه الرسائل المختلفة وقصص أصحاب المظالم ، وقد يأمره السلطان بالمبيت عنده في الحالات الهامة ^(٢) ، وكان له في كل يوم مثقالان من الذهب ، وله أيضا قريرتان يتحصل له منهما متحصل جيد ، مع رسوم كثيرة له على البسلاد ، ومنافع وإرفاقات . ولكل واحد من كاتب السر وقاضى القضاة في كل سنة بغلة بـسرجها ولجامها . وسبينة قماش برسم كسوته كما للاشيخ ^(٣) وكان زى الكتاب والقضاة والعلماء عموما ، قريب القبة من ملابس الاشيخ والجند السالفة الذكر ، إلا أن عمائمهم كانت خضراء اللون ^(٤) .

ولم يشترط في صاحب خطة الكتابة أن يكون من بنى مرين ، بل كانت تسند إلى من يحسنها من أهلها أرباب الفكر والقلم ^(٥) . ولهذا شغلها عدد كبير من الاندلسيين إلى جانب المغاربة وبعض حجاب

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٢ .

(٢) القلقشندي : صبيح الأعشى ص ٥٣ .

(٣) القلقشندي : نفس المرجع ص ٢٠٥ .

(٤) القلقشندي : نفس المرجع ص ٢٠٤ .

(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٢ .

الى جانب المغاربة وبعض حجاب المسلمين الذين كانت لهم دراية بهذا الفن (١) .

ويلاحظ في هذا الصدد ، أن الدولة المرينية كانت دولة بربرية خرجت من بدو الصحراء الى حياة المدنية والحضارة . ولهذا عملت ، لسد هذا النقص ، على تشجيع العلم واكبار العلماء وبناء المدارس ، مما كان له أثر كبير في اجتذاب عدد كبير من علماء أفريقيا الشمالية وغرناطة الى بلادهم ، واستيطانهم فيها حتى صاروا يعتبرون من أبنائها .

وكان علماء غرناطة (أى الأندلس في ذلك الوقت) من أكثر العلماء اقبالا على الهجرة سواء الى المغرب أو المشرق .

وقد علل ابن خلدون ذلك بغلاء المعيشة وقسوة الحياة في هذه المملكة نتيجة لصعوبة أرضها الجبلية وكثرة ما يبذل فيها من جهد وأموال وعناية لإصلاحها . ولهذا اضطر عدد كبير من أهلها الى الرحيل عنها الى مصر والمغرب حيث كانت فرص العمل أيسر ، ووسائل المعيشة أسهل وأرخص (٢) . ولقد بلغ من كثرة عدد المسافرين من مدينة غرناطة ،

(١) ابو الوليد بن الأحرار : روضة المسرين ص ٢١ ، ٢٨ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٦٤ ، ٤٣٢ . كذلك أشار الى غلاء المعيشة في غرناطة القاضي المعاصر الحسن التباي في كتابه : المراقبة العليا ص ١٦٤ « نشر بروفنسال » .

أن سمي أحد أرباضها الخارجية باسم «حوز الوداع»^(١) ، وهو المكان الذي اعتاد فيه الفرناطيون توديع أهليهم وأحبائهم قبل رحيلهم^(٢) . وغير بعيد بالمرّة أن يكون هذا المكان هو نفس المكان الذي يعرف حتى اليوم باسم Suspiro del Moro أى زفرة العربي ، وهو الذي ترجمه الرواية الأسبانية الى الملك عبد الله ابن الأحمر ، آخر ملوك غرناطة حينما غادر ملكه وبلاده ، ووقف يبكي في هذا المكان لإلقاء آخر نظرة على وطنه.

ومهما يكن من شيء ، فالذي يهمنى في هذا الصدد هو أن عددا كبيرا من أهالى غرناطة ، قد رحل الى فاس ، إما لطلب العلم فيها أو التدريس في جامعتها القروية ومعاهدها العلمية ، وإما للاشتغال في البلاط المريني ككتاب ، وفي المستشفيات المغربية كأطباء^(٣) .

ولا يتسع المجال هنا لحصر جميع الفرناطيين الذين عملوا كتابا في بلاط بني مرين ، وحسبى أن أذكر بعضا منهم على سبيل المثال لا الحصر .

(١) ، (٢) راجع والمقرى : نفع الطيب ١٠ ص ٢٣٠ ، وفي ذلك يقول الشاعر المعاصر ابن جابر :

بحوز الوداع لنا موقف . . أذاب الفؤاد لأجل الوداع
فما أنا أنسى غداة النوى . . وحادى الرائب للبين داعى

(٣) راجع د احمد مختار العبادى : العلاقات الثقافية بين غرناطة وفاس في القرن الثامن الهجرى ، الكتاب الذهبى لجامعة القرويين بمناسبة ذكرها المائة بعد الألف ص ١٩٨ ، فاس ١٩٦٠ .

فهناك مثلاً الشاعر أبو الحسن بن الصباغ الذي تولى خطة الكتابة في فاس منذ سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) حتى سنة وفاته ٧٥٨ هـ (١٣٥٧ م)^(١) وهناك الشاعر الرحالة المحدث أبو اسحاق ابراهيم بن الحاج النميري الذي طاف ببلاد المشرق والمغرب ثم تولى مشيخة الكتاب وكتابة السر على عهد السلطان أبي الحسن وولده أبي عنان فارس . وقد أفرد له ابن الخطيب ترجمة وافية في إحاطته ، ذكر فيها أمثلة من شعره الذي وصفه بالمعذوبة التي تجمع بين جزالة المغاربة ورقة المشارقة . كذلك وصف كتابه الذي دون فيه رحلته بأنه يتضمن العجب العجيب . ولقد عاد ابراهيم بن الحاج إلى وطنه غرناطة حيث ولى القضاء بها عقب وفاة السلطان أبي عنان المريني (٢) .

وهناك الكاتب المالقي أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري الخزرجي الذي شغل منصب الكتابة وأتمن على خطة العلامة^(٣)

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحة ٣١٤ - ٣١٤ ،

المقرى : نفح الطيب ٣ ٨ ص ٣٦٤ - ٣٦٧ .

(٢) راجع المقرى : نفح الطيب ٣ ٩ ص ٣١٦ - ٣٢٧ ، احمد بابا : نيل

الابتهاج ص ٤٤ - ٤٥ .

(٣) كانت علامة السلطان ، أى عبارة توقيعه ، من ملحقات خطة الكتابة ويتولاها الكاتب بنفسه أو يعمد بها إلى كاتب خاص موثوق به هو صاحب العلامة . وفي بعض الاحيان كان ملوك بني مرين يباشرون وضع العلامة بخطهم فاذا كانت علامة الملك المريني : ركتب في التاريخ المؤرخ به ، فهي بخط يد السلطان ، وإذا كانت ' ركتب في التاريخ ، فهي بخط صاحب العلامة ، وكانت ≡

أيام السلاطين أبي الحسن ، وأبي عنان ، وأبي سالم ، ولهذا الكاتب مراسلات عديدة مع صديقه الوزير الفرناطي لسان الدين أبي الخطيب^(١) كما يوجد له كتاب في السياسة ونظم الحكم ، أله للسلطان أبي عناب وبأمر منه ، وهو كتاب والشب اللامعة في السياسة النافعة^(٢) ، ويتضمن شذرات من كتاب السياسة لابن حزم ، وتوفي ابن رضوان سنة ٧٨٣ هـ ودفن في مدينة أنفا المعروفة اليوم بالدار البيضاء في شمال غرب المغرب^(٣) .

كذلك نذكر أبا القاسم محمد بن يحيى البرجي^(٤) الغساني الذي كان كاتباً للسلطان أبي عنان ثم لأخيه أبي سالم ، كما كان يوفد في السفارة إلى سلاطين مصر وملوك قشتالة ، وتوفي^(٥) سنة ٧٨٦ هـ .

≡ توضع أسفل المكتوب وترسم بخط غليظ راجع : (المرى : سالك الأبصار القسم الخاص بالمغرب الأقصى ، نشر محمد المنوف ، الفلقتندي : صبح الأعشى ٥ ص ٢١٠ .

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحات ٢٣٣ - ٢٣٧ ، المقرئ : نفح الطيب ٨ ص ٢١٣ - ٢١٧ .

(٢) توجد من هذا الكتاب عدة مخطوطات بالخزانة العامة بالرباط من من بينها الأرقام : ق ٩٢ ، ج ٦٨ ، ٧٢٩٥ .

(٣) راجع (محمد ابراهيم الكتاني : شذرات من كتاب السياسة لابن حزم مجلة تطوان ١٩٦٠) : مستودع العلامة ص ٥١ - ٥٣ .

(٤) نسبة الى برجة Berja مدينة من أعمال المرية بإسبانيا .

(٥) روضة الديرين ص ٢٩ .

ومفك أيضاً الكاتب الأديب الشاب الفرناسى أبو عبد الله بن جزى على عهد
السلطان أبى عنان وعلى الرغم من أن هذا الشاب قد توفى فى سن مبكرة ،
وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره ٧٥٥ هـ (١٣٥٦ م) ، إلا أن
مآثرة العلمية - كما يقول المقرئ - قد أثمرت اعجاب معاصريه من أهل
المشرق والمغرب . من ضمن أعماله المشهورة ، كتاب رحلة ابن بطوطة
المسمى بتحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . فابن جزى
هو الذى قام بصياغة هذه الرحلة مستعينا فى ذلك بمسودات صديقه الرحالة
الطنجى ابن بطوطة . ويقال إنه قام بهذا العمل بناء على طلب السلطان
أبى عنان ، وأنه أمته فى ثلاثة أشهر فقط (١) . كذلك كتب ابن جزى
أثناء مقامه بفاس تاريخاً عاماً لبلده غرناطة ، ولكنه للأسف مات قبل أن
يتمه . وقد صرح لسان الدين بن الخطيب بأنه قابل ابن جزى بمدينة
فاس أثناء سفارته بالمغرب سنة ٧٥٥ هـ وأنه قرأ كتابه وسار على متناهجه
معد تأليف كتابه الأحاطة فى أخبار غرناطة . كذلك يذهب الملك الشاعر
يوسف الثالث ملك غرناطة إلى أن ابن الخطيب قد نقل كثيراً فى أحاطته
من تاريخ ابن جزى (٢) ، وهذا يدلنا على مدى قيمة هذا الكتاب
المفقود . ولم يكن ابن جزى أدبياً ومؤرخاً فحسب بل كان شاعراً
أيضاً ، وله شعر جيد أورده المقرئ فى كتابية أزهار الرياض ، ونفع

(١) المقرئ : نفع الطيب ١ ص ١٦٦ ، أزهار الرياض ٣ ص ١٩٥
(٢) ابن الخطيب : الأحاطة (طبعة القاهرة) ٢ ص ١٨٧ ، المقرئ :
نفع الطيب ٩ ص ٣١٢ - ٣١٤

الطيب (١) . أما الكتاب من المغاربة ، فأسماءهم لا حصر لها وكلها تنتمي إلى بيوتات معروفة ، ويكفي أن نشير إلى بيت بنى أبي مدين العثماني ، الذي انحصرت فيه كتابة الانشاء وخطه العلامة مدة طويلة منذ أيام يعقوب ابن عبد الحق المريني وأبنائه من بعده (٢) . وهم ينسبون إلى بنى عثمان من بربر زواوة ببجاية ، ثم استوطنوا القصر الكبير (قصر كتامة) في شمال المغرب الأقصى . ولا علاقة بين اسم هذه الاسرة واسم الولي الصالح شعيت بن الحسين الملقب بأبي مدين ، دفن في قرية العباد بضواحي تلمسان سنة ٥٩٤ هـ . فهذا الأخير أندلسي أشبيل من الخرج ، وذلك من بنى عثمان كما ذكرنا ، وإنما الاسمان توافقا وكلا الرجلين من الصالحين (٣) . وهناك أيضا الكاتب أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي ، وأصله من مدينة سبتة ، ثم اتخذه السلطان أبو سعيد المريني كاتباً له ثم رفاقه إلى رئاسة الكتاب ورسم علامته في الرسائل والأوامر سنة ٧١٨ هـ ، ولم يزل على ذلك سائر أيام السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن ، فارقت صناعة الانشاء والترسيل على يديه ، وتوفي في وباء الطاعون الجارف سنة ٧٤٩ هـ (٤) .

-
- (١) المقرئ : نفح الطيب ١ ص ١٦٦ ، ٨ ص ٤١ - ٤٤ ، أزهار الرياض ٣ ص ١٨٩ - ٢٠١ ، ابن الخطيب : الأحاظ ص ٢ ص ١٨٧ - ١٩٤ (طبعة القاهرة)
- (٢) راجع (أبو الوليد بن الأحمر : روضة النمرين ص ١٨ - ٢٩ ، مستودع العلامة ص ٤١ - ٤٧ ، ٩٨)
- (٣) أبو الوليد بن الأحمر : مستودع العلامة ص ٤٣ ، ٩٨ .
- (٤) التعريف بأبن خلدون ص ٣٨ - ٤١

كذلك نذكر المؤرخ المشهور عبد الرحمن بن خلدون الذي ولى خطة
العلامة لسلطان أبي غنان^(١) ، ثم كتابة السر والانشاء لآخيه السلطان
أبي سالم ابراهيم سنة ٧٦٠ هـ . وقد نوه ابن خلدون بطريقته الجديدة في
الكتابة التي تحرر فيها من قيود السجيم بقوله :

« واستعملنى - أبو سالم - فى كتابة سره ، والترسيل عنه ، والانشاء
لمخاطبته ، وكان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل ، دون أن يشاركنى
أحد من ينحل الكتابة فى الاستيعاب لضعف اتحاليها ، وخفاء العالى منها
على أكثر الناس ، بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ ، وكان مستغربا
عندهم بين أهل الصناعة . »^(٢)

ولقد أمدنا الأمير الغرناطى ، أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر النصرى
فى كتابيه : روضة النسرين فى دولة بنى مرين ، ومسنود العلامة ، بأسماء
كتاب الدولة المرينية حتى بعد سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٨ م) .

من كل ما تقدم نرى أن الوزارة فى عهد بنى مرين ، قد جمعت بين
وزارة السيف والمال والقلم ، كما كان الحال فى عهد الحفصيين ، وإن
كان هذا الثلاث الوزارى قد تغير منذ وفاة السلطان أبي غنان ، حينما
ضعف ملوك بنى مرين ، واستبد وزيره السيف بأمر الملكة حتى صار
كل شيء فى يدهم .

ومن العجيب أن تلتهم دولة بنى عبد الحق على أيدي وزراءهم وأبناء

(١) التعريف بابن خلدون ص ٩٩

(٢) راجع (ابن خلدون : التعريف ص ٧٠)

عهم الوطاسيين حينما أعلن محمد الشيخ الوطاسى نفسه سلطانا على المغرب سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) مؤسسا بذلك الدولة الوطاسية .

الحجاجة على عهد المرينيين

أما عن خطة الحجاجة ، فقد اختلف المؤرخون حول تحديد اختصاصها واسم صاحبها . فابن خلدون نفي وجود اسم الحاجب فى الدولة المرينية وذكر أن المتصرف بباب السلطان كان قائدا عسكريا أشبه برئيس للحرس الملاكى يدعى بالمزاور ، وذلك بقوله : « ولا أمر لاسم الحاجب عندهم وأما باب السلطان وحجبه عن العامة فى رتبة عندهم فيسمى صاحبها عندهم بالمزاور ، ومعناه المقدم على الجنادة المتصرفين بباب السلطان فى تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته ، وإنزال سطواته ، وحفظ المعتقلين فى سجنونه ، والعريف عليهم فى ذلك ، فالباب له ، وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود فى دار العامة راجع إليه فكأنها وزارة صغرى ، ^(١) »

أما ابن الخطيب ، فقد أشار فى معرض كلامه عن أحداث المغرب ، إلى وجود قائد عسكري بباب السلطان ، ولكنه أسماه بصاحب الشرطة العليا وذلك عند قوله :

وقصد الى قيوم الرماة ، وصاحب الشرطة العليا بباب السلطان الشيخ عيسى بن الزرقاء ، المنتسب الى الرؤساء من بنى اشقيلولة ^(٢) ، التقديم

(١) ابن خلدون . المقدمة ص ٢٤٢

(٢) واضح من هذا الاسم أنه أسباني الأصل وهو اسم عائلة غرناطية ==

جنوحهم إلى هذه الإبالة اليعقوبية ... الخ .^(١)

ويفهم من كلام كل من ابن الخطيب وابن خلدون أن أصحاب الشرطة العليا أو الموزار كان من كبار رجال الدولة ، وأنه كان مكلفا بالنظر في الجرائم التي يرتكبها عليه القوم ، وتنفيذ أوامر السلطان الخاصة باعتقالهم وسجنهم . وهو في هذا يختلف عن صاحب الشرطة الصغرى الذى كان ينظر في الجرائم التي يرتكبها العامة^(٢) .

أما أبو الوليد بن الأحمر ، فقد نص صراحة على وجود اسم الحاجب في الدولة المرينية ، ولكنه أطلقه على فئات مختلفة من الناس : مرة يطلقه على بعض أهل الذمة من اليهود مثل خليفة بن حيون من رقاصة الذى كان حاجبا للسلطان يوسف بن يعقوب المريني ، ولولده أبي الربيع سليمان^(٣) . ومرة أخرى يطلقه على بعض موالى السلطان من الحصيان الاعلاج أمثال عتيق ، وغنبر ، وفرج ، وفارح بن مهدي

كثيرة كانت ترتبط مع أسرة بنى الأحمر ملوك غرناطة برباط القرى والمصاهرة وكانت لهم رئاسات على بعض المدن الغرناطية الهامة ، ثم وقع خلاف بين الأسرتين أدى إلى نشوب الحرب بينهما والتجاء بنى أشفيلولة إلى ملوك بنى مرين راجع أخبارهم في وابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٣٣٠ - ٣٣٦ .

(١) ابن الخطيب : نقاضة الجراب في غلالة الاغراب ص ٣٣٩ ، والايالة اليعقوبية نسبة إلى يعقوب بن عبد الحق المريني مؤسس هذه الدولة المرينية .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥١ .

(٣) أبو الوليد بن الأحمر : روضة السيرين ص ٢١ ، ٢٣

وهذا الأخير كان في الأصل من موالى نى زيان مملوك تلسان ثم اصطنعه بنو هرين .^(١) ومرة ثالثة يطلقه على بعض الكتاب الذين جمعوا بين العلامة والحجابه أمثال الحاجب محمد بن محمد الكنائى وولده أبى المسكارم منديل الكنائى على عهد أبى سعيد عثمان^(٢) ، والحاجب عبد الله بن أبى مدين فى أيام يوسف بن يعقوب^(٣) ، والحاجب محمد بن محمد بن أبى عمر التميمى الذى تغاب على سلطانه أبى عنان ، وبقي فى تمججه مطلق العنان^(٤) ويضيف ابن الأحمر أن هذا الحاجب التميمى لم يلبث أن تحول الى خطة السيف وقدمه أبو هسان على الامارة ببجاية . ومن الطريف ان ابن خلدون قابل هذا الحاجب بالبطحاء على مقربة من تلسان ، وسماه فى كتابه التعريف باسم الحاجب^(٥) ، رغم انكاره وجود هذا الاسم فى الدولة المرينية كما أسلفنا .

وكيفما كان الامر ، فانه يبدو أن هذا التضارب فى أقوال المؤرخين ناتج عن أن خطة الحجابه فى الدولة المرينية لم تتخذ وضعاً ثابتاً لا فى مدلولها ومعناها فحسب ، بل وفى أصحابها الذين تقلدوها ، مما دعا بعض المؤرخين أمثال ابن خلدون الى عدم الاعتراف باسمها فى بعض كتبه^(٦)

(١) أبو الوليد بن الأحمر . نفس المرجع السابق ص ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٤٠ - ٤١

(٢) أبو الوليد بن الأحمر . مستودع العلامة ص ٩٨ ، روضة النسر ص

ص ٢٤ .

(٣) أبو الوليد بن الأحمر . مستودع العلامة ص ٩٨

(٤) أبو الوليد بن الأحمر . مستودع العلامة ص ٣٦ ، ٩٥

(٥) ابن خلدون . التعريف بابن خلدون ص ٥٨

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٤٢

وبعد ، فإن للدولة المرينية ، مكانة خاصة في التاريخ المغربي اذ ترجع اليها الى حد كبير معظم التقاليد القومية والحضارية المغربية بل والشخصية المغربية الحالية حتى قيل في المثل المغربي . ومن بعد بنى مرين وبنى وطاس ما بقار ناس ، أى أن الناس المتعدين هم الذين كانوا أيام بنى مرين وبنى وطاس (١) .

الوزارة والحجابه في مملكة بنى الاحمر بغرناطة :

هذه الدولة تمثل آخر عهد المسلمين بأسبانيا ، وقد انحصر ملكها في الركن الجنوبي الشرقى من شبه جزيرة ايبيريا ، حيث جبال البشرات (٢) Alpujarras ، رجبال شدير (٣) أو جبال الثلج Sierra Nevada (٣٥٥٠ متر) ، التى كونت منها قلعة حصينة يسهل الدفاع عنها . وكانت هذه المملكة تشتمل على الاراضى التى تغايلها اليوم ولايات غرناطة والمرية

(١) راجع : محمد العاى . نشأة الدولة المرينية ، البيئنة ، ديسمبر ١٩٦٢

(٢) البشرات بضم الباء وفتح الشين وتشديد الراء

(٣) شدير بضم الشين وفتح اللام وسكون الباء . وهو تحريف للاسم اللاتينى Solorius أو Mons Solarius أى جبل الشمس وذلك لشدة لمعانه عند انعكاس أشعة الشمس على قمه المغطاة بالثلوج صيفا وشتاء ويعرف هذا الجبل اليوم باسم سيبيرا نيفادا أى الجبال الثلجية راجع (الحيرى : الروض المعطارص ١١٢ : ٤٧٤ Simonet : Deocripcion del reino de Granada

وفي برد شتاء غرناطة يقول ابن صدره :

أحل لنا ترك الصلاة بأرضكم
ومشرب الخبثا وهو شئ محرم
فرارا الى نار الجحيم لانها
أرقى علينا من شايير وأرحم
لئن كان ربى مدخلى جهنم
ففى مثل هذا اليوم طابت جهنم

وما لقه ، وأجزاء من ولايات جيان وقرطبة واشبيلية وقادس (١) . وكانت عاصمتها مدينة غرناطة Granada ، وهى مدينة كبيرة ستديرة مرتفعة على صفح جبل شلير ، ويخترقها نهر شنيل Genil أحد فروع الوادى الكبير ، وهو يعتبر واديا صغيرا (٢١١ ك . م .) إذا فوّض يجرى النيل مثلا (٦٥٠٠ ك . م .) ، ولكن كتابهم قدروه بألف نيل (٢٢) .

كذلك كان يشق مدينة غرناطة رادى حدده (٢) Darro (١٨ ك . م .) ثم يصب فى شنيل . وكانت تقع عليه عدة قناطر مثل قنطرة القاضى التى مازالت آثارها باقية إلى اليوم . وفى جنوب غرب غرناطة كانت تمتد مروجها الحصبة النضيرة التى كانت تسمى بالمرج أو الفحص أو البقاع ، ومن هذه الكلمة الأخيرة جاءت تسميتها الإسبانية Vega التى انتقلت إلى أمريكا أيضا (Las Vegas) .

وقلمة مدينة غرناطة ، هى مقر الحكم والسلطان ، وتعرف بالخرام ، وهو اسم قديم ورد ذكره لأول مرة فى أيام ثورة المولدين التى قام بها

(٢) راجع (المقرئ : نفح الطيب ص ٦٥٧) وكذلك

(Simonet : op . cit . p. 23)

(٤) مثل قول ابن الخطيب : وما لصر تفخر بنبيلها ، وألف منه فى شليلها ، لأن الشين عند المغاربة تعنى الألف فى العدد ، فقرله شليل إذا اعتبرنا عدد شينه كان ألف نيل . راجع (نفح الطيب ص ١٥٠) (١٤٢)

(٣) صدره : بفتح الحاء والذال وتشديد الراء المضمومة .

فهر بن حفصون في القرن الثالث الهجري (١). وواضح أن هذا الاسم
راجع إلى لون تربة الهضاب التي بنيت عليها ، والتي سميت بالسيكة
لهذا السبب Monte de la Asabica ، وفي ذلك يقول ابن مالك
الرهيني الغرناطي :

تري الأرض منها فطنة فإذا اكتست بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهب (٢)
ومن هذا نرى أنه ليس هناك ثمة علاقة بين اسم الحمراء واسم بني
الاحمر الذين حكموها بعد ذلك ، فتشابه الإسمين وهو محض مصادفة .
وتأسيس دولة بني الاحمر أو بني نصر كان في سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م)
على يد قائد عربي أندلسي شهاع من بلدة أرجونة Arjona إحدى حصون
قرطبة ، وهو الغالب بالله محمد (٣) ابن يوسف بن نصر... بن عقيل بن
نصر بن قيس بن سعد بن عباد .

(١) أنظر Emilio Lafuente Alcantara : Inscripciones árabes
de Granada p. 18—19.

وهذا الكتاب يعتمد على ما كتبه المؤرخ المالقي المعاصر أبو الحسن النباهي المالقي
في كتابه نزهة البصائر والأبصار (مخطوط بالاسكود بالرقم ١٦٥٣) وهذا الكتاب
يحتوي على تاريخ للملك بني نصر نشره المستشرق الألماني جوزيف مولر في كتابه ،
نخب من تاريخ المغرب العربي

Muller : Beiträge Zur Geschichte der Westlichen Araber
I. P. 102 — 140

(٢) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥ .

(٣) أشاد ابن سعيد بشجاعة هذا القائد وفروسيته وجهاده في مغارة العدو ،
وقال بأن هذه الصفات عند الاندلسيين هي الأساس عند اختيار ملوكهم في هذه
الفترة العصيبة ، راجع (المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٠١)

وواضح من نسبه أنه ينتمى إلى سيد الخرج سعد بن عبادة الذى عاون الرسول فى دار الهجرة . أما تسميته هو وأبناؤه من بعده بنى الاحمر ، فنسبه الى جده عقيل بن نصر ، الذى لقب بالاحمر لشقرة فيه^(١) . وقد استمر هذا اللون الاشقر يظهر فى بعض أفراد هذه الاسرة مثل محمد السادس الذى لقب فى المصادر الاسبانية بالبرمينجو Bermejo ومعناه اللون البرتقالى الضارب الى الحمرة ، وهو لون شعره ولحيته^(٢) .

ومن الطريف أن هؤلاء الملوكة قد اتخذوا من اللون الاحمر شعارا لهم فى قصورهم بالخرام ، وأعلامهم^(٣) ، وقبايهم^(٤) أو خيامهم بل وفى لون الورق الذى يكتبون عليه رسائلهم السلطانية^(٥) .

(١) راجع ابو الحسن النباهى: نزهة البصائر والابصار، القسم الخاص بتاريخ بنى نصر فى (Muller ; Op. cit. I P. 102—140)

(٢) Mariana : Historia General de Espana II, P. 221

(٣) يقول فى ذلك شاعر الخرام عبد الله بن زمرك (نفح الطيب ج ١ ص ١٠٦) خففت به أعلامك الخمر التى بخفوقها النصر العزيز موكل

(٤) مثل قول ابن زمرك (نفح الطيب ج ١٠ ص ٤٦ ، ٧١)

وترى القباب الخمر ترفع للندى فترى العماثم تحتها كالانجم وقوله : سميت القباب الخمر ترفع للقوى قد عام فى أرجائها المنديل

(٥) ورد وصف لون هذه الرسائل فى مجموعة الوثائق العربية التى نشرها الأركون ولىنارس، باسم

Alarcon y Linares : Documentos árabes diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon P. 116, 119, 124.

ونقد حكم هذا السلطان محمد بن يوسف مدة طويلة (٦٣٥-٦٧١هـ) وكان يلقب بالشيخ وبأمر المسلمين ، وقد وزر له عدد من كبار قواده الذين ساعدوه في تكوين مملكته مثل القائد يوسف بن صناديد زعيم مدينة جيان الذي مكثه من ناصيتهما^(١) ، ومثل محمد بن محمد الرميى الذى كان والده واليا من قبل الأمير محمد بن هود الجذامى على المرية ، ثم عذريه ابن الرميى فقتله بالسهم أو بمخلدة سنة ٥٦٣هـ . ورحل إلى تونس فأتاح لابن الأحمر فرصة الاستيلاء على المرية ، وبشر الرميى أصلهم من بنى أمية ملوك الأندلس ، وينسبون إلى قرية رمية من أعمال قرطبة هم من بيت عريق^(٢) . كذلك وزر لابن الأحمر ابنه وسميه فى الاسم أبو عبد الله محمد ، فاكسب خبرة من ذلك^(٣).

ثم توفى السلطان محمد الشيخ ، وخلفه ابنه المذكور محمد الثانى (٦٧١ - ٧٠٩هـ) الذى لقب بالفقيه لعلمه وفضله وإثاره للعلماء . ويعتبر هذا السلطان هو الذى مهد الدولة النصرىة ووضع ألقاب خدمتها ، وأقام رسوم الملك فيها^(٤) . وكان وزيره عزيز بن على بن عبد المنعم الدانى - نسبة إلى

(١) ابن الخطيب . اللوحة البدرية فى الدولة النصرىة ص ٣٢.

(٢) راجع (عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢١٠ ، ابن عذارى : البيان المغرب ص ٤ ص ٢٥٨ ، ابن الخطيب . أعمال الاعلام ص ٢٨٦ ، المقرئ : نفع الطيب ص ١ ص ٢٨١) .

(٣) ابن الخطيب : اللوحة البدرية ص ٣٢ .

(٤) راجع Muller : Op. cit. I P. 118

دانية - وبينه معدود في بيونات الاشراف في شرق الاندلس (١) .

ولقد استمر ملك غرناطة في بيت بنى نصر أو بنى الأحمر حتى
نهاية هذه الدولة وسقوط غرناطة آخر معقل للإسلام في يد الأسيان سنة
٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) .

ويلاحظ أن سلاطين هذه الدولة ، كانوا يكتبون علامتهم وتوقيعاتهم
بخطهم على السجلات كلها ، بمعنى أنه لم يكن لديهم خطة للعلامة كما كان
لغيرهم من الدول (٢) . وكانت علامتهم الغالبة هي : « ص هذا » ،
وفي ذلك يقول شاعر الحراء عبدالله بن زمرك في مدح السلطان محمد
الخامس ، الغنى بالله :

يا إماما قد تمخذا (م) هـ من الدمر ملاذا
خط يملك ينادى ص ص هذا ص هذا (٣)

كذلك كانت بعض توقيعاتهم تمتاز بخفة الروح وحرارة النادرة ومثال ذلك
توقيع السلطان محمد الغوثي على وقعه شخص كان يطلب صرف بعض الشهادات
المغربية (المملوكية) وبلغ فيها :

موت على أنك سادة وموت على
لشي لا تمنعه على الشهادة

(١) ابن الخطيب : اللوحة البدرية ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٧٤٢ .

(٣) المقرئ : نصح الطبيب ص ١٠٠ ، ابن خلدون : التعريف ص ٩٢ .

وأطال الخط عند لفظ إلهى ، إشعارا بالعضاعة عند الدعاء والجد (١).

وكانت الوزارة هى القاعدة الأولى بعد رئاسة الدولة ، فالوزير هو الذى يتوب عن السلطان (٢) . وهو الذى يهيمن على شئون الدولة المدنية والعسكرية إلى جانب إشرافه على الكتابة وديوان الانشاء (٣) ، لهذا كان كثيرا ما يلقب الوزير الغرناطى بألقاب تدل على قوة نفوذه مثل لقب الرئيس (٤) ، وعماد الدولة (ابن الحكيم) (٥) ، وذى الوزارتين (ابن الخطيب) (٦) ، والحاجب (رضوان) (٧) . وكل هذه الألقاب لم تكن تشريفية بل كانت حقيقة في معناها ومدلولها لأن صاحبها كان يجمع بين سلطتي السيف والقلم (٨) .

-
- (١) ابن الخطيب : اللوحة البدرية ص ٣٩ .
 (٢) مثال ذلك قول الوزير ابن الخطيب فى رسالة إلى صديقه ابن خلدون «أعلمته فى هذه الأيام التى أقیم بها رسم النيابة عن السلطان فى سفره إلى الجهاد» راجع التعريف بابن خلدون ص ١٢٩ .
 (٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٢ .
 (٤) المقرئ : نفع الطيب ص ٩٠ ص ٣١٤ .
 (٥) راجع Muller : Op. cit. 1 P. 121 .
 (٦) المقرئ : نفع الطيب ص ٦٠ ص ٣١٢ .
 (٧) الحاجب هنا بمدلوله الاندلسى القديم على عهد بنى أمية أى رئيس الوزراء .
 (٨) نفع الطيب ص ٧ ص ٥ .

(٨) نفع الطيب ص ٧ ص ٥

وبحكم هذه السلطات الواسعة ، كان الوزير كثيرا ما ينجح إلى الاستبداد على سلطانه (١) ، مما يضطر هذا الأخير إلى التخلص منه إما عزلا أو قتلا أو إقامة وزير آخر بجانبه ينازسه السلطة . فالسلطان أبو الوليد اسماعيل (٧١٣-٧٢٥ هـ) حينما استبد وزيره القائد أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح الفهرى ، أشرك معه في الوزارة قائدا من أعيان الحضرة وهو أبو الحسن علي بن مسعود المحاربي الذي « جاذب رفيقه حبلى الخطبة ، وقازعه لباس الخطوة ، إلى أن مات الفهرى (٢) » ، أما ولده السلطان محمد الرابع بن اسماعيل (٧٢٥-٧٣٢ هـ) ، فإنه لما اتولى عليه وزيره محمد بن أحمد بن المحروق ، وغلب عليه ، لم يتردد في قتله بمجلسه سنة ٧٢٩ هـ ، ثم أقام في الوزارة بملوك أبيه أبا النعيم رضوان ، ولكنه لم يلبث أن زاحمه في الوزارة بملوك يدعى عصاما (٣) . كذلك يذهب ابن خلدون إلى أن فرار الوزير لسان الدين بن الخطيب من غرناطة إلى المغرب سنة ٧٧٣ (١٣٧١ م) ، كان بسبب شعوره بالخوف من سلطانه محمد الخامس ، الفنى بالله ، (٧٥٥-٧٦٠ ، ٧٦٣-٧٩٣ هـ) بما كان له من الاستبداد عليه (أى على السلطان) ، وكثرة السعاية من البطانة فيه (٤) .

وإذا نحن ألقينا نظرة عامة على وزراء بني نصر ، نجد أنهم كانوا

(١) التعريف بأبن خلدون ص ٣٩

(٢) ابن الخطيب : اللامعة البدرية ص ٦٦

(٣) ابن الخطيب : نفس المرجع ص ٨١

(٤) ابن خلدون : التعريف ص ١٣٩

أصنافاً من طلبة القوم : صنف من القادة الكبار أمثال بنى مول (١) ،
وبنى أبى الفتح الفهرى (٢) ، وبنى سراج (٣) ، وكلهم كانوا من ييسوت
الاندلس الكبيرة من قديم ، وتربطهم بملوك بنى نصر صلات مكيته
وروابط المصاهرة .

والصنف الثانى من الوزراء كان من ممالك بنى الأحمر وخاصتهم البارزين
أمثال الحاجب أبى النعيم رضوان الذى وزر للسلطين محمد الرابع ، وأبى
الحجاج يوسف ، ومحمد الخامس ، وصار بيده تنفيذ الأمور ، وتقديم
الولاة والعيال ، وجواب المخاطبات ، وتدير الرعايا وقود الجيوش (٤) .
وقد انتهت حياة الوزير قتيلا فى الانقلاب الذى دبره الخلع السلطان محمد
الخامس سنة ٧٦٠ هـ ، إذ اقتحم المتآمرون بيته وقتلوه بين أهله وولده (٥) .

(١) ابن الخطيب : اللحة البدرية ص ٥٨

(٢) ابن الخطيب : نفس المرجع ص ٦٦

(٣) بنو سراج Abencerrages ينسبون فى الأصل الى قبيلة قضاة اليمنية .
وقد عهد اليهم الامويون حراسة سواحل اقليم بجانة Pechina فى شرق الاندلس .
وقد ظهر اسم هذه الأسرة بوضوح فى القرن الخامس عشر الميلادى حينما لعبت
المنافسة بينهم وبين أسرة الثغرين دورا خطيرا فى سياسة غرناطة . راجع مقالنا
(فترة مضطربة فى تاريخ غرناطة ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمسريد
سنة ١٩٥٩)

(٤) ابن الخطيب : اللحة البدرية ص ٩٠

(٥) ابن الخطيب : الاحاطة ص ٢ - ١١ - ١٢ (طبعة القاهرة)

كذلك تذكر الوزير خالد الذي كان في الأصل علوكا للسلطان محمد الخامس (الفنى بالله) ثم وزر لولده أبو الحجاج يوسف الثاني سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) ، فاستبد بالأمر ، وقتل إخوة السلطان يوسف الثلاثة ثم حاول اغتيال السلطان نفسه بالسّم بالتفاهم مع طبيب التبرير اليهودي يحيى بن الصائغ ، فأمر السلطان بقتله بين يديه سنة ٧٩٤ هـ كما زج الطبيب في السجن ثم قتله بعد ذلك (١)

أما الصنف الثالث من وزراء غرناطة ، وهم الغالية ، فكانوا من أهل العلم والفضل والأدب الذين مارسوا خطة الكتابة العليا في ديوان الانشاء (٢) قبل ترشيحهم للوزارة ، ثم ظلوا محتفظين بهذه الخطة إلى جانب عملهم كوزراء . ويلاحظ أن خطة الكتابة هنا كانت تسمى بالكتابة العليا (٣) . وقد شرح ذلك ابن سعيد الغرناطى بقوله :

« وأما الكتابة فهي على ضربين : أعلاهما ، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الاندلس ، وأشرف أسماؤه الكاتب ، وهذه السمة تخصه

(١) السلاوى : الاستقصا - ٤ ص ٨١

(٢) كان يوجد بهذا الديوان لإدارة للترجمة إلى اللغات الأوربية ولا سيما الإسبانية أى القطلانية والقشتالية ففي بعض الوثائق الغرناطية نجد اشارات تنص على انها كتبت في نسختين بالعربي والعجمي لتكون احدهما عندنا والاخرى عندكم. راجع (Alarcon y Linares: Documentos Arabes p. 411)

المقرى : فتح الطيب ج ٨ ص ٢٣٥

من يعظمه في رسالة . وأهل الأندلس كثيرون الانتماء على صاحب هذه
السمة ، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فان كان ناقصا عن درجات
الكمال ، لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن في المعازل
والطمع عليه وعلى صاحبه . والكاتب الآخر هو كاتب الزمام ، هكذا
يعرفون كاتب الجبهة . (١)

والجبهة كلمة فارسية الأصل ومنها الجبهة أى الناقد العارف ، ولكن
الجبهة هنا هى الإدارة المالية الخاصة بحماية الضرائب وجمع الخراج
وتحصيله ، وكاتب الجبهة هو صاحب الزمام أو صاحب الأشغال الخراجية
الذى كان بمثابة وزير للمالية (٢) .

وقد ذكر ابن سعيد أن صاحب الأشغال الخراجية في الأندلس ،
كان أعظم من الوزير وأكثر اتباعا وأصحابا وأجدى منفعة ، فإنه تميل
الاعتناق ، ونحوه تمد الأكف والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار . (٣)
أما ابن خلدون فإنه يذكر أن المختص بالحسابات وسائر الأمور المالية
في الدولة ، كان يسمى في غرناطة بالوكيل . (٤)

(١) راجع (المقرئ : نفح الطيب - ص ١٠٢)

(٢) راجع

(R. Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes , I
p.226,601)

(٣) أنظر (المقرئ : نفح الطيب - ص ١٠٢ - ٢٠٣)

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٤٢

ويفهم من هذا وذاك أن الشؤون المالية في الدولة كانت في يد موظف مختص آخر غير الوزير ، يختار من عظماء القوم ووجوههم ؛ ويسمى بتسميات مختلفة كالوكيل وصاحب الاشغال وكاتب الروام أو الجهبذة .

غير أننا إذا استعرضنا الاحداث التاريخية لهذه الدولة ، نلاحظ أن الوزراء المظام فيها ، كان لهم اشراف على الشؤون المالية واخصاصهم بمهرتها ومثال ذلك الوزير محمد بن احمد بن المحروق الذي كان وكيلاً للسلطان محمد الرابع (١) ، كذلك الوزير لسان الدين ابن الخطيب الذي داخله السلطان أبو الحجاج يوسف الاول في تولية العمل على يده بالمشارطات فجمع له بها أموالاً (٢) ، ثم عهد اليه ولده محمد الخامس (الفنى بالله) بالإشراف على بيت ماله ، والعمل على صيانة الجباية وتثمينها (٣) . بل إنه مما كان يؤخذ على الوزير عبد الله بن زمرك الذي خلف ابن الخطيب في منصبه ، هو كما يقول أحد معاصريه . . . دقة معرفته بتلك الطريقة الاشتغالية ، وعدم اضطلاع بالامور الجبائية ، واتهامه للمشتغلين - على غير أساس - بأنهم احتجبوا الاموال ، وأساءوا الاعمال . . (٤)

(١) ابن الخطيب : الممعة البدرية ص ٨٠

(٢) المقرئ : نفح الطيب ص ٧ ص ٢٦ ، واجمع كذلك مقالنا (الزعمات الاقتصادية في حياة لسان الدين بن الخطيب ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٨)

(٣) ابن الخطيب : الاحاطة في اخبار غرناطة ص ٢ ص (طبعة القاهرة) ،

المقرئ : نفح الطيب ص ٧ ص ٥ - ٧

(٤) المقرئ . أزهار الرياض ص ٢ ص ١٩

كل هذا يدل على أن إشراف الوزراء على النواحي المالية والمهام بمعرفة ،
كان يلعب دورا هاما في نجاح مهمتهم .

وكيفما كان الأمر ، فالذي يهنا في هذا العدد ، هذا أن أصحاب الكتابة
المليا ، وليس كتاب الزمام ، هم الذين كانوا موضع الترشيح لمنصب الوزارة
في الدولة ، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك عند قوله :

الطب والشعر والكتابة . . . سماتنا في بني النجابه
هي ثلاث مبلغات . . . مراتبا بعضها الخجابه (١)

ومن هؤلاء الكتاب الذين شغلوا منصب الوزارة تذكر الحاج المحدث
أبا عبد الله محمد ابن الحكيم الرندي اللخمي ، الذي ابتداء كتابا للسلطان
محمد (الثاني) الفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ) ثم صار وزيرا لولده محمد
الثالث (المخلوع) (٧٠١ - ٧٠٨ هـ) مع احتفاظه برئاسة
القلم الأعلى (٢) ،

وقد انتهت حياة هذا الوزير قتيلا سنة ٧٠٠ هـ في مجلس السلطان أبي
السيروش نصر (٧٠٨ - ٧١٣ هـ) بسبب خلاف وقسم بينه وبين القائد
الوزير أبي بكر بن علي الذي كان حديدا . وكان السلطان نصر
في عزه لأخيه محمد الثالث . واستمر في الوزارة حتى سنة ٧٠٠ هـ . لذلك تذكر

(١) المقري : أنهار الرياض ص ٦٠٨ هـ ١٨٧

(٢) ابن الخطيب : التمام البدرية ص ٥٠ - ٥١

(٣) الحسن البصري نزاهة البصائر والأبصار ، القسم الخاص بملوك بني نصر ،

نشر - د .

الفقيه أبا الحسن ابن الجياب - شيخ ابن الخطيب الذي تولى الكتابة العليا
السلطين : أبي الجيوش نصر ، وأبي الوليد اسماعيل (٧١٣ - ٧٢٥ هـ) ،
ومحمد الرابع بن اسماعيل (٧٢٥ - ٧٣٣ هـ) ، وأبي الحجاج يوسف الاول
(٧٢٣ - ٧٥٥ هـ) . وقد ولاء هذا السلطان الاخير رسم الوزارة إلى
جانب رئاسة الكتابة عندما تغير على وزيره أبي النعمان رضوان وعزله
سنة ٥٤٧ هـ .

وظل ابن الجياب وزيرا وكاتبا للدولة إلى أن توفي في سنة ٧٤٩ هـ (١) .
فخلفه تلميذه لسان الدين بن الخطيب (٢) في رسم الوزارة والكتابة حتى
نهاية عهد السلطان أبي الحجاج يوسف سنة ٧٥٥ هـ .

ولما ولى ولده أبو عبد الله محمد الخامس ، الذي كان لا يزال شابا
حدثا استدعى من جديد مولى آبائه ووزيرهم أبا النعمان رضوان ،
وأسند إليه وزارته ونيابته كما أبقى ابن الخطيب في منصبه السابق كوزير
ولكن تحت رئاسة الحاجب رضوان نظرا لمكانة هذا الاخير وسنه واختصاصه
بالوزارة من قديم . وقد ذكر ابن الخطيب لأعمال التي كان يقوم بها في

(١) ب. الخطيب : اللوحة البدرية ص ٩٠ - ٩١

(٢) ينتمى ابن الخطيب إلى بيت معروف في الاندلس عرف قديما بوزير
ثمبني الخطيب حينما انتقلوا من طليطلة واستقروا بلوشه Loja من أعمال غرناطة
ومن المعروف أن والد ابن الخطيب وأخاه قد استشهدا في وقعة طريف
سنة ٧٤١ هـ .

أوائل عهد هذا السلطان وهى الوقوف بين يدى سلطانه فى المجالس العامة ، وايصال الرقاع ، وفصل الامر ، والتنفيذ للحكم ، والترديد بينه وبين الناس ، والعرض والانشاء ، والمواكلة والمجالسة ، جامعا بين خدمة القلم ولقب الوزارة .

ثم يضيف ابن الخطيب بأنه رغم وجود أبى النعيم رضوان فقد كان المنفرد بسر السلطان وسفيره لدى ملوك المغرب ^(١) . الا أنه يبدو أن نفوذ ابن الخطيب لم يلبث أن تضائل أمام طموح الحاجب رضوان واستشاره بالسلطة ، وفى ذلك يقول أحد المعاصرين : « وعلى أثر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسلطان أبى عنان ، وجد الحاجب الخطير أبى النعيم رضوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة واقنعه بالإسم من ذلك المسمى ، فآثر الانتباز وأخذ فى تأليف كتابه الاحاطة » ^(٢)

وفى سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) وقع فى غرناطة ذلك الانقلاب الذى أودى بحياة الوزير رضوان ، واتتهى بخلع السلطان محمد الخامس ونفيه الى المغرب وتولية أخيه اسماعيل الثانى مكانه . وصحب السلطان المخلوع الى المغرب بعض أفراد حاشيته ورجال دولته ونخص بالذكر منهم وزيره إسمان الدين بن الخطيب وقد رحب بهم سلطان المغرب أبو سالم إبراهيم

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ص ٢ - ٤ ، المحمدية البدرية ص ١٠٣ ،

المقرئ : نفع الطيب ص ٧ - ٥ ص ٢٧

(٢) المقرئ . نفع الطيب ص ٩ - ٣١٤

المريني ، وأنزلهم في بعض قصوره بمدينة فاس عاصمة الدولة المرينية .
غير أن ابن الخطيب فضل أن يعيش بعيداً مرابطاً في ثغر سلا ،
وبجوار الأضرحة ملوك بني مرين في ضاحيتها شالة Chella .

وفي سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦٢ م) عاد السلطان محمد الخامس إلى عرشه
بعد حروب وخطوب شد أزره فيها كل من سلطان المغرب ، وملك قشتالة
بدور الأول الملقب بالقاسي Pedro el cruel (١) .

ونجد الإشارة هنا إلى أن محمد الخامس كان في خلال هذه العمليات
الحرية التي خاضها لاسترداد عرشه في الأندلس ، قد اتخذ وزيراً من
قواده ، وهو قائد البحر أبو الحسن علي بن يوسف بن كاشة ، الذي كان
من هتاق خدامه وخدام أبيه على قول ابن الخطيب . ولكن هذا الوزير لم يبق
إلى جانب سلطانه أيام محنته ، إذ أنه حينما أرسله محمد الخامس من رنده إلى الباب
المريني بفاس لاستجلاء بعض الأمور ، لم يعد إليه ثانية . ولما انتصر
محمد الخامس على خصومه ، واستقر في عرشه ثانية ، هرع إليه ابن
كاشة طامعاً في العودة إلى وزارته ، ولكن السلطان رده خائباً وأرسل
في طلب ابن الخطيب من المغرب للقيام بأعباء وزارته (٢) .

وعاد ابن الخطيب إلى سابق منصبه كوزير ، ولكنه في هذه المرة
انفرد بالحكم بدون منافس . وفي ذلك يقول ابن خلدون : « وخلا لابن

(١) راجع التفاصيل في مقالنا (فترة اضطراب في تاريخ غرناطة ، صحيفة
معهد الدراسات الإسلامية في مدريد سنة ١٩٥٩)

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة - ٢ ص ١٥ - ١٧

الخطيب الجو ، وغلب حل هوى السلطان ، ردفع اليه تدبير الدولة ،
وخلط بنية بدمائه وأهل خلوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والمقد ، وانصرفت
اليه الوجوه ، وعلفت به الامال ، وغشى باباه الخاصة والكافة (١)

كذلك شرح ابن الخطيب سياسته التي سار عليها في دولة محمد الخامس
الثانية بقوله .

« ورمى الى بعد ذلك بمقاليد رأيه ، وحكم عقل في اختبارات عقله ،
وغشى من جفائي بحله ، ورمى الى بدنياء وحكماني فيما ملكت يده ،
واستعنت بالله تعالى وعاملت وجهه فيه بالنظر في سد الثغور ، وصون
الجبابة ، وانصاف المرتزقة ومقارعة الملوك المجاورة ، وايقاظ العيون من
نوم الغفلة ، وقدر زناد الرجولية ، وجعل الثواب غطاء الليل ، ومقعد
المطالعة فراش النوم ، والشغل لمصلحة الاسلام ، (٢) .

وهذه العبارة الأخيرة تشير الى ما عرف عن ابن الخطيب من أنه
كان يخصص الليل للقراءة والتأليف العلمي ، يساعده في ذلك أرق أصحابه
بينما يخصص النهار لشئون الحكم والسياسة . ومن الغريب أن هذا الجهد
الأكبر الذي كان يبذله ابن الخطيب ، لم يجد من نشاطه وحيويته ،
ولهذا لقب بلدى الصرين . ولقد أفاد كل من الجانب العلمي والجانب
السياسي صاحب ، فالسياسة أتاحت لابن الخطيب فرصة الاتصال بسفراء

(١) المقرئ : نصح الطيب > ٧ ص ٢٩

(٢) ابن الخطيب : الاصطاة > ٢ ص ١٧ - ١٨ ، المقرئ : نصح الطيب > ٧ ص ٧

لدول المختلفة ومعرفة أخبار بلادهم ، والاطلاع على الوثائق والمراسلات الرسمية المحفوظة في أرشيف الدولة بقصر الحمراء . واستخدام كل هذه المادة التاريخية في مؤلفاته . أما العلم فقد أعطاه شهرة ومكانة دعت مركزه كوزير عن طريق قصائده ورسائله ونصائحه وحكمه التي كان لها تأثير كبير على ملوك الدول المجاورة من المسلمين والمسيحيين . وحسبنا أن نشير الى ما اررده ابن الخطيب في أحاطته من أنه نصح ملك قشتالة بدرو القاسي ، باعتباره صديقا لسلطانه محمد الخامس ، بأن يضع أمواله وذخيرته وأولاده في حصن قرمونه المتبع خوفا من أطماع أخيه هنري الثاني دى تراستمار Henrique de Trastamara الذى كان ينازعه العرش . ولقد استجاب الملك بدور للصيحة ابن الخطيب وعمل بما أشار عليه به . وحينما تغلب هنرى دلى أخيه بدور وانتزع العرش منه ، كان أول شيء اهتم به هو الاستيلاء على قلعة قرمونه Carmona وما فيها من ذخائر وأموال ، فانصرف بذلك عن محاربة غرناطة لأنها كانت من أنصار أخيه ، وهذا ما كان يهدف اليه ابن الخطيب من وراء نصيحته السالفة الذكر^(١) .

على أن نجاح ابن الخطيب في سياسته لا يرجع فقط الى مكانته العلمية ، او صدق فراسته السياسية ، بل يرجع كذلك الى تمسكه فى احكامه بما جرت عليه الدولة من قواعد وعادات وقوانين ، حرصا على استمرارها والمحافظة عليها ولدينا فى هذا الموضوع نص طريف أورده الوزير والكاظم أبو يحيى محمد بن عاصم القيسى الذى عاش فى القرن التاسع الهجرى (١٥م) والذى شبهه معاصروه بابن الخطيب فى بلاغته وراثته ،

فسموه بان الخطيب الثاني، فيقول^(١) :

ولم يكن الوزير الكيس ابن الخطيب يحسرى من الاستقامة على قانون الا بالحفاظة على ما رسم من القواعد ، والمطابقة لما تبع من العوائد ، وكان ذور النبل من هذه الطبقة ، وألو الحذق من أرباب المهن السياسية يتعجبون من صحة اختياره لما رسم ، وجودة تمييزه لما قصد ، ويرون المفسدة في الخروج عنها ضربة لازب ، وأن الاستمرار على مراسمها أكد واجب ، فيتحرونها بالالتزام كما تحرى السنن ، ويتوخونها بالاقامة كما تتوخى الفرائض ، وسواء تبادر معناها فقهوه ، أو خفى عليهم وجه رسمها فجهلوه ، حدثني شيخنا القاضي ابو العباس احمد بن أبى القاسم الحسينى ، أن الرئيس أبى عبد الله بن زمرك ، دخل على الشيخ ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الخطيب يستأذنه فى جملة مسائل مما ينوقف عادة على إذن الوزير ، وكان معظمها فيما يرجع الى مصلحة ابن زمرك ، قال الشريف : فأمضاها كلها له ماعدا واحدة منها تضمنت نقض عادة مستمرة ، فقال له ابن الخطيب : لا والله يارئيس أبى عبد الله ، لا آذن فى هذا ، لأننا ما استقمنا فى هذه الدار ألا بحفظ العوائد^(٢)

أما عن نهاية ابن الخطيب المؤلة ، فنشبهه الى حد كبير نهاية الكثيرين من وزراء غرناطة الذين حكموا قبله أو بعده نتيجة لاستئثارهم بكل نفوذ فى الدولة . على أنه يلاحظ أن ابن الخطيب حينما أحسن بكثرة السعيات ضده ، وفساد الجو حوله ، انحرف بسياسة غرناطة انحرافا

(١) أورد ابن عاصم هذا النص فى كتابه الذى كان يعتبر ذيلًا على إحاطة ابن الخطيب ويسمى بالروض الاريض فى تراجم ذوى السيف والاقلام والقريضة
(٢) راجع (المرى : نفح الطيب ٨ ص ٢٥٣ - ٢٥٤)

كبيرا في أواخر حكمه ، إذ رسم لها سياسة ثابتة قوامها الارتباط
بمملكة فاس ، وإرضاء سلاطين بني مرين في كل ما يطلبونه من مملكة
غرناطة . وكان هدفه من وراء ذلك هو سكنى المغرب والاستقرار فيه اذا
ما عزل من منصبه .^(١)

والواقع ان سياسة التقرب من المغرب ، كثيرا ما لجأت اليها غرناطة عند
استنصارها لآخوانها المغاربة للجهاد معها ضد المشركين ، إلا أنها في نفس
الوقت كانت تتوجس خيفة من أطباع ملوك بني مرين في بلادها ، وتخشى
أن يفعلوا معها مثل ما فعل المرابطون والموحدون من قبل^(٢) . كذلك
كانت غرناطة حريصة على سلامة مصالحها المرتبطة مع جيرانها المسيحيين
أمثال قشتالة وأراجون ، ولهذا لم تلتزم سياستها جانبيا واحدا من
هذه القوى المحيطة بها ، بل كانت تتغير وتبدل في حرص وحذر حسب
الظروف الخارجية المحيطة بها : فتارة تتقرب من قشتالة ضد المغرب ،
وتارة أخرى تتقرب من المغرب ضد قشتالة وأراجون ، وتارة ثالثة
تتقرب من ملوك أراجون ضد ملوك قشتالة أو العكس وهكذا . فهذه

(١) راجع مقالنا (سياسة ابن الخطيب المغربية، مجلة البيئة، الرباط مايو ١٩٦٣)
(٢) مثال ذلك قول السلاوي : ولما صنع الله للسلطان (المغرب)
ما صنع من نصر والظهور ، ارتاب ابن الأحمر وظن به الظنون ، وتخوف
منه ما كان كان من يوسف بن تاشفين للبعث من عباد وغيره من ملوك
الطوائف (الاستقصا - ص ٢٤) . وقوله في مكان آخر وكان ابن الأحمر
متخوفا من السلطان يوسف أن يغلبه على بلاده (الاستقصا - ص ٢٥)

السياسة الماهرة الماكرة التي سلكتها. غرناطة مكنتها من الاحتفاظ باستقلالها مدة تزيد على قرنين من الزمان ، لأنها عرفت كيف تستفيد من الحزازات القائمة بين هذه الدول لصالحها . ولقد أشاد المؤرخون بالدبلوماسية الغرناطية ، ووصفوها بصفة تفعل على المرونة والمهارة وهي سياسة اللعب بالثلاث ورقات . ^(١) Juego de tres Barajas.

من هذا نرى أن وضع هذه المملكة الصغيرة وسط هذه القوى الثلاث (قشتالة ، أراجون ، المغرب) قد جعل سياستها مرتبطة بتلك السياسية التي حولها . ولعل هذا هو السبب في أن عددا من ملوك غرناطة ووزرائها ، قد راحوا ضحية تهاديهم في التزام جانب سياسي واحد دون تقدير العواقب المترتبة على تجاهلهم للجوانب الأخرى . ومثال ذلك الوزير محمد بن علي المعروف بابن الحاج المهندس الذي كان مداخله لملوك قشتالة ، عالما بلغتهم وسيرهم وأخبارهم ومهتما بشأنهم ، ولهذا نهج سياسة رالية لهم ، وانحرف في ذلك انحرافا لم يقبله أهل غرناطة ، فأروا ضده واهتموه بتحريض ملك قشتالة على الاستيلاء على حصن القبذاق Alcuadete ، وساعده على تملكه ، وكادوا يقتلونه لولا أن سلطانه أبا الجيوش نصر أمر بعزله في الحال ^(٢) .

(١) راجع (Sanchez Albornsz, la Espana Musulmana, II .p 392,399)

(٢) أبو الحسن النباهي : نزهة البصائر والأبصار ، القسم الخاص بتاريخ ملوك بني نصر ص ١٢٥ نشر مولر ، ابن الخطيب : المعجزة البدرية ص ٥٨)

ويبدو أن الخطيب قد وقع في نفس هذا الخطأ حينما دفعته سياسته المغربية الى رسم سياسة واحدة للمغرب والأندلس دون أن يعمل حسابا لانصار القوى السياسية الاخرى . بل ان لم يأت أن تمادى في سياسته الى أقصى حدودها خطورة حينما غر الى المغرب واخذ يهرض السلطان عبد العزيز على غزو غرناطة . وكان رد الفعل شديدا من جانب غرناطة ، ولا سيما بعد موت السلطان عبد العزيز ، إذ سارع السلطان محمد الخامس باحتلال جبل طارق ونفرضه ليسيطر على المضيق ، ثم أخذ يتدخل في قاس نفسها يولى ويعزل من يراه من سلاطين بني مرين . وكان طبيعيا أن يكون نتيجة هذا التدخل هو القبض على ابن الخطيب وقتله وحرقه ومصادرة أمواله سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م)^(١)

لقد كان فقد ابن الخطيب على هذا النحو خسارة فادحة ، إذ انقطع بموته أهم مصدر عربي لتاريخ غرناطة .

(١) راجع التفاصيل في مقالنا (سياسة ابن الخطيب المغربية ، مجلة البنية ،

مايو سنة ١٩٦٢ .

- ٤ -

تاريخ البحرية العربية

في المغرب والاندلس

البحرية في العصر الاموي بالاندلس

سبقت الإشارة في أول هذا الكتاب الى أن المسلمين الأوائل ، أدركوا قيمة البحرية كسلاح متمم لفتوحاتهم البرية ، فأخذوا في انشاء دور الصناعة لبناء السفن الحربية في معظم المرافئ الممتدة على طول شواطئ الشام ومصر والمغرب . وقد ساعدتهم تلك القواعد والاساطيل على نقل جيوشهم ومعداتهم عند فتح الاندلس وصقلية وجنوب إيطاليا . فلولا تلك الاساطيل لاتعذر بل استحال عليهم تنفيذ هذه الفتوحات العظيمة كما سبق أن بينا .

وتمتاز شبه جزيرة ايبيريا بسواحلها الطويلة التي تعرف على مياه البحر المتوسط والمحيط الاطلسي شرفا وغربا وجنوبا ، إلا أن هذا جعلها عرضة لآي غزو بحري يأتيها من هذه النواحي . ولاشك أن المسلمين أدركوا هذه المسألة منذ بادىء الأمر ، ورسدوا لانفسهم سياسة بحرية. اعتمدوا فيها على دور الصناعة القديمة التي كانت منتشرة على تلك السواحل مثل طرطوشه Tortosa ، وطركسونه Tarragona ، ودانيه Denla ، ولقنت Alicante ، وبجانه Pechina ، واشبيلية Sevilla والجزيرة الخضراء Algeciras وغيرها .

كما أنهم لم يحدوا صعوبة في الحصول خامات الخشب والحديد

وكل ما هو ضرورى لبناء الأساطيل ، فكل ذلك كان وما زال متوفرا
في اسبانيا^(١) .

وعلى الرغم من الغموض الذى يحيط بأخبار هذه الفترة المبكرة التى
تلت الفتح العربى بسبب الفتن والاضطرابات التى عمت الأندلس فى ذلك
الوقت ، إلا أنه يفهم من بعض الروايات أن الثغور الأندلسية كانت
عامرة بالمراكب والسلاح والعدة ، فابن القوطية مثلاً حينما يتكلم عن
طاعة بلج بن بشر ، وهم فرسان الشام الذين حاصروهم البربر فى ثغر
سبته ١٢٣ هـ (٧٣١م) ، ورفض والى الأندلس عبيد الملك بن قطن
أن يسمح لهم بالعبور إليه ، يقول : قلنا يشى بلج بن بشر منه ، أنشأ
قربات (بتشديد الراء وفتحها أى قوارب Carabos) وأخذ من مراكب
التجار ، وأدخل فيها من رجاله من جاوره الى دار الصناعة بالجزيرة
الخضراء ، وأخذوا ما فيها من المراكب والسلاح والعدة وانصرفوا بها إليه ،
فدخل بذلك الأندلس^(٢) .

ومن الطريف أن ابن عذارى يشير فى الأحداث التالية الى أن والى
شرطة الخليفة مروان بن محمد بدمشق ، واسمه الرماحس بن عبد الرحمن

(١) مثال ذلك غابات شجر الصنوبر الذى تصنع منه السفن حول طرطوشه ودانيه ،
ودار صناعة الحديد لمراسى السفن فى جزيرة شاطيش Saltes بالقرب من أشيلية
راجع (المقرئ : نفح الطيب ١ ص ١٥٧ ، الحيرى ، الروض المعطار ص
١٠٢ ، ١١٠ ، ١٢٤) .

(٢) ابن القوطية : تاريخ انتتاج الأندلس ص ١٦ والترجمة الاسبانية
ص ١٢ حاشية .

قد لجأ الى الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية في المشرق ، فولاه عبد الرحمن الأول (الداخل) ثغر الجزيرة الخضراء^(١) . وهذا هو أول ذكر لمؤسس بيت بني الرماحس الذي اشتهر أفرادُه بقيادة الأسطول الأندلسي على عهد الأمويين^(٢) ولاشك أن اسناد ولاية هذا الثغر الجنوبي الهام الى الرماحس ، فيه معنى للقيادة البحرية أيضا .

وكما اعتمد الأمويون في الشام على القبائل البينية السكلبية في شئونهم البحرية ، فكانوا التواة الأولى للبحرية العربية في الشرق^(٣) ، اعتمد كذلك الأمويون في الأندلس على البنيين القضاة في هذه الامور البحرية في بادىء الامر ، فأنزلوهم في المناطق الساحلية الشرقية ، وجعلوا اليهم حراسة ما يليهم من البحر وحفظ الساحل ، وقد سمي هذا الاقليم أرش البين^(٤) ، أى أعطيتهم من الارض أو الاقطاع . وكانت بلدة بجانة (بتشديد الجيم) Pechina^(٥) ، هى أهم قاعدة لهم في هذا

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٢٠ ص ٨٣ .

(٢) راجع (ابن حيان : المقتبش في أخبار بلاد الأندلس ، نشر عبد الرحمن الحجي ص ١١٥ - ١١٦ ، العذرى : ترصيع الاخبار ، نشر عبد العزيز الأهواني ص ٨١) .

(٣) هونيد باخ : البحرية العربية في عهد معاوية ص ١٩ .

(٤) هناك أروش كثيرة باسم البنيين في الأندلس وقد انتقل لفظ أرش الى الاسبانية باسم Arce أنظر :

(Simonet - Descripción del reino de Granada p. p. 221 - 223)

(٥) بجانة Pechina الآن قرية صغيرة شمالى المرية بنحو عشرة كيلومترات ، وتبعد عن البحر بقدر تلك المسافة .

الاقليم ، لما تمتاز به من موقع حصن مأمون ، وأرض خصبه عند
مصب نهر أندرش Andarax ، المعروف أيضا بوادي بجانه^(١) .

الى جانب هذه العناصر العربية ، اعتمد الامويون كذلك في حماية
سواحلهم وشن الغارات على أعدائهم ، على جماعات بحرية أندلسية من
المولدين والبربر والمستعربين الذين كانوا يتكلمون بمعجمية أهل الأندلس
Romance . ولقد انتشر هؤلاء البحريون في بلدان الساحل الشرقى
الأندلسى التى كانت تعرف أيضا باسم البلاد البحرية^(٢) ، وكانت لهم فيها
مراسى ورباطات ودور صفاة ومن أهم قواعدهم أشكوبارس Escombreras
وبجانه التى جاؤوا فيها العناصر البنية^(٣) ، ولقنت Alicante . وأقيله
Aguilas وكلها فى شرق الأندلس كذلك انتشر هؤلاء البحريون فى بعض
جہات الساحل الافريقى الشمالى على شكل جاليات أندلسية متفرقة . ومن
أهم المدن التى أسسوها هناك نذكر مدينة تنس Tanes سنة ٢٦٢ هـ (٨٧٥م)
ومدينة وهران Oran سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٢م) فى الجزائر ويشير البركى الى
أن بعض هؤلاء البحريين كانوا يترددون بسفنهم فى كل عام بين شواطئ المغرب

(١) الحميرى : الروض المعطار ص ٣٧ - ٣٨ ، العذرى ، نفس المرجع

ص ٨٦ - ٨٧ .

(٢) العمري : مسالك الابصار ص ٤٤

(٣) راجع وصف بجانه فى أيام البحريين فى (الحميرى : الروض المعطار ص ٣٧

والترجمة ص ٤٧ - ٤٨ ، العذرى ترصيع الاخبار ص ٨٦ - ٨٧)

والاندلس ، فيقتضون فصل الشتاء في المغرب والصيف في الاندلس^(١)
كذلك كان لهؤلاء البحريين الاندلسيين مغامرات ومحاولات في المحيط
الاطلسي لكشف غياهبه وظلماته في منتصف القرن الثالث الهجري (التاسع
الميلادي) ومثال ذلك ما أورده كل من البكري والخيري عن شخصاش
ابن سعيد بن أسود الذي خاطر مع جماعه من الاحداث فركبوا المراكب
ودخلوا البحر وغابوا فيه مدة ثم عادوا بغنائم واسعة وأخبار مشهورة^(٢)
وكان بيت بني أسود من البيوت المشهورة في بجاية ، ولهم رباط على
ساحلها عرف بقابطة بني الاسود، واهله رباط القابطة أو القبطة المشهور في كتب
التاريخ ومكانه اليوم Cabo de Gata على ساحل المارية وقد ظهر اسم
شخصاش ووالده سعيد بن أسود ، ضمن قادة الاساطيل التي قاتلت
ثورماندين في عهد الامير محمد الاول .

رحدث شخصاش وأصحابه يذكروننا بحديث الفتية المغررين أو المغررين
من أهل لشبونة Lisboa الذين توغلوا كذلك في المحيط الاطلسي في منتصف
القرن الرابع الهجري أيضا^(٣) ، وإن كان يبدو أنهم لم يذهبوا أبعد
من جزر الخالدات^(٤) التي تعرف اليوم باسم جزر كناريا Canarias

(١) راجع (البكري : نفس المرجع ص ٦١ - ٦٢ ، ٨١) وكذلك
(Lévi Provençal Histoire de l'Espagne musulmane, tome I)
pp. 348 - 354)

(٢) الخيري : الروض المعطار ص ٢٨ والترجمة ص ٣٦ حاشية ٣ .

(٣) راجع وصف هذه الرحلة في (الادريسي، نزهة المشتاق ص ١٨٤-١٨٥ ،
الخيري : نفس المرجع ص ١٦ راجع كذلك (عبد الحميد العبادي : صور ومحو
من التاريخ الاسلامي ص ١ ص ١٤٨ ، زكي حسن : الرحالة المسلمون في العصور
الوسطى ص ٨٠) .

(٤) أنظر (Lévi Provençal ; Op. cit . t.III p.342 & Ency - of)
Islam art Khalidat by Schwarz

ومنذ هذا الوقت المبكر أيضا كانت المسلمون واليهود يذهبون الى مدينة براغ لشراء الرقيق والقصدير والفراء ثم يعودون عن طريق نهر الرون وقطلونية الى بجمانه حيث يخصى الرقيق ويبيعون كخصيان بسعر مرتفع في الأندلس، وكان البحر هو الطريق العادى لهذه الرحلة^(١).

أما عن النشاط الحربى لهذه الجماعات البحرية فى حوض البحر المتوسط ، فقد أغفلته المصادر العربية ، بينما تسكبت عنه بإسهاب المصادر اللاتينية والبيزنطية ، ووصفت أصحابه بأنهم قراصنة يعملون لحسابهم الخاص .

والواقع أن أعمال القرصنة فى ذلك الوقت لم تكن قاصرة على المسلمين وحدهم ، بل كانت شائعة ومنتشرة بين المسيحيين والوثنيين النورماندين أيضا ، وكثيرا ما استعان أمراء الأندلس بخبرة رعاياهم البحرين فى حماية سواحلهم ، وقيادة أساطيلهم ، كذلك يلاحظ أن السفارات التى كان يرسلها كل من أباطرة الدولة الكارولنجية والدولة البيزنطية الى أمراء وخلفاء قرطبة كانت تنص على طلب الحد من نشاط واعتداءات هؤلاء البحرين باهتبارهم من رعاياهم وتحت سلطانهم .

ومما يمكن من ثمة ، فإن ماورد فى هذه الحوليات الأوروبية ،

(١) راجع (خوان برنيت : هل هناك أصل عربى لأسباني لفن الخرائط الملاحية ؟ مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمadrid ، العدد الأول سنة ١٩٥٣ ، ترجمة احمد مختار العبادى)

يشهد بوضوح على أن هؤلاء المجاهدين الأندلسيين ، قد دكبوا البحر وهرفروا القتال فيه وحذقوه منذ أواخر القرن الثاني الهجري أى على عهد الأمير الحكم الأول الربيعي (١٨٠ - ٢٠٦ = ٢٩٦ - ٨٢٢ م) .

ومن أمثلة نشاط هذه الجماعات « نذكر تلك الغارات التي شنوها على الجزر الشرقية أو جزر البليار سنة ١٨٢ هـ (٧٩٨ م) لدرجة أن أهالي تلك الجزائر استنجدوا بالامبراطور شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤) ووضعوا أنفسهم تحت حمايته (١) .

وفي سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) هاجم الأندلسيون جزيرة كورسيكا وغنموا منها غنائم كثيرة ، وفي أثناء عودتهم طمع فيهم آدمر Admer أمير جنوة ، واعدة بهم بأسطوله ، فرجعوا اليه وقتلوه وهزموا أسطوله وأسروا رجاله ، وبلغ ذلك شارلمان ففكهم من الأسر بقدية أداها عنهم (٢) . ولقد هاد الأندلسيون هجومهم على جزيرة كورسيكا مرة أخرى سنة ١٩٨ هـ (٨١٢ م) ولكن في أثناء رجوعهم ، اكس لهم أرمنجول Armengol أمير أمبورياس Ampurias (٣) قرب جزر البليار قوة بحرية غنمت

(١) راجع 4 د (707-1232) Miguel Alcover : El Islam en Mallorca

(Palma de Mallorca 1930)

(٢) شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا

وجزائر البحر المتوسط ص ١٤٠ .

(٣) تقع ولاية أمبورياس على الساحل الشمال الشرقي لإسبانيا شمالاً برشلونة

منهم ممانية مراكب بما كان فيها من غنسانم وأسرى . وقد انتقم
الاندلسيون عن ذلك باجتياح سواحل جزر البليار وجزيرة سردانيا
سنة ٢٠٠ (٨١٥ م)^(١) .

مثل آخر للنشاط هذه الجماعات الاندلسية في البحر المتوسط جاء
نتيجة ثورة داخلية قامت في الاندلس ، وهى ثورة أهالى ربض قرطبة
على أميرهم الحكيم الاول فى أواخر القرن الثانى الهجرى . وقد عاقبهم
هذا الامير بدم ديارهم وحرقت حبيهم وحرق أرضه وزراعتها ، ونفهم
عن البلاد . فمير بعضهم الى المغرب حيث استقروا فى مدينة فاس عاصمة
الادارة الجديدة ، وشاركوا فى بنائها وتعميرها . أما البعض الآخر
وكانوا ١٥ ألفا عدا النساء والاطفال ، فقد واصلوا سيرهم فى البحر
شرقا حتى بلغوا شواطئ الاسكندرية فنزلوا فى ضواحيها . وكانت الاحوال
فى مصر مضطربة ، إذ أنتقلت اليها عدوى الخلافات التى نشبت بين
الامين والمأمون : ففريق كان يؤيد الامين وفريق آخر مع المأمون ،
وفريق ثالث برعامة السرى بن الحكيم وأولاده يعمل لحسابه الخاص ،
ويضرب فريقا بآخر بغية الاستقلال بمصر . فانهز الاندلسيون المهاجرون

== وكانت فى هذه الفترة المبكرة قد استطاعت أن تستقل عن الدولة الاسلامية
فى أسبانيا ، وأن تكون لنفسها اسطولا بحريا كان له نشاط محدود فى مياه تلك
المنطقة كما كانت له بعض القواعد فى جزر البليار . راجع

(Capmany: Memorias historicas sobre la marina' comercio y
artes de la antigua ciudad de Barcelona, tomo I.p 10 (Mad-
rid 1792)

(١) راجع (A. Companer y Furertes : Bosquejo de la dominacion
islamita en las Islas Baleares, p.15 (Palma de Mallorca 1888)

فرصة هذه الفتن ، واستولوا على مدينة الإسكندرية بمعاونة أعراب
البحيرة ، وأسسوا فيها إمارة أندلسية مستقلة عن الخلافة العباسية دامت
أكثر من عشر سنوات .

وعندما استتب الأمر للخليفة المأمون ، أرسل قائده عبدالله بن طاهر
ابن الحسين إلى مصر لإعادة الأمور إلى نصابها سنة ٢١٢ هـ (٨٢٨ م)^(١) .
فأرسل إلى هؤلاء الأندلسيين يهددهم بالحرب إن لم يدخلوا في الطاعة ،
فأجابوه إلى طلبه حقنا للدماء ، واتفقوا معه على مغادرة الديار المصرية
وعدم النزول في أى أرض تابعة للعباسيين . ثم اتجهوا في مراكبهم إلى
جزيرة كريت وكانت تابعة للدولة البيزنطية ، فاستولوا عليها بقيادة
زعيمهم أبى حفص عمر البلوطى سنة ٨٢٥ م^(٢) . وهناك أسسوا قاعدة
لهم أحاطوها بخندق كبير فعمرت بالخندق ، ثم انتقل هذا الاسم إلى
الأوربية على شكل Chandax ثم Candia كانديا أو كنديه وهو اسم
المدينة الحالية التى تعرف أيضا بالاسم اليونانى Herakleon^(٣) .

ومن الطريف أنه ينسب إلى هذه المدينة بعض المنتجات التى نالت شهرة
شعبية فى مصر مثل العسل والصابون الكنديه (بكر الكاف وتشديد الياء) .

(١) راجع Lévi Provençal ; Op. cit. tome I P. 172.

(٢) نسبة إلى فحوص البلوط Pedroches بنواحي قرطبه .

(٣) انظر : A. Vasiliev ; History of the Byzantine Empire

324 — 1453) p. 278 (Madison 1952).

ولم تلبث كريت منذ ذلك الوقت أن صارت قاعدة بحرية هامة ، ومصدر تهديد مستمر لجزر وسواحل الدولة البيزنطية ، إذ أخذ الاسطول الكريتي يشن الغارات على جزر بحر ايجه ، وساحل تراقيا ، وجبل آتوس Athos ، ومدينة ميتلين (٨٦٢ م) ، واستطاع أن يوجه أقصى ضرباته في سنة ٩٠٤ م عندما هاجم مدينة سالونيك ، وهى المدينة الثانية فى الامبراطورية البيزنطية ، وأسر آلافاً من سكانها اقتيدوا الى مختلف الأقطار الاسلامية (١) . وظل مسلحو كريت مصدر رعب لآمن بيزنطة وتجارها بما تسبب عنه وقوع اضطرابات اقتصادية وسياسية فى داخل أراضيها . وقد حاول البيزنطيون استعادة هذه الجزيرة مرات عديدة ، ومن الطريف أن مئات من الجنود الروس اشتركوا فى بعضها (٢) ، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل . والسبب فى ذلك يرجع الى الامدادات العسكرية التى كانت تقدمها مصر والشام وافريقية الى هذه الجزيرة المجاهدة باعتبارها حصناً أمامها لها (٣) ضد عدوان البيزنطيين (٤) .

(١) راجع : أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة احمد محمد عيسى ، صفحات كلمة كريت فى الفهرس
(٢) راجع Vasiliev : Op. cit. p. 307 مثال ذلك الحملة البحرية الكبيرة التى قادها بوخنا الارل تزييمسكس John Tzimiscas ضد كريت سنة ٩٤٩ م ، فقد اشترك فيها حوال ٦٢٩ جندي روسي .

(٣) يقول المقدسى فى هذا الصدد إن جزيرة كريت حمت مصر ، وقبرص حمت الشام ، وصقلية حمت افريقية ، وجزر البليار حمت الاندلس . راجع (أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص ٢٤٩ ، ٢٢٢) .

ومن الطريف أنه في نفس تلك السنة التي استول فيها الاندلسيون على مدينة كريت أي سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧) غزا الاغالبة أيضا بقيادة قاضي القيروان أسد بن الفرات بن سنان^(١) ، جزيرة صقلية وثبتوا أقدامهم في مازره Mazara ومينير Mineo وغيرها من النواحي المواجهة للساحل التونسي جنوبا : وكان هذا الجيش الفاتح يتكون من عشرة آلاف فارس بعضهم من الفرس الخراسانيين - وأسد بن الفرات واحد^(٢) منهم - والبعض الآخر من الافارقة ومن الاندلسيين المقيمين في افريقية . وكان أبجارهم جميعا من ميناء سوسة . ولقد استشهد هذا المجاهد الكبير عند أسوار مدينة سرقوسة Syrcuse شرق الجزيرة سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) بعد أن وطد الحكم الاسلامي في بعض نواحيها^(٣) . ولم تلبث هذه

(٤) من المعروف أن جزيرة كريت سقطت في يد البيزنطيين سنة ٩٦١ م (٩٥٠ هـ) على يد نففور فوقاس وفي عهد الامبراطور رومانوس الثاني ، وذلك بعد أن ظلت في يد المسلمين ما يقرب من قرن ونصف . راجع عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١١٢ .

(١) يؤثر عنه أنه كان يقول أنا الأسد، والأسد خير الوحوش، وأبي الفرات، والفرات خير الماء، وجدى سنان ، والسنان خير السلاح : أنظر (أماري : المكتبة العسقلية العربية ص ٢٣١) .

(٢) كان أسد بن الفرات من موالى بنى سليم وأحله من خراسان من نيسابور وولد بجران سنة ١٤١ هـ . راجع (المالكي : كتاب رياض النفوس ص ١٧٢ نشر حسين مؤنس) .

(٣) راجع (المالكي : نفس المرجع ص ١٠٥ - ١٨٩ ، أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية ص ٦٥ ، إحسان عباس : العرب في صقلية ص ٢٤

الجزيرة بعد قليل أن صارت كلها في يد الأغالبة الذين هددت جيوشهم وأساطيلهم جنوب إيطاليا حتى بلغت روما نفسها .

ولم يقتصر نشاط الأندلسيين على المساهمة فى فتح صقلية تحت لواء أسد بن الفرات ، بل عملوا بعد ذلك بعامين على دعم جيوشها عندما اشتد ضغط البيزنطيين عليها ، فيروى كل من ابن الأثير وابن عذارى أن أمير الأندلس عبد الرحمن الثانى أو الأوسط (٢٠٦ - ٢٢٨ م = ٨٢٢ - ٨٥٣ م) وجه الى تلك الجزيرة حملة بحرية خرجت من ميناء طرطوش سنة ٨٢٤ م (٨٢٩ م) ، وانجحت الى صقلية لتعزيز الحامية الاسلامية هناك (١) .

على أنه يبدو أن المساعدات الاندلسية لجزيرة صقلية لم تستمر بعد ذلك طويلا ، بسبب المعاهدة الودية التى أبرمت بين الامبراطور البيزنطى تيوفل (٢) وبين عاهل الأندلس عبد الرحمن الأوسط سنة ٨٢٥ م (٨٤٠ م) . وكان الدافع لها هو اجتماع البيزنطيين والامويين على عداوة العباسيين الذين كانت صقلية تقع تحت سلطانهم . إلا أنه يلاحظ أن الامير الاندلسى لم يلتزم فى هذه المعاهدة بأى عمل مضاد لنشاط الاغالبة فى صقلية رغم كونهم حلفاء للعباسيين بل اعتبرهم مجاهدين فى سبيل الله .

هذا وتجدر الإشارة هنا الى أن السياسة التقريبية التى سلكها الامويون فى الأندلس نحو بيزنطة ، كانت تصاحبها سياسة عدائية نحو جيرانهم

(١) ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٢٣٨ ، ارشيبالد لويس: القوي البحرية ص ٢١٢

(٢) تيوفيل Theophilus حكم من ٨٢٩ الى ٨٤٢ م .

الكارولنجيين في فرنسا ، إذ لم يفس الاندلسيون صراعهم الطويل مع هؤلاء الفرنجة أيام شارل مارتل ^(١) (٦٩٠ - ٧٤١م) وابنه بيبين Pépin (٧٥٢ - ٧٦٨م) وحفيده شلمان (٧٦٨ - ٨١٤). الذي تحالف مع أعدائهم العباسيين ، وحاول غزو الاندلس في حركته الفاشلة على عهد الامير عبد الرحمن الداخل سنة ١٦٢ هـ (٧٧٩م) ثم جاء ولده لويس الحليم أو الثقي (٨١٤ - ٨٤٠م) ، فسار على سياسة آباءه العدائية نحو الاندلس ، وبسط حمايته على الجزر القريبة منها مثل جزر البليار وسردانية وكورسيكا.

ورأى الامير عبد الرحمن الاوسط (٨٢٢ - ٨٥٢م) أن البحر هو الميدان المناسب الذي يستطيع أن يقهر فيه خصومه الكارولنجيين ، إذ كان يعلم أن قوتهم الحقيقية تقوم أساسا على جيوشهم البرية ، فضلا عن أن قوتهم البحرية المحدودة قد ازدادت ضعفا على أيامه في عهد كل من لويس الثقي وابنه شارل الاصلع (٨٤٠ - ٨٧٧م) . ولهذا قدام بحشد أساطيله على طول الساحل الشرقي الاندلسي . ولاسيما في طرطوشة وبلنسية ، ثم أخذ يشن غارات مستمرة من سنة ٨٣٨ الى سنة ٨٥٠م على السواحل الكارولنجية في جنوب فرنسا حتى قضى على قواعد المقاومة فيها مثل مرسيليا وآرل وما حولها ، بحيث استطاع مغامرو البحر من الاندلسيين اتخاذ جزيرة كامارج Camargue عند مصب نه الرن ، قاعدة شبه دائمة للاغارة على الساحل الجنوبي

(١) هو صاحب رفعة بلاط الشهداء بين مديتي تور وبواتييه بفرنسا ، التي انتصر فيها على المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م) ولقد استشهد الغافقي في المعركة بينما تلقب شارل بالمارتل أى المطرقة .

والتغلغل في أراضيه عن طريق وادى الرون نفسه .^(١)

ولم تقتصر غارات الاسطول الاندلسى على قواعد الفرنجة وسواحلهم الجنوبية بل شملت أيضا جزر البليار التي كانت خاضعة لحايتهم . ويبدو أن حكام هذه الجزر قد شعروا بعدم جدوى الارتباط بمجلة الدولة الكاروانجية ، فسارعوا بقبول سيادة الأمويين ، وتعهدوا بعدم التعرض لسفن المسلمين وفي ذلك يقول ابن حيان :

« وفي سنة أربع وثلاثين ومائتين أى (٨٤٨ م) . أغزى الأمير عبد الرحمن أسطولا من ثلثائة . ركب الى أهل جزيرتي ميورقه وهنورقه لنقضهم العهد واضرارهم بمن يدر اليهم من مراكب المسلمين ، ففتح الله عليهم ، واظفر بهم ، فأصابوا سباياهم وفتحوا أكثر جزائرهم . وأنفذ الأمير فتاه شنطير الحصى الى ابن ميمون^(٢) عامل بلنسية ليحضر تحصيل الغنائم ، ويقبض الخنس ، وكان قد صالح بعض أهل تلك الحصون على ثلث أموالهم وأنفسهم ، واحصيت رباعهم وأموالهم ، وقبض منهم ما عليه صولحو .^(٣) ويضيف ابن عذارى متما رواية ابن حيان :

(١) أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص ٢٢٩-٢٣٠ ، شكيب أرسلان : المرجع السابق ص ١٥٠

(٢) يلاحظ أن بيت بنى ميمون كان من البيوتات الشهيرة التي قاد أفرادها أساطيل المراكبين والموحدين بعد ذلك ، فلمل هذا القائد هو جد الأسرة أو ينتمى إليها .

(٣) راجع (ابن حيان : المقتبس ، القسم الخاص بعبد الرحمن الأوسط ، لشري محمود مكي (تحت الطبع) ؛ ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ١٨)

وفي السنة التالية ٥٢٣٥ هـ (٨٤٩م) ، ورد كتاب أهل ميورقة ومورقة
الى الأمير عبد الرحمن ، يذكر أن ما نالهم من نكبات المسلمين لهم ،
فكتب اليهم ما جاء فيه :

أما بعد ، فقد بلغنا كتابكم تذكرون فيه أمركم ، وأغارة المسلمين الذين
وجهاهم اليكم لجهادكم ، وأصابهم ما أصابوه منكم من ذراريكم وأموالكم ، وما
أسفيتهم عليه من الهلاك ، وسأتم التدارك لأمركم وقبول الجزية منكم ،
وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة والنصيحة المسلمين ، والكف عن
مكروهم ، والوفاء بما تاملت من أنفسكم ، ورجونا أن يكون فيما هو قبتم
به صلاحكم ، وتمنعكم عن العود الى مثل ذلك الذي كنتم عليه ، وقد
أعطيناكم عهد الله وذمته (١).

من هذه النصوص المتقدمة يتضح لنا أن الجزر الشرقية (البيار)
قد خضعت لنفوذ حكومة قرطبة في سنة ٥٢٣٤ هـ (٨٤٨م) ، وإن كان
من المعروف أن هذه الجزر لم تضم الى الاندلس نهائيا ، وتمتلك حكما
مباشرا بواسطة عمال الدولة الاموية إلا منذ سنة ٥٢٩٠ هـ (٩٠٢م) حينما
أرسل اليها الأمير عبد الله ، قائده عصام الخولاني حاكما عليها (٢).

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٢-١٢٣

(٢) راجع (A. Campaner y Fuertes : Op. cit p. 18-42)

وكذلك (ابن خلدون - العبر ج ٤ ص ١٦٤)

على أنه ينبغي أن يلاحظ هنا أنه رغم هذه الانتصارات التي أحرزها الاسطول الأندلسي على خصومه الفرنجة وحلفائهم في حوض البحر المتوسط ، فإن البحرية الأندلسية في ذلك الوقت كانت لا تزال محدودة في إمكانياتها ووسائلها ، فلم تكن لديها القواعد والمخارج والسفن الكافية لحماية جميع سواحلها ولا سيما الغربية منها . ولهذا عجزت عن حمايتها عندما هاجمتها أماطيل النورمان أو الفايكنج^(١) بتحركاتها السريعة الخاطفة وأسهمها النارية ، وأشرعتها السوداء التي جعلت بعض المعاصرين يراها وكأنها ميلات البحر طيوراً جونا^(٢) ، كما ملأت القلوب شجواً

(١) ورد ذكرهم في المراجع العربية باسم الأردمانيين والمجوس . وواضح من التسمية الأولى أنها تحريف للكلمة Norsemen الانجليزية أو Normandos الأسبانية وهي تعني سكان الشمال أي سكان الدول الاسكندنافية أما تسميتهم بالمجوس فلائهم كانوا يعملون النار في كل مكان يحلون فيه بل كانوا يحرقون بها جيش الموتى من زعمائهم بسفنهم . فظن العرب أنهم يعبدون النار كالزرادشتية . كذلك أطلق عليهم اسم الفايكنج Vikings وهي مشتقة من الكلمة النرويجية Vik التي تعني ساكن الخليج لهذا أطلقوها على سكان شبه جزيرة اسكندينافيا لكثرة خلجانها وإن كانت قد وردت في المعاجم الأسبانية (Vikings) بمعنى المحاربين . وأصل هذا الشعب جرمانى أو تبتوتونى ، وينقسم إلى ثلاث مجموعات: السويديون والنرويجيون والدنماركيون . والمجموعة الأخيرة هي التي هاجمت سواحل المسلمين في الأندلس والمغرب . راجع (ابن حيان : المقتبس ص ٢٤٩ تعليق س.الرحمن - بى ، سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ص ١٠ ، ص ٢١٠ ، حسين مؤنس : غارات النورماندين على الأندلس ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، العدد الأول سنة ١٩٤٩) وكذلك (Lévi - Provençal ; Op. cit. I. p. 218)

(٢) الجون ضرب بن الفطحا سود البطون والابنحة .

وشجونا (١) .

هذا ولم تكن غارات النورماندين مركزة في مجموعة واحدة ذات قيادة موحدة ، بل كانت في مجموعات متعددة وفي أماكن مختلفة ، ولهذا كثيرا ما كانوا يغيرون في وقت واحد وفي أماكن متفرقة أو متقاربة ، ولعل هذا هو سبب اختلاف الروايات الإسلامية التي دونت أخبارهم (٢)

كذلك عرف عن النورماندين أنهم كانوا يتحاشون الأماكن المحصنة بوسائل الحراسة والدفاع ، ويهاجمون السواحل المكشوفة التي لا تعترض عملياتهم ونهبهم . وكانت سواحل الأندلس الغربية من هذا النوع الأخير ، ولهذا لم يجد هؤلاء الشماليون صعوبة في اختراق نهر الوادي الكبير من مصبه ، والعمود فيه بسفنهم ، ثم احتلال مدينة أشبيلية عدة أيام ، هائوا خلالها قتلا ونهبا وتخريبا سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) على يد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٣).

ولما كان معظم الأسطول الأندلسي مرابطا على الساحل الشرقي ، فقد اعتمد الأندلسيون في مقاومة هذا الخطر على جيوشهم البرية ، فأخذوا يضمون لهم السكائن ، ويثبون لهم السرايا التي تحول بينهم وبين العودة

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٢ ص ١٣٠

(٢) R. Dozy ; Recherches sur l'Histoire et la littérature de l'Espagne, II, p. 264

(٣) راجع تفاصيل هذه الأحداث في (المقرئ : نفع الطيب ١ ص ٣٢٧ ،

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٣ - ٦٧ ، ابن عذارى . البيان المغرب

٢ ص ١٣٠ وما بعدها) وكذلك Dozy : Recherches II. pp.252-266

Lévi-Provençal : Op. cit. I pp. 18—225.

إلى مراكزهم ، ويقذفونهم بالمجانيق من جنبي نهر الوادي الكبير . إلا أنه يبدو أن انسحاب النورمانديين من أشبيلية لم يتم إلا بعد وصول وحدات الاسطول الأندلسي إلى مكان المعركة . يؤيد ذلك قول العذري :
و ثم هبطت للإمام عبد الرحمن (الأوسط) خمسة عشر مركبا بالمقاتلة
والعدة ، فنزلوا أشبيلية . فلما أحس المجوس بها لحقوا ببلدة (Niebla)^(١) ،
وقد انتهت هذه الغارة بانتهزام النورمانديين عند طلياطه Tejada ، بن
بلدة وأشبيلية^(٢) ، وانسحابهم عن الأندلس .

لا شك أن هذا الحادث الخطير قد نبه الأذهان إلى ضرورة اتخاذ
إجراءات دفاعية ضد أى هجوم متفاجيء يقع على الأندلس من ناحية
البحر . ولهذا قام الأمير عبد الرحمن الأوسط بعدة أعمال هامة في هذا
السيبل ، ومثال هذا أنه أحاط مدينة أشبيلية بأسوار حجرية عالية كما بنى
في مينائها دار صناعة لبناء السفن الحربية ، وزودها بالآلات ونيم النفط^(٣)
وبرجال البحر المدربين من سواحل الأندلس^(٤) .

والإشارة إلى استخدام النفط هنا نجملنا نعتقد أن المسلمين في ذلك
الوقت ، قد توصلوا إلى استخدام النار الإغريقية التي حرص البيزنطيون ،

(١) العذري . نفس المرجع السابق ص ١٠٠

(٢) الحيرى . الروض المعطار ص ١٢٨

(٣) النيم (بكسر النون وفتح الياء) جمع نيمة وهى القارورة ، والمقصود
هنا قوارير النفط betun التي كانت تقذف على سفن العدو . انظر

Dozy ; Suppl. Dic. Ar. II p. 743.

(٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٧ .

على الاحتفاظ بسرية تركيبها منذ أن اخترعها^(١). وقد يؤيد ذلك أنه قبيـل هذا التاريخ بسنوات قليلة استخدم الاغالبـة لأول مرة في أساطيلهم سفنـا تقذف بـلهب النفط تعرف بالحراقات ، وذلك رداً على النار الاغريقية التي استخدمها البيزنطيون^(٢).

وكيفما كان الامر ، فان تلك المجهزات الكبيرة التي بذلها الامير عبد الرحمن الأوسط في تقوية اسطوله وتحصين سواحله ، قد استمرت وأبـتعت في عهد ولده الامير محمد الأول (٢٣٨-٢٧٣هـ = ٨٥٢-٨٨٦ م). فيروى المؤرخون أن هذا الامير أنشأ في البحر سبعمائة غراب ، وأن جيش المسلمين في عهده بلغ مائة ألف فارس ، منهم عشرون ألفاً بدروع الفضة^(٣).

وحينما عاود النورمانديون هجرهم على السواحل الاندلسية سنة ٢٤٥هـ (٨٥٩ م) ، استطاع الاسطول الاندلسي أن يردهم على أعقابهم بعد أن كبدهم خسائر فادحة. وقد أورد كل من العذري وابن حيان ، وصفاً

(١) من المحتمل أن يكون البيزنطيون قد توصلوا الى استخدام هذه النار الاغريقية سنة ٥١٦م ثم أدخلوا عليها تحسينات جديدة على يد رجل يدعى كالينيـكوس ، وهو سوري مقيم في القسطنطينية. وقد استخدم هذا التركيب الجديد لأول مرة أثناء حصار الاسطول العربي للعاصمة البيزنطية سنة ٦٠هـ (٦٨٠ م) في عهد يزيد بن معاوية وقد نتج عن استعماله انسحاب الاسطول العربي عن المدينة. راجع (ارشيـالد لويس : القوى البحرية ص ٩٧)

(٢) أرشيـالد لويس : نفس المرجع ص ٢١٤

(٣) ابن السكردبوس : كتاب الاكتفا ص ٥٧ ؛ ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار تونس ص ٩٧.

مفصلاً لهذه العمليات البحرية التي دارت بين الفريقين ، نقله هنا
لأهميته (١) :

« وفي ستة خمس وأربعين ومائتين ، خرج المجوس - لعنهم الله - إلى
ساحل الغرب من أرض الأندلس ، وهو خروجهم الثاني ، خرجوا في
أثنين وستين مركباً ، فألفوا البحر محروساً ، ومراكب الأمير محمد فيه
جارية ما بين حائط (٢) أفرنجة في الشرق إلى أقصى حائط غليسية في الغرب ،
وتقدم من مراكبهم مركبان تلقتهما المراكب المنصوبة الجارية من حائط
جليقية معافصة في بعض مراسي كورة باجه (Beja) ، فغنمتها بما كان فيها
من مال ومتاع وعدة وسبي ، ومضت سائر مراكب المجوس في الريف (٣)
حتى انتهت إلى مصب نهر اشيلية (أى الوادى الكبير) وما يليها ، وذهب
الرعب بهم كل مذهب ، وبادر الأمير محمد باخراج الجيش إلى الغرب ،

(١) يقوم الدكتور محمود مكي بنشر وتحقيق هذه القطعة الخاصة بمصر عبد الرحمن
اللاوسط من مقتبس ابن حيان ، وقد تفضل مشكوراً فأعازنى بعض اللوحات
الخاصة بهذه الغارة . راجع كذلك (العذرى : نفس المرجع ص ١١٨ وما بعدها) .
(٢) حائط هنا بمعنى شاطئ أو رصيف من الحجارة في الميناء . راجع
(Dozy : Suppl. Dic. Arabes, I p. 337) وكذلك (الحميري : الروض
المطار ص ٢٦٣ في فهرس الكلمات التي لا دلالات خاصة) .

(٣) تطلق كلمة ريف في مصر على الاراضى الخصبة الداخلية ولا سيما الممتدة
على ضفتي النيل ، أما في المغرب والأندلس فتطلق على الاراضى التي تحف بالبحر
أو المحيط (ريف البحر) . وكلمة ريف أيضاً اسم علم للمنطقة الممتدة من تطوان
إلى نهر ملوية في شمال المملكة المغربية . راجع Dozy; Suppl-Dic.Ar. I p. 576

واستنفار الناس إلى المدور الطارق ، فنفروا من كل أرب ، وكان القائد
للجيش السلطان. نحزهم ، عيسى بن الحسن بن أبي عبدة الحاجب ، وتقدمت
مراكب الكفرة من اشيلية ، فاحتلت بالجزيرة الخضراء^(١) ، وتغلّبت
على الحاضرة ، فاستباحتها عنها ، وأحرقت المسجد الجامع ، ثم أقفلت
عن بر الأندلس تطلب المدوة (أى المغرب) ، فاحتلت بناكور^(٢) ،
واستباححت أربافها ، ثم عادت إلى ريف الأندلس الشرق . . وتوافدت
بساحل تدمير (مرسية) ، ودخلوا حصن أوريوhle Orihuela ، ثم تقدموا
إلى حائط إفرنجة ، فسبوا فيها ، وأصابوا الذرارى ... وقد ذهب من
مراكبهم أكثر من أربعين مركبا . ولأقمتهم مراكب الامام محمد وعليها
قرقاشيش بن شكوح ، وخشخاش البحرى ، ومعهما نيم النفط ، وأصناف

(١) كان على مدينة الجزيرة الخضراء فى ذلك الوقت قائد البحر كليب بن محمد
ابن ثعلبة ، الذى يبدو أنه قصر فى الدفاع عنها ، إذ يقول الشاعر عبد الله بن محمد
المورورى الجزيرى يبكى أهل بلده :-

أملت بأبناء الجريرة أمة	بجوسية الانساب مغرأشائم
فصدعت الشمل الجميع بفرقة	إلى يوم بعث الخشر لا يتلام
وكان كليب فى إدارة حربه	كعالم أضغاث الكرى وهو قائم
لحى الله من آباؤه وجدوده	بناة المعالى وهو للجد هادم

راجع (ابن حيان : المقتبس نشر محمود مكى) .

(٢) تكتب كذلك نكور وهى مدينة مندرسة فى شيا شرق المملكة المغربية .
وكان من أعمالها نغر المزمة الذى حرفه الاسبان إلى ألوثياس التى عربها المسلمون إلى
الحسيمة الحالية التى تسمى أيضا سان خورخو Villa San Jurjo وهى خاصة
للفوذ الأسبانى .

العدة البحرية ، والكثيف من الرماة بأوسع ما يحتاجون إليه من الشباب ، فأصابوا مركبين من مراكبهم بريف شذونه ، فيها أموال كثيرة ، وأمنعة واسعة نفلها الله المسلمين ، ثم صدمهم ابن شكوح وخشخاش صاحبه ، رئيسا اسطول السلطان ، وقتلهم حتى غلباهم على مركبين آخرين ، فأحرقاهما بجميع من كان فيهما ، فحمى المجوس عند ذلك على خشخاش ، فأخذوا به ، وضاربهم في صدر مركبه دراكا حتى استشهد رحمه الله وقوم من المسلمين معه . ثم مضت بقية مراكب المجوس مصعدة إلى حائط بلبلونه ...

وفي سنة سبع وأربعين ومائتين (٨٦١ م) ، ظهرت مراكب المجوس في البحر ، فكتب إلى عمال الساحل بالاحتراس والتحفظ . فلم يكن للمجوس في هذه الكرة في الانبساط في البحر والاضرار بأهل السواحل ، ما جرت به عادتهم ، ولم يجدوا في السواحل مطمعا لشدة ضبطها ، ولا فوا مع ذلك من البحر هولا عطبت له من مراكبهم أربعة عشر مركبا بناحية البحيرة من الحزيرة ، فنكبوا عن حائط الاندلس ، واعتدلوا إلى جهة الفرنجة فلم يلقوا ظمرا ، وأسرعوا الانصراف إلى بلدهم بالخفية ، فلم يكن لهم بعد إلى الاندلس إلى اليوم عودة^(١) .

بما تقدم نرى ، كما هو واضح ، أن غارات النورماندين على الاندلس في عهد الأمير محمد ، لم تبرز نجاحا مثل النجاح الذي أحرزته في عهد والده عبدالرحمن الأوسط ، وذلك بسبب ارتقاء البحرية الاندلسية إلى

(١) ابن حيان : نفس المرجع السابق ، العذري : نفس المرجع ص ١١٨-١١٩ .

إلى المستوى الحربى المطلوب للدفاع عن أراضيها .

وفى خلال ذلك الوقت الذى كانت فيه اساطيل الاندلس وجيرشها
 فى قتال النورمانديين وصد عدوانهم فى البحر والبر ، لم يتوقف نشاط
 المغامرين من رجال البحر الاندلسيين عن مواصلة قتال الكارولنجيين فى
 حوض البحر المتوسط ، وشن الغارات على قواعدهم فى آرل ومرسيليا
 فى جنوب فرنسا . ولقد كان لهؤلاء البحريين هناك قواعد شبه دائمة فى
 جزيرتى كامريج Camargue وماجلون عند مصب نهر الرون للاغارة منها
 على تلك الجحاث . ومن المؤسف أننا لا نجد لشاطهم أثر رواية إلا فى
 الحوليات الأوروبية التى سجلت هذه الاحداث ، وهذا شئ طبعى إذ
 أنه من العيب أن نلتبس فى كتابات مؤرخى المسلمين شيئا عن هذه
 القرصنة بحكم كونها منظمة غير رسمية ، أى أن الدولة الأموية لم تنظمها
 تنظيما رسميا إلا أنها كانت تشرف عليها وتشجعها (١) . ومن أمثلة ذلك
 حادثة رولان رئيس أساقفة آرل الذى أسره البحريون الاندلسيون سنة
 ٨٦٠ م ، وساقوه إلى أحد مراكزهم ، وطلبوا فيه فدية كبيرة . ورضى
 أهل آرل بتقديم هذه الفدية ، وأخذوا فى جمعها لإنقاذ اسقفهم ، ولكن
 حدث فى أثناء ذلك أن مات الاسقف وهو لا يزال أسيرا ، فكتم الاندلسيون
 موته حتى يقبضوا المال . ولما تسلموا جميع الاشياء التى طلبوها ، أخرجوا
 جثة الاسقف إلى البر ، وألبسوها الثياب التى كانت عليه عندما كان حيا ،

(١) راجع (حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ، المجلة
 التاريخية المصرية ، مايو سنة ١٩٥١) :

واجلسوه على مقعد مرتفع . وكان المسيحيون قد بنوا جمعا عظيما
لتهنئة الاسقف بالخلاص ، فلم يحدوا سوى جثة هامدة ، وتقول فرحم
ماتما (١) .

وأمام هذه الغارات المتواصلة ، اضطر ملك فرنسا شارل الاصلع أو
الجمور ، أن يعقد صلحا مريئا مع الامير محمد سنة ٨٦٤ م كي يتيح
لسكان هذه المنطقة الفرنسية الجنوبية بعض الراحة من تلك الغارات (٢) .
وبعد وفاة الامير محمد ، تجددت غارات البحريين الاندلسيين على
ساحل بروفانس في جنوب فرنسا ، في عهد ولديه المنذر (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ
= ٨٨٦ - ٨٨٨ م) ، وعبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ = ٨٨٨ - ٩١٢ م) .
ولقد استطاع هؤلاء المجاهدون الاندلسيون في سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٨ م) ،
أن يؤسسوا على قمة جبل في خليج سانتروبيز Saint Tropez ، معقلا
جديدا سماه المعاصرون باسم فراكسنيتم Fraxinetum ، وقد اندرس هذا
الاسم الآن ، وأغلب الظن أنه كان في نفس المكان الذي عليه الآن قرية
جارد فرينه Garde - Freinet ، كما تسمى الغابة التي تحيط بها باسم غابة
المور أي المسلمين . ويمتاز هذا الموقع المرتفع بأنه يشرف على سهل
بروفانس وحدود إيطاليا (٣) .

(١) راجع التفاصيل في (أرشيبالد لويس : نفس المرجع ص ٢٣٠ ، شكيب
أرسلان ؛ نفس المرجع ص ١٥٩) وكذلك (Lévi-Provençal, Op. Cit. 2, p. 153) .

(٢) أنظر مراجع الحاشية السابقة .

(٣) راجع (Lévi-Provençal : Op. cit. 2 p. 158) .

ولقد تحدثت جميع المصادر الألمانية والفرنسية والإيطالية عن نزول
الاندلسيين في فراكنيتيم ، ووصفت الغارات التي شنوها من تلك القاعدة
على البلاد الداخلية مثل دوفيني Duaphiné ، وبيومونت Piémont ، وسافوي
Savoy ، ونيس ، وكيف أنهم تمكنوا من التحكم في المواصلات التي
بين إيطاليا وفرنسا ، واحتلوا جميع ممرات جبال الالب الموصلة بين
البلدين فيما بين مونت سني والبحر المتوسط لدرجة أنهم كانوا لا يسمحون
لاحد بالمرور منها دون أن يدفع لهم رسما معلوما . وعلى الرغم من
أن المصادر العربية لم تذكر شيئا عن نشاط هؤلاء المجاهدين ، إلا أنها
أشارت باختصار إلى موقع فراكنيتيم ، الذي أطلقت عليه اسم جبل
القلال بمعنى رؤوس الجبال (جمع قلة) . وينص ابن حوقل
على أن هذا الجبل ، كان تابعا لصاحب الأندلس (١) ، بينما يصفه
الاصطخرى بأنه كان في الأصل خرابا وفيه ماء ، ثم عمره المسلمون
وثاروا في وجوه الافرنجة ، لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم (٢) .

واستمرت قاعدة فراكنيتيم مركزة في سبب الفرنجة في هذه النواحي
مدة قرن تقريبا ، واستطاعت وحداتها البحرية بالتعاون مع وحدات
جزر البليار ، ووحدات موانئ النهر الأهل في الأندلس مثل طرطوشه
أن تكون أسطولا أندلسيا بديع التنظيم سيطر على غربي حوض البحر
المتوسط في القرن الرابع الهجري (١٠م) (٣) .

(١) راجع (ابن حوقل كتاب صورة الارض ص ١٨٥ ، طبعة بيروت)

(٢) راجع (كتاب شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٦٤-١٦٥

وما بها من حواشي) .

(٣) ارشيبالد لويس ص ٢٥١ وكذلك

(Lévi-Provençal: op.cit II p.155-157)

ففى عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ - ٣٥٠ = ٩١٢ - ٩٦١م) اشتد خطر هذه القواعد الأندلسية على المدن الساحلية الفرنسية والابيطالية وعلى تجارتها أيضا . ولما كان حصن فراكسنيتم هو أهم وأخطر معقل فى تلك المنطقة ، فقد اتفق هوجو Hugo الذى كان ملكا على ايطاليا وبروفانس ، مع صهره امبراطور الدولة البيزنطية رومانوس الاول ليكاينوس ، على أن يقوم الاسطول البيزنطى بمهاجمة هذا المعقل الأندلسى من ناحية البحر ، بينما يهاجمه هوجو من ناحية البر . وفى سنة ٨٣٣١م (٩٤٢م) ، زحف هوجو على حصن فراكسنيتم بجيش كبير وجاء الاسطول البيزنطى من البحر فأحرق مراكب الأندلس التى فى الخليج ، بينما تمكن هوجو من الحصن حتى كاد أن يستولى عليه . ولكن حدث فى ذلك الوقت العاصب أن جاءت الاخبار إلى هوجو بأن برنجر الذى ينازعه ملك ايطاليا ، وكان قد فر إلى ألمانيا ، قد رجع ثانية إلى ايطاليا يحاول محاولته من جديد ، فاضطر هوجو إلى مهادنة المسلمين أصحاب هذا الحصن ، والاسراع فى العودة إلى ايطاليا ، ففشلت بذلك الحملة المشتركة ، واتى الأندلسيون فى معقلهم يهددون ما يجاورهم من البلاد الابيطالية والفرنسية (١) .

هذا ويفهم من كلام العذرى أن أسطولا أندلسيا كبيرا بقيادة محمد بن رماحس وحمه غالب بن عبد الرحمن ، وسهل بن أسيد ، خرج من نهر المرية وغزا سواحل افرنجة فى نفس تلك السنة التى حوصرت فيها قاعدة فراكسنيتم (٨٣٣١م) إلا أن عاصفة هوجاء قذفت به بعيداً

(١) راجع (Lévi - provençal : Op. cit. II, p. 160)

عن تلك السواحل (١). وأغلب الظن أن هذه العمليات الحربية التي قام بها الأسطول الاندلسي ، كانت تهدف الى معاونة هذه القاعدة الاندلسية الامامية ، وشد أزرها أمام ضغط البيزنطيين والكارولنجيين . ومن المعروف أن العذرى ، صاحب هذه الرواية عاش في القرن الخامس الهجري ، فهو قريب عهد لهذه الاحداث . فضلا عن أنه من أهالي مدينة المرية قاعدة الأسطول الاموي ، فروايته لها قيمتها في كل ما أورده عن البحرية الاموية .

واستمرت قاعدة فراكنسيم مصدر خطر لحركة المواصلات والتجارة التي تربط بين فرنسا وإيطاليا وسويسرا عبر جبال الالب ، لدرجة أن امبراطور الدولة الرومانية المقدسة أوتو الأكبر (٩٣٨-٩٧٣ م) اضطر أن يتدخل بنفسه في هذه المسألة ، فبعث رسالة شديدة اللهجة إلى عاهل الاندلس عبد الرحمن الناصر يحمله فيها مسئولية أعمال التخريب التي تقوم بها تلك المستعرة الاندلسية في جبال الالب ويطلب منه وضع حد لها باعتبار هذه القاعدة تابعة له ، وقد رد عليه الخليفة الاموي برسالة شديدة ماثلة في سنة ٩٥٠ م . وبعد أعوام قليلة عاد الامبراطور أوتو الاول وبعث برسالة أخرى إلى الخليفة الناصر صلى يدها يدعى جان دي - ورز Gorze (١) . فلما وصل الراهب الى قرطبة أحسن استقباله وأنزل في قصر بقرطبة ، بجوار إحدى الكنائس حتى يتسنى له ممارسة شعائره الدينية . وطبقا للتقاليد المتبعة في مثل تلك الحالات

(١) راجع (العذرى : توضيح الاخبار ص ٨١)

(٢) نسبة الى دير جورز Gorze الذي كان ينتمى اليه هذا الراهب بالقرب من مدينة متز .

أحيط الخليفة علماً بمضمون الرسالة قبل تقديمها إليه رسمياً ، ووجهه الخليفة أنها تتضمن شيئاً فيه نيل من الرسول (صلعم) ، ولهذا رفض حملها ، وطلب مقابلة الراهب بالهدية التي بعث بها الإمبراطور فقط دون الرسالة . ولكن الراهب أصر على تقديم الخطاب الذي معه للخليفة تنفيذاً لتعليمات الإمبراطور أوتو الأكبر .

وأضطر الخليفة الناصر أزاء أصرار الراهب ، أن يرسل سفيراً من قبله إلى الإمبراطور أوتو لحل هذا المشكل ، واختار لهذه السفارة رجلاً مستغرباً بحيد العربية واللاتينية معا وهو ريموندو Recomundo الذي يسمى أيضاً ربيع بن زيد ، إذ جرت عادة المستعربين في قرطبة أو يتخذوا أسماء عربية إلى جانب أسمائهم المسيحية واتجه السفير الأندلسي إلى مدينة فرانكفورت حيث استقبله الإمبراطور أوتو الأول وأكرم وفادته وأجابه إلى كل ما اقترحه ، وأرسل معه مرافقا ، ثم قفل الرسول ومرافقه إلى قرطبة فوصلها في سنة ٩٥٦ م . وبناء على تعليمات الإمبراطور الجديد ، تخلى الراهب عن عناده وتنازل عن استصحاب الرسالة ، واستقبله الخليفة الناصر في احتفال كبير .

ومن الغريب أن المصادر العربية لا تذكر شيئا عن أخبار تلك السفارات التي تبودلت بين أوتو الأكبر وعبد الرحمن الناصر ، والتي اقترنت محادثتها بإحداث تلك القاعدة الأندلسية المسماة التي كانت في الأراضي الأوروبية . ابن خلدون والمقرئ أوردا عبارة مختصرة يذكران فيها أن ملك الفرنجة وراء جبال البرت أرسل رسولاً وهدية إلى

الناصر^(١). أما المصادر الأوربية فقد تحدثت عن تلك السفارات في شيء من الإسهاب والتفصيل^(٢).

وكيفما كان الأمر ، فإن مثل هذه الروايات إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى ما كان لرجال البحر الأندلسيين من نشاط في حوض البحر المتوسط إلى درجة جعلت كلا من امبراطور بيزنطة ، وامبراطور الدولة الغربية ، يتوسط لدى خليفة قرطبة كي يجد من نشاطهم .

أما فيما يتعلق بالخطر النورماندى على عهد الخليفة الناصر ، فلم يرد في المصادر ما يفيد بأنهم قاموا بغارات بحرية على السواحل في أيامه . إلا أنه يلاحظ أن الخطر النورماندى في ذلك الوقت قد بدأ يتخذ طابعا مستقرا ثابتا نتيجة لاتخاذهم قاعدتهم بالقرب من ثغور الاندلس

(١) ابن خلدون: كتاب العبر ٢ ص ١٤٣؛ المقرئ: فتح الطيب ج ١ ص ٣٤٢
(٢) نخص بالذكر منها الحولية اللاتينية Antapodosis التي كتبها المؤرخ المعاصر الباردى Luitprando اسقف ولاية Cremona الإيطالية الذي لازم الامبراطور اوتو الاول وقابل السفير الاندلسي ربيع بن زيد وتوطدت بينهما أواصر الصداقة (ت ٩٧٠ م) . كذلك تذكر ما كتبه المؤرخ جسان اسقف سان أرنولفو San Arnúlfو الذي كتب وصفا لمقابلة الراهب جان دي جوزا للخليفة الناصر . وقد نشر هذا الوصف بالاسبانية:

Paz y Mella : Embajada del Emperador de Alemania Oto I al Califa de Cordoba Abderrahman. III (Madrid 1872)

وقد أعيد نشر هذا النص في Boletín de la Academia de Ciencias Bellas Letras y nobles Artes de Cordoba, X, 1931 no 33)

راجع كذلك Lévi Provençal : Op. cit. II, p 154

الشمالية وسواحلها الغربية ، وأغنى بذلك ولاية نورمانديا Normandie في غرب فرنسا . وتاريخ هذه القاعدة النورماندية يرجع الى سنة ١٠٣٠ هـ (٩١٧ م) أثناء المنازعات التي قامت بين أفراد الاسرة الكارولنجية . فيرى ان ملك فرنسا شارل الثالث الملقب بالسادج Le Simple أقطع الزعيم النورماندى رولون Rollon هذه المقاطعة التي عرفت باسم نورمانديا . ولم يلبث هذا الزعيم النورماندى أن اعتنق المسيحية وتسمى باسم روبرت . وقد شكلت هذه الولاية النورماندية الدنمركية خطرا كبيرا على الاندلس عن طريق الحملات البحرية التي كانت تخرج من موانئها وتغير جنوبا على السواحل الاندلسية الغربية ، كذلك عن طريق حملاتها البرية التي كانت تعبر جنوب فرنسا ثم تغير على التفسر الاندلسية الشمالية . والمتواتر في الكتب ان هذه الحملات النورماندية البرية على شمال الاندلس قد بدأت بعد ذلك في عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجرى ، حينما استولى النورمانديون على القلعة الإسلامية بربرشتة Barbastro شمال سرقسطة سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) . غير أنه يبدو بوضوح من كلام العذري أن هذه الغارات النورماندية على الثغر الأهل سرقسطه ترجع إلى أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر بدليل قوله :

«وسجل أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ليحيى بن محمد بن عبد الملك على بربرشتة والقصر Alquezar في سنة ٥٣٣٠ هـ (٩٤٢ م) فكان بها إلى أن أسره المجرس الذين خرجوا إلى ثغر لارده وسرقسطه ، في يوم السبت ثمان مضين من شوال من العام المؤرخ (٥٣٣٠) ، ففداه رجل من التجار بألف مشغال . وقدم يحيى إلى سدة أمير المؤمنين عبد الرحمن ، فأمسر

للذى فداء بتضمين ما آداء فيه ، وصرفه الى بربرشتر فدخلها سنة ١٢٣٣ هـ (١)
فمذا النص السابق يدل على أن غارات النورماندين على الأندلس قد
اتخذت طابعا بربريا فى عصر عبد الرحمن الناصر .

أما الخطر الحقيقى الذى كان يقلق بال عبد الرحمن الثالث ويشير
مخاوفه ، فهو خطر جيرانه الفاطميين الشيعة الذين ظهروا فى تونس ،
وسيطروا على جميع المغرب العربى ، وفرضوا عليه عقائدهم الاسماعيليه ،
كما أخذوا ينظرون الى الأندلس بعين لانتخو من طمع فى احتلاله بغية
توحيد الغرب الاسلامى كله تحت لواء خلافتهم الجديدة . واضطر
عبد الرحمن الثالث ان يدخل معهم فى صراع طويل لعبت فيه البحرية دورا
بارزا فى كلا الجانبين ، واستطاع عامل الأندلس بفضل اسطوله أن يسيطر
على مضيق جبل طارق ، وأن يحتل بعض القواعد المغربيه الهامة المطلة
على المضيق مثل سبتة وطنجة ومليلة . وقد سبق أن شرحنا الأدوار التى
مر فيها هذا النزاع (٢) ، وقلنا إنه كان يبدو فى ظاهره صراعا بين
الأمويين والفاطميين ، ولكنه كان فى حقيقة أمره صراعا بين السنة
والشيعة ، وانهى بانتصار المذهب السنى المالكى ، واستتباب أمره
بدون منازع الى اليوم . ويلاحظ أن المذاهب الدينية فى ذلك الوقت
كانت تقوم مقام المذاهب السياسية الآن وهذا هو سبب الاهتمام بها
والتعصب لها . كذلك كان من عيزات هذا النزاع أنه أسفر عن ميلاد

(١) راجع (العذرى نفس المرجع ص ٧٢-٧٣) .

(٢) راجع الباب الخاص بالتحلاقة من هذا الكتاب ص ٦٥ وما بعدها .

خلافة سنية جديدة في قرطبة ، وهي الخلافة الاموية التي أعطت الأندلس طابعه السياسى والحضارى المميز له . ومن الطريف أن هذه النزعة الاستقلالية الروحية لم تلبث أن سرت أيضا بين أهل الذمة ، إذ تروى المصادر العبرية أن الجاليات اليهودية الاندلسية ، أسرعت بعد إعلان خلافة عبد الرحمن الناصر (٢١٧ هـ = ٩٢٧ م) بالقاء تبعية الروحية للاكاديميات اليهودية ببغداد . ثم تضيف في مكان آخر أن أمير البحر محمد بن الرماحس ، أسر في عرض البحر أربعة من الاساتذة اليهود الذين أرسلتهم أكاديمية سورات Sura^(١) لجلب اعانات اقتصادية من يهود أسبانيا^(٢) . وغير بعيد أن يكون للحادث الثانى صلة بالحادث الاول .

ومما يكن من شئ ، فإن هذا النزاع بين السنة والشيعة في المغرب

(١) يطلق اسم سورا على بلدة في بمباى بالهند ، كما أطلق أيضا على موضع جنب بغداد وقيل بغداد نفسها . كذلك أطلق على بلدة بجوار بابل القديمة في جنوب شرق بغداد وفي ذلك يقول الشاعر :

وقتي يدبر :لى من طرف له : . . . خمرا تولد في العظام فنورا
بما تخيرت النجار ببابل : . . . أو ما تعنته اليهود بسورا
راجع (صلى الدين البغدادي : مرصد الاطلاع ج ٢ ص ٧٥٣)
وكذلك (لسترنج بلدان الخلافة الشرقية ص ١١١)

(٢) راجع Millas Vallicrosa la poesia Sagrada

Hebraicoespanola p. 25 (Madrid 1948)

وكذلك (خوان بيرنيت : هل هناك أصل عربى أسباني لفن الحرائط البحرية؟،

مجلة معهد الدراسات الاسلامية بدريد ، العدد الاول ١٩٥٣)

قد أدى إلى انسحاب الفاطميين إلى مصر سنة ٩٦٩م (٩٦٩م) تاركين حكم المغرب لحلفائهم بنى زيرى زعماء صنهاجة . إلا أنه يلاحظ أن الفاطميين حينما غادروا القيروان إلى القاهرة ، أخذوا معهم أسطولهم . ولم يتركوا لتراهم الزيريين سوى عدد قليل من السفن تعينهم على حماية أملاكهم في المغرب ضد أسطول الأمويين بالاندلس . وعلى الرغم من أن الزيريين قد أخذوا بعد ذلك في بناء أسطول جديد في دار صنعهم الضخمة بالمهدية ، وبذلوا جهودا كبيرة في هذا السيل ، إلا أنه يمكن القول بأن بحرية بنى زيرى لم تبلغ من القوة وحسن التنسيق ما بلغته بحرية الفاطميين ولا بحرية الأغالة قبل ذلك ، ولهذا كانت عاجزة عن مواجهة الأسطول الأندلسي أو التفكير في غزو الأندلس كما فكر الفاطميون من قبل (١) .

غير أن ابتعاد شبح الغزو الفاطمي عن الأندلس لم يقلل من اهتمام الحفيدة المستنصر (٣٥٠ - ٤٦٦ هـ ... ٩٦١ - ٩٧٦ م) بتقوية بحريته وأسطوله . والسبب في ذلك يرجع إلى عاملين أساسيين .

أولها هو الاحتفاظ بسيطرة الأندلس على مضيق جبل طارق .
وثانيها هو الخطر النورماندى .

أما عن العامل الأول ، فقد رأى الحكم المستنصر أن يسير على سياسة والده عبد الرحمن الناصر في صورة الاحتفاظ بالقواعد المغربية المطلة على المضيق مثل سبتة وطنجة . ومد نفوذه عن طريقهنا إلى

(١) ارشيبالد لويس نفس المرجع ص ٣١٢ وكذلك

(L. Golvin ; le Magrib central a l'epoque des Zirides, Recherches d'archeologie et d'Histoire Paris 1957/

قلب العدوة المغربية غير أن هذه السياسة لم تلبث أن اصطدمت بمصالح أمراء الادارسة من بني محمد الذين كانوا يطمعون في استعادة ملكهم على هذه النواحي الشمالية للمغرب . فقاموا بثورة عامة (٣٦١ هـ - ٩٧٢ م) بقيادة كبيرهم الحسن بن جنون . وقطعوا الدعوة للأمويين ، واحتلوا طنجة وقلطان وأصيلا ، وسائر المنطقة الجبلية الممتدة شمال وادي الكوس Locus ، وجعلوا قيادتهم في قلعة شاهقة الارتفاع في شمال شرق القصر الكبير تسمى حصن الحجر أو حـجر النـسر كناية عن ارتفاعها (١) .

ولم يتردد خليفة قرطبة في إرسال أساطيله وجيوشه عبر المضيق لاستعادة نفوذه في تلك المنطقة . وأول من أنفذه إلى المغرب قائده ووزيره محمد بن القاسم بن طلسم الذي عبر المضيق إلى سبتة في شوال من تلك السنة (٣٦١ هـ) ، ثم لحقت به الاساطيل الاندلسية بقيادة قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس . وحينما تكاملت الجيوش والاساطيل معا بسبتة ، بدأ هجومها على طنجة برأ وبحراً . وكان أمير الادارسة الحسن بن جنون داخلها يشد عزائم أهلها ولكنه فشل في محارلته ، واضطر أن يهجر المدينة ويفر هارباً .

ولم يجد أهالي طنجة بداً من التسليم ، فخرج شيخهم ابن الفاضل مع جماعة من وجوه طنجة وهم ينادون بالطاعة لله ولأمر المؤمنين الحكم ، ثم تقدم ابن الفاضل إلى قائد البحر ابن رماحس وطلب منه الإمان لأهل بلده . فأعطاه إياه ودخل طنجة في شوال سنة ٣٦١ هـ (أغسطس

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاش ج ١ ص ١٣٧ .

سنة ٩٧٢ م (١) : أما القائد محمد بن القاسم بن طلمس ، فإنه تعقب
فلول جيش الحسن بن جنون على ساحل المحيط الاطلسي ، ثم احتل
مدينة أصيلا ودخل جامعها فوجد به منبرا جديداً موسوما باسم الشيعي
معد بن اسماعيل (المعز لدين الله) فأمر باحرقه . ولم يستلم الحسن
ابن جنون لهذه الهزيمة ، فأخذ يجمع شمله ويوحد صفوفه من جديد ،
ثم هاجم الجيش الاندلسي على غرة في مكان يعرف بفحص مهران
بضواحي طنجة فأنزل به هزيمة ساحقة ، وقتل قائده محمد بن القاسم بن
طلمس ، في ربيع الاول سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) ولجأ الفل إلى سبتة
مستغيثا بالخليفة الحكم (٢) .

ربارث ناثرة الخليفة المستنصر لهذه الهزيمة ، وصمم على استرداد
كرامته ونفوذه في هذه المنطقة ، وبظهر ذلك واضحاً في تصرفاته
وتصريحاته ومراسلاته التي بعث بها إلى قواده في المغرب ، والتي أوردتها
من حسن الحظ المؤرخ القرطبي أبو مروان بن حيان نقلاً عن المؤرخ
الماصر عيسى بن أحمد الرازي الذي تعتبر رواياته أشبه بجمردة يومية
تسجل الأحداث أولاً بأول :

فيروي أن الخليفة المستنصر ، استدعى وزيره وقائده الأعلى غالب
ابن عبد الرحمن من ثغر مدينة سالم Medinaceli ، فرافاه بقرطبة فيمن
معه من رجال الثغور في جمادى الآخرة سنة ٣٦٢ هـ ، وضم إليه الخليفة

(١) ابن حيان . المقتبس في أخبار الأندلس ، نشر عبد الرحمن حجي ،
ص ٨٩ (القطعة الخاصة بعصر الحكم المستنصر) .

(٢) ابن حيان : المرجع السابق ص ٦٩ ، مفاخر البربر ص ٨ ، ٩ .

جيشا كبيرا وأمره بالتوجه لقتال هذا الشار قاعلا له : مر سير من لا اذن له في الرجوع حيا الا منصورا ، أو ميتا فمذورا : وابسط يدك في الانفاق ، فإن أردت نظمت لك الطريق بيننا قنطار مال ، (٢) .

ثم كتب الخليفة الى قائد اسطوله المرباط في طنجه عبد الرحمن بن رماحس ، والقائدين اللذين معه سعد وقيصر ، وإلى قواده بأصيلا أمثال عبد الرحمن بن أرمطيل ، ورشيق بن عبد الرحمن ، يأمرهم بعدم التفاوض مع الحسن بن جنون وعدم التعرض لقتاله حتى يصل القائد غالب بجيوشه ، ثم يطلب منهم العمل على معرفة أخبار الحسن وبث الجواسيس لتتبع حركاته (١) .

ثم أبحر غالب بجيوشه من الجزيرة الخضراء يريد طنجه في رمضان ٣٦٢ هـ ، الا أن عاصفة شديدة واجبت أسطوله وردته ثانياه الى ساحل الجزيرة التي أبحر منها . واضطر أن يبقى هناك أياما الى أن تحسن الجو ، فعبر المضيق الى طنجه ، ثم تقدم لقتال الادارسة في معانقهم الشامقة في شوال من تلك السنة . وفي نفس هذا الوقت اتجه قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بأسطوله من طنجه الى أصيلا لكي يتعاون مع الاسطول الاندلسي المرباط هناك ، ولكي يكون قريبا من القائد الأعلى غالب . ولقد بارك الخليفة هذه الحركة بخطاب وجهه الى

(١) مفاخر البربر لمؤلف مجهول ص ٨ - ٩ ، ابن حذارى : البيان المغرب ٢ ص ٣٦٥ - ٣٦٧ .
(١) ابن حيان : المرجع السابق ص ٩٧ - ١٠٣ .

ابن رماحس يقول له فيه . ان اجتماع الاسطولين فيه صواب التدبير ، (١) . وهذه السياسة الحكيمة الحازمة شدد الامويون الحصار حول حصن ابن جنون المعروف بحجر النسر . فاشتد الامر عليه واضطر الى الاستسلام وطلب الامان ، فأجيب الى طلبه ودخل غالب الحصن حيث صلى في مسجده صلاة الجمعة مع الامير الادريسي ، ودعى يومئذ على منبره للخليفة المستنصر بالله في ٢٩ جمادى الثانية سنة ٣٦٣ هـ (٢٧ مارس ٩٧٣ م) (٢) .

وبإخضاع هذه الثورة استطاع الخليفة المستنصر أن يضمن سيطرته على مضيق جبل طارق ، وأن يحمي بلاده من أى خطر شيعى أو زيرى يهددها من ناحية العدو المغربية .

وتدبر عرض الحكم المستنصر بعد ذلك أن يعين على حكم هذه المنطقة أميراً أندلسياً الأصل اشتهر بعداوته للزيريين ، وهو الامير جعفر بن علي ابن حمدون (٣) الذى اشترك مع أخيه يحيى فى حكم هذه المنطقة بالتعاون

(١) ابن حيان : نفس المرجع ص ١١٥ - ١١٦

(٢) ابن حيان : نفس المرجع ص ١٥٠ وما بعدها ، ابن عذارى : البيان

المغرب ٢٨ ص ٣٦٥ .

(٣) سبقت الإشارة الى هذا القائد كان قد عرض عليه الخليفة المعز لدين الله الفاطمى حكم ولاية افريقية باسم الفاطميين عندما عزم على الرحيل الى مصر ، ولكن ابن حمدون اشترط أن يكون شبه مستقل فى ولايته فرفض المعز ذلك وعين على افريقية يوسف بن بلكين بن زيرى زعيم صنهاجه . وقد أثار هذا العمل غضب جعفر بن حمدون ففر هارباً الى الاندلس هو وأخيه يحيى حيث خدما فى بلاط الخليفة المستنصر :

مع زعماء قبائل زناتة من مغراوة وبني يفران .

أما الخطر الثاني الذي دفع الحكم المستنصر الى الاهتمام بتقوية أسطوله وتحصين سواحله ، فهو خطر الغزو النورماندى الذى كان لا يزال يهدد مغوره وسواحل بلاده ، وخاصة بعد أن صار لهم قاعدة ثابتة بالقرب من السواحل الغربية الأندلسية ، وهى ولاية نورمانديا Normandie فى غرب فرنسا ، التى أشرنا إليها من قبل .

فيروى المؤرخون أن دوق نورمانديا ريكاردو الأول Ricardo 1. حفيد رولون Rollon مؤسس هذه الولاية ، أمر أساطيله بالسير نحو أسبانيا ، فخرجت من موانئ نورمانديا فى شكل مجموعات عديدة جريا على عادتها وانجحت نحو السواحل الغربية الاسبانية (١) ، غير أن الأندلس فى ذلك الوقت كانت على أتم استعداد للقاء هؤلاء القراصنة وتتبع أخبارهم قبل وصولهم . فيروى ابن حيان أن الخليفة الحكم المستنصر كان يرسل جواسيسه إلى مدينة شنط ياقب Santiago, de Compostella من قاصية بلاد العدو فى جليقية Galicia (شمال غرب أسبانيا) لامتحان أخبار المجوس (٢) . كما أنه فى الوقت نفسه تحالف مع بعض الحكام الأسبان (٣)

(١) أنظر (Dozy : Recherches 11 p. 288)

(٢) ابن حيان : المقتبس - القسم الخاص بالحكم المستنصر ص ٩٣

(٣) ورد اسم هذا الحاكم الجليقى فى كتاب المقتبس لابن حيان على شكل : « غند شلب » الذى قد يكون أصله اللاتينى Gundislavos ثم صار بالاسبانية الحديثة جورتالو Gonzalo (ابن حيان : نفس المرجع السابق ص ٢٧ ، ص ٢٥٤-٢٥٥ نشر عبد الرحمن حجي) .

في غرب جليقية ليكون له عينا على النورمانديين ، ويمده بأخبارهم وتحركاتهم في الوقت المناسب وقد أشار ابن حيان إلى إحدى هذه السفارات التحذيرية التي أرسلها هذا الحاكم إلى خليفة قرطبة في رمضان سنة ٣٦٠هـ (يونيو سنة ٩٧٠ م) يخبره فيها بظهور المجوس في شواطئ أسبانيا الغربية (١) .

كذلك يروي ابن عذارى أن الخليفة المستنصر أمر بصنع مراكب على هيئة مراكب المجوس ، ووضعها في الوادي الكبير تمهيدا لقتالهم بها على نفس طريقتهم (٢) . هذا إلى جانب الصوائف البرية والبحرية التي كانت توجه إلى الساحل الغربي الأندلسي في صيف كل عام ، وتجول فيه برا وبحرا برسم جهاد المجوس وتتبع أخبارهم في تلك النواحي الغربية التي اعتادوا الظهور فيها . وكاد يقود هذه العمليات البرية والبحرية قواد مهرة مثل الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن ، وأمير البحر عبد الرحمن بن رماحس ، وصاحب الخيل زياد بن أفلح ، وصاحب الشرطة العليا هشام بن محمد بن عثمان وغيرهم (٣) .

-
- (١) ابن حيان : نفس المرجع السابق ص ٢٧ ، ص ٥٢٤ - ٢٥٥
 (٢) ابن عذارى : البيان المغرب ٢ ص ٣٥٦ . وقد أطلق الأندلسيون اسم القراقر على مراكب المجوس وقالوا إنها مراكب عظام تجرى إلى أمامها وإلى خلفها بقلوع مربعة . أنظر :

(Dozy ; Recherches II P. XCI).

- (٣) راجع ابن حيان : المرجع السابق ص ٢٢ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٨ ، ٩٧ :

(٩٢ - ٩٧ ، ٧٨)

ولقد حصر المؤرخون الأندلسيون الغارات النورماندية على عهد الحكم المستنصر في التواريخ الثلاثة الآتية . - ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) ^(١) ، ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) ^(٢) ، ٣٦١ هـ (٩٧١ م) ^(٣) . وإذا استثنينا رواية ابن الخطيب التي تشير إلى غارة فاشلة قام بها النورمانديون على حصن القبطنة . Cabo pe Gata من حصون المرية في شرق الأندلس ^(٤) ، فإن جميع الروايات تتفق على أن هذه الغارات السالفة كانت على غرب الأندلس وفي مياه المحيط الأطلسي .

ولقد هاجم النورمانديون في غارتهم الأولى (٣٥٥ هـ) منطقة قصر أبي دانس Alcacer do sal في جنوب البرتغال ، وكذلك سهول لشبونة التي دارت فيها معركة عنيفة استشهد فيها عدد كبير من الجانبين ، ثم تمكن الاسطول الأندلسي المارابط في أشبيلية من اللحاق بالاسطول النورماندي عند مصب وادي شلب ، وتحطيم معظمه واسترداد ما كان فيه من أسرى المسلمين ^(٥) .

- (١) ابن عذاري : نفس المرجع - ٢ ص ٣٥٦ ويحدده ابن خلدون بالسنة التي قبلها (٣٥٤) راجع (المقرئ : نفح الطيب - ١ ص ٣٦٠) .
- (٢) ابن عذاري : نفس المرجع - ٢ ص ٣٦٠ ، ابن حيان : المقتبس . ص ٢٧ ، ٥٨ .
- (٣) ابن حيان : نفس المرجع ص ٦٧ ، ٧٨ .
- (٤) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٤١ - ٤٢ (القسم الثاني) .
- (٥) ابن عذاري : نفس المرجع - ٢ ص ٣٥٦ .

وكان الاسطول النورماندى فى هذه الفارة مكونا من ثمانىة وعشرين سفينة ، تحتوى كل منها على ثمانين محاربا ، أى أن مجموع هؤلاء الدنمركيين كان نحو ٢٢٤٠ رجلا ، قتل معظمهم وانهمز الباقون لا يلوون على شيء (١) .

أما الغارات النورماندية التى تلت ذلك فى سنة ٣٦٠ هـ ، ٣٦١ هـ ، فيبدو أنها لم تستطع النزول الى الشواطىء الأندلسية بفضل نقطة الاسطول الأندلسى الذى استطاع أن يبدد شملها دون عناء كبير .

ولا شك أن هذه الانتصارات كان لها صدى كبير فى الحياة الاجتماعية والفكرية بالأندلس ، وقد تقى بها الشعراء وأشادوا بفضل الحكيم المستنصر وقواده فى هذا النصر . ومثال ذلك قول الشاعر المعاصر محمد بن شخير فى مدح الخليفة وقواده غالب بن عبد الرحمن :

بضعك يبسل غالب لا يأسه فأنه ولى الشكر فى كل ما أبلى
رميت به جيش الجيوس عناية بتحسينك القوى وتأمينك السبل
ولما أحاطت بالمهيض جنوده فلم تبق من شطيه علوا ولا سفلا
مرت تحبط الظلمات والموج مثلاً سرى الظعن فى الدهناء يعكسف الرمال
أساطيل من الموت أو فى طباعه لا يقاصها بطشا وإتباعها رسلا
إذا أئختف فى إثر راكمها أنبرى يجنها وعرا ويركبها سهلا (٢)

وتوفى الحكيم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) وخلفه ولده أبو الوليد

(١) أنظر (R. Dozy : Recherches 11 P. 288)

(٢) ابن حيان : المرجع السابق ص ٦١

هشام الثاني الملقب بالمؤيد بالله ، وكان طفلا لا يتجاوز الثانية عند ما
 عمره ، وقد ساعد ذلك على ظهور شخصية موهوبة لم تلبث أن
 على الخليفة الجديد ، وأستبدت بجميع شؤون الدولة . وهي
 الحاجب محمد بن عبد الله بن أبي عامر الملقب بالمنصور (١) . ورأى هذا
 السياسي الداهية أن يدعم نفوذه بعمل يكسبه شرعية وشعبية بين الناس
 وهو الجهاد في سبيل الله . وفي سبيل هذا الهدف اهتم المنصور بتقوية
 أسطوله حتى صار موضع مديح معاصريه . وفي ذلك يقول المقرئ :
 « وعند أطنب الناس في وصف السفن وأطابوا ، وقرطسوا القربص
 وأصابوا (٢) » ، ومثال ذلك الشاعر ابن دراج القسطل في قصيدته التي
 يقول في مطلعها :

تحول منه البحر بحرا من القنا يروع بها أمواجه ويبرول
 اذا سابت شأو الرياح تخيلت خيولا مدى فرسانين خيول (٣)

واقصد استعان المنصور بهذا الاسطول في نقل قواته ومعداتة إلى المدينة
 المغربية للاحتفاظ بسلطان الامويين هناك ، والقضاء على كل من فكر في

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ٢٣ ص ٤١٧ .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ٣٥ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ . والواقع ان ما ورد في
 الادب الاندلسي من شعر في وصف الاسطول بمدنا بمادة خصبة تصلح لآ . تكون
 موصفا دائما بذاته ، اذ أنه فضلا عن قيمتها الاقضية ، فانها تتضمن اصطلاحات
 فنية وتسميات لغوية لها قيمتها في المجال البحري . راجع على سبيل المثال (المقرئ) :

نفح الطيب ٣٥ ص ١٩٨ - ٢٠١ ، ٢٢٧ .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ٣٥ ص ٢٢٧ .

معارضته أو عصيانه في تلك المنطقة ، فقتل الشريف الحسن الأديبي الحسن بن بنون حينما عاود الخروج عن الدعوة الروائية ٣٧٥ هـ كما قضى على حركة الزعيم المغربي زيري بن عطية المنصوري ، حينما حاول الاستقلال بالمغرب عن سيطرة قرطبة سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) . ونجح المنصور في ذلك نجاحا لم يباين أحد من قبل ولا من بعد . إذ وصل الدماء لحليفة قرطبة في المغرب حتى مدينة سجلماسة (تافيلالت) جنوبا ، رالى تلمسان وتاهرت شرقا (١) . ولما كانت مدينة سبتة Ceuta هي القاعدة البحرية الرئيسية للعمليات الحربية الأندلسية في المغرب ، فقد اهتم المنصور بتحصينها وتزويدها بالرجال والسلاح ، حتى قبضل أن الأمير بلقين بن زيري الصنهاجي صاحب إفريقية حينما حاول الاقتراب منها بجيشه سنة ٣٦٩ هـ (٩٧٩ م) ، هالته قوتها ومناقصها ، وقال لأصحابه : إنما سبتة سبتة ولت ذنبا حذانا ، وفقدت فاهها نحتونا ، وانصرف راجعا الى بلده .

كذلك استعان المنصور بالأسطول ، في الحملات التي شنّها على سواحل قطلونيا في شمال شرق أسبانيا سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٥ م) ، وفي تقبيل المغارة من جنوده في المحيط الأطللي في حملته على جليقية أو غليسية Galiota غربا سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ، وهي الحملة التي دمرت مدينة شنت ياقوب Santiago de Compostella (٢) . القاعدة الدينية

(١) مفاخر البربر مؤلف مجهول ص ٢٤ ، نشر ليفي بروفنسال .
(٢) نسبة الى القديس يعقوب أحد الحواريين الاثني عشر ، الذي يوجد فيه هناك . وقد سبى من المنصور على هذه المساس به أثناء حركة التخریب الى المدينة .

لأسبالية المسيحية . وقد تشرح ابن عذارى الدور الذى قام به الأسطول
فى تلك الجملة بقوله :

وقد كان المنصور تقدم فى انشاء اسطول كبير فى الموضع المعروف
بقصر أبى دانس Alcacer do Sal من ساحل غرب الأندلس ، وجهزه
برجاله البحرين وصفوف المترجلين ، وحمل الأقوات والأطعمة والعديد
والأسلحة استظهارا على نفوذ العزيمة إلى أن خرج بموضع يرتقال على نهر
دويره Duero . فدخل فى النهر إلى المكان الذى عمل المنصور على العبور
منه ، ففقد من هذا الأسطول جسرا بقرب الحصن الذى هناك ، ووزع
المنصور ما كان فيه من الميرة على الجنند فتوسعوا فى التزود منه إلى أرض
العدر ، ثم نهض يريد مدينة شنت ياقوب قاصية غليسيه ، (١) .

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن المنصور وإن كان قد عمل على تقوية
الأسطول الأندلسى ، إلا أنه فى الوقت نفسه قضى على بعض كبار رجال
البحر من قاداته مدفوعا فى ذلك بعوامل الاستبداد والغيرة التى اتصف
بها ، ومثال ذلك عبد الرحمن بن رماحس الذى كان قائدا عاما للأسطول
وواليا على أهم قواعده وهى المرية وبجانة ، فقد دس له المنصور سببا
زعافا قضى عليه سنة (٣٦٩) (٩٨٠ م) (٢) . وفى السنة التالية حارب المنصور
صهره قائد البحر وأمير الثغور غالب بن عبد الرحمن الذى سقط ميتا خلال

(١) ابن عذارى : البيان للغرب ص ٢٠ - ٤٤٠ ، انظر كذلك

(Lévi - Provençal : Op. cit. II, p.469)

(٢) انظر (Lévi .Provençal .Op. cit . II p. 262)

المركة سنة ٢٧١ هـ (٩٨١ م) ^(١) . وبذلك تخلص المنصور من شخصيتين كبيرتين كان لهما فضل كبير على البحرية الأندلسية في العصر الأموي ، غير أن زوال تلك الشخصيات لم يحل دون وجود شخصيات أخرى حلت محلها في قيادة الأسطول الأندلسي . وقد أورد العذري أسماء من تولوا إمارة البحر وولاية المرية وحماة حتى سنة ٤٠٠ هـ مثل القاسم ابن عبد الرحمن (٢٨٦ هـ) ، وابن حدير ، وابن فرجون المعروف بالربولو ، ومحمد بن حمدين (٣٩٣ هـ) ، وابن صاعد ، وعبد الرحمن بن رويش ، وأفلح العبد (٤٠٠ هـ) ^(٢) .

ومها تكن من شـ : فإن البحرية الأموية قد أخذت نجمها بأقل عقب وفاة المنصور بن أبي عامر في ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ هـ (١١ أغسطس ١٠٠٢ م) وابنه عبد الملك المظفر من بعده سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م) ، إذ دخلت الأندلس بعد ذلك في مرحلة سياسية مضطربة ترتب عليه زوال وحدتها السياسية والحربية معا .

حركة الرباط الساحلي في المغرب والأندلس في ذلك العهد .

الى جانب الأساطيل والقواعد البحرية ، وجدت أيضا الرباطات أو المحارس ^(٣) الساحلية على طول سواحل المغرب والأندلس ، نتيجة لتعرضها

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٢٨

(٢) العذري : ترصيع الاخبار ص ٨٢

(٣) راجع شرح كلمة محرس في (Dozy: Supplement aux Dic. Arabes

I p. 270)

للغارات البحرية المفاجئة من جانب المسيحيين أو النورمانديين . ولقد اعتبر عمل المرابطين على السواحل رباطا وجهادا في آن واحد ، ويروى في هذا الصدد أن عقبة بن نافع حينما أنشأ مدينة القيروان قال له أصحابه :
 « نريد أن نقرّبها من البحر ليجتمع أهلها للجهاد والرباط . » (١) ،

ونشأت حركة الرباط في المغرب أول الامر عند ساحل افريقية (تونس) لقرّبا من خطر الغارات المفاجئة من القسطنطينية أو صقلية وجنوب ايطاليا . ويعتبر رباط المستير من أقدم رباطات افريقية بناه الامير العباسي هرثمة بن أعين سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) . وله في يوم عاشوراء موسم عظيم ، وكان عبارة عن حصن كبير كثير المساكن والمساجد والقصاب العالية طبقات بعضها فوق بعض ، وله ميناء تشحن فيه السفن بالملح المستخرج من هذه المنطقة ، كما كان يوجد بالقرب منه محارس خمسة متقنة البناء معدورة بالصالحين (٢) .

واقد توسع الاغلبة في بناء الربط الساحلية التي كانت تسمى أيضا بالقصور والمحارس وفي ذلك يقول اليعقوبي (ق ٣٠) : « ومن اسفاس الى موضع يقال له بنزت مسيرة ثمانية أيام ، وفي جميع المراحل حصون متقاربة ينزلها العباد والمرابطون . » (٣) . كذلك يروى ابن خلدون أن الامير احمد الاغربي (٢٤٢ - ٢٤٩ هـ) بنى عشرة آلاف قلعة من الحجر الصخر وبابواب من حديد . وهذا الرقم وان كان يبدو مبالغيا فيه ، الا

(١) محمد فتحي : الحدود الاسلامية البيزنطية ص ٣٠٣ ص ٣٣٦ .

(٢) البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٣٦ ، ٨٤

(٣) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٣٥٠ نشر وستفلة

أنه من المعروف أن المسلمين قد استفادوا من الحصون والأبراج البيزنطية القديمة التي كانت منتشرة في هذه المنطقة واستخدموها في أغراضهم الدفاعية مثل حصون طنبه Tubnae ، وبغاية Bagai ، وبلزما Belezma وجلولاء وغيرها (١) . هذا الى جانب مجموعة الرباطات أو المحاريس التي كانت حول المدن الساحلية الهامة مثل طرابلس وصفافس ، وسوسة وبنزرت ، والتي مازالت باقية الى اليوم .

ومن حصون ومحارس صفافس الساحلية نذكر محرس بطوية ومحرس الريحانة (٢) وكذلك حصن بنقة الذي مازال باقيا إلى الآن بالقرب من بلدة المحرس وهو حصن بيزنطي قديم كان يعرف باسم ينجه Younga ولعله هو قصر الروم الذي تحدث عنه البكري . ويوجد بالقرب من هذا الحصن قبر أبي خارجه عنبسة بن خارجة الفافقي ويسميه أهالي تلك الناحية سيدي عنبسة وكان هذا الرجل من الأخيار الصالحين الذين درسوا على الامام مالك بن أنس بالمدينة ثم أقام في هذا الحصن مرابطا مجاهدا إلى أن مات سنة ٢١٠ هـ (٨٢٥ م) (٣) .

ويعتبر كتاب رياض النفوس للمالكي من أهم الكتب التي تفيدنا في موضوع رباطات افريقية ، إذ أنه على حد قول ناشره الدكتور حسين

(١) راجع

(Georges Marçais : L' Architecture Musulmane D'occident p. 29 - 30 , papis 1954) .

(٢) البكري : نفس المرجع ص ١٩ - ٢٠ .

(٣) المالكي : رياض النفوس ص ١٦٣ - ١٦٨ نشر حسين دؤنس .

• تونس ، يلقي ضوءا كشافا على نشوء الرباط وتطوره خلال القرون الثاني والثالث والرابع الهجري^(١).

ومن تونس انتشرت الرباطات على الساحل المغربى كله ، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ، رباط فمكور الذى يرجع مكانه اليوم مدينة سان خورخو الاسبانية Villa Sanjurjo . ويرى البكرى أن الأسير العربى سعيد بن صالح بنى فى هذا الرباط مسجدا سنة ٢٩٣ هـ على صفة مسجد الاسكندرية بمسارسه وجميع منامه^(٢) . وعلى الرغم من أن البكرى لم يحدد للألف اسم هذا المسجد أو مكانه بالاسكندرية إلا أنه يبدو أن المقصود به هو أحد تلك المساجد الساحلية التى أشار إليها المؤرخون مثل مسجد الأخضر أو الخضر الذى كان على ساحل البحر فى الميناء الغربى^(٣) ، ومثل مسجد المنارة الذى كان يربط فيه منطوة المهريين وغيرهم^(٤) .

كذلك كانت توجد بين مدينتى سبتة وطنجة بعض المحارس والمنارات مثل جبل المنارة ومرسى اليم الذى كان فيه سكنى ورباط^(٥) . ومن المعروف أيضا أن كلا من مدينتى سلا والرباط (عاصمة المملكة المغربية)

(١) راجع (المالكى : رياض النفوس ص ٢٦ - ٢٧)

(٢) البكرى : نفس المرجع ص ٩١

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ٣٩ حاشية ١

(٤) جمال الشيبال : تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامى ص ٣٣ ، محمد عبد الهادى شعيرة الاسكندرية من العصر العربى الى نهاية العصر الفاطمى ص ٨٦ (فى كتاب الفرقة التجارية عن الاسكندرية سنة ١٩٤٩) .

(٥) البكرى : نفس المرجع ص ١٠٥

كانت في الأصل رباطا على دولة برغواطية في تامسنا (الغصارية الحالية^(١))
 وفي ذلك يقول الرسالة ابن حوقل البغدادي (ت ٣٦٧ هـ) : ومن
 وراء وادي سبو^(٢) إلى ناحية بسلد برغواطية^(٣) على نحو بريد^(٤) ،
 وادي سلا ، وإليه تنتهي سكنى المسلمين ، وهي رباط رباط فيه المسلمون و
 وعاليه المدينة الأزلية المعروفة بسللا القديمة^(٥) قد خربت ، والناس
 يسكنون ويرابطون برباط يحف بها ، وربما اجتمع في هذا المكان من
 المرابطين مائة ألف لإنسان ، يزيدون وينقصون ، ورباطهم على برغواطية ،
 وهي قبيلة من قبائل البربر على البحر المحيط متصاين بهذه الجهة التي شفت
 عمارة بلد الإسلام إليها^(٦) .

(١) المنطقة الممتدة على ساحل المحيط الأطلسي من مدينة الدار البيضاء حتى
 مصب نهر أم الربيع .

(٢) Sbou من أعظم أنهار المغرب الأقصى (٦٠٠ كم) ينبع من
 جبال أطلس المتوسط ويروي نواحي فاس ومكناس ومنطقة الغرب ، ويصب في
 المحيط الأطلسي عند مدينة المهدية الحالية .

(٣) عن دولة برغواطية راجع مقالنا (الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين
 مجلة كلية الآداب الاسكندرية سنة ١٩٦٦ ، المجلد العثرون) .

(٤) قدر الفقهاء وعلماء المسالك المرحلة التي يقطعها عامل البريد بأربعة
 فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، أي أن البريد هو مسافة اثني عشر ميلا .

(٥) هي المعروفة باسم شاله Chella ولا زالت أثارها باقية إلى اليوم في
 ضواحي مدينة الرباط .

(٦) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٢٥ ، نشر نخوييه (ليدن ١٨٧٢ :

ويفهم من كتاب الاتحاف الوجيز^(١)، وكتاب آسفى وما إليه^(٢)، أن حدود هذه الدولة المارقة برغواطة لم تلبث أن امتدت جنوبا على ساحل المحيط الاطلسى حتى شملت تامسنا ودكالة وعبده وغيرها من الاراضى الحوزية جنوب آسفى ونواحي مراكش، وأنها كانت تمتلك أسطولا بحريا قاعدته الرئيسية مدينة فضالة بجوار الدار البيضاء^(٣). لهذا كان من الطبيعى أن يعمل المسلمون على إحاطة هذه الدولة البرغواطية بالرباطات من جميع نواحيها. فربطوا عند سواحلها الشمالية فى سلا والرباط، كما رابطوا بجنوبها فى رباطى ماسة وفوز عند البحر المحيط أيضا^(٤). هذا بالإضافة إلى رباط شاكرا الذى كان يقع فى جنوبها أيضا بالقرب من مدينة مراكش، ولا يزال الاهالى هناك يسمونه بسيدى شيكر ويعتقدون أنه من أصحاب عقبه بن نافع وأنه مات هناك، وأن موسى بن مصلين الزجاجى هو الذى بناء ليكون رباطا على كفار برغواطة^(٥). وعلى

-
- (١) محمد بن على الدكالى السلاوى : الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا صبد العزيز (مخطوط بمكتبة الرباط رقم ١٣٢٠ ٥)
 (٢) محمد العبدى الكانونى : آسفى وما إليه ص ٧٨ - ٧٩ .
 (٣) البكرى ص ٧٨ .
 (٤) البكرى ص ٨٦ ، ١٦١ .
 (٥) ابو يعقوب التادلى المعروف باين الزيات : التشوف إلى رجال التصوف ص ٢٦ (نشر أدولف فور) .

- ٢٩٦ خت

الرغم من أن هذه الدولة المارقة قد زالت بمد ذلك يد المرابطين
والموحدين ، إلا أن أسما تلك الرباطات التي جاهدتها قد بقيت علما
لتلك الأماكن إلى اليوم .

ولقد انتقل هذا النظام الحربى الدينى إلى الأندلس ، فقامت الربط
على سواحلها كلها وخاصة بعد غارات النورماندين فى عهد عبد الرحمن
الأوسط . وكان أهل الأندلس مثل أهل المغرب شديدي التحمس للرباط
والجهاد ضد أعداء الاسلام ، فكان الكثيرون منهم يرحلون إلى المغرب
للرباط على سواحلها . كما كان الكثيرون من المغاربة يذهبون إلى الأندلس
لقيام بنفس هذا العمل أيضا .

ومن أهم الربط الساحلية الأندلسية نذكر رباط ألمرية الذى هو نواة
مدينة ألمرية ، وكان الناس يربطون فيه على حاشية البحر المتوسط لحماية
مدينة بجاية من غارات النورماندين . فيقول الخيرى : وكان المجوس لما
قدموا ألمرية ، وتطوفوا بساحل الأندلس ، فاتخذوها العرب مرأى ،
وابلنت بها محارس وكان الناس يربطون فيها^(١) . وقد سمي هذا المكان
فى بادىء الأمر باسم مربة بجاية ثم صار يسمى بالمربة . ويرى دوزى
أن هذه التسمية مشتقة من فعل رأى ، فيقال للشئ هو مرء وهى مرئية
أو مربة كناية عن ظهور أبراجها ومناورها التي تراها السفن
من بعيد .

وقد ظلت المربة مجرد رباط أو ميناء لمدينة بجاية حتى عهد الخليفة
عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) الذى اهتم بموقعها وجعلها قاعدة

(١) الخيرى : الروض المعطار ص ١٨٣ .

لأسطول له وبني حركها سررا منيها من الصخر ، كما أنشأ بها دار ضنعة كبيرة قسمت الى قسمين أحدهما للراكب الحربية والمعدد والآلات ، والثاني للراكب التجارية وما يتبعها من مخازن وفنادق . ومنذ ذلك الوقت أخذت ألمرية تعمم وتكبر على حساب جارتها بجانه ، فانقلب الوضع وصارت ألمرية من أشهر المراسى وقاعدة القيادة العليا للأسطول بينما خربت بجانه وتحولت الى قرية صغيرة بجوارها كما هو حالها اليوم^(١).

وفي شرق المرية وجد رباط ساحلى آخر عرف برابطة القابطة أو القبطة ، ولعلها قابطة بنى الأسود التى أشار اليها البكرى كموضع بهـوار مرية بجانه^(٢) . ويرى بروفنسال أنها تقابل اليوم المكان المعروف باسم Cabo de Gata^(٣) . وقد سبقت الإشارة إلى الزيارة التى قام بها الخليفة الحكم المستنصر لهذه الرابطة فى أول خلافته واهتمامه بأحوالها وأحوال المرباطين فيها . كذلك يشير ابن الأبار إلى رباطات أخرى نشأت بجوار المرية ودفن فيها عدد من الفقهاء والإمام المجاهدين مثل

(١) الحيرى : الروض المطار ص ٢٧ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، العذرى : نفس

المرجع ص ٨٦ - ٨٧ .

(٢) البكرى : نفس المرجع ص ٨٩ .

(٣) راجع / Lévi - Provençal : Op. cil 11, p. 170

رباط عمروس ورباط الحشني^(١) وغيرها . وكل هذا يدل على أن المرية كانت مثل المدن المغربية الهامة ، محاطة بسلسلة من الرباطات الساحلية لحمايتها من أى عدوان باعتبارها قاعدة الأسطول الأندلسي .

وما يقال عن المرية يقال أيضا عن بقية المدن الساحلية الأندلسية الأخرى ، ومثال ذلك مدينة دانية Denia التي كان يشرف عليها جبل مرتفع سماه الأندلسيون بجبل قاعون ، ويسمى اليوم مونجو Mongo وهذا الجبل كانت له فائدة كبيرة وهي كشفه للعدو القادم من البحر من بعيد ، واختباء المسلمين فيه عند الضرورة . وقد بنى عليه بعض تلاميذ الشاعر الصوفي الزاهد أبي عبد الله محمد بن زمنين (ت ٥٣٩٨) رباطا لازالت آثاره تطل على البحر هناك ويعرف باسم الألبروي Alambroy^(٢) . كمدتك تذكر الرباط الذي كان يديره حسن بن عبد الله بن عباس على

(١) راجع ذيول كتاب التكملة لابن الأبار التي نشرها جوثالك بالثيا ص ٤٣٢
ومحمد بن شنب ص ١٠٤ وكذلك

Jaime Oliver Asin ; Origen Arabe de Rabato. p. 27

(٢) راجع المقرئ : نفع الطيب ص ٩٥ وكذلك

Julian Ribera : Un Monasterio musulmane en Denia,
Disertaciones y Opusculos, tomo II, p. 202 — 204 & Torres
Balbas ; Râbitas Hispanomusulmanas p. 487, Al Andalus,
Vol. XII, 1948, Fasc. 2

جبل قاره ^(١) (بتشديد الراء وضمها) أو جبل فاروق ^(٢) على ساحل مدينة ماله . وقد اهتم المسلمون بهذا الموقع الهام ، وبنوا عليه حصونا حتى آخر عهدهم بالأندلس ، ولا يزال يعرف هذا المكان إلى اليوم باسم جبل قارو Gibralfaro ^(٣) .

كذلك انتشرت الرباطات على الساحل الغربي الأندلسي المطل على المحيط الأطلسى ونذكر على سبيل المثال رباط روطه ^(٤) الذى ما زال حصنه قائما باسم Castillo de Rota عند مدخل ميناء قادس وكان هذا الرباط مقصدا للصلحاء والمتصوفة وقد زاره الصوفى المعروف هي الدين ابن عربى سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٧ م) ^(٥) . كذلك يشير ابن بشكوال إلى مجموعة من الربط الساحلية الغربية التى رباط فيها بعض فقهاء القرنين الرابع والخامس الهجرى ومثال ذلك قوله : « ورباط ابن محمد الشننجيالى (ت ٤٣٦ هـ) بيطليوس Badajoz ، ومونيق Monchique ، وشلب

(١) المقرئ: نفح الطيب ص ٩٠ ص ١٠٩-١١٠ هـ ابن عبد الملك المراكشى: الذيل والتكلمة ، السفر الرابع ص ٢٠٩ لشمس إحصان عباس .

(٢) رباطة جبل فاروق من ماله ، كذا أورد هذا الاسم أسين بلايوس نقلا عن تكملة ابن الأبار (Asin Palacios : Toponimia arabe de Espana p.107-108)

(٣) أنظر : Oliver Asin Op. cit p. 25 : Asin palacios ;

Op. cit p. 107

(٤) راجع وصف حصن روطه ، (الخيري : الروض المعطار ص ١٠٢)

(٥) محي الدين بن عسري : الفتوحات المسكية ص ١٠ ص ٢٤٢ ، وكذلك

Asin Palacios: El islam Cristianizado P.72 (Madrid 1931) Torres Balbas; Op. cit. p. 485.

Silves ، ورباط الريحانة من عمل شلب ، وروى عنه بذلك الجبسات
وكان له فرس سمي مرزوق (١) . وفي هذه المنطقة أيضا وجد رباط
الثوبة على ساحل المحيط قبالة مدينة أرنه Huelva ، وقد تحول هذا
الرباط فيما بعد إلى دير للفرنسيين ، وما زال يعرف إلى الآن باسم
الرابطة La Rabida . والمجدير بالذكر أن في هذا الحصن نظام الرحالة
المشهور كريستوفر كولمبس قبل قيامه برحلته التي اكتشف فيها أمريكا
سنة ١٤٩٢ م (١) .

هذه أمثلة لبعض الرباط الساحلية في المغرب والأندلس حتى القرن
الخامس الهجري ، ولا شك أنها كانت تشكل جزءاً أساسياً في البحرية
الإسلامية ، وإذا نحن تصفنا المعاجم الجغرافية الإسبانية ، نجد أنها
مليئة بالأماكن التي من أسماها رابطة ورباط ولا سيما في الأماكن
البحرية أو الثغور الجبلية التي كانت تفصل بين المسلمين والمسيحيين
وكذلك في جزر البحر المتوسط مثل الجزر الشرقية وغيرها مما يدل على
وجود رباطات إسلامية فيها . أما عن حراسة المراتب في هذه
القصور الساحلية ، فكانت تقوم على الحراسة والزعد والتجسس وذكر الله
بصوت مرتفع ، وفي ذلك يقول الصوفي الغرناطي ابن أبي زمنين :
« رأيت أهل العلم يستحبون التكبير في المساكن والثغور والمرايطحات ، شير
صلاة العشاء وصلاة الصبح تكبيراً عالياً ثلاث تكبيرات ، ولم يزل ذلك

(١) ابن شكرال : كتاب الصلة ص ١٦٧ (ترجمة رقم ٥٩٣)

(٢) الحيري . الروض المطار ص ٦٤ ، والترجمة الفرنسية ص ٨١ .

من شأن الناس قديماً . (١) وكانت الحراسه تعتبر صفة أساسية من صفات المراقبة . وعرف الحراس الليليون باسم المبار (٢) ، وقد جرت العادة أن تكون الحراسه في مراقب عالية ملحقة بالرباط ، أو في أماكن مرتفعة قريبة منه لكشف سفن العدو من مسافة بعيدة . وكانت هذه المراقب أو الربط مزودة بالمنار أو المنائر أو المنارات التي عرفت أيضاً باسم الطلائع أو الطوالع جمع طالع أو طليعة Atalaya (٣) ، فكان على أولئك السمار أو المراقبين إذا ما كشفوا عدواً في البحر مقبلاً من بعيد ، أشعلوا النار على قم المنار أو الطلائع إن كان الوقت ليلاً ، أو أثاروا فيها الدخان إن كان الوقت نهاراً . هذا إذا جانب استخدام العابل والنفير لتحذير أهالي المدن المجاورة من غارة العدو ؛ وكثيراً ما استعمل المراقبون إشارات نارية أو دخانية بطرق أو حركات معينة للإخبار عن حالة العدو أو عدده أو جفسيته أو غير ذلك ، وإن كانت المراجع للأسف لم تشرح لنا طريقة إرسال هذه الإشارات . وبهذه الطريقة التي تشبه صفارات الإنذار في وقتنا الحاضر ، كان من

(١) ابن أبي زمنين : كتاب قدوة الغازي ورقة ٢٩ (مخطوطة رسم ٥٧٥ بالمكتبة الوطنية بمديرية) وكذلك (Oliver Asin ; Op. cit. P 28)
 (٢) ابن عذاري : البيان المغرب - ٤ ص ٤٢١ ، القلشندى : صبح لاعنى - ٥ ص ٢١٧ .

(٣) راجع شرح هذه الكلمة في

(Eguilaz . Glosario etimologico de las palabras espanolas & Dozy : Supplem. aux Dic. Arabes II p 55)

الممكن لإرسال تحذير أو إنذار عبر المغرب كله من الاسكندرية إلى
سبته في ليلة واحدة .

ولعل الوصف الذي أورده كل من المقدسى (ق ، ٤٤) والعمرى
(ق ٨٨) عن دور المناور في مقاومة الصليبيين والمغول في الشرق العربى ،
يعطينا فكرة واضحة عما كان متبعاً في مثل هذا الشأن في الغرب الاسلامى
فيقول المقدسى :

« وكفر سلام من قرى قيسارية كبيرة آهلة بها جامع على الجادة ، وهذه
القصبة رباطات على البحر ، يقع بها النفير ، وتقلع إليها شلنديات الروم
وشوانيمهم معهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار ، وفي كل رباط قوم
يعرفون لسانهم ، ويذهبون إليهم فى الرسائل ، ويحمل إليهم أصناف الأطعمة .
وقد ضج بالنفير لما تراءت مراكبهم ، فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط ،
وإن كان نهاراً دخوا ، ومن كل رباط إلى القصبة عدة منائر شاهقة قد رتب
فيها أقوام ، فتوقد المنارة التى للرباط ثم التى تليها ثم الأخرى ، فلا
يكون ساعة إلا وقد أنقر من بالقصبة وضرب الطبل هل المنارة ،
ونودى إلى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلح والقوة^(١) . وفى هذا المعنى
يقول العمرى :

« والمناور هى راضع رفع النار فى الليل ، والدخان فى النهار . وذلك

(١) المقدسى : كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٧٧ نشر
دى خويه (ليدن ١٩٠٦)

أن مملكة إيران لما كانت بيد هولاء من التتار ، وكانت الحروب بينهم وبين هذه المملكة أن جعلوا أماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلاً ، ويثار الدخان نهاراً ، للاعلام بحركة التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو لإغاره . وهذه المنارات تارة تكون على رؤوس الجبال ، وتارة تكون على أبنية عالية . ومواضعها معروفة ومن أنصى ثغور الاسلام كالبيرة والرحبة ، وإلى حضرة السلطان بقلعه الجبل حتى أن المتجدد بالفرات ان كان على بكرة علم به عشاء ، وان كان عشاء علم به بكرة . ولما يرفع من هذه النار أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها على اختلاف حالات رؤية العدو والخبر به باختلاف حالاتها ، تارة في العدد وتارة في غير ذلك . وقد اُرصِد في كل منور الديادب والنظارة لرؤية ما ورامهم وايراء ما أمامهم ، (١)

ولقد اقتبس الاسبان عن جيرانهم المسلمين نظم المراقبة منذ وقت مبكر ، فدخل لفظ رباط العربي في اللغة الاسبانية ومنه اشتقت كلمة rebato أى الرباط ، arrebatar أى يربط ويقاقل ، Tocar el rebato وتعنى الانذار بغارة معادية ، كذلك استخدموا نفس الوسائل والادوات بأسمائها العربية مثل الطلائع Atalaya ، والمنارة Almenara ، والنفير Analil ، الا أنهم زادوا عليها استعمال النواقيس التى تقابل الطبول عند المسلمين ولم يقتصرُوا في ذلك على أجراس الكنائس بل وضعوها في كل حصن من حصونهم الساحلية ناقوساً خاصاً أسموه ناقوس الرباط أى

(١) شهاب الدين العمري . التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٩٩ : القلقشندي .

ناقوس الخطر Compana del rebato . كذلك وضعوا أسيارهم أو
سراهم تعليمات خاصة تأمرهم بعدم اقتناء الكتب أو القيثارة Guitarra
أو أدوات الصيد كي يفرغوا تماما للحراسة (١) .

ولا شك أن وجود مثل هذه الألفاظ العربية في اللغة الأسبانية يدل
تماما على شيوع مدلولها بين الأسبان ، وحسبنا أن نتصفح مدوناتهم
التاريخية وأشعارهم ومسرحياتهم كالتى كتبها لوبي دى فيجا Lope de Vega
وثرباتس Cervantes وبييرث دى هيتا Perez de Hita لنرى مدى
استعمالهم لهذه الألفاظ ومدى إدراكهم وتطبيقهم لمضمونها فى حياتهم
الحرية (٢)

البحرية فى عصر ملوك الطوائف بالاندلس

تعتبر الفترة التى بين نهاية القرن الرابع ونهاية القرن الخامس الهجرى،
فترة تفقر للقوى البحرية الإسلامية بوجه عام فى حوض البحر المتوسط:
ففى سنة ٤٣٥ هـ (٩٦١ م) استرد البيزنطيون بقيادة نفقور فوقاس
جزيرة كريت فى شرقى حوض البحر المتوسط ، التى كانت معقلا
أندلسيا أثار الذعر والاضطراب فى ممتلكات الدولة البيزنطية فى بحر ايجه
مدة قرن ونصف تقريبا . وفى سنة ٥٣٦ هـ (٩٧٥ م) استرد الفرنجة
الكارولنجيون بقيادة الكونت وليام Guillaume صاحب بروفانس ،
وأخيه روبرو Roubaud ، معقلا أندلسيا آخر فى غرب البحر المتوسط ، وهو

(١) أنظر (Oliver Asin : Op cit P. 46-47)

(٢) راجع (لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١٠٣ وكذلك

(Oliver Asin : Op. cit. p. 69)

حصن فراكنسيتم في سان تروبير الذي حصد سواحل فرنسا وإيطاليا وتحكم في ممرات جبال الألب أكثر من ثمانين سنة (١). وكذلك لم تلبث البحرية الأندلسية نفسها أن ضعفت هي الأخرى بعد وفاة المنصور بن أبي عامر وولده عبد الملك المظفر ، بسبب ضعف الخلافة الأموية ، ونشوب الفتن والحروب الداخلية التي أدت إلى سقوط الدولة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢هـ (١٠٣١ م) .

ولقد قامت على أنقاض الدولة الأموية المنهارة ، دويلات صغيرة مستقلة متنازعة ، يحكمها أمراء من العرب والبربر والمولدين والصقالبة ، عرفوا بأهل الفرق أو بملوك الطوائف . ولم يستطع هؤلاء الملوك المغامرون ، أن يوجدوا لأنفسهم قوة بحرية موحدة ، بل على العكس من ذلك ، أخذوا يتقاسمون أسطول الخلافة وقواعده ، مما أدى إلى زوال تلك الوحدة المتناصفة التي كان يمتاز بها الأسطول الأندلسي على عهد الأمويين . ومن ثم اقتضت العمليات البحرية على مناطق محلية محدودة وموزعة بين أصحاب بطليوس ، وأشبيلية غربا ، والمرية ودانية وبلنسية شرقا ، كل يعمل فيها لحسابه الخاص .

فبنو عباد ملوك أشبيلية ، كانوا يمتلكون أسطولا ودور صناعة للسفن في هذه المنطقة الغربية لدرجة أن عاهل المغرب يوسف بن تاشفين ، حينما أراد الاستيلاء على مدينتي سبتة وطنجة من أيدي البرغواطيين ، طلب من المعتمد بن عباد أن يمدّه بجزء من أسطوله ، وفي ذلك يقول صاحب الروض المعطار : ووجه ابن عباد من أشبيلية أسطولا نحو

صاحب سبته ، فانتظمت في حلك يوسف (١) ، وفي هذا المعنى يقول صاحب مفاخر البربر : « وكان من الاتفاق العجيب أن ألسا المعتمد بن عباد سفينة ضاهى بها مصانع الملوك الفاهرين ، بعد العهد بمثلها شدة أسر ، وسعة بطن وظهر ، كأنما بناها على الماء صرخا ممردا ، وأخذ بها على الريح ميثاقا مؤكداً ، ووجهها الى مدينة طنجة للثمار ، وقد أنجد أمر الله وغار . ولما رأى أمير المسلمين تلك السفينة ، خاطب المعتمد بن عباد في ذلك ، فصحنت على سبته موتا ذريعا ، وأقيمت بإزائها وسورها حصنا ضيحا (٢) » .

كما ذكره ابن الخطيب أن المعتمد بن عباد حينما استجند بالمرابطين ضد أطاع الملك الأسباني الفونسو السادس ، « جاز الى يوسف ابن تاشفين سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) بأسطول الاندلس جوازا فنيا ، واختار لمصاحبه في سفره الخواص والاعيان . واستخلف ولده الرشيد بأشبيلية ، وشيعة الناس إلى محل ركوبه البحر ، ومدحه الشعراء (٣) » ، ويضيف :

(١) الحميري : الروض المعطار ص ٨٧ ويلاحظ أن كلمة أسطول ربما تطلق على سفينة حربية واحدة .

(٢) مفاخر البربر ص ٥٦ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٤٦ (القسم الخاص بتاريخ الاندلس نشر برفقة سال) ومن الشعراء الذين مدحوه في هذه المناصبه نذكر عبد الجليل بن وهبون في قصيدته التي مطلعها :

عزم تجدد فيه النصر والظفر وفكرة نهدت من دونها الفكر

وبضيف صاحب روض القرطاس ان اجتماع العاملين قد تم بمكان يعرف ببليطة بجوار سبنة (١) . وتشاء الأقدار أن المرابطين بعد ذلك حينما استولوا على أشيلية وعزلوا المعتمد بن عباد عن ملكه سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) ، أحرقوا بعض وحدات الاسطول الاشيلي الراسية في الوادى الكبير ، كما حملوا المعتمد وأبنائه وبناته في بعض المراكب إلى منقاهم بمدينة أغمت جنوب المغرب . وكان منظراً مؤثراً عندما بدأت السفن سيرها وقد خرج جميع أهل أشيلية واصطفوا بصفى نهر الوادى الكبير يضجون بالبكاء والنحيب . وكان شاعر بنى عباد المعروف بابن الباناه قد خرج لتوديع هذه الأسرة التى طالما تفى بمجدها ، فلم يتمالك أن قاضت شهيدته بتلك القصيدة التى يقول فيها :

نسيك إلا غداة النهر كونهم فى المنشآت كأمرات بالحاد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أزياد
سارت سفائنهم والنوح يصحبها كأنها لابل يحدر بها الحماهى
كم سال فى الماء من دمع وكم حلت تلك القطائع من قطعات أكبادى (٢)

ومن ملوك الطوائف أيضا الذين كان لهم نشاط بحرى ، نذكر
الزعيم الصقلي خيران العامرى صاحب المرية الذى يرجع إليه الفضل فى
تعمير هذه المدينة وتحصين قصبتها حتى صارت فى أيامه من أجمل وأمنع

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ٢ ص ٥١ (طبعة الهاشمى الفلالى) .

(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ١٤٨ ، ابن خاقان : فلائد النقبان

ص ٢٣ ، عبد السلام الطرد : بنو عباد ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

تُصور الأندلس وما زالت أطلال هذه القصيدة باقية إلى اليوم تشهد بما كانت عليه من الروعة والخصانة . وقد قصد خيران العلماء والصعراء ونخص بالذكر منهم أبا عمرو بن دراج القسطلی الذي عدّه سنة ٤٠٧ هـ بقصيدة خصص جزءاً كبيراً منها في وصف محنته أثناء ركوب البحر إليه (١) وهذا يدل على أن الفتن والحروب الداخلية في ذلك الوقت قد جعلت المواصلات البرية الداخلية صعبة أو متعذرة مما اضطر المسافرين إلى ركوب البحر والتقل بين الموانئ الأندلسية كما فعل ابن دراج القسطلی (٢) وتوفي خيران في سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) وخلفه أخوه زهير العامري الذي أنشأ المسجد الجامع بالمريه ، وسار على سنة سلفه في حسن السيرة إلا أنه تورط في حروب مع جاره باديس صاحب غرناطة انتهت بهزيمة زهير ومصرعه سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) وتعرضت المريه بعد ذلك لفترة مضطربة قصيرة انتهت سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) حينما استقل بها معن بن صامح التجيبي الملقب بالمعتمصم . وقد وجه هذا الأمير العربي عناية خاصة نحو بحريته وأسطوله اذ يروى ابن خاقان في هذا

(١) مثل قوله :

لك الخير قد أوفى بعهديك خيران وبشراك قد آواك عز وسلطان
يقطن وموج البحر والهم والدجى تموج بنا فيها عيون وآذان
ألا هل إلى الدنيا معاد وهل لنا سوى البحر قبرا وسوى الماء أكفان ؟
راجع (ديوان ابن دراج القسطلی : نشر محمود مكي ص ٨٦ وما بعدها ،

المقري : نفح الطيب ٤ ص ٤٠٥

(٢) أنظر) Henri Pérés : la poésie Andalouse en arabe

Classique au XI siècle p. 214 - 215)

الصدد أن المعتصم لم يكن بينهم بشيء إلا بأساطيله وجواريه (أى سفنه السريعة) وفلسكه ، وأنه كان يعيش من النشاط البحرى لأسطوله سواء أكان نجاريا أم حربيا ^(١) . لهذا كان أسطول المعتصم موضع حديث الشعراء الذين عاينوه ، ومثال ذلك الشاعر أبو عبد الله بن الحداد الذى تضمن شعره اشارات الى آلات النفط الذى كان مزودا بها أسطول المعتصم مثل قوله :

هام صرف الردى بهام الأعدى ان سمعت نوحوم لها أجياد
وزرات بشرعها كسميون دأبها مثل خائفها سهاد
ذات هذب من المجاذيف حاك هذب باك لدمعه إسهاد
حم فوقها من البيض نار كل من أرسلت عليه رماد ^(٢)

هذا ويروى ابن الخطيب أنه لما توفي المعتصم ، أيقن ابنه معز الدولة بتغلب المرابطين على ملكه ، فركب بمن اختص به فى قطعة من أسطوله ، وحمل المال والمناخ فى ثنتين ، وأحرق باقى الأجفان خشية الانبعاث (بقشيد الثالث) ، فأمن عاديتهما ، ونزل بالجزائر على طائر اليمن ^(٣) .

(١) ابن حاقان : قلائد العقيان ص ٤٧ وكذلك

(Henri Péres : Op cit. p 215

(١) راجع (المقرئ : نفح الطيب ص ٥ ص ١٩٨) وحول ترجمة ابن الحداد

راجع (ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ق ١ ص ٢٠٩-٢٣٦ ،

المقرئ : نفس المرجع ص ٥ ص ١٩١) .

(٢) ابن الخطاب : أعمال الاعلام ص ١٩٢ .

على أن الأسطول البحري الذي أبدى نفوقا ونشاطا على سائر الأساطيل
الاندلسية في عصر ملوك الطوائف ، هو بلا جسدال أسطول صاحب
دانيه Denia^(١) أبي الجيش مجاهد العسائري العقلي ٤٠٠ هـ - ٤٣٦ هـ
(١٠١٠ - ١٠٤٥ م) . ولا شك أن الموقع الجغرافي الممتاز لمدينة
دانية على ساحل البحر المتوسط جنوبي بلنسية ، كان له أثر كبير في
اهتمام هذا الأمير بتقوية أسطوله وتشييد حصونه وقلاعته التي مازالت
أطلالها باقية الى اليوم . كذلك كانت دانيه مثل طرطوشه محاطة بغابات
كثيفة من شجر الصنوبر الذي تصنع منه السفن . فكان هذا الخشب يقطع
ويبقى في مياه الأنهار المجاورة مثل نهر شقر Jucar ، ويحمل الى دانيه
التي كانت تضم دار صناعة ضخمة (ترسانة) لصناعة السفن الكبيرة^(٢) .
ولهذا كانت دانيه مثل المرية قاعدة هامة للأسطول الاندلسي منذ أيام
الأمويين . ولقد استغل الأمير مجاهد هذا الموقع الاستراتيجي الهام في
أعماله التوسعية وغزوانه البحرية على سواحل فرنسا وإيطاليا وقطالونيا^(٣)
وبدأ مجاهد هذه الأعمال بضم الجزر الشرقية (البليار) الى أملاكه
في رمضان سنة ٤٠٥ هـ (ديسمبر ١٠١٤ م) . ومن قواعد هذه الجور ،

(١) دانيه مشتقة من ديانيوم أى مدينة ديانة آلهة الصيد عند الرومان القدماء

أنظر Ency. of Islam, art. Denia by Seybold

(٢) راجع (الحميري : الروض المظار ص ١٠٢ والترجمة ص ٩٥) .

وكذلك (Chabas Roque : Historia de la ciudad de Denia p. 151)
(Denia 1874) & (Torres Balbas : Atarazanas Hispanomusulmanas

Al Andalus Vol. XI, 1946, fasc. I p. 183 .

(٣) أرشيبالد لويس ص ٣١٣ - ٣١٤ .

أطلق أسطوله للغزو في غرب البحر المتوسط

ففى ربيع الأول سنة ٤٠٩ هـ (سبتمبر ١٠١٥م) ، أى بعد خمسة أشهر من إحتلاله لجزر البليار ، أبحر مجاهد فى أسطول كبير مكون من مائه وعشرين مركبا عليها ألف فارس ، متجها نحو جزيرة سردانية مصطحبا معه زوجته المسيحية جود ، وأبنة الأكبر عليا وبعض بنائه . واستطاع مجاهد أن يحتل جزءا كبيرا من هذه الجزيرة وان يهزم ويقتل قائدا من قوادها يدعى مالوتو ، وأن يفرض الجزية على بعض حكامها ، ويأسر عددا كبيرا من أهلها ، وفى ذلك يقول ابن حيان وكس فى زمانه السبى وبخست فيه الأثمان . وقد ساعدته الاموال التى غنمها فى اختطاط مدينة واسعة شرع فى بنائها هناك وانتقل إليها بأهله وولده^(١).

وواضح أن مجاهد أراد أن يجعل من سردانية رأس جسر يهاجم منه الأماكن التى تليها وهى السواحل الإيطالية الغربية . إذ أنه قام بعد ذلك بغزو مدينة لوى Luni الإيطالية ، واتخذها قاعدة حربية لمهاجمة ماحولها من المناطق الساحلية . وتقع هذه المدينة على ساحل البحر التيرانى بين بزا وجنوة على خليج سبيزيا Spezia فى إقليم أتوروريا Etruria . وقد

(١) راجع (ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢١٩ ، احمد مختار العبادى الصغالية فى أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية (مدريد ١٩٥٣) أنظر كذلك (Codera ; Mochehid Conquistador de Cerdana, Centenario della Nascita di Michele Amari, Volume II, p. 115-133, (Palermo 1910)

امتازت بمرکزها التجارى الهام فى هذه المنطقة .

ويرى المؤرخ الفرنسى لويس ماس لازى أن احتلال مجاهد لمدينة لوني كان يفرض عليه المرور فى مضيق بونيفاتشو Bonifacio الذى يفصل بين سردينيا وكورسيكا ، ولهذا رجح أن يكون مجاهد قد احتل أيضاً الساحل الجنوبى لجزيرة كورسيكا . كى يضمن سيطرته على هذا الممر البحرى الذى يفصل بينه وبين الشواطىء الإيطالية^(١) .

كذلك يشير المؤرخون إلى أن غزوات مجاهد لم تقتصر على ساحل إيطاليا الشمال الغربى ، بل شملت أيضاً ساحل أربونة Narbonne الفرنسى ، وساحل برشلونة الاسبانى وكل هذا يدل على أن مجهداً أراد أن يستعيد نفوذ الأندلسيين فى هذه المناطق الساحلية الإيطالية والفرنسية بعد أن انسحبوا منها منذ عهد قريب ، وفقدوا أهم معقل لهم هناك وهو حصن فراكبسيتم . غير أنه يتخذ على مجاهد فى هذا الصدد ، أنه لم يقدر ظروف الزمان والمكان عندما قام بهذه المغامرة الغير مأمونة العواقب . ذلك لأن الأوضاع الحربية فى غربى حوض البحر المتوسط كانت قد تغيرت عما كانت عليه فى القرن الرابع الهجرى (١٠م) ، اذ طرأ عليها عامل جديد وهو

(١) انظر (Mas Latrie : Traité de paix et de commerce et documents divers Concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique Septentrionale au moyen age p. 8 (Paris 1866)

وكذلك (كايكيا سارنلى : مجاهد العامرى ، قائد الاسطول العربى فى غربى البحر المتوسط فى القرن الخامس الهجرى من ١٩٨ - ١٩٩ (القاهرة ١٩٦١)

ظهور بيزا وجنوة وساحل إيطاليا الشمال الغربي ، كقوى بحرية ضاربة في البحر منذ بداية القرن الخامس الهجري (١١م) . هذا إلى جانب أن أهالي وحكام تلك المنطقة ، لم يفسوا ما فعله قراصنة الاندلسيين في بلادهم خلال السنوات الطويلة الماضية ، فأقبلوا على الملاحة إقبالا جديدا . ويذهب أرشيبالد لويس في هذا الصدد إلى أن تخليص حصن فراكسنتيم من قبضة الاندلسيين سنة ٩٧٥م ، على يد وليام حاكم بروفانس ، ربما كان العامل الحاسم في إقبال أهالي تلك المناطق على ركوب البحر^(١) .

وكيفما كان الامر ، فإن الحملات البحرية التي قام بها مجاهد في البحر المتوسط ، قد أفرغت حكام غرب أوربا ، ودفعتهم إلى التكتشل ضده بزعامة البابا بندتو الثامن Benedetto VIII ولم تلبث أساطيل بيزا وجنوة وبرشلونة وفرنسا ، أن اتحدت لمحاربتة ، وفي ذلك يقول المؤرخ المعاصر ابن حيان .

وتداعى عليه ملوك الارض الكبيرة واستجاشوا . وبلغ من أمرهم مالا يطيقه ، فعزم على التحول إلى محله ، والقفل إلى دار ملكه بدائية وميوزقة ، فأعجله العدو عن ذلك وقطع به فكانت عليه وقعة شنيعة وظهر ماسمع بثله ، فقتل من أصحابه وجنوده عالم لا يحصى ، وملكوا أسطوله وأستقذوه ، واستولوا على حريمه ، وفيهن نساؤه وبناته ، وعلى ولده ، وجود أمة النصرانية ، ولم يخلص من أسطوله أجمعه الا خمسة مراكب وأربعة قوارب وكانت شحنة الاسطول المغلول من سبي سرديانية

(١) أرشيبالد لويس : نفس المرجع ص ٣١٤ .

يوم ظهر العدو عليه ممانية آلاف فارس^(١). ويضيف الضبي أن خلافا شديدا وقع بين مجاهد وجنوده أدى إلى هذه الكارثة ، كما يشير إلى عاصفة شديدة جعلت تغدق بمراكب المسلمين إلى الساحل ، والروم وقوف لا شغل لهم إلا الأسر والقتل للسليين . فكلها سقط مركب بين أيديهم ، جعل مجاهد يبكي بأعلا صوته عاجزا عن انقاذه . ثم نجح مجاهد بأعجوبة عائدا إلى الجزائر الأندلسية التي كانت في طاعته^(٢)

واستطاع مجاهد بعد ذلك أن يفترق بنسائه سريعا ، أما زوجته المسيحية فيقال إنها ماتت ، وبذهب البعض إلى أنها رفضت ترك الأراضى المسيحية كي تموت على دين آبائها .

أما ابنه على ، فقد وقع في سهم أحد الأمراء الألمان الذي رفض أن يطلق سراحه على سبيل المباشرة والفخر ، ولكن مجاهد بذل في هذا السبيل أموالا طائلة إلى أن تمكن من فك أسرهم بعد ممانية عشر عاما سنة ١٤٢٣ هـ (١٠٣٢ م) ، فجهاد إلى بلاده مسيحيا يتكلم بلسانهم (الألمانية) ، ويتزينا بزيهم ، فاعتنق الاسلام ، واختن ، وأصابه من ذلك مرضى شديد ثم شفى منه ، وأقامه والده وليا لمهده وقائدا لجيوشه^(٣).

هذا ولم تكن أيام مجاهد حربا كلها ، بل كانت تتخللها أوقات سلم يرابط فيها الاسطول موانئ جزر البليار أو في خلجانها المتعددة . وقد جرت

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢١٩ - ٢٢٠

(٢) راجع الضبي : (بغية الملئس ص ٥٨ ترجمة رقم ١٣٧٩)

(٣) أنظر (احمد مختار العبادي : الصقالية في أسبانيا ص ٢٦)

المادة أن يحتفل الأسطول بحزيرة ميورقة في صيف كل عام بعيد المهرجان (٢٤ يونيو)^(١). فيقوم بمرضى ومنا. رات وألعاب يحضرها أمير الجزيرة بنفسه^(٢). ولعل أبلغ وصف لهذا الاحتمال هو ما أنشده في مثل هذه المناسبة الشاعر أبو بكر الداني المعروف بابن اللبانة^(٣)، مثل قوله :

(١) عيد المهرجان أصله فارسي مثل عيد النيروز، على أنه يلاحظ أن الاحتفال به في الشرق كان في شهر سبتمبر، بينما يحتفل به في أسبانيا صيفا في ٢٤ يونيو أى في عيد العنصرة أو عيد سان خوان . راجع .

(Dozy ; Suppl. aux Dictionnaires arabes II p. 621 & Henri perés : Op. cit. p. 304)

(٢) كان يحكم هذه الجزر الشرقية ولاية من قبل صاحب دانيه نذكر منهم عبد الله المرتضى ومولاه مبشرين سليمان ناصر الدولة راجع (القلعة شندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٥٦ ، ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء ص ١٢٢)

(٣) هو أبو بكر الداني محمد بن عيسى بن محمد اللخمي ، من أهل مدينة دانية ، توفي أبوه عن أولاد صغار وأرملة مكافحة استطاعت أن تتخذ من بيع اللبن حرفة تعمل صغارها فأطلق عليها الناس لقب الحرفه واللبانة ، فنسب أولادها إليها واشتهر أبو بكر بابن اللبانة . وقد انقطع هذا الشاعر في بادىء الأمر إلى بني عباد باشبيلية ، وفيهم أجود مدائمه ومراثيه كما ألف في أخبارهم وتاريخهم كتابين : أحدهما « السلوك في وعظ الملوك » ، والآخره الاعتماد في أخبار بني عباد ، وقد انتقل هذا الشاعر في أواخر حياته إلى ميورقة وكان عليها الأمير مبشرين سليمان العامري الصقلي . والشعر الذي أوردناه في المتن ، قاله الشاعر في مدح مبشر وليس لمجاهد ، ولكنه يعطينا صورة متشابهة لما كان يحدث في ذلك الوقت . وقد توفي ابن اللبانة بميورقة سنة ٥٠٧ هـ .

راجع (عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ١٤٧ هـ) السلام الجرامس : ابن اللبانة ، مجلة البحث العلمي بالرباط ، مايو - أغسطس ١٩٦٤ (١) .

١٤٦ -

بشرى بيوم المهرجان قيامه . يوم عليه من احتفائك رونق
طارث بنات الماء فيه وریشها ريش القراب وغير ذلك شذوق^(١)
وعلى الخليج كتيبة جرارة مثل الخليج كلاها يتدفق
وبنو الحروب على الجوارى التي تجرى كما تجرى الجياد السبق
ملا الكفاة ظهرها وبطونها فأتت كما يأتى السحاب المندق
عجا لها ما خلت قبل عيانها أن يحمل الأسد الضواري زورق
هزت مجاديقا إليك كأنها أهداف عين الرقيب تحقق
كانها أقلام كاتب دولة في عرض قرطاس تخط وتمشق^(٢)

ومن الطريف أن مجاهد العامري كان يهب شعراءه مرابكا ضمن المطايا
والخدايا التي كان ينعم عليهم بها . وشال ذلك قول الشاعر أبي العلاء
صاعد بن الحسن الغزوي بعد أن استماله مجاهد بخريطة مال ومركب أهداهما إليه :

اتتني الخريطة والمركب كما اقترن السعد والكواكب^(٣)

وما تقدم نرى أنه خلال القرن الخامس الهجري (١١ م) ، حدث
تغيير كبير في ميزان القوى في غرب حوض البحر المتوسط: فالسيطرة

(١) الشذوق (بفتح الشين وسكون الواو) الصقر أو الشاهين وقد جدرث
عادة الشعراء تشبيه السفن بالطيور .

(٢) المراكشي نفس المرجع ص ١٥٣ .

(٣) الحميدى . جلدوة المقتبس ص ٣٥٤

الاندلسية على هذه المنطقة قد ضاعت، رغم الحارلات الجريئة التي قام بها
بجاهد العامري في سبيل استعادة هذا النموذج القديم الذي كان للدولة الاموية
من قبل

كذلك ملاحظ في الوقت نفسه أن قوى بحرية جديدة مثل جنوة
وبيزا وبرشلونة وغيرها ، قد أخذت تقوى وتزدهر حتى تمكنت أساطيلها
من السيطرة على البحر المتوسط وتجارته .

ولعل أصدق مثال يصور هذه الحالة ، هو ما ذكره أبو الاصبغ نباتة
الحارثي الاتدلسي ، من أن المعتمدين عباد صاحب اشبيلية ، بعث الى
الشاعر الهذلي أبي العرب ، صعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي الزبيري
مبلغ خمسمائة دينار بصفوية وامره ان يتجهز بها ويتوجه إليه ، فكتب إليه
أبو العرب معذرا بقوله :

لا تعجب لرأسي كيف شاب أسي
وأعجب لاسود عيني كيف لم يشب
البحر للروم لاجرى السفين به
إلا على الفرر^(١) والبر للعرب^(٢)

البحرية على عهد المرابطين

المرابطون أو الملمثون ، قوم صحراويون من قبائل صنهاجة الثام ،
خرجوا من صحراء موريتانيا برسالة دينية سامية تقوم على جهاد المارقين

(١) الفرر (بفتح الفين والراء) التعرض للهلاك

(٢) راجع (أماري : المكتبة العربية الصفاية ص ٦٢٨ - ٦٢٩)

عن الدين الحنيف من قبائل برغواطة وغماره في بلاد المغرب شمالاً^(١) .
 واستطاع هؤلاء المرابطون المجاهدون أن ينتهزوا على هذه القوى الضالّة ،
 وأن يسيطروا على جميع بلاد المغرب الأقصى ما عدا بعض الثغور الشمالية
 مثل سبتة وطنجة التي سيطرت عليها إمارة بحرية قوية ، وهي إمارة
 سقطت البرغواطي . وكانت هراية المرابطين بالشئون البحرية قليلة في
 ذلك الوقت ، ولهذا لم يتمكنوا من احتلال تلك الثغور . ومن ثم شرع
 يوسف بن تاشفين في إعداد أسطول لهذا الغرض ، كما استنجد في الوقت
 نفسه بإساحيل جيرانه ملوك الطوائف بالأندلس . وقد استجاب بعضهم
 لندائه ، لأن هذه الإمارة البرغواطية ، كانت بحكم وضعها الجغرافي في
 منطقة سبتة وطنجة ، تمتلك أسطولا بحريا وتتحكم في مضيق جبل طارق ،
 وكثيراً ما أثارت الذعر والاضطراب بسبب أعمال القرصنة التي كانت
 تقوم بها ضد السفن الأندلسية والمغربية المارة هناك ، وفي ذلك يقول
 ابن بسام :

« من رجل - أي سقوط البرغواطي - استعان بالشر ، ونهاون
 بالامر ، لا سيما في البحر ، فإنه أضرم بلججه ناراً ، ولقى ريحه
 إحصاراً ، أخذ كل سفينة غصبا ، وأضاف إلى كل رعباً ، فضجت منه
 الأرض والسماء ، والتقت الشكوى عليه والدعاء^(٢) . »

(١) راجع تفاصيل قيام هذه الدولة في مقالنا (الصفحات الأولى من تاريخ
 المرابطين ، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية سنة ١٩٦٦) .
 (٢) راجع مفاخر البربر ص ٥٥ - ٥٧ حيث وردت هذه النصوص نقلاً
 عن كتاب المذخيرة لابن بسام .

واستطاع أسطول سقوت البرغواطى بقيادة ولده المعز أن ينتصر في مياه سبته على الأسطول الذى أهده يوسف بن تاشفين لقتالهم سنة ٤٧٦هـ وأن يستولى على قطعة جليقة منه ، مما أدى إلى ارتياع محلة المرابطين لأخذ تلك القطعة حتى هموا بالاحجام ، وقوضوا بعض الخيام^(١) . ولكن في ذلك الوقت وصلت نجدة المعتمد بن عباد ملك أشبيلية وهى سفينة حربية ضخمة ، تقدمت - كما يقول ابن بسام - نحو سبته ، فأطلقت على أسوارها ، ورفعت صوتها بيوارها ؛ وأفضت بدرلة صاحب سبته إلى سوء قرارها ، ليلة الجمعة من صفر المؤرخ ٤٧٦هـ ، فلجأ المعز بن سقوت إلى البحر ، فهم بركوبه فأعوزوه الفرار ، ودفع في صدره المقدار . وكر راجعا فدخل داراً تعرف بدار شور ، وبدرت جماعة من المرابطين ، فاقبضوا عليه بعد مرام وقتال شديد حتى ضاق اضطرابه ، وفر عنه أصحابه . ولما أحس بالشر . دفع ذخائر كانت عنده الى بعض أصحابه ، فبلغنى أنه عثر عليها ، فوجدوا فيها جوهراً كبيراً ، ونشبا من تشب الملك خطيرا ، ووجد في جملتها خاتم يحيى بن على بن حمود الادريسي ، وخرج بالمعز بن سقوت حين وضع الفجر ، فلقبه المعز بن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فطلب منه المال قتال له : « الخازن أليك كنا نجمع المال ؟ فجعله الحسام ، وحكم فيه الجرام ، تعالى من لا يرد قضائوه ولا تبيد آلاؤه »^(٢) .

ولا شك أن اختلال المرابطين لهؤلاء الثغور الشمالية ، كان خطوة

(١) و (٢) راجع مفاخر البربر ص ٥٥ - ٥٧ ويلاحظ أن سقوط البرغواطى كان في الأصل مملوكا لبني حمود لإدارة حكم هذه المنطقة ثم تمكن من الاستقلال بها .

ايجامية في بناء أسطول مغربي قوى ، إذ أنهم استفادوا من دور صناعتها وما فيها من سفن وآلات ، وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن أول عمل اهتم به يوسف بن تاشفين بعد دخوله سبته . هو إصلاح أحراهم وسفنها (١) .

وعندما استعجد الاندلسيون بالمرايطين ضد أطماع الملك الفونسو السادس ، اشترط عليهم يوسف تسليمه ثغر الجزيرة الخضراء كي يستطيع التحكم في مضيق جبل طارق ويضمن سلامة قواته وخطوط مواصلاته بين العدوتين ذهابا وإيابا . واضطر المعتمد بن عباد ، الذى كانت الجزيرة الخضراء ضمن مملكاته ، أن يستجيب لطلبه ، فأمر ابنه الراضى بإخلاء هذه المنطقة الجنوبية وتسليمها ليوسف بن تاشفين (٢) . ثم جاز يوسف بن تاشفين بجيشه إلى الأندلس ، وكان أسطوله حتى ذلك الوقت يتألف من سفن النقل أكثر من سفن القتال ، لأن الغرض الأساسى منه وقتئذ هو نقل الجنود والمعدات وحفظ المواصلات بين المغرب والأندلس (٣) .

وأحرز المرابطون نصرهم المشهور على جيوش الفونسو السادس ، فى وقعة الرلاقة غربى الأندلس سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٦ م) . وقد مكنتهم

(١) راجع (ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٥٢ .

(٢) الحلال الموشية ص ٣٨ ، ابن الخطيب . أعمال الأعلام ص ٢٨٢ (القسم الثانى)

(٣) أشباح . تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٢٧ ترجمه عبد الله عنان .

هذا النصر من توطيد نفوذهم في الأندلس وخلق ملوك الطوائف بعد ذلك . ولا شك أن المرابطين قد استفادوا بما كان في الأندلس من إمكانيات مادية ^(١) وكفايات بشرية في الشؤون البحرية ، فأولوها عنايتهم ، وخلقوا منها قوة بحرية منتظمة موحدة ، وقيادات حكيمة ماهرة ، مثل أسرة بنى ميمون التي قادت أساطيل المرابطين إلى النصر في معظم المعارك التي خاضتها مع القطلانيين والنورمانديين في صقلية . وقد مدح الشقندي بعض أفراد هذه الأسرة بقوله . « وفي المرية ، كان ابن ميمون القائد الذي قهر النصارى في البحر ، وقطع سفرهم فيه ، وضرب على البلاد الرومانية ، فقتل وسبى وملا صدور أهلها رجبا ، حتى كان منه كما قال أشجع .

فإذا تبه رعه وإذا غفا سلك عليه سيفك الإسلام ^(٢) ومن الطريف أن الشقندي ينسب هذه الأسرة إلى المرية ، بينما ينسبها صاحب المعجب إلى دانيه ^(٣) ، أما ابن خلدون فيرى أنهم من قادس ^(٤) ، كما يفرهم من ابن الكردبوس أنهم خدموا في ميورة ^(٥) والواقع أننا لو أنصفنا هذه الأسرة المجاهدة ، لجعلنا من البحر وطنا لها

(١) أشار الادريسي الذي كان معاصرا للرابطين إلى دور الصناعة في طرطوشة ودانية وقصر أبي دانس وشلب التي كانت محاطة بغابات تصلح أخشابها لبناء السفن (Torres Balbes : Atarazanas Hispanomusulmanas, Al Andalus, 1946, Vol. XI, fasc. I P. 184)

(٢) راجع المقرئ . نفع الطيب ٤ ص ٢٠٦

(٣) عبد الواحد المراكشي . المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٩٠

(٤) ابن خلدون . المقدمة ص ٢٥٥

(٥) ابن الكردبوس . كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ص ١٢٣ ، صحيفة

معبد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٦٥

وأحسب أن هذا كان شعورها أيضا بدليل ما أورده صاحب المعجب من أن أهل المرية حاولوا إقامة القائد أبي عبد الله بن ميمون والياً عليهم ولكنه اعتذر بقوله : « إن وظيفتي البحر ، وبه عرفت ، فكل عدو جاءكم من البحر فأنا لكم به ، فقدموا على أنفسكم من شئتم غيري » (١) هذا وقد أشار ابن خلدون إلى قوة الأسطول المراتبي تحت قيادة هذه الأسرة بقوله : « وكان الجانب الغربي من هذا البحر موفور الأساطيل ، ثابت القوة ، لم يتحيفه عدو ، ولا كانت لهم به كرة (بتشديد الراء) . فكان قواد الأسطول به لعهد لمتونة (أى المراتبين) بنى ميمون رؤساء جزيرة فادس ، و انتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من بلاد المدونين جميعاً » (٢) .

وقد فسر بعض المؤرخين كلمة أسطول التي وردت في كلام ابن خلدون بأنها تعنى القطعة الواحدة وليس بمجموعة من السفن (٣) ، وإن كان يبدو أن هذا التفسير لا يتفق هنا مع عظمة الأسطول المراتبي الذي بسط نفوذه على سواحل المغرب الأقصى والوسط وسواحل الأندلس ، فكيف نتصور أن مجموع أساطيل هذه الإمبراطورية ، مائة قطعة فقط في حين كان أسطول أحد ملوك الطوائف وهو مجاهد العامري ، أكثر من ذلك ؟ (٤) هذا في الوقت الذي كانت فيه أساطيل القوى المسيحية

(١) عهد الواحد المراكشي : نفس المرجع ص ٢١٠

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٥ .

(٣) أنظر Aly Mohamed Fahmy; Muslim sea-power in the eastern mediterranean p. 128.

(٤) راجع الصفحات للقليلة السابقة من هذا الكتاب .

مثل جنوا وبيزا والنورمانديين في صقلية ، تزيد كل منها على ثلاثمائة قطعة (١) . وأغلب الظن أن المقصود من كلام ابن خلدون هنا هو عدد مجموعات السفن الحربية التي كانت موزعة على جميع قواعد المغرب والأندلس ، يؤيد ذلك قول ابن الكردبوس أن أمير المؤمنين علي بن يوسف ابن تاشفين أمر بتعمير ثلاثمائة قطعة لإنقاذ جزيرة ميورقة (٢) .

أما عن الممارك البحرية التي خاضها الأسطول المرابطي ضد القوى المسيحية في حوض البحر المتوسط . فالمصادر التي لدينا لا تشير للأسف إلى تفاصيلها ، ولكنها تشير إلى بعض العمليات الحربية التي قام بها الأسطول في بعض الجزر الشرقية (البليار) سنة ٥٥٠٩ (١١١٥ م) وفي جزيرة صقلية سنة ٥٥١٦ .

وكانت جزر البليار في بادئ الأمر يحكمها ولاية من قبل صاحب دانية مجاهد العامري وولده علي بن مجاهد . وعندما استولى أمير سرقسطة ، المقتدر بن هود على دانية ، وسجن أميرها علي بن مجاهد ، أعلن والي هذه الجزر عبد الله المرتضى استقلاله بحكمها ، ثم خلفه بعد موته مولاه مبشر بن سليمان ناضر الدولة :

وقد فضل المرابطون في بادئ الأمر ترك هذه الجزر في يد أصحابها ماداموا يقومون بأعباء الدفاع عنها ويفزون ما وراءهم من بلاد الأعداء إلا أنهم اضطروا إلى احتلالها في سنة ٥٠٩ (١١١٥ م) نتيجة للغارات والاعتداءات المتكررة التي شنها المسيحيون على شواطئ تلك الجزر وعلى سكانها المسلمين . وكانت أخطرها تلك الغارة الوحشية التي قام بها سنة ٥٠٨ (١١١٤ م)

(١) أماري : المكتبة العربية الصقلية ص ٢٨٢ ، ٣٩٣ .

(٢) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء ص ١٢٣ .

حلف مدبرك من أساطيل جمهوريتي بيزا ، وجنوة ، وأمير برشلونة رامون برنجر الثالث Ramon Berenguer III ، وأميرى فاربون ودونبلييه بفرنسا (١) . وبلغت سفن هذه الأساطيل المتحدة نحو خمسمائة سفينة ، اتجهت في بادىء الأمر نحو جزيرة يابسة Ibiza ، فاستولت عليها ثم اتجهت نحو ميورقة كبرى هذه الجزر ، ونزلوا فيها وضربوا حصارا حول عاصمتها مدينة ميورقة التي تعرف الآن باسم بالماس دي ميورقة Palma de Mallorca (٢) . قال ابن الكردبوس : « وفى خلال ذلك الحصار ، كان ناضر الدولة (أى مبشر بن سليمان) كتب الى أمير المسلمين (على بن يوسف) يستصرخه ويستنصره ، ووجه كتابه مع القائد أبى عبد الله بن ميمون ، وكان اذ ذاك هذه قائد غراب بين يديه فلم يشعر العدو حتى خرج الغراب معمرا ليلا من دار الصناعة عليه ، فانطلق في الحين يقفوا اثره ، وأتبعه نحو عشرة أميال والظلام قد ستره فلما قطع يأسه في الظفر به ، رجع خائبا على عقبه ، فوصل ابن ميمون بالكتاب الى أمير المسلمين ، فأمر في الحين ، بتعمير ثلاثمائة قطعة ، وأن تلقى بعد شهر دفعة . فامتثل أمره في ذلك ، واندفعت بجملتها من هنالك ، واذ ذاك تعين ابن ميمون عند أمير المؤمنين . فلما شعر العدو بخروج ذلك الأسطول ، أخلى وصدر عن الجزيرة ، وعينه بما احتل

(١) راجع Jacinto Bosch Vila : Los Almoravides p. 191.

Tetuan 1954.

(٢) راجع ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء ص ١٢٢ فى صحيفة معبد

الدراسات الاسلامية مدريد سنة ١٩٦٥ ؛ ابن خلدون : العبر ح ٤ ص ١٦٥ ج ٦

ص ٢٤٤ ، الخيرى : الروض المعطار ص ١٨٨ وكذلك

Alvaro Campaner : Op. cit p. 91

السبي والأموال فريضة . فلما وصل الأسطول ، وجد المدينة خالية على عروشها محروقة سوداء مظلمة منتظبة . فعمرها قائد الأسطول ابن تافراطس بمن معه من المرابطين والمجاهدين وأصناف الناس ، وجلب إليها من كان فر عنها إلى الجبال فاستوطنوها وعمروها وسكنوها . وانصرف الأسطول إلى مكانه ، وعاد إلى موضع مقره واستيطانه .

وفي انصراف العدو إلى أوطانه هبت عليه ريح ببحار طامية فحملت منه أربع قطائع إلى ناحية دائية ، فعمر إليها قائد البحر أبو السداد ، ففرت أمامه وغرقت واحدة منها قدامه ، وعكس الثلاث (أى جعلها مراكب اسلامية) (١) .

وهكذا احتل المرابطون جزر البليار بدون قتال على عهد علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ / ١١١٦ م) والجدير بالذكر أنه في أثناء حصار العدو لميورقة ، مات مبشر بن سليمان ناصر الدولة ، وقام بالأمر من بعده قريبه القائد أبو الربيع سليمان بن لبون الذي تسميه المصادر المسيحية Burab (أى أبو الربيع) وقد دافع هذا القائد عن بلده بإسالة حتى غلب عليه وتملكه العدو البلد في ٧ ذى القعدة سنة ٥٠٨ هـ وأحدثوا فيها خرابا يحمل عن الوصف كما هو واضح من النص السالف الذكر. ولقد تعاقب على حكم هذه الجزائر بعد ذلك عدد من فواد

المرابطين (٢) ، ثم وليها في سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) القائد المرابطي محمد بن

(١) راجع (عبد الملك بن الكردبوس : كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء

ص ١٢٣ - ١٢٤ صحيفة معهد مدريد سنة ١٩٦٥)

(٢) أنظر Alvaro Campaner, y Fuertes: Bosquejo historico

de la dominacion islamita en las Baleares p. 100

(٣) راجع أسماء هؤلاء الولاة في (ابن عذارى : البيان المغرب ص ٢١٥)

على بن غانية المسوفى ، مؤسس أسرة بنى غانية التى ظل فيها حكم هذه الجزر من بعده .

ولم يقتصر نشاط الأسطول المراتى على محاربة أطباع الايطاليين والفرنسيين والقطلانيين بل حارب أيضا وقت أطباع النورمانديين فى ممتلكات الزيريين بافريقية . وكان هؤلاء النورمانديون قد استقروا فى بداية أمرهم فى ولاية قلورية (كلابريا) فى جنوب ايطاليا ثم تمكنوا برعاية ملكهم رجار الأول Roger I (١٠٧٠ - ١١٠١ م) من انتزاع صقلية من أيدي المسلمين سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩٢ م)^(١) . ومن هناك أخذوا يشنون الغارات على سواحل الدولة الزيرية طمعا فى احتلال عاصمتها المهدية . واستجد الزيريون الصنهاجيون بأبناء عمومهم المراتيين فلبوا فداهم ، وسير أمير المسلمين على بن يوسف قائد أسطوله أبا عبد الله ابن ميمون^(٢) إلى جزيرة صقلية سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) . فشن الغارة على بعض نواحيها ، وافتتح بها مدينة نقوطرة Nicotra^(٣) من عمل رجار (الثانى) وسبى نساءها وأطفالها وقتل شيوخها وسلب جميع ما وجدته فيها ؛ فلم يشك رجار الثانى (١١٠١ - ١١٥٤ م) أن المحسرك لذلك والمسبب له هو أمير أفريقية الحسن بن على بن يحيى^(٤) ، فاستنفر أهل بلاد

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ١٣٠ حاشية .

(٢) يرد اسم هذا القائد أحيانا باسم محمد بن ميمون ، وأحيانا أخرى باسم على بن ميمون .

(٣) يذهب البعض إلى أن هذه المدينة تقع فى إقليم كلابريا فى جنوب ايطاليا .
راجع مادة نقوطرة فى فهرس المكتبة الصقلية لامارى .

(٤) هو الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المازن بن باديس الصنهاجى آخر ملوك بنى زيرى الصنهاجيين على أفريقية :

الروم قاطبة^(١) ضده ... الا أنه يلاحظ أن الملك روجار الثاني ، كثيراً ما كان يعمل حساباً لقوة المرابطين فيعدل عن خططه العدوانية ضد اليربين^(٢) ، ولعل مما يلفت النظر في هذا الصدد أن استيلاء روجار الثاني على المهديّة لم يتم الا في سنة ٥٤٣ هـ (٩١٤٨ م) أى بعد سقوط دولة المرابطين بقليل^(٣) .

ولقد كان سقوط دولة المرابطين على يد قوة فنية مغربية جديدة هي دولة الموحدين . ومن الطريف أن أحداث نهاية هذه الدولة قد اقترنت ببحريتها عندما حاول السلطان المرابطي تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين أن يستعين بأسطوله في الفرار الى الأندلس ، فرحل إلى تفر وهران Oran بالجزائر سنة ٥٣٩ هـ ، وأقام هناك ينتظر قائد أسطوله أبا الحسن علي بن هيسى بن ميمون^(٤) ، الى أن وصل إليه من المرية في عشر سفن حربية ، فأرسل قريبا من معسكره ، غير أن الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي أحاطوا بالمدينة من كل جانب . ولجأ تاشفين إلى

(١) أمارى المكتبة العربية الصقلية ص ٣٧١ .

(٢) أمارى : نفس المرجع ص ٢٨٢ .

(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ١١ ص ٥٦ - ٥٨ ، وكذلك مقالنا (سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمديرية سنة ١٩٥٧) .

(٤) الحميري . الروض المعطار ص ١٤٧ والنزهة الفرنسية ص ١٧٦ ، ويلاحظ أن السلاوي الناصري قد أورد اسم هذا القائد على أنه محمد بن ميمون (الاستقصاء ص ٢٥٠ ص ٦٤) .

ربوة هناك مشرفة على البحر ، فأحدثوا بها وأضرموا النار حولها ، حتى إذا غشيم الليل ، خرج تاشفين من الحصن راكبا على فرسه ، فتردى من بعض حافات الجبل فوات في ٢٧ رمضان من تلك السنة (١) . وبموت تاشفين ثم ولده ابراهيم من بعده ٥٤١ هـ (١١٤٦) . تَنتهى هذه الدولة المجاهدة .

والخلاصة إن المرابطين كانوا قوما مجاهدين عرفوا جيدا المعاني النبيلة لكلمة الرباط أو المراقبة رَفَعُوا من شأنها إلى درجة أنها صارت اسما علما لهم ، كما صارت كلمة مرابط بعد ذلك بمثابة وسام عسكري يمنحه كل سلطان مرابطى لاتباعه المجاهدين ليؤكد من جديد سمة أسلافه في إظهار الجهاد والرباط والذود عن الإسلام . ويمكن أن نشير إلى سلسلة الرباطات والمخارس التي انتشرت في أيامهم على طول السواحل المغربية والاندلسية . ولعل من أهمها ذلك المحرس أو الطالع العظيم الذى بنوه في مدينة سبتة ليشرّف على كل حركة في المضيق . وقد شرح أهميته أبو القاسم الانصارى السبتي بقوله : « ومنها الطالع الكبير الفذ النظير ، طالع سبتة الذى بأعلى جبل ميثاتها المعروف عندنا بالناظر . ابتناه المرابطون هنالك للناظر الرائب ، به حصنا وبه قلعة كبيرة (٢) . وبداخل القلعة مسجد ، وكان ذلك على يد القاضي أبي الفضل عياض . وهذا الطالع من أعجب

(١) راجع السلاوى : نفس المرجع ص ٢ ص ٦٤ .

(٢) قلعة بمعنى قلعة أو برج القلعة (Dozy : Suppl . II p. 401)

الطلائع لكونه يكشف البرين ويشرف على العدوتين الى بادس من بر الريف ، ومن مالفه شرقا والى ماوراء طريف غربا ، فلا يخفى عليه من الزقاق شيء لكونه تحت أسوار وأبواب داخل المدينة ، وفي حكم أهلها إذا تقع فته أو يحصل حصار (١) .

البحرية في عهد الموحدين :

قامت دولة الموحدين على أساس دعوة دينية اصلاحية تهدف إلى تحقيق وحدة اسلامية شاملة كما هو واضح في كتابات مؤرخيهم وشعرائهم . ثم بدأ الخليفة الموحدي الاول عبد المؤمن بن علي (٥٢٤ - ٥٥٨ هـ = ١١٣٠ - ١١٦٣ م) عملياته العسكرية في المغرب والاندلس ، إذ كان من الطبيعي لهذه القوة الموحدية الفتية أن ترمو بأبصارها شمالا عبر المضيق نحو الاندلس ، وشرقا عبر المغرب العربي الكبير كي يتم لها توحيد المغرب الاسلامي وتكتيله ضد القوى الصليبية في البر والبحر .

ولم يلق عبد المؤمن صعوبة في ضم الاجزاء الغربية والوسطى من الاندلس، اذ سارع أمراء هذه المناطق بإعلان ولائهم وانضمامهم للموحدين وكانت ولاية شريش Jerez في طليعة هذه الولايات (٥٣٩ = ١١٤٤ م) ولذا سمي أهلها بالسابقين الأوائل ، وصاروا مقدمين على غيرهم في التشريفات المملكية . كذلك انضم الى الموحدين في السنة التالية أمير البحر علي بن عيسى بن مينون قائده أسطول المرابطين الذي كان قد استقل

(١) راجع محمد بن القاسم الانصاري السبتي : وصف سبتة (القرن ١٥ م)

نشر ليفي بروفنسال في Heeperis 1931 , Tome xii fasc . II p. 156

بمدينة قادس عقب سقوط دولتهم . كذلك انضمت اشيلية الى الموحدين ،
وسافر وفد من أعيانها برئاسة القاضي أبي بكر بن العرب المصافري ،
الى العاصمة مراکش لمبايعة الخليفة عبد المؤمن بن علي^(١).

أما الاقليم الشرقى للأندلس Levante ، فقد عارض امراؤه فكرة
الوحدة مع المغرب ، وأعلنوا استقلالهم بإماراتهم^(٢) ومثال ذلك مدينة المرية
التي استقل بها أهلها من رجال الأسطول (القواطع) وغزاة البحر ،
وكونوا فيها إمارة بحرية مستقلة ، وصاروا يغلبون منها بأساطيلهم
على شواطئ أسبانيا المسيحية وفرنسا وإيطاليا .

ولقد تكاثرت على هذه الإمارة البحرية أساطيل برشلونه ومونبيليه
وجنوا وبيزا ، بالإضافة إلى جيوش قشتاله وقطلونيا وسافارا وجليقية
وأستوريش ، التي حاصرت المرية من البر والبحر مدة ثلاثة أشهر ، ثم
احتلتها عنوة سنة ٥٤٢ (١١٤٧ م) ، وسلمتها لملك قشتاله وليون الفرنسي
الصانع الملقب بالسليطن . غير أن هذا الاحتلال الصليبي لم يدم أكثر

(١) راجع (السلاوى : الاستقصا ص ٢٤ ص ١٠٤) وقد توفي القاضي أبو بكر
ابن العرب وهو في طريق عودته بالقرب من مدينة فاس ، ودفن خارج الباب المحروق
سنة ٥٤٣ (١١٤٧ م) ، ولا يزال قبره يزار هناك الى اليوم بجوار قبر ابن الخطيب .

(٢) إذا تصفحنا تاريخ هذا الاقليم الشرقى الأندلسي في مختلف العصور
الإسلامية ، نجد أنه كثيرا ما جنح الى الاستقلال وإثارة القلاقل في وجه الأماويين
والمرابطين والموحدين وكذلك في أيام بني نصر ملوك غرناطة ، وهذه ظاهرة
تدعو الى الإلتفات والدراسة .

من عشر سنوات ، إذ تمكنت جيوش الموحدين من استعادة المرية سنة ٥٥٢هـ (١) .

وما يقال عن المرية يقال أيضا عن الجزر الشرقية (البليدار) التي استقل بها محمد بن غانية وأولاده من بعده . وبنو غانية كانوا في الأصل من قبيلة مسوفة الصنهاجية ومن كبار قواد المرابطين في الأندلس ، ويقال انهم عرفوا ببنى غانية على اسم أمهم غانية (٢) . وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين ، إذ نجد كثيرا من قوادهم ينسبون إلى أمهاتهم مثل ابن عائشة وابن فاطمة وابن الصحراوية وغيرهم .

ولقد ظل بنو غانية شركة في جنب الدولة المرحدية مدة طويلة ، إلا أنهم كانوا في نفس الوقت غزاة بحريين ضد القرى الصليبية في حوض البحر المتوسط ، فكثيرا ما أغاروا بأساطيلهم على سواحل قطلونيا وجنوب فرنسا ، وهاجموا سفنهم في البحر . كذلك كانت تربطهم في بعض الأحيان بجمهورية جزره وبيزا الايطاليتين علاقات تجارية طيبة : وعلى الرغم من أنهم ساروا على سنة أسلافهم المرابطين في الدعاء للخلفاء العباسيين في بغداد ، واتخاذ ألويتهم السوداء شعارا لهم ، إلا أنهم كانوا في نفس الوقت يهادنون الموحدين ويدارونهم بالهدايا والأموال تجنبا لخطرهم ، وفي ذلك يقول عبد الواحد المراكش في سيرة اسحاق بن محمد غانية : «أقبل

(١) أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين - ص ٢٣٤

(٢) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٦٧ - ٢٧٦

على الغزو ، وصرف عنايته إليه ، فكان له في كل سنة سفرتان إلى بلاد
الروم ، يغم ويسبي وينكي في العدو أشد تكاية إلى أن امتلأت أيدي
أصحابه أموالا ، ففقرى بذلك أمره وتشبه بالملوك . وكان يرسل الموحدين
ويهادنهم ويختصمهم من كل ما يسبي ويغم بنقيسه وجيده ، يشغلهم بذلك
هه مع احتقارهم لأمر تلك الجزيرة وقلة التفانهم اليها . ونخرج في
سنة ٥٧٩ هـ إلى بلاد الروم غازيا ، فاستشهد رحمه الله هناك^(١) . ولم
تخضع هذه الجزر لسلطان الموحدين إلا في سنة ٥٩٩ هـ أيام الخليفة الناصر .
كذلك استقل بولايت بلنسية ومرسية في شرق الأندلس ، الأمير
محمد بن سعد بن مردنيش . ووضح من اسمه أنه أصل أسباني وهو
مارتين Martinez . غير أن هذه الامارة لم تلبث أن انضمت إلى
الموحدين بعد موت عاصمها في ١٠٠٠ يرسف بن عبد المؤمن وصار أبناء ابن
مردنيش من كبار قادة الأسطول الموحدى .

وهكذا نجد أنه باستثناء بعض الإمارات الشرقية ، فإن معظم
الأندلس قد انضمت إلى الموحدين منذ أيام الخليفة الأول عبد المؤمن
ابن علي .

أما بالنسبة للمغرب العربي فلقد قام عبد المؤمن منذ سنة ٥٤٦ هـ
(١١٥١ م) بعمليات عسكرية برية وبحرية واسعة النطاق انتهت بتوحيده
لأول مرة في تاريخ المغرب منذ أن افتتحه العرب : فبدأ أولا بغنم

(١) عبد الواحد المراكشى . المعجب ص ٢٦٩

وطنه الأصلية المغرب الأوسط^(١) ، ثم احتل تونس وسوسة وصفاقس وطرد النورمانديين من المهديّة وغيرها من بلدان سواحل أفريقية ، كما استولى على طرابلس وما وادها ، وبذلك تم له توحيد المغرب الكبير من الحدود المصرية شرقا الى المحيط الاطلسي غربا ، وإلى الصحراء الكبرى جنوبا وفي ذلك يقول صاحب كتاب الاستبصار : وظلة التوحيد والهداية منصلة من طرابلس الى مدينة غانة^(٢).

ولقد شارك الاسطول الموحدى مشاركة فعالة فى تلك العمليات الحربية السالفة الذكر ولاسيما فى حصار المهديّة التى كانت محاطة بالبحر من معظم جهاتها وكأنها كف فى البحر وزندها متصل بالبر ، فيروى المؤرخون أن عبد المؤمن زحف اليها بجيوشه والاسطول يحاذيه فى البحر ، وكان يتكون من سبعين شينيا^(٣) وطريدة^(٤) وشلندى^(٥) بقيادة محمد بن

(١) يقال إن عبد المؤمن حينما مر بسفط رأسه وهى قرية تاجرا بأرض كومييه بالجزائر ، تعبثت به امرأة عجوز وهى تهيج فى زهو وافتناء وهكذا يعود الغريب إلى بلاده ، وهى عبارة جميلة تعبر عما ينبغى على الشباب عمله وهم فى بلاد الغربة كي يعودوا إلى بلادهم ظافرين مرفوعى الرأس .

(٢) كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار (لؤلف مجهول من كتاب

الموحدىن) ص ١١١ . نشر سعد زغلول.

(٣) الشينى أو القروانى السفينة الحربية الضخمة التى كانت تتكون من عدة

طبقات كالقلمه Galère .

(٤) الطريدة والطاراد سفينة صغيرة سريعة أطلق عليها الاسبان اسم Tarida

(٥) الشلندى وجمعها شلنديات ، وهى نوع من المراكب الحربية الكبيرة

المسطحة لمثل المقاتلة والسلاح .

عبد العزيز بن ميمون من البيت المشهور في قيادة البحر^(١) ، وابن الخراط وأبي الحسن الشاطبي وغير هؤلاء ممن هو مثلهم في المعرفة والشهرة ، ثم ضرب حول المهديّة حصاراً من البر والبحر^(٢) . ثم ركب عبد المؤمن سفينة حربية من أسطوله وطاف بالمدينة من ناحية البحر لينتقد حصانها من هذه الناحية فهاله أمرها ، وعلم أنها لا تفتح بقتال وليس لها إلا مطاولة الحصار ، فتمادى حصاره لها ستة أشهر ..

ويؤثر عن عبد المؤمن أنه قال للحسن بن علي الصنهاجي آخر أمراء بني زيري الذي كان صاحبها قبل احتلال النورماندين لها ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م)

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن أمير البحر أبا الحسن علي بن عيسى بن ميمون الذي كان قائداً للرباطين ثم انضم إلى الموحدن حتى صار يسمى بصاحب البحر المرحد ، قد انتهت حياته عندما تعقب فارس المرابطين يحيى بن أبي بكر بن يوسف ابن تاشفين الملقب بالصحراوي أو ابن الصحراوية فيروى البيهقي أن هذا القائد الصحراوي حينما فر إلى سبته أرسل عبد المؤمن وراه صاحب البحر علي بن عيسى الذي حاصر سبته بأسطوله ، فخرج إليه الصحراوي وقال له : أريد أن يكون توحيدى على يدك يا أبا الحسن . فقال له نعم أحملك إلى الخليفة . ولما أنس له هبط علي بن عيسى من الغراب وأراد الجلوس معه فرأى في وجه يحيى الصحراوي الغضب ، فأراد أن يرجع إلى الغراب فرمى عليه يحيى حصانه وضربه بالرمح فوصل بين السكفين حتى نفذه . (راجع البيهقي : كتاب أخبار المهدي وانتقضاء دولة الموحدن ص ١٠٦ - ١٠٧ ، ٢٠٠ والترجمة الفرنسية ص ١٦٠ حاشية ٣ ، نشر وترجمة بروفيسال) وكذلك (الراكشي : المعجب ص ١٩٩ - ٢٠٠) .

(٢) راجع رحلة التيجاني ص ٢٤٧ وما بعدها .

و ما الذى أخرج هذا المعقل من يدك ؟ فقال له : أخرجه انتضاء
 الأمر وعدم الثقة بأحمد ، . فصدقه عبد المؤمن . واستحسن كلامه .
 وحاول ملك صقلية النورماندى وإيام بن رجار (١١٥٤ - ١١٦٦ م)
 انقاذ المهدية . فأرسل اليها أسطولا كبيرا من مائة وخمسين شينيا غير
 الطرائد . فلما ظهرت طلائعه فى الأفق : تقدم مقدم الاسطول الموحدى
 ابن ميمون بين يدى الخليفة عبد المؤمن وقال له : هذا الاسطول قد
 أقبل وهو لا يصل إلا متفرقا بحكم النوم ، فلتأذن لنا بالخروج إليه
 فسكت عبد المؤمن ، فاغتنموا سكونه وبادروا إلى القطع فلاقوها بما
 تحتاج إليه من العدد ، واصطفت عساكر المسلمين على الساحل . فلما
 قاربت شوانى الفرنج المهدية . حطوا فلاعهم ليدخلوا الميناء ، فخرج
 اليهم أسطول عبد المؤمن ، فاستعظم الفرنج ما رأوا من كثرة العساكر ،
 ودخل الرعب قلوبهم ، وبقي عبد المؤمن يمرغ وجهه على الأرض ويهوى
 ويدعو للمسلمين بالنصر ، واقتتلوا فى البحر ، فانهزمت شوانى الفرنج ،
 وأعادوا القلوع ، وتبعهم المسلمون ، فأخذوا منهم سبع شوانى ، ولو
 كان معهم قلع لأخذوا أكثرهم . وعاد أسطول المسلمين ظافرا منصورا
 فسجد عبد المؤمن شكرا لله ، وفرق فى غزاة الاسطول اثنى عشر ألف
 دينار مؤمنية . (١)

(١) أورد أمارنى فى المكتبة العربية الصقلية معظم روايات المؤرخين
 العرب حول فتح المهدية ، وذلك فى الصفحات ٣٠٢ ، ٣١٨ - ٣٢١ ، ٤٠١ -
 ٤٠٣ . ٥٤٠ ، ٥٤٦ ، ٥١٨ ، ٥٤٠ .

ويبدو أن ملك صقلية وإيما بن رجار قد رأى في ذلك الوقت عدم التورط في حرب مع الموحدين كي يتفرغ لحسب فردريك الأول (بربروسا) إمبراطور ألمانيا ، فترك المؤدية لمصيرها المحتوم (١) . ولما بُنيت حامية المدينة من النجدة ، طلبوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وأن يعودوا إلى بلادهم ، فأجابهم عبد المؤمن إلى طلبهم ودخل المدينة بكرة عاشوراء من المحرم ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) (٢) . ولقد وجه عبد المؤمن هباته نحو إنشاء وتعمير المراسى ودور الصناعة المنتشرة على طول السواحل المغربية والأندلسية . ولا شك أن اهتمام هذا الخليفة بإنشاء بحرية قوية كان ضرورة حتمية فرضتها عليه طبيعة تلك الاتفاضة الدينية الإصلاحية التي قام بها الموحدون والتي اتسمت بطابع العظمة والتوسع والزمالة الإسلامية . ولم يجد عبد المؤمن صعوبة في الحصول على خامات الحديد والخشب وكل ما هو ضروري لبناء السفن ، إذ أن كل ذلك كان متوفراً في جبال وغابات العدوتين ، ومن ثم استطاع أن ينشئ أقوى أسطول في البحر المتوسط على حد قول اندرية جوليان (٣) . وقد أشار صاحب كتاب روض القرطاس إلى أنه في سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) انتجت دور الصناعة في العدوتين أسطولا من أربعائة قطعة : منها في سلا والمعمورة ١٢٠ قطعة ، وفي مراسى سبتة وطنجة وبادس ومراسى الريف

(١) أنظر (André Julien : Histoire de l'Afrique du Nord p.110)

(٢) أماري : المرجع السابق

(٣) A. Julien. Histoire de l'Afrique du Nord p. 124

مائة قطعة وفي مرسى وهران وهنين وتونس مائة قطعة ، وفي مرسى
الاندلس ثمانين قطعة (١) وفي هذا المعنى يعطينا المؤرخ المعاصر ابن
صاحب الصلاة وصفا يدل على مدى الاستعداد والقوة والرخاء في ذلك
العهد . فيقول . « وأن أمير المؤمنين - عبد المؤمن - رضى الله عنه ،
أضمر غزوة عظمى للروم بجزيرة الاندلس براً وبحراً ليلقى الله بها يوم
القيامة بالفوز لديه والرجاء ، فأمر بإنشاء القطائع في سواحل المدورة (٢)
والاندلس ، فسنع منها زهاء مائتي قطعة ، أعد منها في مرسى المعمورة
بحلق البحر على وادى سبو بمقربة سلا مائة وعشرين قطعة ، وقفت
عليها وعددتها بالمرسى المذكور ، وأعد باقى العدد الذى ذكرته في
أرياف (٣) المدورة والاندلس . وأمر بكتب الرجال والرؤساء والإبطال
لمهارتها والقيام بحمايتها والنظر في آلائها ، وأعد من القمح والشعير للعلوفات

-
- (١) ابن أبى زرع * روض القرطاس ٢ ص ١٦٤ - ١٦٥
(٢) المقصود بالمدورة هو بلاد المغرب بصفة عامة ، والمدورة (بضم الميم
أو كسرهما أو فتحها) شاطئ الوادى وجانبه والنسبة اليها عدوى ، لهذا أطلقت
على عدوق المغرب والاندلس لأن بينهما مضيق جبل طارق ، وعدوق سلا
والرباط ويفصلها وادى أبو الرقاق ، وعدوق فاس وبينها وادى فاس وأودى
الجواهر . كذلك أصطلح على اطلاق كلمة المدورة ، لا على المغرب الأقصى وحده
بل على المغرب العربى الكبير أيضاً ، ونجد ذلك واضحاً في جغرافية الادريسي
مثلاً على اعتبار أن المغرب الكبير يمثل جانباً مقابلاً لأوروبا وبينها البحر المتوسط
(٣) سبقت الإشارة الى أن المقصود بالريف في المغرب والاندلس هم
ريف البحر أو الأراضى المتاخمة للبحر أو المحيط .

والمواصلة للعساكر على وادى سبوو بالمعمورة المذكورة مما عايت مكدسا
كأمثال الجبال، بما لم يتقدم لملك قبله، ولا سمعنا به في جيل من الأجيال،
بقي في ذلك الموضع معدا من عام سبعة وخمسين الى عام اثنين وستين
وخمسة، حتى فنى في أكذابه وعاد ترابا ورمادا باحترافه في بعض،
وافساد الزمان له فسادا^(١).

والى جانب دور الصناعة السالفة الذكر، كانت توجد أيضا دار صناعة
في قصر مصمودة^(٢) التي كانت تبنى فيها مراكب النقل التي يسافر
عليها الحنيد رانهم الى الأندلس. كذلك كانت توجد دار صناعة
كبيرة في الموضع المعروف حتى اليوم باسم الجبال (بضم الحاء وتشديد
الباء) شرقي فاس عند ملتقى وادى فاس بوادى سبوو، وكانت تنشأ
بما القوارب والسفن الصغيرة ثم تنساب منها الى وادى سبوو، وتصب
فيه حتى مصبه في المحيط الاطلسي. وقد أنشأ هذا المصنع الخليفة عبد المؤمن
عندما أراد أن يتوجه لفتح المهديّة سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م).^(٣)

(١) راجع (ابن صاحب الصلاة: كتاب المن بالإمامة ص ٢١٢-٢١٥، نشر
عبد الهادي التازي).

(٢) قصر مصمودة أو قصر المجاز أو القصر الصغير الذي بناه من قديم أحد
زعماء قبيلة مصمودة بالقرب من طنجة أيام طارق بن زياد. وتقابله بلدة طريف
Tarifa في العدو الأندلسية المقابلة، والمسافة بينها عبر المضيق ٢ ميل (ابن خلدون:
العبر ج ٦ ص ٢١٠-٢١٩)

(٣) الجزناني: زهرة الآس ص ٤٧، وقد ورد في النص اسم المكان على شكل
الجبالات وصحبه الجبالات. وهو اليوم عبارة عن إساتين وحقول في القسم

كذلك اهتم عبد المؤمن بوسائل الدفاع الساحلية لمنع نزول الصليبيين الاراضى المغربية ، فأنشأ القصور والدلاع والرباطات ذات المناور أو الطلائع التي تشعل النار على قممها ليلا ويذبح منها الدخان نهارا لإلذار الأهل في حالة وقوع غارة بحرية معادية. هذا الى جانب استخدام الطبول الضخمة للفرض نفسه وهى تقابل الأجراس والأبواق عند المسيحيين. ومن أمثلة تلك الحصون نذكر رباط تيط على ساحل المحيط الأطلسى جنوبي الجديدة (مازيغان) بنحو ١٢ كم. ويؤرخ بناء هذا الحصن في حوالى منتصف القرن السادس الهجرى (١٢م)^(١). كذلك نذكر قصبة المهديّة التي بناها عبد المؤمن سنة ٥٤٥ هـ عند مصب وادى أبي الرقاق في مسكان مدينه الرباط أو قصبة الوادية الحالية على ساحل المحيط الأطلسى. وقد سماها بالمهديّة تيمنا باسم المهدي بن تومرت ، وأجرى لها الماء في سرب تحت الأرض من دين غبوله التي تقع في جنوب غرب الرباط بنحو تسعة عشر كيلو مترا ، وما زالت آثار السقاية المتفرعة منها باقية الى الآن (٢).

وقد نفش الخليفة على الباب الشرقى لهذه القصبة تلك الآية الكريمة

== الشرقى من مدينة فاس. راجع (الترجمة الفرنسية لكتاب الجزائى ص ٦٨

حاشية ٣ ترجمة ألفرد بل Alfred Bel الجزائر ١٩٢٣)

(١) راجع (Georges Marçais : L'architecture musulmane d'Occident p. 222, Paris 1954)

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٢١٨ ، ٤٤٨ ؛ ابن أبي زرع :

روض القرطاس ص ٢٠٦ ؛ السلاوى الاستقصا ص ٢٨٨ وكذلك

(Caillé : La Ville de Rabat p. 27)

التي ترمز الى جهاد العدو المهاجم من البحر ، يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله رسله ، وتجاهدون في سبيل الله الى قوله وبشر المؤمنين (١).

ولا يبعد أن يكون قصد الخليفة الموحدى في إطلاقه اسم المهديّة على هذه القلعة ، هو تقليد الفاطميين في تسميتهم للمهديّة الشرقيّة بتونس ، وإن كانت الرواية السائدة تقول بأن أهل الأثر وكذلك المهدى بن تومرت كانوا قد بشروا ببناء مدينة في هذا المكان والإيمان (٢).

وكيفما كان الأمر فالمهم هنا هو عدم الالتباس بين مهديّة الموحدين التي صارت رباط الفتح عاصمة المغرب الآن ، وبين مدينة المهديّة الحالية أو المعهورة التي تقع على الضفة اليسرى لمصب وادي سبو بالمغرب من القنيطرة على ساحل المحيط الأطلسي. فهذه المدينة الأخيرة سميت بالمهديّة أيام البعاهل المغربي المولى اسماعيل سنة ١٠٩٢ هـ (١٦٨١ م) عندما ضيق الحصار على الجيش الأسباني المرباط فيها ، فخرج راهبا مستسلما ويده مفاتيح المدينة كهدية للسلطان ، فأمنه وقبل هديته ثم دخل المدينة وسمّاها المهديّة (٣).

(١) راجع (محمد المنوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص ١٣)

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالآمامة ص ٤٤٧

(٣) عبد الهادي التازي : مهديّة المولى اسماعيل ، مجلة المغرب مايو ١٩٦٢ ،

عبد الرحمن ابن زيدان : انحاف اعلام الناس بجهال أخبار جاضرة مكناش ص ٢٠

ص ٧٧ وكذلك : (Caillé : La Ville de Rabat p. 63)

هذا ولم ينس عبد المؤمن أن يربط بين قصبة المهدية وبين مدينة سلا المقابل لها ، بحسر من السفن المشدود ببعض السلاسل عبر وادى الرمان (أبو الرقراق الحالى) وعليها ألواح خشبية كى تمر عليها جيوشه ومعداته المتجهة الى أسبانيا (١).

على أن العمل العسكرى الهام الذى ترج أعمال عبد المؤمن وخلق ذكراء هو تلك المدينة البحرية الحصينة التى بناها على سفح جبل طارق سنة ٥٥٥ (١١٦٠م) وسماها مدينة الفتح لتكون قاعدة عسكرية كبرى لتجمعات جيوشه القادمة من المغرب ومنذ ذلك الوقت صار جبل طارق يعرف أيضا بجبل الفتح (٢). وقد قام ببناء هذه القلعة البحرية عدد كبير من العمال والبنائين الأندلسيين ، كما أشرف على بنائها مجموعة من العرفاء أو المهندسين المشهورين أمثال الحاج ابن يعيش المالقى ، والعريف احمد بن باسه ، اللذين قاما بأعمال فى هذا الجبل وفى غميره من المشروعات العمرانية ، تشهد لها بالإراعة والنبوغ ، كما تشهد لعصر الموحدين بالنهضة والتقدم (٣).

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٥٠

(٢) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢١٢ ، الحل الموشية ص ١١٩-١٢٩ ،

الخيرى : الروض المعطار ص ١٢١

(٣) الحاج يعيش المهندس الذى صنع فى أعلا جبل طارق أول رضى تدار بالربع لطنح الأفوات ، إذ أن الطواحين فى العصور الوسطى هى الطواحين المائية التى تدور مع جرية الماء. كذلك ينسب إل هذا المهندس صنع مقصورة المسجد الجامع بمدينة مراكش التى كانت =

ومن الطريف أنه حينما تم بناء مدينة الفتح ، ركب الخليفة عبد المؤمن سفينة من أسطوله وطاف بها حول جبل طارق لينتقد حصون المدينة الجديدة ، ويحabin أحوال البناء^(١) فيها ، وهذا يذكرنا بما فعله من قبل بمدينة المدينة التونسية قبل الاستيلاء عليها .

ومن حسن الحظ ، أنه يوجد لدينا ضمن مجموعة الرسائل الموحدية التي نشرها المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال ، الخطاب الرسمي الذي وجهه عبد المؤمن الى رعاياه حول تفاصيل هذا المشروع الكبير^(٢) . كذلك توجد تفاصيل أخرى هامة في هذا الموضوع في كتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة^(٣) ، هذا الى جانب القصائد الشعرية التي قيلت بمناسبة زيارة عبد المؤمن لهذه المدينة بعد انتهاء العمل فيها ، وقد تضمنت اشارات هامة في وصف الاسطول الموحدى الذى صلب الخليفة في هذا المهرجان الكبير^(٤).

== تتحرك بطريقة آلية فترتفع عند خروج الخليفة عبداؤمن وتنخفض عند دخوله. أما المهندس ابن باسة فهو الذى قام ببناء جامع اشبيلية وصومعته الشهيرة باسم الخيرالدا ومعناها بالاسبانية الدوارة.

راجع (ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ١٤٢، ٤٦٧-٤٦٩ ، ٤٧٤)

(١) ابن صاحب الصلاة نفس المرجع ص ١٤٤.

(٢) انظر (Levi- Provençal: Trente Sept-lettres officielles

Almohades p. 95-99 (Rabat 1941)

(٣) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ١٣٧ وما بعدها

(٤) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ١٥٩ - ١٦٤ ، ابن الخطيب : اعمال

الاعلام ص ٢٦٩ ، ٢٧٧.

إلى جانب هذه المصانع المادية التي تفتتح السفن الحربية وما يلزمها من معدات وآلات ، اهتم عبد المؤمن أيضاً بالمصانع البشرية التي تتولى تربية الجيل الناشئ . وإعصاده للحرب والجهاد فيروى المؤرخون أن عبد المؤمن أنشأ في حاضرتة مراكش مدرسة لتخريج رجال السياسة وقادة الجيش والاسطول ، وأنه كان يستدعى إليها الشبان (الحفاظ) من أبناء أشيلية وقرطبة وفاس وتلمسان وغيرها ، ويتولى تربيتهم على حفظ القرآن والحديث ، وتأليف المهدي بن تومرت الخاصة بعقيدة الموحدين . وكان يجمعهم كل يوم جمعة بعد الصلاة في قصره ، وهم نحو ثلاثة آلاف كانوا أبناء ليلة ، فيمتحنهم فيما درسوه ويزودهم بنصائحه تشجيعاً لهم على الاجتهاد . ثم يعمد في أيام أخرى إلى تدريبهم على فنون الحرب المختلفة كالطعن بالحراش والرمي بالقوس والسهام والمبارزة وركوب الخيل والركض ، ثم في تعلم السباحة وخوض المعارك البحرية وذلك في بحيرة خاصة أنشأها لذلك الغرض على مقربة من قصره في الحى المعروف اليوم باكدال (أى المنزه) . وأعد فيهم طائفة من السفن الكبيرة والصغيرة ليتمرن الشباب فيها على القتال في البحر والتجديف وقيادة السفن والوثب إلى سفن العدو ، ومزاولة جميع التمارين البدنية التي تقتضيها الخدمة البحرية ، وكان تعليمهم جميعاً على نفقة الدولة .^(١)

كذلك يؤثر عن عبد المؤمن أنه كان يشجع الناس على قراءة ونشر

(١) الحلال المشيه ص ١٢٥ ، ابن القحطان : نظم الجمان ص ١٣٩ ، أشباخ :

نفس المرح ص ٢٠٥

الكتب التي تتحدث عن الفروسية أو سيرها أو كتب المغامرات . ومن القصص التي كانت شائعة على هذا العهد قصة جازية والشريف التي يرويها باختصار ابن خلدون في تاريخه عند حديثه عن دخول العرب الحلالية لأفريقية ، وهي في الواقع ما هي إلا قصة أصل أبي زيد الهلالي العبيدة (١) .

وهكذا استطاع هذا المجاهد الكبير ، الذي يعبّره المؤرخون المحدثون من أعظم قواد العصور الوسطى ، أن يخلق من المغرب الإسلامي قوة موحدة مجاهدة في البر والبحر تهيئ لها لغزو الممالك النصرانية في شمال إسبانيا ، ويؤثر منه أنه قال لأشيباخ وقادة دولته في هذا الصدد : « أشيروا علينا كيف تكون هذه الغزوة إلى بلاد الروم فقد هزمنا هليبا برآ وبحراً ، فقال القائد الأندلسي أبو محمد سيد رأى ابن وزير القيسى (٢) : تقسم العساكر على روم جزيرة الأندلس إلى أربع جهات تكون جهة ابن الرنك (٣) بقلبرية (٤) أولاً ، وجهة البوج (٥)

(١) نقل هذه القصة السلاوى : الاستقصا - ٢ ص ١٤٩ .

(٢) يعتبر من كبار القادة الأندلسيين الذين شاركوا في غزوات الموحدين ، وكان يجيد اللغة القشتالية ، ولهذا كانت له دراية بأحوال إسبانيا وقد اعتمد بن صاحب الصلاة على روايته مراراً . (راجع كتاب المن بالامامة ص ١١٧ حاشية ٣)

(٣) ابن الرنك هو ألفونسو أنريك Alfonso Enrique ملك البرتغال

(٤) قلبرية Coimbra قاعدة البرتغال في ذلك الوقت

(٥) البوج هو فرناندو الثاني ملك ليون وبلنسية والبوج El baboso يسمى

الكتاب اللامع أي الضخم .

بالسبطاط (١) ثانية ، وجبهة أدفرنش (٢) بطليطة ثالثة ، وجبهة برشلونة رابعة ، فقال له الخليفة أحسنت يا أبا محمد ! ثم قام جميع الأشياخ وبايعوا الخليفة على تلك الخطوة (٣) وبينما كان عبد المؤمن مقبلاً في مدينة سلا والجيش تحتشد ، والأساطيل تستعد لنقلها إلى الأندلس ، فاجأه الموت بعد مرض قصير فلم يمض عليه حتى يحقق عزمه ، ونقل جثمانه إلى مدينة تينمل (٤) بجبال أطلس حيث دفن بجوار أستاذه ابن تومرت سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) .

دولى بعد عهد المؤمن ونده أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ ١١٦٣ - ١١٨٤ م) الذى كانت سياسته استمراراً لسياسة والده الجهادية . فبدوى أنه أمر العلماء بإلقاء المحاضرات فى الجهاد على الموحدين ليدرسوها وأنه شارك فى الفاتحا ، فكان يلبسها عليهم بنفسه ، وكان كل واحد

(١) السبطاط هى مدينة رودريجو Ciudad Rodrigo غرب آبله Avila

(٢) الأذوفونش هو ملك قشتالة الفرنسي الثامن الملقب بالصغير El chico

(٣) راجع (ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٢١٨-٢٢١)

(٤) تينمل كلمة بربرية مؤلفه من شقين : تين بمعنى ذات ، ومال بمعنى الحواجز التى توضع فى سفوح الجبال لجعلها صالحة للزراعة والسقى . وهذه القواعد الجبلية المنسية كانت عهد دولة الموحدين ، وبها بنى المهدي بن تومرت داره ومسجده ثم دفن بها بعد مماته . راجع (الادريسي : نفس المرجع ص ٦٤ ، الاستبصار ص ٧٠٨ ، محمد الفاسي : الأعلام الجغرافية ، مجلة البنية ، مايو ١٩٦٢) كذلك : (Basset et Terrasse ; Tinnel, Hespéria 1924)

من هؤلاء الطلبة يحمل لوحاً يكتب فيه ما يملئ عليه . (١) وما يقال
عن اهتمام هذا الخليفة بتربية هذا النشء وتوجيهه ، يقال أيضاً عن
اهتمامه بتقوية بحريته ، وقد لاحظ ابن خلدون أن تفوق الأسطول في
عده كان تفوقاً ملحوظاً بز من قبله ومن بعده ، وفي ذلك يقول :
« ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة ، وملكوا العدوتين ،
أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد . وكان
قائد أساطيلهم أحمد الصقلي أصله من صديان الوطنين بجزيرة جربة من
سدويكش ، أسره النصارى من سواحلها وربى عندهم ، واستخلصه
ساحب صقلية واستكفاه ثم هلك ، وولى ابنه فأستخطه ببعض النزعات
وخفى على نفسه ، فلحق بتونس ، ونزل على السيد بها من بني
عبد المؤمن ، فأجازه إلى مراکش ، فتلغاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن
بالمبرة وشحرية ، وأجزل له الصلة وقلده أمر أساطيله ، فجلى في جهاد
أمم النصرانية ، وكانت له آثار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين ؛
وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة ما لم تبلغه من
قبل ولا بعد فيما عهدناه (٢) .

كذلك يروى المراكشي أن ملك صقلية (وليام الثاني) صالحه
وأرسل اليه بالإتاوة بعد أن خافه خوفاً شديداً ، فقبل منه ما وجه به

(١) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٥ ، أماري : المكتبة العريضة الصقلية

اليه ، وهادته على أن يحمل اليه في كل سنة مالا اتفق عليه (١) .

هذا وبلا حظ أن مهمة الاسطول الموحدى منذ عصر عبد المؤمن لم تقتصر على جهاد الصليبيين ، بل أخذ على عاتقه أيضا مهمة قمع حركة القرصنة التى كانت منتشرة بين المسيحيين والمسلمين على السواء ذلك لان سياسة الموحدين البحرية كانت تقوم على مبدأ احترام نواويس التجارة الدولية وضمان السلام والطمانينة فى البحار ، وهم بهذا العمل - كما يقول بعض المؤرخين الاوربيين - قد لفتوا أوروبا ذرسا فى بعض مبادئها التى تنادى بها (٢) . وحسنا الآن أن نعزب على ذلك مثلا بتلك الغارات البحرية التى شنّها الخليفة أبو يعقوب يوسف على حصن طيرة Tavira الذى كان وكرا للقرصنة المسلمين بزعامه ثائر يدعى عبد الله بن عبيد الله . ويقع هذا الحصن فى منطقة غرب الأندلس Algarve على ساحل المحيط الأطلسى على نحو ٦٠ كم غرب مدينة فارو (شتمرية الغرب) . وقد ظل هذا الحصن شجى على أهل المغرب والأندلس فى نهب أموال المسافرين والتجار فى البرارى والبحار منذ سنة ٥٤٦ هـ حتى آخر سنة ٥٦٣ هـ عندما استولى عليه الخليفة أبو يعقوب يوسف وقضى على فساقه (٣) .

(١) عبد الواحد المراكشى : نفس المرجع ص ٢٥٢ .

(٢) راجع (عبد العزيز بن عبد الله : البحرية المغربية والقرصنة، مجلة تطران الصنمان ٣ : ٤٤ ، ١٩٥٨ - ١٩٥٩) . وكذلك

André Julien . Histoire de l' Afrique du Nord p.123.

(٣) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٣٦٧ - ٣٦٨ ، ابن الأيسر :

الحلة السيرة ج ٢ ص ٢١٨ .

هذا وقد شارك الأسطول الموجدى أيضا في معظم العمليات الحربية التى دارت ضد القوى المسيحية في أسبانيا . ففي عهد هذا الخليفة يوسف نشبت عدة مراح بحرية بين الموحدين والفظلانيين على مقربة من برشلونة وأحرز الأسطول الموجدى كثيرا من ضروب التفوق ^(١) . على أن معظم العمليات البحرية في الواقع قد تركزت بصفة خاصة في غرب الأندلس حيث ملكة قشتالة الناشئة التى كانت في ذلك الوقت قد استقلت عن ملكة قشتالة ، وأخذت تنمو وتنتع جنوبا على حساب المسلمين بقيادة ملكها ألفونسو انريكث Alfonso Enriquez الذى تسميه المصادر العربية بابن الرنك أو الريق . ثم لم تلبث هذه الدولة أن اعترف بها البابا كدولة مستقلة ومنح أميرها المذكور لقب ملك سنة ١١٧٩م ورأى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أن يركز حملاته على هذه الجبهة الغربية البرتغالية لأنها كانت اقرب وأشد الممالك الإسبانية وطأة على المسلمين ، ثم لأنها كانت أيضا معبرا هاما إلى قلب ملكة قشتالة التى كان ملكها ألفونسو الثالث قد أخذ هو الآخر يفسر على الأراضى الإسلامية المناخه له .

وقد استغرقت الحرب مع البرتغال فترة طويلة اضطر الخليفة خلالها أن يعمل على تحصين البلدان الغربية الأندلسية التى كانت عرضة لغارات هذا الشريرا وبحرا عن طريق الوادى الكبير ، واهتم يوسف بصفة خاصة بمدينة أشبيلية حاضرة الموحدين المفضلة بالأندلس . فبعد

(١) أشباخ نفس المرجع ج ٢ ص ٢٤٧ .

على واديها (اى الوادى الكبير) جسرا من السفن عظيم ^(١) الهندسة
يمتد إلى أطريانه Triana إحدى حواضر اشبيلية . وذلك لإجازة الجيوش
المتجهة إلى تلك الجهات الغربية . ويشير ابن صاحب الصلاة أن الخليفة
حضر افتتاح هذا العمل الهندسى الحربى فى صفر سنة ٥٦٧ هـ ، وأمر
بأن تكون جيوش النجدة المتجهة إلى مدينة بطليوس التى تهددها العدو ،
هى أول من يعبر على هذا الجسر العظيم ^(٢) . كذلك أمر عامله فى اشبيلية
أباداود يلول بن جلداسن ، ببناء سور حصين على قصبة اشبيلية من مبدأ
بنائه أمام رحبة ابن خلدون داخل اشبيلية حتى مسجد المدينة ، وبناء دار
صنعة للقطائع (أى الاسطول) تتصل من سور القصبة الذى على الوادى
بباب القطائع الى الرجل السفلى المتصلة بباب الكحل ^(٣) . هذا الى جانب
بناء قصبتها الجوانية والبرانية وترميم أسوارها ولاسيما المطلة على الوادى ،
وتمهير نفورها الخارجية بعد أن كانت نفرة من كلب النصارى عليها ^(٤) .

(١) يلاحظ أن هناك فارقا بين الجسور وبين القناطر فى أن الأولى متحركة
مثل الكبارى حاليا بينما تكون الثانية ثابتة مثل القناطر الحديدية مثلا . وكانت
الجسور عبارة عن سفن يشد بعضها ببعض بواسطة سلاسل بعرض النهر وتوضع
ألواح خشبية عليها لمروور الناس والدواب عليها ثم تفتح عند اللزوم لمروور السفن
ويذكرنا هذا بالخليفة العباسى إلى جعفر المنصور حينما قال له أحد المهندسين فى
مدح موقع بغداد و انت بين أنهار لا يصل اليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة
فاذا قطعت الجسر أو خربت القناطر لم يصل اليك عدوك .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص ٤٦٣ ، ٢٢٤ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٤٨١

(٤) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٢٣٥ - ٢٤٦

ولم يقتصر اهتمام الخليفة على تحصين اشبيلية وحدها بل شمل مدنا أخرى في هذه الجبهة الغربية الساحلية مثل قول صاحب الصلاة « وهو الذى حوى بطليوس من الكفر وابتنى لها قصبته الشاهقة المانعة ، وسرب الماء اليها من الوادى فقطع العدو أمله عنها بما أشحنها من الآلات والعدد من الأسلحة والرجال المنتخبة (١) » .

وفى خلال ذلك الوقت التحمت أساطيل الموحدين بأساطيل البرتغاليين فى معارك بحرية ، فأحيانا كانت تنصر وأحيانا أخرى كانت تنهزم ولكن الغلبة عامة كانت للمسلمين . يروى ابن عذارى أنه فى سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) اشتدت وطأة البرتغاليين فى البر والبحر ، فولى الخليفة أمير البحر غانم ابن مردنيش (٢) قيادة أسطول سبته ، فمهر غانم البحر غازيا إلى مدينة

(١) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٢٣٦ .

(٢) عنذا القائد هو ابن أمير بلنسية وشرق الاندلس أبى عبد الله محمد بن سعد ابن مردنيش الذى رفض الاعتراف بحكم الموحدين ودخل فى حرب معهم إلى أن مات سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) واضطر أبناؤه أبو القمر وهلال وغانم وأبو العلا وغيرهم أن يدخلوا فى طاعة الموحدين وقد عوضهم الخليفة أبو يعقوب يوسف عن ممتلكاتهم بمناصب يتقلدونها وأراضى تقطع لهم فى مملكته كما تزوج أخته لهم تدعى الزرقاء المردنيشية وولع بها وتغلبت عليه حتى صار الناس يضربون المثل بحب الخليفة لها . وواضح من المتن أن معظم أبناء ابن مردنيش قد أسندت اليهم قيادات فى البحرية المغربية . راجع (ابن عذارى : نفس المرجع ص ٩٥ ، ١٠٨ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٧١ (القسم الثانى) .

لعبونه وتقلب فيها على قلعيتين من قطائع البرتغاليين الراسية هناك وعاد
بهما إلى سبته .

ولقد كان رد البرتغاليين على ذلك بأن أغاروا على جزيرة سلطيش^(١)
Saltes ، وأسروا فيها من المسلمين عددا كبيرا ^(٢) . وفي السنة التالية
٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) ، عندما كان الخليفة يوسف متوجها إلى إفريقية
(تونس) ، أمر أمير البحر غانم بن مردنيش ، بأن يواصل هجماته وغاراته
على سواحل البرتغال ، فأقلع غانم وأخوه أبو العلا بالأسطول من سبته
في شهر مايو من تلك السنة وزلوا بقواتهم في ميناء سان مارتين دوبرتو
San Martin do Porto ، ثم توغلوا في داخل البلاد البرتغالية محاولين
الاستيلاء على بلدة بورتو دي موس Porto de Mos ، غير أن أمير
البحر البرتغالي فواس روينهو FuaS Roupinho استطاع بمساعدة أهالي
شذترين Santaren وألكينا Alcanena أن يعد كينا للقزاة المسلمين في
جبال منديجا Mendiga عند منابع نهر بورتو دي موس ، ففوجيء المسلمون
بالعدو في هذا المكان الوعر ، فأسقط في أيديهم ، واستشهد منهم عدد
كبير بينما أسر القائد غانم بن مردنيش وأخوه أبو العلا ، وخمسون من

(١) جزيرة ساحلية صغيرة أمام مدينة أونييه Huelva في جنوب غرب
الأندلس ، ويرى صاحب الروض المظفر أنه كان يوجد بها دار صناعة الحديد
الذي يعجز عن صنعه أهل البلاد لجفافه ، وهي صنعة المراسي التي ترسو بها السفن
(الحيرى : الروض المظفر ص ١١٠)

(٢) (ابن عذاري : نفس المرجع ص ١١٣) .

الموحدين ، كما استولى البرتغاليون على تسع قطع من مراكب المسلمين بمن
عليها من الملاحين وانصرفوا بها الى لشبونة (١) .

وكتب أمير البحر غانم بن مردنيش من موضع اعتقاله إلى الخليفة
يوسف يشكو له سوء حاله ، فوصل كتابه وهو بتلسان ، فأمر الأمير
أبا القمر هلال بن مردنيش بالذهاب إلى مدينة مراکش لينظر في فداء
أخويه غانم وأبي العلا ويأمر بإنشاء وإعداد الأساطيل في الحال . فلما
وصل أبو القمر إلى مراکش أحضر المال وبعث به إلى أشبيلية ، فانصرف
الفكاك به ودفعه إلى البرتغاليين ، وانطلق غانم المذكور من الأسر
وكذلك أخوه ومن بقي من أصحابه (٢) .

وتشير المصادر البرتغالية إلى أن هذا النصر الذي أحرزه البرتغاليون
قد شجع قائدهم فواس دوينهو على الخروج بأسطول قوى والاغارة على
سواحل الأندلس الغربية ثم على مدينة سبتة بعد ذلك . (٣) أما المصادر
العربية فتشير إلى غضب الخليفة والمسلمين من هذه الإعتداءات ، وكيف
أن نفوسهم جميعا قد نطقت لجهاد أعداء الله ، والاختار بثأر إخوانهم ،
وفخرج القائد عبد الله بن جامع بأسطول سبته سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م)

(١) راجع (ابن عذاري : البيان المغرب - ٤ ص ١١٦) وكذلك :

(Huici Miranda ; Historia política del Imperio Almohade .
I, pp.279 - 281 , Tetuan 1957) .

(٢) المرجعان السابقان

(٣) المرجعان السابقان

كما خرج القائد أبو الهباس السبلي من أشبيلية بأسطولها أيضا ، وأحتموا جميعا عند نهر قادس وقد استكفروا أربعين قطعة ، فقبضوا منها بجمعهم إلى جهة شلب Silves والتفروا بالأسطول البرتغالي نفس المكان والزمان الذي أسرف فيه غانم بن مردنيش في منتصف المحرم من العام الفارط ، وهذا من أغرب الاشياء . وقد نصر الله المسلمين في هذا اليوم نصرا مبورا ، وقتل من النصارى وأسروا منهم نحو الألف وثمانمائة ، ولم يمت فيه من المسلمين إلا عدد قليل ، وأخذت للعدو من القطائع نحو العشرين مع أسلابهم وأسلحتهم ، والصرفوا ظاهرين ظافرين إلى موضعهم . (١) ولقد اعترفت المصادر البرتغالية بهذه الهزيمة التي حاقت بأسطولها كما أنها تجمع على أن أمير البحر البرتغالي فواس رويينو قد أتي مصرعه في هذه المعركة (٢) .

ويضيف ابن عذاري أن هذا الهجوم البحري قد صحبه هجوم برى قام به قائد جيش الموحدين في أشبيلية أبو هب الله بن وانودين الذي استطاع أن يعبد مدينة يابره Evora ، وأن يستولى على بعض الحصون المجاورة لها وأن يسبي من النساء أربعائة بين كبيرة وصغيرة ومن الرجال مائة وعشرين ثم يورد ظافرا إلى أشبيلية حيث يبيع السبي وكثر عند الناس الخدم (٣) .

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ٣ : ص ١١٧ - ١١٨ .

(٢) راجع :

(Cronica dos sete primeiros reis de Portugal, I, p.125 y sig. & Euici Miranda : Op. cit. I, p.280

(٣) ابن عذاري : نفس المرجع ٣ : ص ١١٧ .

واستمرت الحرب سجالاتا بين الفريقين في البر والبحر دون أن تسفر عن نتائج حاسمة. ولهذا عزم الخليفة أبو يعقوب يوسف على أن يقود غزو البرتغال بنفسه ، وحشد لهذه الغاية قوات عظيمة وأسطولا ضخما من سفن الاقتسال ومراكب النقل لشحن آلات الحصار والمؤن والسلاح بقيادة أمير البحر أبي العباس الصقلي^(١). ثم عبر الخليفة المرحدى مضيق الميجاز ونزل اشيلية سنة ٥٥٨٠ (١١٨٤ م) ، وكانت خطته تقضى بمهاجمة مدينة لشبونة من البر بينما يحاصرها الأسطول من جهة البحر عند مصب نهر التاجسو Tago. ولكنه رأى لإنجاح خطته أن يستولى أولا على مدينة شنترين Santaren ، مفتاح التاجو ، المجاورة لها. فحضر حولها حصاراً واستطاع أن يستولى عليها ماعدا قلعتها.

ولما طال حصار المسلمين لهذه القلعة ، أمر الخليفة بأن يرحل معظم الجيش الى لشبونة كي يتعاون مع الأسطول في حصارها. ويبدو أن هذا القرار قد جاء مفاجئا لجنوده ، إذ وقع اضطراب في صفوفهم خصوصا بعد أن ترددت الشائعات بأن الخليفة قد رحل. وبينما كان المرحج يسود هذا الإنسحاب ، إذا بحامية قلعة شنترين تخرج فجأة أثناء الليل وهي تصبح الرى ! الرى ! أى أقصدوا السلطان لأن كلمة رى Rey معناها الملك . ثم انقض أفرادها على معسكر الخليفة ، وتمكن بعضهم من التناز الى شخصه وإصابته بجراح قاتلة استشهد على أثرها في ربيع الثانى سنة ٥٥٨٠ (يوليو ١١٨٤ م)^(٢).

(١) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٤٥ ص ١٣٢.

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٤٥ ص ١٣٤ ، ابن ابن زرع : روض القرطاس ص ١٤١ ، اشباخ ص ٢٥ ص ٧٤.

كانت وفاة خليفة الموحدين بهذه الصورة المفاجئة ضربة قاسية أصابت حركة الموحدين بنهضة قوية في المغرب والأندلس إذ استغل أعداؤهم هذه الفرصة لتحقيق أهدافهم ، ومثال ذلك بنو غانية حكام الجزر الشرقية (البليار) الذين خرجوا عن سياسة مهادنة الموحدين وأظهروا الغدر والعصيان وتصادف في ذلك الوقت أن بعض وحدات الاسطول الموحدى كانت في زيارة رسمية لجزيرة مپورقة بقيادة أبي الحسن بن البربرير^(١) ،

(١) البربرير Reverte أو Reberter هكذا ضبط اسمه دوزى حسب نصوص الحولية اللاتينية للإمبراطور الفونسو السابع. أما المصادر العربية فقد ذكرته بأشكال مختلفة مثل الدبرير والدبرين والابرتير ... الخ. ووضح من اسم هذا القائد أنه من أصل مسيحي واذ كان أبوه فارسا قطلانيا من برشلونه ثم وقع أسيرا في يد أمير البحر على بن ميمون الذى حمله الى سلطانه على بن يوسف بن تاشفين بمراكش. فعينه السلطان قائدا على جنوده الاسبان الذين في خدمته فقام بمهمته خير قيام وأبلى بلاء حسنا في الدفاع عن دولة المرابطين إلى أن قتل في معركة ضد الموحدين عند تلمسان سنة ٥٣٩هـ (١١٤٩م) وقد اعتنق أبنسه الإسلام وتسمى بأبى الحسن على بن البربرير. ولما قامت دولة الموحدين انحرف في خدمتهم وصار من كبار قوادهم في البر والبحر إلى أن انتهت حياته هو الآخر في المعركة التي دارت بين المنصور الموحدى وبنى غانية بافريقية عند بلدة عمره من اعمال قنصه سنة ٨٥٣هـ (١١٨٧م).

راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ٤ ص ١٦ ، ١٥٩ ، ابن القطان : نظم النجمان ص ٩٦) راجع كذلك :

(Dozy : Recherches II pp. 437-442 & Lévi-Provençal Documents inédits d'histoire Almohade p. 139 note I)

فَتَظَاهَرُ الْمَيُورَقِيُّونَ بِاسْتِقْبَالِهِ وَالْخَفَارَةُ بِهِ ، ثُمَّ بَعَثُوا سِرًّا إِلَى مَرَاكِبِهِ
مَنْ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا وَأَسْرَ بِجَارَتِهَا ، فَلَمْ يَكُنْ لِقَائِهِ أَبْنُ الْحَسَنِ عَجَبًا .
هَنْ الْأَسْلَامَ ، وَاعْتَقَلُوهُ فِي دَارِ الضَّيْسَاءَةِ الَّتِي كَانُوا قَدْ أَنْزَلُوهُ بِهَا ،
وَوَكَّلُوا بِهِ مِنَ الْحَرَسِ وَالرَّقَبَاءِ مَا أَمْنُوا بِهِ مَكْرَهُ وَاجْتِهَالَهُ (١) .

وَيُضَيِّفُ ابْنُ عَزْدَارِي أَنَّ بَنِي غَانِيَةَ خَرَجُوا بَعْدَ ذَلِكَ بِأَسَاطِيلِهِمْ
وَرَجَعُوا إِلَى السَّاحِلِ الْإِفْرِيقِيِّ حَيْثُ اسْتَوْلَوْا عَلَى مَدِينَةٍ بِحَايَةِ الْمَغْرِبِ
الْأَوْسَطِ سَنَةِ ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) . وَمِنْ عِنَاكَ أَخَذُوا فِي اثَارَةِ الْفِتَنِ
وَالْاضْطِرَابَاتِ ضِدَّ نَفْسِ الْمُوحِدِينَ ، وَتَحَالَفُوا مَعَ قِبَائِلِ الْأَعْرَابِ مِنْ
بَنِي هِلَالٍ وَسَلِيمٍ فِي شَرْقِ الْمَغْرِبِ ، وَكَذَلِكَ مَعَ جُنُودِ الْفَزُو الْمُرْتَوِقَةِ
الَّذِينَ قَدَمُوا مِنْ مِصْرَ وَاسْتَقَرُّوا فِي قَابَسِ بَقِيَاةِ الْأَمِيرِ الْمَمْلُوكِ
قِرَاقُوشِ الْقَوِيِّ (٢) . وَاسْتَطَاعَتْ هَذِهِ الْقَوَى الْمُتَحَالِفَةُ بِرِعَايَةِ بَنِي غَانِيَةَ أَنْ
تَسِيرَ عَلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ الْأَدْنَى وَالْأَوْسَطِ وَأَنْ تَدْعُو عَلَى مُنَازَعَتِهَا لِبَنِي
الْعَبَّاسِ أَعْدَاءِ الْمُوحِدِينَ (٣) .

وَلَمْ تَكُنْ الْحَالَةُ فِي الْأَنْدَلُسِ أَقْلَ خَطُورَةٍ مِنَ الْمَغْرِبِ ، إِذْ انْتَهَزَ

(١) ابْنُ عَزْدَارِي : نَفْسُ الْمَرْجِعِ ص ١٤٦ وَمَا بَعْدَهَا .

Campaner y Fuertes : Op. cit. p. 147

(٢) هُوَ شَرْفُ الدِّينِ قِرَاقُوشُ الْقَوِيُّ مَمْلُوكُ تَقِيِّ الدِّينِ عَمْرِ بْنِ أَخِي صِلَاحِ
الدِّينِ الْأَيُّوبِيِّ ، وَهُوَ شَخْصِيَّةٌ أُخْرَى غَيْرُ بَهَاءِ الدِّينِ قِرَاقُوشِ الْأَسَدِيِّ وَزَيْرِ صِلَاحِ
الدِّينِ وَنَاتِبِهِ فِي مِصْرَ وَمَمْلُوكُ أَسَدِ الدِّينِ شِيرَكُوهِ .

(٣) ابْنُ عَزْدَارِي ص ١٤٧ ، رَحْلَةُ التَّجَانِي ص ١١٢

البرتغاليون فرصة الاضطراب الذي حل بهلفوف الموحدين عقب استشهاد
خليفهم يوسف ، وأخذوا يمتحن غرب الاندلس برا وبحرا . وقد ساعدتهم
الظروف في ذلك الوقت أن قوات صليبية كبيرة من الألمان والإنجليز
والفلسكيين^(١) قد أخذت تتجه تباعا الى فلسطين عقب سقوط بيت المقدس
في يد صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) وكانت هذه الأساطيل الصليبية
كثيرا ما ترسو في الموانئ البرتغالية إما رغبة أو اضطرارا .

فتصادف في سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩م) أن اسطولا من خمسين سفينة
فرنسية عليها جماعة كبيرة من هؤلاء الصليبيين الألمان والفلمنك ، اضطروا
الى الرسو في ثغر لشبونة ، فانهز ملك البرتغال سانشو الأول
Sancho I Enriquez هذه الفرصة ، وطالب من هؤلاء الصليبيين معاوته
في قتال جيوشه المسلمين ، فاستجابوا لندائه وتقدموا جميعا نحو مدينة
Silves وأحرقوا بها من جميع جهاتها . وقد دافع أهلها ببسالة
نادرة ولكنهم اضطروا الى الاستسلام بعد أن تمكن العدو من الاستيلاء
على بئر قراجة الذي يمد المدينة بالمياه^(٢) .

وهكذا نجد أن سلطان الموحدين في المغرب والاندلس قد أصيب بكنسة
شديدة استمرت عدة سنوات بعد استشهاد عاهلهم أبي يعقوب يوسف .

(١) سكان الأراضي الوطنية Netherlands وهي الأراضي الهولندية .

(٢) راجع ابن عذاري : نفس المراجع ص ١٧٥ وكذلك

& Huel Miranda : Op. cit. I, p. 342 Las Crónicas dos sete
primeros reis de Portugal I, p. 152-153

وفي خلال هذه المدة كان الموحدون قد بايعوا بالخلافة لولده المجهاد الكبير
 أبي يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ = ١١٨٤ - ١١٩٩ م) . وكان
 أول عمل استمر به المنصور منذ توليه الحكم هو إعادة الوحدة المصرية ،
 والضرب على أيدي المنسدين فيها أمثال بني غانية وحلفائهم النز والأحراب
 في المغرب الشرقي . فقام في الحال بتعبئة قواته البرية والبحرية لغزو تلك
 الجهات ، وأسند قيادة الجيوش البرية إلى السيد أبي زيد بن أبي حفص ،
 كما تحركت الاساطيل من سبته على اختلاف أشكالها ، وعليها أبو محمد بن
 أبي اسحاق بن جامع ، وأبو محمد بن عطوش الكرمي ، والقائد أبو العباس
 الصقلي ومن درفهم من الرؤساء والأعيان والانجاد والشجعان ، والكل
 تحت رعي الشيخ أبي محمد بن جامع وإلى نظرة تحت ما يراه من نهبه
 وأمره ، ومشى الجميع على قواعد من تظافر البر والبحر ، وتلافى الفريقين
 على الفتح والنصر ، فأرتجت الأرض برا وبحرا (١) .

ولقد مهد المنصور لهذه الحملة بإرسال غيرانه وأهوانه في تلك الجهات وهو
 ما يعرف الآن باسم الطابور الخامس ، اذ يقول ابن عذاري : « وكان أبو
 يوسف المنصور أتبع أمرا . الجيوش البرية والبحرية كتبنا لاهل مائر البلاد
 المغلوب عليها بالامن والامان والصفح والاحسان . ولما دنت الحملة من
 البلاد ، دسوا بالكتب جواسيس رحلوا بها ليلا الى البلاد ، واجتمعوا
 بها مع من يوثق به للامن . فلما وقفوا عليها ورأوا أنهم قد آمنوا
 غوائل المذاب ، وأنفس العفو والرحمة لهم مفتحة الابواب ، وثبوا

(١) ابن عذاري : نفس المرجع ج ٤ ص ١٤٩

على من كان عندهم من الأعداء ، وأرصدوا لفرارهم بالمضائق ، وقبضوا على أكثرهم بتلك المخائق . (١) »

ويشير ابن عذارى بعد ذلك إلى النصر العظيم الذي حققه الأسطول الموحدى في هذه الحملة سنة ٥٨١ هـ بقوله : « وسبقت الأساطيل ففتحت مدينة الجزائر قبل وصول أهل البر ، وضربت الطبول في يوم واحد مع فتح الجزائر ومليانه ، وقبض على يحيى صاحب الجزائر ثم على بدر بن عائشة صاحب مليانه ... وتقدم القائد أبو العباس الصقلى الى بجاية بقطعة واحدة مع بعض أهل البلد ، ودحروا لهم كتباً بما وراهم من الأسطول والجيوش الواصلة ، فلما وصل الأسطول الى بجاية ضجت العامة وفتحت الأبواب ودخلت عمار الأساطيل . (٢) »

ثم توجه الخليفة المنصور الى أفريقية في السنة التالية (٥٨٢ هـ = ١١٨٦ م) حيث تولى قيادة العمليات العسكرية بنفسه : واتخذ من مدينة تونس مقراً لقيادته ، واستطاع بفضل شجاعته وحزمه أن ينتصر على خصومه ، وفر على بن عانية الى الصحراء حيث ظل محتبياً بها الى أن مات سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) . أما قراقوش وجنوده الغز وحلفاؤهم الأعراب ، فقد انضموا الى جيوش الموحدين وصح توحيدهم ، وأرسل المنصور عدداً كبيراً منهم الى المغرب والاندلس برسم الجهاد (٣) .

(١) ابن عذارى ! نفس المرجع ص ٤٠ ص ١٥٠

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع والصفحة .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٥٥-١٥٧

بعد ١٠٠٠ م.

وفي خلال ذلك الوقت استطاع قائد الخليفة المنصور ، أبو الحسن علي ابن البربرير الذي كان معتقلا في جزيرة ميورقة ، أن يتبرز فرصة شهاب معظم أمراء بني غانية في أفريقيه ، ويدخل بعض مواليم وجنودهم المسيحيين المرتقة الذين كانوا في خدمتهم ويرغبون في العودة الى بلادهم ، فوعدهم بتحقيق رغباتهم ، وقام معهم بالانقلاب في الجزيرة ضد حكم بني غانية في أواخر سنة ٥٨١ هـ (١١٨٦ م) ، وانضم إليهم حاكم الجزيرة السابق محمد بن إسحاق بن غانية الذي كان أخوته قد خلعوه وأعتقلوه بالجزيرة ، فأقامه الثوار حاكما على الجزيرة باسم الموحدين . ثم عاد علي بن البربرير إلى مراکش بعد أن سرح الجنود المسيحيين بأموالهم وأهليهم وأحاديهم إلى بلادهم حسب وعده لهم .

على أن نفوذ الموحدين على جزيرة ميورقة لم يدم طويلا ، اذ سرعان ما علم بنو غانية في أفريقية بأخبار هذا الانقلاب ورجع الى الجزيرة فورا عن طريق صقلية الأمير عبد الله بن غانية . ويرجح المؤرخ الفرنسي الفرد بل في البحث الذي كتبه عن بني غانية أن ملك صقلية وليام الثاني (١١٦٦-١١٨٩ م) قد أمد هذا الأمير ببعض سفنه كي يسترد ملكه في الجزيرة (١) . واستطاع الأمير عبد الله بمساعدة مواليه وجنوده وعلى رأسهم عالج يدعى نجاح أن يحتل الجزيرة ويطرد منها أخاه محمدا الذي فر الى الأندلس حيث ولاه الموحدون مدينة دانية (٢) .

(١) انظر (Alfred Bel : Les Banou Ghanya p.71, Paris 1903)

(٢) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٧٦ .

وحاول الخليفة المنصور انقاذ الجزيرة ، فأرسل اليها أسطولا بقيادة أمير البحر أبي علي بن جامع ، غير أن زمام الموقف كان قد أفلت من يده لاسيما بعد أن تدخل أسطول ملك أراجون بدور الثاني Pedro II في صالح الميرقيين (١) . على أن المنصور وأن كان قد فشل في احتلاله كبرى جزر البليار ، الا أنه قد نجح في احتلال صغراما ، جزيرة يابسة (٢) Ibiza على يد أمير البحر أبي العباس الصقلي سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) (٣) .

وهكذا نرى أن الخليفة المنصور الموحدى قد نجح في إعادة توحيد المغرب الكبير من ليبيا شرقا الى المحيط الاطلسى غربا ، وبذلك أصبح في مقدوره أن يعبر فى أطمشان الى الاندلس لجهاد الممالك الاسبانية المعادية كالبرتغال وقشتالة .

ولقد اختار المنصور مدينة المهديّة التي أسسها والده أبويعقوب يوسف

(١) راجع (Huici Miranda : Op. Cit . II p. 396)

(٢) اشتهرت جزيرة يابسة بشجر صنوبر الجيد العود الذي كان يصلح للاشياء وعدة المراكب .

راجع (الحيرى : الروض المعطار ص ١٨٨)

(٣) يعلق ابن عذارى على هذا التاريخ بأنه يوافق تاريخ سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين الايوبى راجع (ابن عذارى : البيان المغرب ص ١٦٩ - ١٧٠)

على ساحل المحيط ، وبني قصبتها قبل ذلك جده عبد المؤمن ^(١) ، لتكون قاعدة تتجمع فيها جيوش الموحدين قبل أن تتجه إلى أسبانيا برسم الجهاد والفتح ، ولهذا أطلق عليها المنصور اسم رباط الفتح ^(٢) وأمر بتعميرها وتحصينها حتى صارت كما يقول ابن عذارى « معقل الدنيا ارتفاعاً ووثاقاً ومناعة » . ^(٣) ولم يلبث لاسم رباط الفتح أن غلب على هذه المدينة التي قدر لها أن تصبح اليوم عاصمة للمملكة المغربية ^(٤) .

وتظهر براعة هذا المجاهد الكبير في أنه استطاع أن يتجنب لقاء

(١) راجع الصفحات القليلة السابقة عن بناء هذه القصبة في عهد المؤمن. أما عن تأسيس المدينة على يد الخليفة أبي يعقوب يوسف ، فيصفه ابن صاحب الصلاة بقوله . وتقدم الخليفة جيوشه على فرسه إلى أن بلغ أسوار القصبة المهدية التي بناها والده ثم دار بفرسه حتى صار مواجهاً لجنوده ، فبارك جمعهم وطلب منهم البقاء والبناء ، فأخذ الناس يتنافسون في ذلك .

(٢) جئت للإشارة إلى أن مكان هذه المدينة كان رباطاً على برغواطه من قديم ثم جاء المنصور فأكد هذا المعنى حينما أطلق عليها اسم رباط الفتح . ومن الطريف أن عبد الواحد المراكشي سماها في كتابه المعجب ص ٢٩٦ أسكندرية المغرب لأنها كانت تشبهها في اتساعها وحصانتها وحسن تقسيمها (السلاوى ص ٢٥١) .

(٣) ابن عذارى : نفس المرجع ص ٤٣٩

(٤) كان ذلك منذ سنة ١٩١٢ م حينما اختارها المارشال الفرنسي ليوتي Lyautey مركزاً إدارياً للمغرب.

أعدائه في أسبانيا مجتمعين وأن يفرد بهم واحدا بعد الآخر ، وهذه الخطوة هي التي سار عليها نابليون بونابرت في العصور الحديثة ، وكانت سر عظمته . وقد شريح المنصور هذه السياسة اللوية المرننة في خطابه الرسمية التي وجهها إلى رعاياه ، إذ بين فيها أنه قصد آثر التحالف مع ملكي قشتالة وأراجون كي يتفرح للمبارزة ملك البرتغال ، ثم رأى أن يتحالف مع ملكي ليون وأراجون كي يفرد بملك قشتالة في المعركة (١) .

وبدأ المنصور حركته الجهادية سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) بمملكة البرتغال التي سبق أن استهدف فيها والده ، فهاجمها برا وبحرا ، واكتسح أراضيها ، ولم يجرؤ ملكها سانشو انريكت (Sancho I Enriquez) ابن الرنك) على مواجهة المنصور في معركة عامة مكشوفة ، بل ظل محتفيا وراء جدرانه للاحول له ولا قوة . وكان الاسطول الموحدى قصب السبق في هذه الحملة ، لذا استطاع قبيل المعركة بقليل أن يحرز نصرا على الاسطول البرتغالي سنة ٥٨٩ هـ ، ويعكس عدة من أجزائه فيصيرها إسلامية بعد أسر جميع من كان فيها . وقد اعتبر هذا النصر من بواكر الفتوحات ، وهنى الخليفة المنصور على ذلك مثل قول الشاعر ابن جبير دلائل فتح كان يذخرها الدهر : فلما أردت الغزو أبرزها النصر (٢)

(١) نشر هذه الرسائل ليفي بروفنسال تحت عنوان :

(Lévi Provencal ; Les Trente Sept Lettres Officielles Almohades pp. 218 - 228 (Rabat 1941)

(٢) ابن خلدون البيان المغرب ج ٤ ص ١٧٧

كذلك شاركت البحرية خلال هذه الحملة بنقل المعدات وآلات الحصار والتعاون مع القوات البرية في الهجوم على الثغور الساحلية البرتغالية . وقد انتهت هذه العمليات باسترداد مدينة شلب Silves والاستيلاء على القاعدة البحرية الهامة قصر أبي دانس Alencar do Sal سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) وقد أشاد ابن عذارى بالخفة والسهولة التي امتازت بها تحركات قطع الأسطول الموحدى بقوله : « ووصلوا الاجفان البحرية بالعدد الحربية وقد سابت لدخول الوادى بنيسير يعجز العقول عن تكييفه ، فببت الذى كفر ، وسقط فى أيدي المشركين من كل من ألقى السمع وأبصر »^(١) ويبدو أن قوة البرتغاليين قد انهارت تماماً بعد هذه الحملة بدليل أننا لم نعد نسمع بعد ذلك عن دخولهم فى حرب ضد المنصور .

ثم تحول المنصور نحو مملكة قشتالة فى قلب أسبانيا ، وانتصر على ملكها الفونسو الثانى الملقب بالصغير El Chico عند حصن الأرك Alarcos من أعمال قلعة رباح calatrava سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) . ثم أعقب هذا النصر بسلسلة من الانتصارات الأخرى فى شمال قشتالة خرب فيها أرباض^(٢) واستولى على بعض الحصون المحيطة بها مثل مجريط Madrid وادى الحجارة Guadalejara ووصل إلى أراضى لم تطأها أقدام المسلمين منذ أيام المنصور بن أبي عامر . ولعل هذا هو السبب الذى جعل المؤرخين يشبهون المنصور الموحدى بالمنصور بن أبي عامر^(٣) . ولاشك أن البحرية

(١) ابن عذارى : نفس المرجع ص ١٨٤ ، عبد الواحد المراكشى :

المعجب ص ٢٨٠

(٢) راجع تفاصيل معركة الأرك فى (ابن عذارى ص ١٩٣ - ٢٠٥)

كانت من وراء هذه الانتصارات البرية، تعمل على حراسة المضييق وحماية المواصلات ونقل الحشود والمعدات والرفاقين (عمال البريد) بين القديسين، ولعل أكبر دليل على إختصاص المؤرخين في ذلك الوقت بالأساطيل الحربية، هو ما تزويه المصادر من أن عامل مصر صلاح الدين الأيوبي أرسل في سنة ٥٨٦هـ (١١٩٠م) سفيرا من قبله وهو الأمير عبد الرحمن بن منقذ إلى خليفة المغرب يعقوب المنصور، يطلب إعاقته بالأساطيل لتحول بين أساطيل الصليبيين وبين إمداد النصرانية بالشام، ولما ناله ثغور عكا وصور وطرابلس التي سقطت في أيدي الصليبيين. وعلى الرغم مما قيل من أن المنصور قد رفض هذا الطلب لأن صلاح الدين لم يلقه في رسالته بأمر المؤمنين أى لم يعترف بخلافه المرعدين، فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن المنصور قد أرسل لصلاح الدين مائة وثمانين سفينة عربية لمنع الصليبيين من سواحل الشام^(١).

كذلك أورد صاحب روض القرطاس مثلا آخر يدل على تفوق البحرية في ذلك الوقت، وهو الخطاب الذي أرسله ملك قشتالة الفونسو الثامن إلى الخليفة المنصور يطالبه فيها بإرسال أسطول من المراكب والشوان والطرائد والمستطحات، كي يجوز إليه ببحيره ويقاظه في بلده^(٢). هذا إلى جانب رواية ابن سعيد المغربي (ق ٧هـ) عن تجنيد المغاربة المقيمين في مصر للعمل في الأساطيل المصرية استنادا إلى الفكرة التي كانت شائعة في المشرق عن إختصاصهم بهذا العمل لمعرفةهم بمعاناة الحرب والبحر^(٣).

== الشريف أبو القاسم محمد الغرناطي: كتاب رفع الحجب المستورة في محاسن المتصورة ص ٢٤١ (القاهرة ١٣٤٤هـ) راجع كذلك (Huici Miranda . la Campana de Alarcos p.23-27 Revista del Instituto de Estudios Islamicos de Madrid, Vol. II, 1954.

(١) السلاوي: الاستقصا ص ١٦٣ - ١٦٣

فأمثال هذه الروايات إن دلت على شيء فأنما تدل على تفوق البحرية المغربية والأندلسية في ذلك العهد .

ثم توفي الخليفة يعقوب المنصور سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٩ م) ، وقد أثار وفاته حزنا عميقا في الأوساط الإسلامية^(١) ، إلا أنها في الوقت نفسه حركت أطباع الطامعين من أعداء الدولة من جديد ، فعاد بنو غانية الميورقيون إلى شن غاراتهم على أفريقية ، وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدي وبلاد الجريد ، والدعاء فيها للخليفة العباسي جبريا على عادة أسلافهم المرابطين .

كذلك - أرسل سبائك بن غانية في سنة ٥٩٦ هـ (١٢٠٠ م) أن يسترد جزيرة يابسة Ibiza من أيدي الموحدين ، فتحرك إليها بأسطوله من جزيرة ميورقة وحاصرها من جميع نواحيها ولكن أهلها قاوموه بشدة ، واحتشدوا

= (٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٤٠ والمسطحات من أكبر السفن الإسلامية وربما سميت كذلك لأن لها سطحا .

(٣) المقرئ : فتح الطيب ص ٣٠٠ - ١١١ - ١١٢ .

(١) يقال إن الكثيرين من الناس كذبوا وفاته ، وقال البعض إنه قد تخلى عن الملك وذهب خفية إلى الأندلس حيث يراى في غورها للجهاد الكفار ، وقال البعض الآخر بل إنه توجه إلى البيت الحرام وجاور في المدينة عند قبر الرسول حيث يخفى أمره ، وقال فوبن ثالث بل إنه رحل إلى الأراضي المقدسة بفلسطين للجهاد الصليبين هناك . وقد كذب المؤرخون هذه الروايات وقالوا بأن المنصور مات في المغرب ودفن بجوار آبائه في تينمال .

راجع (الزركشي : تاريخ الدولتين ، الموحدية والحفصية ص ١١ - ١٢ ، الشريف الغرناطي : رفع الحجب المستورة ص ٢٠٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ص ٢٠٥ - ٤٣١ - ٤٣٢ ، ابن عذاري ص ٤٠٤ - ٢١١) .

بأسطول الموحدين ، الذي كان قريبا منهم ، فأمرح لنجدتهم بقيادة أمير البحر ابن ميمون ، واشتبك مع ابن غانية في معركة بحرية انتصر عليه فيها ، وظفر منه بطريدين أضرهما نارا ، ورجع عبدالله بن غانية خائب الوجه (١).

ورأى الخليفة الموحدى الجديد أبو دبد الله محمد الناصر لدين الله بن المنصور (٥٩٥ - ٦٩١ هـ - ١١٩٩ - ١٢١٤ م) أن استقرار نفوذ الموحدين في افريقية لن يستتب إلا اذا استول على جزر البليار ، قاعدة بني غانية ، ومصدر المتاعب التي يواجهها الموحدون في افريقية . لهذا صمم الناصر على احتلالها كلها (٢).

ولقد أعد الناصر لهذا الغرض حملة ضخمة في ثغر دانيه Denia ، أسند قيادة الأسطول فيها الى عمه أبي العلاء ادريس بن يوسف عبد المؤمن ، كما أسند قيادة الجيش الى شيخ الموحدين أبي سعيد عثمان بن أبي حفص . وكانت الحملة تتكون من الفين ومائتي فارس ، والرماة سبعمائة ، والرجال خمسة عشر ألفا ؛ غير غزاة القطع . وكان الأسطول في ثلاثمائة جفن ، منها سبعون غرابا ، وثلاثون طريده ، وخمسون مركبا كبارا ، وسائرهما قوارب منوعة . وأما العدد والسلاح والمجانيق والصلالم والمساحي والفؤوس والمعاول والرقائق والحبال فشيء لا يأخذ عدد ، وكذلك الدروع والرماح والبيضات والاتراس والمدرق والقسي وصناديق النشاب وجمل

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ٤ ص ٢١٦

(٢) يلاحظ أن الجزيرة الصغرى يابسة كانت في بدء الموحديين منذ سنة ٥٨٣ أيام المنصور ، والمراد هنا احتلال جزيرتي ميورقه ومنورقه .

وافرة من الطعام ، فأدوا صلاة الجمعة بياسة ، وأقلعوا غداة السبعة الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٩٩ هـ . (٢٠٣ م) ، فأثروا ميرة *Mallouca* ونزلوا فيها وتقدم الجنود نحو المدينة ، بنوا دار الأسطول بالمرسى مسج أبي العلاء ، وخرج اليهم عبد الله بن غانية بمجموعه ، ودافع كل الدفاع ثم انهزم وقتل ، وأغلقت المدينة بابها ، فأحاطت بها الرماة وغزاة البحر ، فتغلبوا عليها ، فدخلت ونهبت ولم يسلم إلا قصبتها . ودخل البلد السيد أبو العلاء قائد الأسطول ، والشيخ أبو سعيد قائد الجيش ، ورأس هد الله ابن غانية معها على قناة بيد رجل غزي كان قطعة ، فنهبا الناس عن النهب ، وأمرأ بهترب عتق رجل فعل ذلك وخالف النهي ، وطيف برأسه ، وأما الناس ، وهودى بالآمن في الأزقة والقصبة ، فنخرج الناس وأمنوا ، وكتبوا إلى الملك الناصر بالفتح^(١) . ويضيف ابن عذارى أن السيد أبو العلاء أسرى بأسطوله إلى الجزيرة الثانية مندورقة *Monorca* ، وكان ابن غانية قد ترك عليها مولى أبيه ابن نجاح^(٢) . المؤلف الذكر ، فبطش الأسطول بأهلها قبل التنازل لحوالهم وترتيب قتالهم ، فدخل البلد عنوة ، وقبض على ابن نجاح وأرسله إلى العاصمة مراکش ، فبالك بها^(٣) ، وبذلك تم للموحدين إحتلال الجزر الشرقية أو البليار . وكان من الطبيعي بعد ذلك

(١) راجع (عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٣١٤ - ٣١٥ ، المجري : الروض المطار ص ١٨٩) .

(٢) بسميه المراكشي (المعجب ص ٣١٧) بالزبير بن نجاح ويقول بأن الموحدين نشأوه وبشوا برأسه إلى مراکش
ابن عذارى : البيان المغرب ص ٢١٩ .

أن يبيع الخليفة الناصر فلول بن غانية في أفريقية ، فتحرك اليهم بحيشه وأسطوله^(١) سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) واستولى على تونس والمهدية ، وفر يحيى بن غانية بأهله وولده إلى صحراء طرابلس . ثم رأى الناصر أى استمرار بقاء نفوذ الموحدون في أفريقية يتوقف على إقامة حماكم دائم فيها يكون له مطلق التصرف في إدارتها . فاختار لهذا الغرض واليسا من قرابته وهو الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص الهنتافى جد الملوك الحفصيين^(٢).

وبعد أن تم للناصر توحيد المغرب الكبير ، تقدم بجيوشه وأساطيله نحو الأندلس للقيام بالدور الذى كان يحلوه له ولآبائهم من قبل وهو جهاد الممالك النصرانية في أسبانيا .

واستطاع الأسطول الموحدى فى بادىء الأمر أن يحرز نصرا باهرا على أسطول ملك أراجون إذ يقول ابن عذارى : وفى سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) تحرك السيد أبو العلا قائد أساطيل البرين إلى بلاد برشلونه بجميع أجفان العدو والأندلس على معاندة ومنافسة من أهل البلاد فى الاحتفال ، وتمكن من العدد الوافرة والأموال ، فكانت أحسن حركة للمسلمين ، وأرخس فجيعة وأعم وقبعة جرت على الغزاة البحرين ، وأوقع خسارة كانت بقلوب الكافرين^(٣).

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٣ ، رحلة التجانى ص ٣٦٢ .

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع ج ٤ ص ٢٤٣ .

غير أن الأوضاع السياسية في أسبانيا في ذلك الوقت ، قد تغيرت مما كانت عليه في عهد المنصور ، ذلك أن الأسبان لم يكتفوا بتوحيد صفوفهم بل أعلنوا الدعوة لحرب صليبية في أوروبا وبارك البابا أنوسنت الثالث حركتهم ، فجاءتهم جيوش جرارة من إيطاليا وفرنسا وألمانيا . ولم يستطيع الخليفة الناصر الصدود أمام هذه القوى الصليبية المتحالفة ، فدارت الدائرة عليه وقضى على معظم جيشه في معركة العقاب Las Navas de Tolosa سنة ١١٩٠ . (١٢١٢ م) .

ولقد انهارت تماماً نفوذ الموحدين في الأندلس بعد هذه الكارثة ، وأخذت المدن الأندلسية تتساقط في يد المسيحيين . وقد شجعت هذه الحالة على قيام بعض الرؤساء الأندلسيين بمحاولة الاستقلال بحكم الأندلس بنية انقاذها من تلك النكسة ، ولعل الأراجاف والنبوءات التي سادت البلاد في ذلك الوقت بتحديد اسم المخلص المنتظر ؛ فخير دليل على ما كانت تحس به البلاد من فراغ وشفور في الحكم ، ومثال ذلك قول ابن الخطيب : وكان الناس يرتقبون ظهور طالب للأمر اسمه محمد واسم أبيه يوسف ، وهي العلة المحركة لمحمد بن يوسف بن هود الثائر بمرسية ، ثم لمحمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر بعده بأرجونة ، وجسرى على الناس بسبب ذلك في زمن الموحدين امتحان شقى به قوم من وافق هذا الاسم أسماؤهم أو أسماء آبائهم ، وقتل بسبب ذلك شخصان من أهل جيان (١) .

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٧٨ (القسم الثاني) ، ابن هذاري : البيان المغرب ص ٤٠٤ .

ولقد استطاع ابن هود في بادئ الأمر أن يجمع شمل معظم بلاد الأندلس كما أطاعته سبته ورباط الفتح وسلا بعضا من الوقت . ولكي يكسب حكمه الشرعية اللازمة ، دعا للخليفة العباسي ببغداد المستعصر بالله الذي أرسل له بدوره خلعتة وتقليده الذي يخول له حكم الأندلس .

واستعان ابن هود في قيادة جيوشه وأساطيله بشخصية طريفة مغامرة وهي شخصية المقدم الفشتي . وكان هذا الرجل في الأصل صعلوكا ذاعرا يقطع الطريق ، وتحت يده جماعة من أنجساد الرجال ، وسباع البرار ، قد اشتهر أمرهم في تلك التراحي بشرق الأندلس ، مغاورين^(١) فيها للروم المجاورين إليها حتى اشتد جنوده هنالك بالأرض ومن عليها . فنهض إليه ابن هود ، وعرض عليه الانضمام إليه ، فوافق الفشتي بشرط أن يوليه قيادة الأسطول بالأندلس إذا تم له الأمر ، وقال له : نستفتح الأمر بمغامرة إلى أرض المشرق باسمك وعلى سعدك : ففعلوا وجلبوا كثيرا من الغنائم والأسرى . ثم وفي ابن هود للفشتي بعهده ، فولاه قيادة أسطول اشبيلية ثم أسطول سبته مضافا إلى إمرته . فلما علا معهده ، قام عليه أهل سبته وأرادوا قتله ، ففر أمامهم وخفى أثره إلى أن تحقق بعد ذلك خبره . ففيل إنه دخل في زورق صغير ليهرب فيه إلى الأندلس ،

(١) اتت كلمة المغاور بمدلولها ولفظها إلى اللغة الفشتالية باسم Almogavar ومعناها المشارب الذي يشير على الحدود المجاورة وتطلق كذلك على قرصان البحر راجع : (Eguílaz Glosario etimológico de las palabras españolas p. 233)

فوقع في أيدي القسود أسيرا، فحمل إلى جهة غرب الأندلس، ودام في الأسر أعواما كثيرة، ولو علموا أنه الغنمي لقتلوه أو طلبوا منه مالا كثيرا، لأنه كان لمسد ضربهم في البعر، وله فيهم جملة غزوات قتلهم فيها واستأصلهم وشاع ذكره في الآفاق حتى ضرب به المثل لزعامته وشهامته. (١)

على أن جهود ابن هود في توحيد الأندلس، لم تلبث أن اصطدمت بمطامع الأسبان من ناحية (٢)، والرؤساء الأندلسيين من ناحية أخرى، فكانت النتيجة أن جرت عليه وقائع وهزائم كثيرة، وانتهى الأمر باغتياله سنة ٦٣٥ (١٢٣٨ م) (٣). وتحول حكم الأندلس إلى بني نصر أمراء غرناطة.

(١) ابن عذارى: نفس المرجع ص ٢٥٥ - ٢٥٧، ويضيف ابن عذارى أن هذا الاتفاق ترك الأندلس في شبحوخته ومات برباط أسفى بالمغرب. راجع كذلك (ابن الخطيب: أعمال الاعلام ص ٢٧٩)

(٢) يردى ابن الخطيب أن ابن هود أرسل إلى البابا في روما رسولا من قبله ليطلبه على العقود المبرمة بينه وبين ملك قشتالة وكيف أن هذا الأخير قد تكف عنه ولم يف بشرطه. وكان سفير ابن هود هو أبو طالب بن سبعين، أخو أبي محمد عبد الحق بن سبعين المتصوف المرسى المعروف وقد أشاد للبابا بمنزله.

راجع: (ابن الخطيب: الاحاطة، نسخة الاسكوريال لوحة ٢٨١ - ٢٨٣)

(٣) اغتاله ابن الرصمى عامه على المريسة (ابن عذارى: ص ٢٥٨،

وفي خلال ذلك الوقت تكاثرت قشتالة وأراجون على أراضي المسلمين بالأندلس ، فاستولى ملك قشتالة وليرن فرناندو الثالث الملقب بالقديس El santo (١٢١٧ - ١٢٥٢ م) على نهر الوادي الكبير بما عليه من عواصم ومدن هامة مثل قرطبة سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) ، واشبيلية وقادس وشريش سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) ، فصار لهم منفذ إلى مضيق جبل طارق بعد أن كان التحكم فيه للمسلمين فقط . أما ملك أراجون خايمي الأول الملقب بالقاتع El Conquistador (١٢١٣ - ١٢٧٦ م) ، فقد أغار بأساطيله وجيوشه على شرق الأندلس ، وحاصر مدينة بلنسية برا وبحرا . وقد حاول أمير تونس أبو زكريا الحفصي إنقاذ هذه المدينة ، فأرسل إليهم في المحرم سنة ٦٣٦ هـ أسطولا مزودا بالمال والسلاح والمؤن ، ولكن الأسطول لم يستطع اختراق الحصار المضروب حولها فاضطر إلى العودة بعد ترك ماسوي المال من أطعمة وأسلحة في مدينة دانية . ولم تلبث بلنسية بعد شهر واحد أن سقطت في يد العدو (صفر سنة ٦٣٦ هـ - ١٢٣٨ م) ^(١)

وفي نفس هذه السنة التي سقطت فيها بلنسية ، هاجم الجنويون ثغر سبتة بغية فصل المغرب عن الأندلس والتحكم في مضيق جبل طارق . غير أن نقطة حاكمها الحاج أبو العباس اليانثي ، وسرعة استنجاده بالقبائل المجاورة ، قضت على هذه المحاولة ، واضطر الجنويون إلى الفرار بعد أن ذبح معظمهم ونهب أموالهم وفنادقهم التي بالمدينة . ولقد هادوا الجنويون

المعبر على سبته في مائة مركب. الانتقام لضحاياهم ، فماتوا ونصبوا
المجانيق عليها ، ولكنهم لم يتمكنوا من النيل منها لقوة أسوارها ، واضطروا
إلى الإقلاع عنها بعد أن دفع لهم اليانتي مالا معلوما ثم يضا لهم من
بعض خسائرهم (١) و (٢) .

ولم تقتصر فتوحات ملك أراجون خايي الأول على مدن الساحل
الشرقي ، بل شملت أيضا جزر البليار ، يعاونه في ذلك كثير من الجنويين
وأهل بروفانس . فاستولى على جزيرة ميورقة سنة ٦٢٧ هـ (٣) (١٢٣٠ م)
ثم يابسة سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) . أما الجزيرة الوسطى منورقة ، فقد ظلت

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ٤ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ وكذلك ص
٢٨١ حيث ترد اشارات عن قوة أسوار سبته وعدم تأثرها بمقذوفات المجانيق .
(٢) يروي ابن عذاري ص ٣٤٧ أن بعض أهل سبته يؤرخ هذه الحملة في سنة
٦٢٣ هـ وإن كان الرأي الغالب هو سنة ٦٢٩ هـ

(٣) تذكر المدونات الاسبانية أنه لما سقطت ميورقة في أيديهم وجدوا فيها
مكانا محاطا بأسوار وحصون ويحفظون بداخله السفن على الأرض ويطلقون
عليه اسم دارسانة Darzana ، وقد أهدى الملك خايي الأول هذا المكان إلى
جهازة الفرسان الاسبتارية كي يمكنهم عمل منازل جميلة بضم هذه السفن
بعضها ببعض .

راجع (Crónicas de los reyes de Castilla coleccion ordenada
por don Cayetano Rosell, 1, cap. xvii p. 163 & Torres Balbas :
Atarazanas Hispanomusulmanas, Al Andalus , 1940 , fasc . 3
p. 136)

في يد أميرها أبي عثمان سعيد بن حكيم الأعمري (ت ٦٨٠ هـ = ١٢٨١ م) ،
ثم ولده من بعده أبي عمر حكيم بن سعيد حتى سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م)
وقد أفرد ابن الخطيب لكل منها ترجمة وافية . وقد شرح في كلامه كيف
استطاع أبو عثمان سعيد بقوة ويقظته ، أن يحصى منورقة من خطر الغزو ،
إذ يقول : « وكان من سيرته أن يقتل الناس عقابا على شرب الخمر ،
فقال له المحدث ابن مقفوز (تشديد الواو مع كسرهما) محتجا : حفظك الله ،
تطلب من رواية السنة وتصحيحها وتمدى حدود الله هكذا ؟ ، والله
لا سمعت من حرفا أبدا . ، فقال له : « يا فتية ، هذه الجزيرة كثيرة
العنب ، والناس يشربون الخمر بها ويسكرون ، فيضيعون الاحتباس ،
فيظهر علينا العدو . ، أما في ترجمة ابنه أبي عمر بن سعيد ، فيقص
ابن الخطيب كيف كانت نهايته المحزنة غرقا في البحر مع أهله جميعا وهو
في طريقه إلى تونس ، بعد أن رفض ما عرض له عليه قائد السفينة من
ركوب الشان الذي يتبع المركب لينجوه وحده ، (١) .

وصف الشعراء لاسطول الموحدين:

كان أسطول الموحدين مثل غيره من الاساطيل الإسلامية الأخرى ،
موضع اطراء الشعراء ومدحهم . إلا أنه يلاحظ أن معظم القصائد التي

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام (القسم الثاني) ص ٢٧٥ - ٢٧٧ ، ابن

الأنبار : الحلة السيرة ص ٢ ص ٣١٩ .

سنة ١٢٧٩ هـ

قُبلت فيه ، كانت في مناسبات سياسية أو سرية معينة ، وهذا أخطاها
قيمة تاريخية إلى جانب قيمتها الأدبية . ومثال ذلك القصائد التي انشدت
بمناسبة زيارة الخليفة عبد المؤمن للقاعدة البحرية ، مدينة الفتح ، التي
بناها على جبل طارق سنة ٥٥٥ هـ . وحسبنا أن نقبس منها بعض الايات
مثل قول الشاعر القرطبي الأسمى المعروف بالطلق (١)

يرمى بهم ظهر طرف بطن ساجحة فالبر في شغل والبحر في صنب
وتعبر الماء منهم نار عادية يعلى بها هابذ الاوثان والصلب
ملك اذا اعمته الحرب عز بعد طار السفين أمام الجحفل اللجب (٢)

وفي هذه المناسبة أيضا يقول الشاعر الأندلسي أبو عبد الله الرصافي :

تسم الفلك من شط المجاز وقد نودين : ياخير أفلاك الملا سيري
فسرن يحملن أمر الله من ملكه بالله متصر في الله منصور
لما تسابقن في بحر الزقاق به تركن شطيه في شك وتحير
ذي المنشآت الجوارى في أجرتها شكل الغدائر من سدل وتضفير
من كل عذراء حبل في ترائبها ردعان من عنبر ورد وكافور
تخالها بين أيد من مجادفها يفرغن في مثل ماء الورد مبخور
وربما خاضت التيسار طائفة بمثل أجنحة الكواسير (٣)

(١) يقال إنه حفيد طابق السامه الذي أفرج عنه المنصور بن أبي عامر بسبب
استورة النمامة .

راجع (المراكشي : المعجب ص ٢١٦ - ٢١٧)

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ١٥٩ - ١٦٤ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

٢٧٧ -

وفي سنة ٥٧٥ هـ تحرك السيد الأهل أبو حفص عمر بن عبد المؤمن من
مراكش لمقابلة أخيه السيد أبي سعيد أمير الشبيلية في جبل طارق. وفي اليوم التالي
من وصوله سبته عبر غراب طيار من الجزيرة الخضراء يعلم بحلول السيد أبي سعيد
بجبل الفتح فعبر السيد أبو حفص البحر في ذلك اليوم ، ومعه جملة الناس في
القطائع المعدة لعبوره في هيئة عظيمة للنظارة من نشر البنود وقرع الطبول. كذلك
برز السيد أبو سعيد في قطائمه بجبل الفتح براياته ما أبهر الحاضرين. وفي هذا
اللقاء أنشد الشاعر أبو عمر بن حربون قصيدة نذكر منها :

يا من رأى الفلك على الموج طافية كما كفأت قبابا وسطها العمدة
بفساب منهن في أعلى غواربه أساود سكنت أجوافها أمد
بحر كأن أبا حفص بصوته لقان والمركب الجارى به لبد (١)
تعجبوا من غراب فوق غاربه نملان ذو الهضبات الشم وأحد (٢)
وحينما عبر الخليج أبو يعقوب يوسف إلى الاندلس في سنة ٥٨٠ هـ
(١١٨٤ م) مدحه الفقيه أبو محمد المالقي بقوله :

أوراكب فوق متن الماء مرتفق كأنه قبصر والقلع الكليل
فالبر كالبحر إذ تمنن أدرعها والبحر كالبر إذ يصطف أسطول (٣)
كذلك أورد المقرئ أبيتا عديدة في وصف الأسطول الموحدى نقلا من

(١) لقمان شخصية أسطورية ينسب إليها الحكم والأقوال والأمثال ،
ويقال إنه أبو النور ولبد آخر نعوره .

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ص ٢٥٣ وما بعدها ؛

(٣) ابن صاحب الصلاة : نفس المرجع ص ٤٢١ - ٤٢٣

شعراء عديدين أمثال ابن الأبار البلنسي وأبي عمرو يزيد بن عبد الله اللخمي
الاشبيلي وغيرهما (١).

البحرية في عهد بني مرين ملوك المغرب

لما ضعف أمر الموحدين بالمغرب ، وأخذ كل رئيس يستقل بفاحيته ،
استطاع الفقيه الشريف أبو القاسم بن أبي العباس العزفي بمساعدة قائد البحر
الاندلسي أبي العباس الرنداحي أن يستقل بسبته وأعمالها سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م)
وقد أطاعه الناس جميعا لأن بيت بني العزفي كان من بيوتات سبته المعروفة بالدين
والعلم والرئاسة .

وفي سنة ٦٦٣ هـ بعث الفقيه أبو القاسم العزفي أسطوله إلى مدينة أصيلا فهدم
أسوارها وقصبتها خوفا من احتلال الأسبان لها ، ثم أحرق ذلك باحتلال مدينة
طنجة سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) فصار مسيطرا بذلك على السواحل
الشمالية للمغرب (٢) .

ومن هذا الموقع الاستراتيجي الهام : أخذ أبو القاسم يبث سفنه في أنحاء
المضيق لتجسس على تحركات الأساطيل الأسبانية المعادية . واستطاع بفضل هذه
السياسة اليقظة أن يحذر أهالي المراسي والسواحل المغربية قبل وقوع الغارة عليهم
بوقت كاف . ومثال ذلك تحذيره لأهالي مدينة سلا من الغارة البحرية التي شنّها
عليهم ملك قشتالة الفونسو العاشر (El sabio) سنة ٦٥٨ هـ قبل وقوعها
بأيام قلائل (٣) .

(١) المقرئ : نفع الطيب ج ٥ ص ١٩٨ - ٢٠٠ ، أزهار الرياض ج ١ ص ٣٣

(٢) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٢٤ - ٢٥ .

(٣) ابن خلدون : ملوك المغرب ج ١ ص ٢٣٣ .

وقد وجهه إليه السلطنة المرتضى الموسوي رسالة شكر على تحذيراته
وصانحه (١) و (٢) .

ولما قامت دولة بني مرين بالمغرب ، وقفنت على نفوذ بني عبد المؤمن نهائيا
سنة ٩٦٧ هـ (١٢٦٩ م) وجدت أن إتمام توحيد المغرب يقتضى ضرورة
الاستيلاء على هذه القواعد البحرية الشمالية التي تحت طاعة بني العزفي . واستطاع
السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المروني (٦٥٩ - ٦٨٥ هـ - ١٢٥٨ -
١٢٨٩ م) أن يستولى على مدينة طنجة من أيديهم سنة ٦٧٢ هـ . أما مدينة سبتة
فقد استعصت عليه واضطر أن يبرم اتفاقا مع صاحبها أبي القاسم العزفي ينص
على أن يبقى هذا الأخير معتمدا بحصنه ، وأن يؤدي لسلطان المغرب خراجا

(١) ابن هزاري : نفس المرجع ص ٤٢٥ .

(٢) يؤثر عن هذا الفقيه أبي القاسم العزفي أنه أول من احتفل بالمولد النبوي
(١٢ ربيع الأول) احتفالا رسميا ، وجعله عيدا من أعياد الدولة الوطنية
الرسمية شاركت فيه بأموالها ونفوذها فأكسبته بما يستحقه من روعة وبهجة .
ولم تلبث هذه العادة أن انتقلت إلى فاس وقرطاجنة وتطوان ومكناس وعمت جميع
بلاد المغرب الاسلامي قصار يحتفل به رسميا هناك إلى اليوم : وما زالت مدينة
ضلا تختص بموكب الشموع الذي يخرج منها في هذه الليلة العظيمة . هذا ومن
المعروف أن الفقيه أبا القاسم العزفي قد ألف كتابا حول هذا الموضوع أسماه
« الدر المنظم في مولد النبي المعظم » .

وقد توفي هذا الحاكم العالم سنة ٦٧٧ هـ . راجع (ابن هزاري : البيان

المغرب : ج ٤ ص ٤٥٢) .

معلوماً كل سنة (١) .

ولقد أخذ المرينيون منذ ذلك الوقت يوجهون عنايتهم نحو الأسطول، وكان السلطان أبو يوسف يعقوب هو أول المهتمين به، ويذهب إليه بناء دار الصناعة بمدينة سلا، على يد المهندس الأندلسي محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج الأشبيل الأصل (ت ٧١٤ هـ). وقد بنيت قبلي مدينة سلا من جهة وادي أبي الرقاق، وجعل لها بابان كان الوادي يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر بصناعة هندسية، حيث جلب الماء من الوادي إلى الباب المسامت للجامع حسان في ترعة عميقة، فإذا صعدت سفينة جديدة بهذه الدار، وأريد أرساها في الوادي، فتحت الترعة فيدخل الماء وتعم في السفينة، فتخرج من الباب القبلي مباشرة على وجه الماء إلى أن تقع في الوادي، ولذلك ارتفع قوس الباب القبلي جداً، ليخرج المركب منشور القلاع (٢) كذلك اهتم السلطان يعقوب، بتحسين بعض القواعد

(١) السلاوي. الاستقصا ج ٣ ص ٣٤ - ٣٥. ولقد استمرت سببته في طاعة بني العزفي إلى أن استولى عليها سلطان غرناطة أبو سعيد سنة ٧٠٣ هـ ثم استعادها سلطان المغرب أبو الربيع سليمان المريني سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) وظل بنو العزفي يتمتعون بنفوذهم القديم في ظل الدولة المرينية (السلاوي: الاستقصا ج ٣ ص ٨٢، ١٠١)؛

(٢) راجع (محمد بن علي الدكالي السلاوي: الاتحاد الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز، مخطوط بمخزاة الرباط رقم D 1320 ولا يزال هذا الباب القبلي لدار صناعة سلا قائماً حتى اليوم ويعرف بباب الملاح إذ أنه يجاور ساحة لسكنى اليهود، وقد جرت العادة في المغرب إطلاق اسم الملاح على الأحياء اليهودية. راجع كذلك (محمد المنوني، نظم الدولة المرينية، مجلة البحث العلمي الرباط، العدد الثاني ماي ١٩٩٤) .

البحرية التابعة له على الضفة الأخرى للمضيق ومثال ذلك البنية أو المدينة التي بناها بجوار الجزيرة المحصورة (١).

وجاء بعد السلطان يعقوب ولده يوسف (٦٨٥ - ٨٢٠٦ = ١٢٨٦ - ١٣٠٦ م) الذي استمر على سياسة والده في إنشاء الأجنحة القروية بدار صناعة سلا، كما بنى قصبة تطوان سنة ٦٨٥ هـ، ثم بنى سور قصر المجاز الذي يعرف أيضا بقصر مصمودة والقصر الصغير بجوار طنجة سنة ٦٨٦ هـ (٢).

على أن البحرية المرينية لم تبلغ ذروتها وقوتها إلا في عهد السلطان أبي الحسن على المريني (٧٣١ - ٧٤٩ هـ = ١٣٣١ - ١٣٤٨ م) . فيروي ابن خلدون أن هذا السلطان استكثر من بناء الأساطيل حتى بلغ مجموعها مثل عدة النصرانية وعديدهم (٣) . كذلك يذكر السلاوي أن أساطيل هذا السلطان التي جاز بها في حملته على تونس في أواخر أيامه بلغ عددها نحو الستمائة قطعة . هذا ولم يتردد أبو الحسن في الاستعانة بخبرة الملاحين الجنوبيين في تنظيم بحريته حتى يضارع بها بحرية مملكتي أراجون وقشتالة في أسبانيا (٤).

(١) ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن نشر
نخبته ليني بروفسال في مجلة هسبريس سنة ١٩٢٥ .

(٢) السلاوي : الاستقصا ج ٣ ص ٨٩

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٦ .

(٤) السلاوي : نفس المرجع ج ٣ ص ١٧١ .

هذا الأسطول للأسف عصف به ربح شديدة أخطمت معظمه وغرق الكثير من رجاله وفيهم جدلة من العلماء والفقهاء . ونجا السلطان من الموت باصطربة إذ قذف به الموج وألقاه على الساحل الجواثى بنواحي تدلس .

ولم تقتصر عناية السلطان أبي الحسن المريني على بناء الأساطيل ، بل اهتم أيضا بإنشاء المحارس والمناظر على طول الساحل المغربي ، كما بنى أبراجا للمراقبة في داخل البحر أمام ميناء سبتة ليحول دون دخول سفن العدو في مرساها . وقد وصف كل ذلك الكاتب والخطيب المعاصر أبو عبد الله محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني (ت ٧٨١ هـ) في الكتاب الذي ألفه عن هذا السلطان (١) وفيه يقول :

أنشأ هذا المولى من المحارس والمناظر ما لم يهدد بمثله في عصر من الأعصار ، وحسبك أن من مدينة آسفي وهي آخر المعمر إلى بلاد الجزائر ، جزائر بني مزغان ، آخر وسطى الغرب ، وأول بلاد إفريقية ، محارس ومناظر إذا وقعت النيران في أعلاها اتصل في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة ، وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحدوا من شهرين ، وفي كل محرس منها رجال مرتبون بنظر وظلاح يكشفون البحر فلا تظهر في البحر قطعة تقصد بلاد المسلمين إلا والتنوير يدر في المحارس يتحذر أهل كل ساحل من السواحل ساحلهم ، فأمنت السواحل في أيامه السعيدة .

ومن أعجب ما أنشأ في هذا النمط ، الأبراج التي اجتمع أهل الخبرة بالمباني وعرفاء العبارة قبل أن تنشأ ليتصور بناؤها على الوجه الذي قدره

(١) هو كتاب المسند الصحيح الحسن في مآثره ولأبنا أبي الحسن للخطيب بن مرزوق ، وقد نشر نخباً منه المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في مجلة هسبيريست نختة عنوان

Lévi Provençal : un nouveau texte d'histoire Mérinide
Le Musnad d' Ibn Marzuk , Hespéris ' tome V 1925)

وأرادته ، فجرت على آتم الوجوه والاحسان ، فمنا برج الماء الذى أنشاه داخل تيمر ووسط الأمواج ببحر بسول من ساحل سبنة ، وقد حضرت لإنشائه ، وكان قد اجتمع المسلا على عسدم لإمكان بنائه هناك ، فنقلت الصخور التى هى كالروابي والاحجار التى لا يتحزح مثلها إلا بهندسة وإحكام وعجل ، فالتقى فى تلك التروش ، وضم إليها أماطا حتى صارت جزيرة فى وسط البحر ، فأقام عليها ذلك البرج المشيد المعروف هناك ، ثم أمر بعمل جسر يمر من الساحل إلى هذا البرج بحيث يتمكن مشى البهيمة عليه واتصال بمشاه من البر إلى البرج صان ذلك البرج جميع المرسى ، فلا يتنبأ لأحد من المراكب الدخول لذلك المرسى إلا أن يكون صديقا ، وإلا فهو يشرف على جميع ما يدخل تحته ، وهو من أعاجيب معمرات المعمور . ومنها البرج الذى على المصنع أيضا من المدينة المذكورة ، وآخران من هذا النمط بالجبل المحروس (١) . (أى جبل طارق) .

كذلك اهتم السلطان أبو الحسن بتحصين القواعد البحرية التابعة للمرينيين على الضفة الأندلسية المقابلة . وأهمها جبل طارق الذى حصره من أيدي القشتاليين سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٢ م) وعمل على تحصينه وتزويده بالعدد والآلات . وقد زاره عقب ذلك الرحالة الطنجى المعاصر ابن بطوطة ووصفه بقوله : وتطوفت على الجبل ، فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن رضى الله عنه ، وما أعد فيه من العدد ، ووددت أن لو كنت بمن رابط به إلى نهاية العمر ، ثم يقول : بنى به مولانا

(١) ابن مرزوق : المرجع السابق ص ٣٠ - ٣١

أبو الحسن ، رحمه الله المأثرة المظلمى - أى برجا كبيرا - بأعلى الحصن ، وكانت قبل ذلك برجا صغيرا تهدم بأحجار المجانيق ؛ فيها مكانه وبنى به دار الصناعة لإنشاء السفن ؛ ولم يكن به دار صنعة ، وبنى السور الأعظم المحيط بالتربة الحمراء الآخذ من دار الصنعة إلى القرسدة (١) (أى مصنع الآجر والقراميد) .

ولقد خاض السلطان أبو الحسن بأسطوله معارك بحرية عديدة ضد أساطيل أراجون وقشتالة انتصر في بعضها وانهمز في البعض الآخر ، وكلها تدخل في نطاق الصراع حول السيطرة على مضيق جبل طارق الذى أفردنا له فصلا خاصا بعد ذلك نظرا لتدعب أحداثه مع القوى الأخرى

دول بعدد أبي الحسن ولده أبو عثمان فارس (٧٤٩ - ٧٥٩ هـ = ١٣٤٨ - ١٣٥٨ م) الذى اهتم بإعادة بناء الأسطول المغربى بعد تلك العاصفة المدمرة التى أودت بمعظمه خلال حملة القيروان المشؤمة فى أواخر أيام والده . وقد أشار ابن بطوطة إلى الجهد الذى بذله السلطان أبو عثمان فى هذا الصدد بقوله : دوما شاع من أفعال مولانا - أيده الله - إنشاء الأجنان بجميع السواحل واستكثاره من عدد البحر ... وأكد ذلك بتوجيه

(١) أبو عبد الله محمد اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأصفار ج ٤ ص ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، نشر وترجمة دفرى مري وسانجونيتى (باريس)

بنفسه إلى جبال جبال^(١) في العام الفارط ليياشر قطع الحشيب للإنشاء ،
ويقول بذاته أعال الجهاد ،^(٢) .

ولاشك أن هذه الأساطيل لم تكن تصنع بسلا فقط ، بل كانت تبنى
أيضا في دار صناعة سبتة التي كانت تسمى أيضا بدار الإنشاء . ولقد
اشتهرت سبتة بمنجراتها أو مناجرها ، وهي مصانع التجارة التي كانت تصنع
بها لوازم السفن وأنواع القسي المختلفة . كذلك اشتهرت سبتة بمرامياها أو
جلساتها التي يربط فيها الرماة على أبعاد مختلفة لعد المغيرين ، إذ كان الرمي
من طبع أهلها فلا تجد منهم شريفا ولا شروفا ولا كبيرا ولا صغيرا إلا
وهو بصير بالرمي له وتقدم فيه^(٣) .

هذا وقد سار أبو عزان على سياسة والده ، في توجيه عنايته نحو
جبل طارق باعتباره قاعدة بحرية أممية مامة لإبلاده . وقد بلغ من
اهتمامه بهذه القاعدة أن أمر بعمل مجسم أو مثال لهذا الجبل ليضعه أمام
عينيه في قصره وفي ذلك يقول ابن بطوطة :-

(١) جاناته في غرب زمور بأقليم الرباط . راجع (محمد المنوفي : المرجع

السابق ص ٢٢٢)

(٢) ابن بطوطة : المرجع السابق ص ٤٠١

(٣) راجع (محمد بن القاسم الانصاري السبتي . وصف سبتة في القرن

التاسع الهجري ، نشر ليفي بروفسال ، مجلة هسبريس سنة ١٩٣١ ، الجزء الثاني

عشر ص ١٥٦)

« وجدد مولانا أمير المؤمنين أبو عنان عهد تحصينه وتحصيته وزاد
بناء السور بطرف الفتح وهو أعظم أسواره غناء وأهمها نفعا وبعت إليه
العدد الوفيرة والأقوات والمرافق العامة ... وبلغ من اهتمامه بأمور هذا
الجبيل أن أمر أيده الله ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور، يمثل فيه
أشكال أسواره وأبراجه وحصنه وأبوابه ودار صنعة ومساجده ومخازن
عصده وأمرية زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحراء ،
فصنع ذلك بالمشور السعيد فكان شكلا عجيبا أتقنه الصناع إتقاناً يعرف
قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال ، وما ذلك إلا لشوقه ، أيده
الله إلى استطلاع أحواله وتهمة بتحصينه وإعدادة (١) . »

مرتقد كان الاسطول في عهد السلطان أبي عنان موضع مديح
عدد من الشعراء نذكر منهم كاتب الدولة في هذه أبا القاسم بن رضوان
المالقي في قوله :

ولما استقامت بالرفاق أساطل له واستقامت للسعود محاملا
رأها عذر الله وانقض جمعه وأبصر أمواج البحار أساطلا
ومن دهش ظن السواحل أبجرا ومن ذهب خال البحار سواحلا
ومن جندكم هبت عليه هواصف تدمر أديانها الصلاب الجنادلا (٢)

كذلك نذكر الشاعر أحمد بن يحيى بن أبي حجلة التلساني نزيل القاهرة
في أبيات يخاطب بها أبا عنان :

(١) ابن بطوطة نفس المرجع ص ٣٥٧ * ٣٥٩

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحة ٢٣٤

فله ما انشأته من مسراكب ترادفها في البحر منه تكاوس
 قطائرها مثل النجوم قسلوعها وغربانها قطع من الليل دامس
 كأن مجاديف الغراب قسوادم يطير بها والنسرفى الافق كانس
 وهذه الايات قالها ابن أبي حجلة بمناسبة قدوم غراب لابي عنان
 في الرسالة إلى الاسكندرية ، مما يدل على ما كان الأسطول العناني من
 شهرة في الشرق العربي .^(١)

كذلك يورد ابن الخطيب رسالة في هذا المعنى موجهة من سلطان
 غرناطة أبي الحجاج يوسف إلى السلطان أبي عنان يقول فيها :
 وقد كان ذاع الخبر الذي تروق فوق أعطاف الإسلام منه الخبر ،
 بما صرف الله اليه عزمكم من تجديد ما درس ، واحياء ما القح سلفكم
 واغترس به من الاساطيل السابجة ، والتجارة الرابعة ، والاعمال الباقية
 الصالحة ، وأن الانشاء قد استدعى إليه الخلق ، والعزم تبلغ منه الصباح
 الطلق ، وشيم منه البرق وذهب الفرق ، فلا تسألوا عن موقع هذه
 الانباء من صديق يعدها من الله فضلا ومنا ، وعدو يسيء بها ظنا ،
 فلكل منها شرب معلوم ، وحفظ مقسوم .^(٢)

(١) محمد المنوفى : نفس المرجع ص ٢٢٣ قلا عن مخطوط بعنوان منطق الطير
 بمكتبة الرباط رقم ١٩١٠ .
 (٢) ابن الخطيب . ربحانة الكتاب ونجعة المنتخب ص ٢ لوحة ٥٤ ، محمد المنوفى :
 المرجع السابق .

أما عن قيادة الأساطيل فهي - كما يقول ابن خلدون - من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وإفريقيه ، ومروسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال ، ويسمى صاحبها في عرفهم الملقب بتفخيم الألقاب من لغة الإفريقية . (١)

ولقد رأس الأسطول المريني عسدد من كبار قواد البحر في ذلك العصر. يذكر منهم يحيى الرنداحي الذي تولى قيادة الأسطول في سبتة حتى سنة ٥٧٢٠ هـ. وهو ينتمي إلى بيت أندلسي عريق في القيادة البحرية بمدينة المرية (٢) ثم آلت القيادة بعد ذلك في عهد السلطان أبي سعيد عثمان والد أبي الحسن إلى ثلاثة إخوة من بني العزفي بسبتة وهم أبو زيد عبد الرحمن بن أبي طالب الذي تولى قيادة أسطول سبتة ، ومحمد بن علي الذي تولى رئاسة دار الصناعة بينهما ، ثم أبو زكريا يحيى الذي عين واليا على مدينة سبتة نفسها . (٣)

وفي عهد السلطان أبي الحسن المريني برز في هؤلاء الإخوة قائد البحر محمد بن علي الذي تولى القيادة العليا للأسطول وانتصر على أساطيل قشتالة

(١) لعلم الكلمة الإسبانية Almirante وأصلها أمير البحر . راجع (ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٢)

(٢) راجع (ابن القاضي : درة الخيال في غرة أسماء الرجال ص ٧١ نشر علوش ، ابن خلدون : العبر ص ٧٤ ص ٢٤٧)

(٣) (راجع ' Levi provençal : Le Musnad d' Ibn Marzuq ' Hespéris , 1925, Tome V, p. 13)

وأراجون في مياه الجزيرة الخضراء سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) واستمر هذا القائد في منصبه إلى أن قتل بعد وقعة القيروان سنة ٧٤٩ هـ . (١)

وفي عهد السلطان أبي حنان آلت القيادة العليا للأسطول إلى الأمير الغرناطي محمد بن يوسف بن الأحمر ، بينما تولى أحمد بن الخطيب قيادة أسطول طنجة ، كما ولي أبو القاسم بن أبي بكر بن بنج قيادة أسطول جبل طارق (٢) . ولم يلبث هذا الأخير أن صار قائدا أعلى للأسطول في عهد السلطان أبي سالم المريني (٧٦٠ - ٧٦٢ هـ) . ويوصم لاسم هذا القائد بن بنج بتلك المأساة التي حلت بصغار أمراء بني مرين على يديه ، وقد وصفها ابن الخطيب وصفا مؤثرا بقوله :

«وصرف السلطان - أبو سالم - وكده إلى اجتاث شجرة أبيه ، وأن لا يدع من يصلح للملك ولا من يترشح للامر ، فالتقط من الصبية بين مراهق ومحتمل ومستجمع ، طائفة تناهز العشرين غلبانا روفة من إخوانه وأبناء إخوانه ، فارتكبوا البحر إلى رده ، ثم تعقب النظر فيهم ، فأركبهم جفنا غزويا موريا بتغريبهم إلى المشرق مبعدا إياهم عن حدود أرضه ، ثم طير إلى قائد الأسطول أبي القاسم بن أبي بكر بن بنج يأمره بتغريبهم عند انصرافه عن مليلة (Melilla) ، فأخرجوا ليلا من جوف السفينة من بين

(١) السلاوي . الاسقصا ٣ ص ١٣٥

(٢) المنوني : نظم الدولة المرينية مجلة البحث العلمي بالرباط ، العدد الثاني

أسمائهم الكمال : بعد أن جلائهم الذلة ومسهم الضر ، وعاث في شعورهم
الحيوان لعلول مقامهم في البحر شهورا عدة وأغرقوا : يركب الصبي منهم
زبني من تلك الزبانية ليخرجه إلى البر ، فاذا مضى به الغمر ، وقارب
الضحضاح ظبه ، وأمسك أصحابه بيديه وغمسوا رأسه في الماء حتى تفيض
نفسه ، إل أن كمل منهم تسعة عشر بدور ملك وشموس إمارة ، غدوا
بالنعيم ، ومهدت لهم الأرائك ، ثم تعلق بهم شبة توجب لإباحة قطرة
من دماهم . حدثني متولى هذا المكره بهم بول عصرهم فقال : لقد علت
منهم ليلئذ الجثث حتى صارت فضبة ، وحفر لهم أنحدون هيل
عليهم ترابه (١)

ومن العجيب أن ابن الخطيب الذي أعطانا هذا الوصف المؤلم ، يورد
أيضا خطابا وجهه إلى هذا القائد أبي القاسم بن بنج يهنئه فيه
على مولود أنجبه ، قال فيه :

« أبهاك الله أيها القائد الذي بأسه ضرر ، وشأنه تسجاعة وكرم ،
وعمل ولايته من المدر حرم ... بلغني الطالع لديك ، والوارد من حضرة
المسواهب الإلهية عليك ، جعله الله أسعد مولود على والد ، وأقر عينك
منه بالقائد بن القائد بن القائد . وقد نظمت له أبياتا إن أدركته بعدها .
حياتي بر وشكر ، أو كانت الأخرى رحم وذكر هي :

ارفع قسي المنشآت بسعدده واستنجز النصر المميز لوعده

(١) ابن الخطيب : نقاضة الجراب في علالة الاغراب ص ٢٦٧ نشر أحمد
مختار المهادي .

وانظر اليه تلح اليك بوجهه سمة الشجاعة من أبيه وجده
 لله من سيف لعرك صارم ينساب ماء الحسن فوق فرند
 صدرت اليك بشارق وتقاوى بالامر قبل بروزه من غمده
 يستبشر الاسطول منه بقائد كاليد تحت شراعه أو بنده
 والبحر يفخر منه يوم ولاده بملنده بن ملنده (١)

أما عن تحركات الاسطول ووصف منايراته البحرية ، فحسبنا أن
 نورد في هذا المعنى بعض النصوص على سبيل المثال ، فيقول السلاوى
 في وصف عبور السلطان أبي الحسن بجيوشه إلى الأندلس : ثم شرع
 السلطان أبو الحسن في أجازة العساكر ، وانتظمت الاساطيل سلسلة واحدة
 من العدو إلى العدو ، ولما تكاملت العساكر بالمبور وكانت نحو
 ستين الفا ، أجازهم في أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين
 وسبعمائة ونزل بساحة طريف (٢)

كذلك يصف أحد المعاصرين المناورة البحرية التي أشرف عليها
 أبو عنان في مياه بجاية فيقول :

و أمثالاً لتعليقات أبي عنان ، اصطفت أساطيل البلاد البحرية المتوكلية (٣)
 يتقدمهم القائد الأعلى ابن الأحمر في طريدته ، ثم أسطول طنجة يتقدمه

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص ١٩٣ - ١٩٤

(٢) السلاوى : الاستقصا ص ٢٥٥

(٣) نسبة إلى لقب أبي عنان وهو المتوكل على الله

قائده ابن الخطيب فى غرابه ، وبعد هذا ترتبت بقية الاساطيل وقوادها حسبما اقتضته المدن التى تولوا أمر بحرها . وقد لزم قائد كل أسطول مكانه من مصطف الأجفان التى كان يكسوها طلاء السواد الحالك ، وتظهر صرارها شبه المآذن بينما شعبن داخلها بالابطال : بن رام وسائف (١) ورامح ، وقد لبسوا الحديد ، ورفعوا عقائرهم بالتحميد والتمجيد . فما شروء أبدع من تلك الأجفان وقد مدحت مرسى : فقرعت الطبول ، وعلت أصوات البوقات والانفار ، كما دوت طلقات الانفاط ، بكل متأجج الشواطىء والرايات خفقت حول أهالى الرماح ، وقد تنوع ألوانها . كأنها قوس قزح ، سوى طريدة القائد الأعلى فقد كانت رايتها بيضاء ، (٢)

البحرية فى عهد بنى الأحمر ملوك غرناطة

مملكة غرناطة (٣) هى البقية الباقية لدولة العرب فى أسبانيا بعد أن تمزقت دولتهم وسقطت مدنهم فى أيدي المسيحيين . لهذا كانت غرناطة هى الملجأ الطبيعى لمعظم المهاجرين الاندلسيين الذين فروا أو طردوا من بلادهم بعد سقوطها فى يد الأسبان . ولا شك أن هذه العناصر المهاجرة قد أعطت لهذا الوطن الجديد كل خبراتها وسواعدها بما كان له أثر كبير فى ازدهار هذه المملكة وبقائها فى مواجهة الأسبان أكثر من قرنين ونصف من الزمان (١٢٣٨ - ١٤٩٢ م) ولقد وهبت الطبيعة مملكة غرناطة جبالا شامخة مثل جبال شلير

(١) سائف أى حامل السيف

(٢) محمد المنوى : المرجع السابق ص ٢٢٦

(٣) راجع ما قلناه فى وصف هذه المملكة وسياستها فى باب الوزارة ص ٢٢٤ وما بعدها .

مقدمة

Sierra Nevada والبشرات Alpujarras التي سهلت مهمة الدفاع عنها ، كما وهبنا أيضا ساحلا طويلا يمتد من المرية شرقا إلى جبل طارق والجزيرة الخضراء جنوبا ، وهذا جعلها - رغم صغر حجمها - دولة بحرية من حول البحر المتوسط . ولقد عرفت هذه المنطقة الساحلية الغرناطية باسمها القديم وهو البلاد البحرية التي ظلت عامرة بالأساطيل ودور الصناعة والمخازن التي ورثتها عن الأسلاف المجاهدين منذ أيام الأمويين . وقد أعطانا المؤرخ المعاصر ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٨ هـ) وصفا قيما لأسطول غرناطة ونشاطه وقواعده في هذه المنطقة بقوله : وبالبلاد البحرية أسطول حراريق^(١) لغزو في البحر الشامي يركبها الانجاد من الرماة والمغاورين والرؤساء المهرة ، فيقاتلون العدو على ظهر البحر ، وهم الظافرون في الغالب ، ويفيرون على بلاد النصرى بالساحل أو بقرب الساحل ، فيستأصلون أهلها ذكورهم وإناثهم ، ويأتون بهم بلاد المسلمين ، فيبرزون بهم ويحملونهم إلى غرناطة إلى السلطان فيأخذ منهم ما شاء ويهدي ويبيع . والبلاد البحرية أولها من جهة الشرق :

المرية ، وهي ذات مرسى على البحر الشامي ، وهي أول مرامي البلاد الإسلامية بالاندلس ، وكانت العمارة قبل ليجانة (Pechina) فانتقلت إلى الساحل لمنافع الناس . والمرية ثلاث مدن . الأولى من جهة الغرب تعرف بالحوض الداخلي ، لها سور محفوظ من العدو بالسمار والحراس ، ولا عمارة بها .

(١) الحاربيق والحراقات ومفردها حراقة ، هي نوع من السفن الحربية التي تستخدم لحمل الأسلحة النارية ، كالنار الآفريقية ، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو في البحر . وقيل هي المرامي أنفسها . أنظر (محمد ياسين الحوي: تاريخ الأسطول العرب ص ٣٥)

ويليها إلى الشرق المدينة القديمة ، وتليها المدينة الثالثة المعروفة بمصلى المرية وهي أكبر الثلاث . والقلعة تحوز القديمة من جهة الشمال وتسمى القصبة بالسنتهم ، وهما قصبتان في غاية الحسن والمنعة . وساحل المرية أجمل السواحل وسورها حصون وقرى كثيرة الفواكه . وبها دار صناعة لإنشاء الحرايق لقتال العدو . وبأنتها الآن ولاية من صاحب غرناطة وقد كانت فيما مضى مملكة مستقلة وبينها وبين غرناطة مسيرة ثلاثة أيام .

ويلى المرية من البلاد البحرية من جهة الغرب بلدة شلوبسين^(١) (Salobrena) وهي معدة لإرسال من يغضب عليه السلطان من أقاربه ويزرع بها قصب السكر . ويليا المنكب^(٢) (Almunecar) وهي مدينة دون المرية ، بها دار صناعة لإنشاء السفن ، وبها قصب السكر والموز ويلى المنكب مالقة (Malaga) وهي مدينة بديعة كثيرة الفواكه لها ريفان عامران أحدهما عن طورها والآخر عن سفنها ، وبها دار صناعة لإنشاء الحرايق ، وجامعا بديع وبصحته نارنج^(٣) ونخل . يلى مالقة مدينة مربلة (Marbella)

(١) ينسب الى هذه البلدة إمام النحاة فى الأندلس أبو على عمير بن محمد المعروف بالشلوبين نسبة الى بلده هذا . له مصنفات كثيرة مثل كتاب التوطئة فى النحو وشرح كتاب سيوبه ، وكانت وفاته سنة ٦٤٥ هـ . راجع (السيرطى : بغية الوعاة ص ٣٦٤ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٢٩٠) .

(٢) اشتهرت هذه المدينة بنزول عبد الرحمن الداخل الأموى على مرساها عند دخوله الأندلس فى طلب الملك سنة ١٢٨ هـ ، وهى الآن مصيف هادى صغير ، ولا سيما لاهل غرناطة .

(٣) أباح الامام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى (ت ١٥٧ هـ) غرس الأشجار فى صحون المساجد ومذهب الأوزاعى الشافعى هو أول مذهب انتشر فى الأندلس ، وقد انتشرت معه عادة غرس أشجار النارنج والليمون فى صحون المساجد ، وظلت هذه العادة مستمرة بعد انتشار المذهب المالكى فى هذه البلاد .

وبليما اشتبونة (Etepona) . ثم جبل الفتح وهو طود شامخ منيع جدا يخرج في بحر الزقاق ستة أميال ويلى جبل الفتح من الغرب على الساحل ، الجزيرة الخضراء (Algeciras) وهى مدينة أمام مدينة سبتة من بر العدو من بلاد المغرب ، ومرساها من أحسن المراسى وهى آخر البلاد البحرية الإسلامية الأندلس وليس بعدها لهم بلاد (١)

والى جانب هذه القواعد البحرية وما فيها من دور صناعة لبناء الأساطيل وجدت كذلك الرباطات والمراقب "ساحلية" .

ولاشك أن الرباطات القديمة التى سمعنا عن نشاطها من قبل فى هذه المنطقة ، قد ظلت تؤدي دورها فى حراسة هذه السواحل والدفاع عنها فالوزير الغرناطى ابن الخطيب يشير الى رابطة القبطة (٢) بساحل المرسية Cabo de Gata ، وذلك فى خلال كلامه عن غرق سفينة غرناطية بمن عليها من الطلبة والأدباء وأبناء السراة والحساب بأحواز هذا المكان سنة ٧٣٩ هـ . (٣) كذلك نجد فى بعض الظواهر الروسية التى كان يصدرها سلطان غرناطة محمد الثنى بالله الى رهيته ، الحضر على بناء الحصن بجبل

(١) راجع (ابن فضل الله العمري : كتاب مسالك الأبحار فى ممالك الأمصار الجزء الخاص بوصف أفريقيا والأندلس ص ٤٤ - ٥٠ ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب بنونس) .

أنظر كذلك (القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢١٧ وما بعدها)

(٢) راجع ص ٢٩٦ - ٢٩٧ من هذا الكتاب .

(٣) ابن الخطيب . الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحة ٢٥ .

فارو^(١) Gibralfaro الذى يشرف على مرسى مالقة ، أهانة للسافرين وانجادا
لجهاد الكافرين^(٢) . هذا الى جانب المدونات الاسبانية المسيحية التى
وصفت غرناطة عقب سقوطها فى يد الماسكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابيل
(١٤٩٢م) ، وأشارت الى وجود عدد كبير من الربطو القصور الساحلية التى كانت
ترجع فى معظمها الى العصر الاسلامى^(٣) .

ولقد برز من أبناء هذه البلاد البحرية قادة ميرة تولوا قيادة الاسطول
الغرناطى والمغربى أيضا ، ونذكر منهم على سبيل المثال بنى الرنداحى^(٤) فى
المرية الذين استمرت فى بيتهم هذه الخطة منذ أواخر أيام الموحدين . وقد
برز منهم شخصيات متعددة فى المراجع الاسلامية .

فنسمع عن أبى العباس الرنداحى^(٥) الذى ساعد بأسطوله الفقيه أبى القاسم
العزفى عندما استقل بسبته وطنجه من طاعة الحفصيين سنة ٦٤٧ هـ . ونسمع
كذلك عن جعفر بن الرنداحى^(٦) الذى ولاه الخليفة المرتضى الموحدى على

(١) راجع ص ٢٩٨ من هذا الكتاب .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ص ٩٠ ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٣) راجع (Alfonso Gamir Sandoval ; Organizacion de la
defensa de la costa del reino de Granada, desde su
reconquista hasta finales del siglo XVI pp 265 - 275)

(٤) ورد هذا الاسم كذلك فى معظم المراجع ، ويرى سيبولد استناداً الى
الادريسي أن صحته الرنداحى نسبة الى بلدة فى صقلية اسمها الرنداج Randazzo

راجع : C.F. Seybold ; Analecta Arabo-Italica, en Centenario
della Nascita di Michele Amari, Volume II p 213 Palermo 1910

(٥) ابن عذارى . البيان المغرب ص ٤ ص ٤٠٠

(٦) ابن خلدون . المغرب ص ٧ ص ١٨٦ .

قيادة الأساطيل بالمغرب . وهناك أبو الحسن علي الرنداحي^(١) الذي تول قيادة أسطول المربة وقام بدور كبير في الدفاع عنها عندما حاصرها ملك أراجون خاببي الثاني سنة ٥٧٠٩ هـ (١٠٣٩ م) .

ثم هناك أبو علي الرنداحي^(٢) الذي أشار اليه ابن الخطيب كقائد عام للبحرية الغرناطية على أيامه ، راعه ابن أبي الحسن علي الرنداحي السالف الذكر ، كذلك يشير ابن خلدون الى يحيى الرنداحي كقائد لأسطول سبتة حتى سنة ٥٧٢٠ هـ^(٣) وكل هذا يدل على اختصاص هذه الأسرة بالقيادة البحرية .

ومن القادة الذين تولوا قيادة الأسطول الغرناطي نذكر أيضا أبا عبد الله محمد بن سلبطور الهاشمي ، وواضح من اسمه Salvador أنه من أصل إسباني ، وشواهدنا على الرنداحي وقد أفرد له ابن الخطيب ترجمة في إحاطته قال فيها كان من وجوه المربة وأعيانها ، متجندا ظريفا ، دربا على ركوب البحر وقيادة الأساطيل ، ناب في القيادة البحرية عن خاله القائد أبي علي الرنداحي ، وولى أسطول المنكب برهة ، وكان أدبيا جيد الشعر والكتابة ، ثم انحط في هواه انحطاطا أضرع مروءة ، استهلك تقاره ، وهد بيته ؛ والجاه أخيرا إلى اللحاق بالمدوة وتوفي بمراكش سنة ٧٥٥ هـ^(٤) .

(١) ابن القاضي . درة الحجال في غرة أسماء الرجال ٩٠ ص ٧١ ، نشر علوش الرباط سنة ١٩٣٤ .

(٢) ابن الخطيب . الاحاطة : نسخة الاسكوريال ، لوحه ١٨ - ١٩ .

(٣) ابن خلدون . المعبر ٧ ص ٢٤٧ .

(٤) راجع (ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحه ١٨ -

١٩ ، المقري : نفع الطيب ج . ص ١٩٢ ، ابن القاضي : درة الحجال ج ١ =

ومن قادة الأسطول الفرناطى أيضا نذكر القائد الوزير أبا الحسن بن كماشة الذى أمر له ابن الخطيب ترجمة وافية فى احاطته قال فيها : كان جده من المتزين ببعض حصون الأندلس طليطاطة (Tablada) وخدم طاغية الروم ببعضها وانخرط فى جملة يشهد بذلك مكتوبات تلقاها بشماله ووراء ظهره صانها حافده المترجم به فى خرقه من السرق لا يزال يمرضها فى سبيل الفخر على من يصل إلى باب السلطان من رسل الروم . ولقد مرضها أيام سفارته إلى ملك قشتالة على وزيره سمويل اليهودى وطلب تجديدها . وهذا الرجل حسن الشكل كبير الهشة جيد الرباش ، كثير التعلق والترسل ، شديد المداخلة لأذيال الأمراء ، متصامم على أغراضهم متنفق بالسعاية متبذل فى أسواق الخدمة ... أطمع خلق الله وأبخلهم بما لديه ، وأبعدهم فى مهابى الحسة ، أما قلعه فمخزون ، وأماخوانه فمحجوب ، وأما زاده فممنوع ، وأما ثوبه فحبيس التخت إلى يوم القيامة (٢) .

== (ص ١٩٦) وقد ورد فى هذه المصادر السابقة نماذج من شعر هذا القائد مثل قوله فى مدح السلطان أبى الحجاج يوسف عندما زار المرية :

أثفرك أم سمط من الدر ينظم ويريقك أم مسك به الراح تختم
وقوله مخاطبا الشاعر أبا القاسم محمد بن خاتمة ردا على قطعة خاطبه بها مطلعها
البيت الأخير من هذه الأبيات :

وفاضت دموعى بفردى ولوعى وبين ضلوعى هوى شب ناد
فكم ذا أقامى وقلبك قامى ومالى أسمى لطول انفار
اترضى بماتى وأنت حيانى إذا لم توات فكيف اصطبار
خلعت عذارى بوادى المزار وسبع القمارى وسيف التقاو
(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوجه ٢٩٧

من الطريف أنه يتبادر إلى ذهن القارئ ويهتد به بالبحر والطمع
إذا بالشاعر ابن خاتمة يهتد بالكرم أثناء ترجمته للشاعر ابن خنيس بقوله : وقدم
ابن خنيس المرمية سنة ست وسبعمائة فنزل بها في كنف القائد أبي الحسن ابن
كاشة فوسع له في الإيثار والمبرة ، وبسط له وجه الكرامة طلق الأسرة ،
فقال في مدحه .. الخ (١) . ولعل نحامل ابن الخطيب على ابن كاشه راجع إلى
موقف هذا الأخير من سلطانه محمد الغنى بالله حينما تخلى عنه أثناء مطالبته
بعرشه (٢) .

وإلى جانب هذه المعلومات التي أوردها ابن الخطيب عن قادة الأسطول
الغرناطي فقد أعطانا أيضا بعض المعلومات عن بحارة الأسطول ، ومثال
ذلك إشارته إلى اهتمام الدولة بزيادة أجورهم على أيامه (٣) . ثم وصفه
لمهارة هؤلاء الملاحين وخفة حركاتهم عند قوله :

وبحري تلاعب في شريط وحي الفعل متصل الصوت
تدلى وارتقى وسما وأهوى وأعجب في التماسك والثبوت
وقلنا إن يمكن بشرا سويا ففيه غريزة من عنكبوت (٤)
كذلك يفهم من قصائد شاعر الجراء عبد الله بن زمرك أن الإعلام
التي كانت ترزف على الأسطول الغرناطي كانت حرام اللون جريا على
شعار بني الأحمر ملوك هذه الدولة ، ومثال ذلك قوله في مدح السلطان
محمد الغنى بالله :

-
- (١) المقرئ : نفح الطيب ج ٧ ص ٢٨٢
(٢) راجع الجزء الخاص بالوزارة في عهد بني الأحمر ص ٣٢٩ .
(٣) ابن الخطيب . الإحاطة ج ٢ ص ٣٠ - ٣١ (طبعة القاهرة)
(٤) ابن الخطيب : الإحاطة . نسخة الإسكوريال ؛ لوحة ٤٥٤

أعلامك الحجر فوق السفن خافقة . وريح سحلك تجريها على قسدر (١)
 أما هن سياسة غرناطة البحرية ، فكانت مرتبطة بسياستها العائمة التي
 أمتازت بالمهارة والمرونة . لقد كانت غرناطة تمتلك قوة بحرية
 منظمة قادرة على حماية سواحلها وتجارتها بل وإسداد جارتها قشتالة (٢)
 ببعض وحداتها البحرية أثناء حروبها مع أرجوان ، إلا أن غرناطة مع
 ذلك كانت دولة صغيرة محدودة القوة والموارد والامكانيات ، ومحاطة
 بدول تفوقها عدة وعددا مثل أرجون وقشتالة والبرتغال والمغرب . لهذا
 كانت سياستها تعتمد أولا على مهارتها الدبلوماسية تجاه تلك الدول المحيطة
 بها ، وعدم التورط في خوض قتال خطير بمفردها ، ثم على الاستعانة
 بقوة جيرانها المغاربة عندما تهبطها الظروف الى مجابهة أعدائها المسيحيين
 في ميدان القتال برا أو بحرا . وهذا الموقف جعل غرناطة تهرص دائما
 على أن يكون مضيق جبل طارق مفتوحا أمام النجدة المغربية ، وبعيدا
 عن السيطرة المسيحية كي يظل اتصالها بالدولة المغربية آمنا مستمرا .
 وقد اضطرت غرناطة في هذا السبيل إلى التنازل أحيانا للمغرب عن بعض
 قواعدها الجنوبية التي على المضيق مثل جبل طارق والجزيرة الخضراء

(١) المقرئ ازهار الرياض ص ٢٨١

(٢) يلاحظ أن مملكة أرجوان كانت دولة بحرية بحكم وضعها الجغرافي في
 شمال شرق أسبانيا ، على عكس مملكة قشتالة التي كانت دولة برية بحكم نشأتها في
 قلب أسبانيا ، غير أن انتصاراتها الأخيرة على المسلمين مكنتها من احتلال بعض
 القواعد البحرية . الأمر الذي جعلها ترسم لنفسها سياسة بحرية منذ ذلك الوقت

وطريف ورنده ليتولى بنفسه مهمة الدفاع عن تلك القواعد ، واتخاذها رأس جسر للتدخل في وقت الجهاد ولقد أدركت كل من قشتالة وأراجون أهداف تلك السياسة ، فحاولت من جانبها فرض سيطرتها على المضيق واحتلال قواعده . كى تحول دون اتصال المغرب بالاندلس . ومن هنا نشأ صراع طويل بين جميع هذه القوى حول السيطرة على مضيق جبل طارق La empresa del estrecho de Gibraltar . ولما كانت سياسة غرناطة في هذا الصراع مرتبطة بسياسة الأطراف الأخرى المشتركة فيه فقد آثرنا أن نفرد لهذا النزاع موضوعا مستقلا .

- ٥ -

الصراع حول السيطرة على مضيق جبل طارق

في القرنين الثامن والتاسع الهجري (١٤ ، ١٥ م)

ذكروا أن الغالب بالله محمد الشيخ مؤسس مملكة غرناطة ، كان له صهر من أهل بلدة أرجونة يعرف بابي الحسن بن الحسن بن أشقيلولة^(١) شاركه في فتحاته وفي تأسيس مملكته فلما استقر الأمر للغالب بالله بفرناطة ، زعموا أنه عرض على صهره الأمر ، فقال له : أنا أمي ، لا أكتب ، وهزك من عزي ، ومملكك ملكي ، فأسكنه بالفصبة وقدمه على الجيش . ثم توفي الرئيس ابن أشقيلولة وخلفه ولدين : أبا اسحاق ، وأبا محمد ، فهما صهرها السلطان على ابتنيه . مؤمنة وشعس ، وولى الأول على مدينة زادي آش Guadix كما ولى الثاني على مدينة مالقة Malaga ، وأنجبوا البنين والبنات وصارت أحواصهم مستقيمة ، وأمورهم تحت نعمة جدهم السلطان جاريه ، إلى أن كبر ابن السلطان وولى عهده محمد ، فنافس هؤلاء الأبناء بني أشقيلولة وقاتل بهم^(٢)

(١) واضح أن هذا الاسم ليس عربيا وإنما من أصل إسباني وقد وردت ككتابة بصيغ مختلفة

راجع (Diccionario de Historia de Espana I ' p. 368)

(٢) يروي ابن الخطيب في احاطته (نسخة الاسكوريال ورقة ٢١٤)

ولما مات السلطان محمد الشيخ وآل الأمر إلى ولده محمد الثاني المعروف بالفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ - ١٢٧٢ = ١٣٠٢ م) زادت النفرة بين بني أشقيلولة وبين خالهم السلطان الجديد ، فأظهروا الامتناع والعصيان بمدينة بني وادي آش ومالقة ، ثم أعلنوا ولائهم وتبعيتهم لسلطان المغرب أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المربني (٦٥٦ - ٦٨٥ هـ = ١٢٥٨ - ١٢٨٦ م) وانتبه سلطان المغرب هذه الفرصة وأعلن تأييده للشوار واستولى على مدينة مالقة وأقام بها عيد النحر سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٧ م)^(١) وتمنوف السلطان

== أن ثورة بني أشقيلولة بدأت في أواخر أيام السلطان محمد الشيخ ، وأنهم امتنعوا بحصونهم في مالقة ووادي آش عما أدى إلى قيام الحرب بينها . ثم يروى فادرة لطيفة تدل على إنسانية هذا السلطان وشفقته إذ يقول وبينما كان السلطان ينزل مالقة ، ركب في ثلاثة من مالهكة متخفيا كما دعا غرضه وذهب إلى باب المدينة ، فلما أبصر به القائمون به هاجم الأمر وأدهشهم المية فأفرجوا له موقرين لحاله آسرين لقله أتباعه ، فدخل وقصد القنصة ، وطير الخبر إلى الرئيس محمد بن أشقيلولة فبادر إليه راجلا مهرولا حافيا ولما دنا منه ترامي على رجله يقبلها اظهارا لحق أبوته وتعظيما لقدرة ودخل معه إلى بنته أي بنت السلطان وحفدته فترامى الجميع على أطرافه يلثمونها ويتعلقون بأذياله وأذرانه وهو يبكي اظهارا للشفقة والمودة . وأقام معهم يياض يومه ثم انصرف إلى محله .

(١) عن ثورة بني أشقيلولة راجع (ابن الخطيب . أعمال الاعلام ، القسم الخاص بالاندلس ص ٢٨٧ - ٢٩٩) ولاهمية هذا النص فقد ترجمه علوش إلى الفرنسية (Hesperis xxv , 1938) كما ترجمه سانتش البرنت إلى الأسبانية (Sanchez Albornoz : La España Musulmana 11 . p 352)

من أطماع سلطان المغرب وظن به الظنون ، رخصي ، أن يغلبه على بلاده كما فعل يوسف بن تاشفين مع المعتمدين عباد وغيره من ملوك الطوائف ، فلجأ إلى جيرانه المسيحيين ، وعقد مع سانشو الرابع Sancho IV ملك قشتالة وخايمي الثاني Jaime II ملك أراجون معاهدات دفاعية ضد ملك المغرب .

واستطاع كل من الملكين سانشو وخايمي أن يقنع سلطان غرناطة بضرورة احتلالها بصفة مؤقتة لبعض قوادع المضيق مثل طريف Tarifa والجزيرة الخضراء Algeciras التي كانت في يد المرينيين ، لأنها تعتبر رأس جسر لعبور القوات المغربية إلى الأندلس . ووافق سلطان غرناطة على ذلك بشرط أن تدلم له هذه القوادع بعد ذلك .

ثم نازلت أساطيل أراجون وقشتالة مدينة الجزيرة الخضراء ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) ولكنها منيت بهزيمة فادحة أمام الأسطول المغربي والسبب ، واضطرت إلى الإقلاع عنها خاتبة السعى وتمكن سلطان المغرب من العبور ببحيره إلى أسبانيا . وكانت مالقة في خلال ذلك الوقت قد استردها سلطان غرناطة بعد أن داخل إليها من قبل المرينيين وعرضه عنها بالمنكب وشلبانية . فتنازلها ملك المغرب وكانت عليها حرب عظيمة بلغت فيها حلات الجيش المريني إلى أن صاهمت الأسوار رؤوس الخيل ، ولكنه عجز عن احتلالها ، واضطر سلطان المغرب إلى فك الحصار عن مالقة والعودة إلى الجزيرة الخضراء . واستمرت المناوشات والحروب قائمة بين الفريقين إلى أن تم الاتفاق بينها على أن يتنازل سلطان غرناطة عن مدينة وادي آش قاعدة بني أشقيلولة لسلطان المغرب ، بينما يتنازل

سلطان المغرب عن مدينة القصر الكبير (١) في شمال المغرب لـبنى
اشقبيلولة . وفي سنة ٨٦٨٧ هاجر بنو اشقبيلولة بأموالهم وأهلهم ورجالهم
الى مدينة القصر الكبير وأعمالها ؛ واستقروا بها الى أن انقرضت
أيامهم في أواخر الدولة المرينية (٢) .

على أن سلطان غرناطة رغم هذا الانفاق السالف الذكر ، لم يأمن جانب بنى
اشقبيلولة ، وتوقع أغراءهم به من صاحب المغرب وعودتهم إليه ، ولهذا
استولى على مدينة وادى أش وطرد عامل المرينيين منها ، كما استنجد بالقوى
المسيحية الإسبانية لصد المضيق بأساطيلهم : وفي سنة ٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) قام
سانشو الرابع ملك قشتالة بمحاصرة طريف برا بينما حاصرها ملك أراجون
باساطيله من البحر . أما ملك غرناطة ، فإنه أكتفى بمهاجمة مدينة أسطبلونة إحدى
القواعد الأندلسية التابعة لسلطان المغرب ، وانتهت هذه العمليات بسقوط
طريف في أيدي القشتاليين بعد حصار دام ستة أشهر (٣) .

(١) القصر الكبير مدينة في شمال المغرب في جنوب سبته وكانت تسمى أيضا
بقصر كتامة وقصر عبد الكريم .

(٢) السلاوى : الاستقصا ٣ ص ٦٨ .

(٣) راجع (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٩١) وكذلك .

Gimenez Soler ; La corona de Aragon y Granada Boletín
de la real academia de buenas letras de Barcelona : num.
19, 1905) .

وراجع كذلك (ابن خلدون : العرج ٧ ص ٢١٦) .

على أن ملك قشتالة لم يلبث أن نسي وعوده السابقة لملك غرناطة، ورفض تسليمه ثغر طريف بل واحتفظ أيضا بالحصون الغرناطية التي كان محمد الثاني قد سلمها إليه في مقابل تسليمه قاعدة طريف ، وثارته ثائرة سلطان غرناطة لهذه الخدعة ، ولم يجد وسيلة أمامه سوى العبور إلى سلطان المغرب أبي يعقوب يوسف سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٣ م) ليطلب منه الصفع على مسلكه السابق ، وليطاب منه أيضا معونة حربية لاسترداد طريف (١) .

واستجاب سلطان المغرب لطلبه . وهاجمت الجيوش والإماتيل المغربية والغرناطية قاعدة طريف ولكنها لم توفق في احتلالها . وترجع المصادر الأسبانية هذا الفشل إلى بطولية قائد حامية المدينة قزمان الطيب Guzman el Bueno الذي فضل أن يقتل المسلمين ولده أمام عينيه على أن يسلم المدينة (٢) .

غير أن السلطان محمد الثاني ، وأن كان لم يوفق في استعادة طريف ، إلا أنه استطاع أن ينزع من القشتاليين مدينتين من أعمال جيان وهما تيجاطة

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٢٦٥ ، ابن خلدون . العبر

ص ٧ ص ٢١٧ .

(٢) راجع . Pedro Barrantes Maldonado : Ilustraciones de

la casa de Niebla, memorial historico Espanol, t 1x p. 145 - 170 , Gimenez Soler ; La corona de Aragon. y Granada, B.R.A.E. L. B. , no 19 (1905) p. 152)

Quesada سنة ٥٦٩٥ (١٢٩٥ م) (١) والقبذاق Alcuadete سنة ٥٩٩٩ (١٢٩٩ م) . ثم انتهت هذه الحروب بعقد صلح بين غرناطة وكل من قشتالة وأراجون سنة ٥٧٠٢ (١٣٠٢ م) .

وفي أوائل القرن الثامن الهجري (١٤ م) قامت في بلاد المغرب ثورات واضطرابات داخلية ، ولم يلبث الحظان نفسه أبو يعقوب يوسف أن مات مقتولا بيد بعض عبيده سنة ٥٧٠٦ (١٣٠٦ م) .

ولقد حركت أبناء هذه الفوضى ، أطماع سلطان غرناطة الجديد محمد الثالث (٧٠٢ - ٥٧٠٩ - ١٣٠٢ - ١٣٠٩ هـ) في السيطرة على المضيق ، فانتز هذه الفرصة وأمر ابن عمه أبا سعيد فرج صاحب مالقة بالاستيلاء على سبتة ، فافتحمها بأساطيله وجنده واستولى عليها سنة ٥٧٠٦ (١٣٠٦ م) وقبض على ولاتها من بني العزقي وأرحلهم أسرى إلى غرناطة (٢) .

وغضب سلطان المغرب أبو ثابت عامر (٧٠٦ - ٥٧٠٨ هـ) من هذا التدخل الفرناطي في شئون بلاده ، وقام من فوره بتأسيس مدينة تطوان (٣) جنوبي

(١) راجع تفاصيل هذا الفتح في (ابن الخطيب : الاحاطة نسخة الاشكوريال :
لوحات ٤٨ - ٥٢) .

أنظر كذلك Melchor Antuna : Conquista de Quesada y Alcuadete por Muhammad II de Granada, Religion y Cultura, 1932, XIX, XX)

(٢) ابن الخطيب : القمحة البدرية ص ٥٣ ، ابن خلدون : المبرج ٧٧٩ - ٧٢٨ .

(٣) يلاحظ أن قصبة تطوان بناها السلطان أبو يوسف يعقوب ١٢٨٥ م ثم داه السلطان أبو ثابت فبنى المدينة نفسها لكي يهدد منبها المدينة مبنية . راجع (الاولي : الاستتصا ج ٢ ص ٤٦) .

سبئة لتكون قاعدة عسكرية ضد الجيوش الغرناطية في سبئة . ولم يمش السلطان أبو ثابت طويلا لكي يمتحن أماله ولكن أبه أبو الربيع سليمان (٧٠٨ - ٨٧١٠ = ١٣٠٨ - ١٣١٠ م) واصل سياسته بضرورة استعادة سبئة وتحالف مع مملكتي قشتالة وأراجون ضد غرناطة .

ورأى كل من ملك قشتالة فرناندو الرابع ، وملك أراجون خايمي الثاني أن الفرصة باتت سانحة للقضاء على مملكة غرناطة ، فتحالفا على غزوها في وقت واحد على أن تقوم الجيوش القشتالية بمهاجمة مدينة الجزيرة الخضراء من الجنوب ، بينما تمساجم الأساطيل الأراجونية مدينة المرية من الشرق ثم يتقابل الجيشان في مدينة غرناطة العاصمة (١) .

وحينما علمت غرناطة بأنباء هذا العدوان المشترك على أراضيها ، ثارت ثائرة أبنائها ، وأخذوا يستعدون للقتال . وساء لهم أن يجدوا سلطانهم محمد الثالث قد استفد جميع المخزون من المؤن والغلال أثناء عملياته العسكرية في بلاد المغرب ، فقاموا بثورة ضده ، انتهت بنخله ونفيه إلى ثغر المنكب

(١) راجع التفاصيل (Gaspar Remiro : Relaciones de Aragon con los estados musulmanes de Occidente : El negocio de Ceuta entre Jaime II de Aragon y abu Rabi Solaiman sultan de Fez, contra muhammad III de Granada & Angel Canellas: Aragon y la empresa del Estrecho en el siglo XIV, estudios de Edad media de la Corona de Aragon Vol. II, P. 17 & Gimenez Soler : Expedicion de Jaime II a Almeria, B. R. A. B. L. B., ho 14 (1904) P. 292) .

Almunecar ، وتولية أخيه أبي الجيوش نصر سلطانا على غرناطة (٧٠٨-٧١٣ = ١٣٠٩ - ١٣١٤ م) ^(١) .

ورأى سلطان غرناطة الجديد ضرورة إعادة العلاقات الودية بين غرناطة وفاس لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الخطر المسيحي المنتظر . فعبر إلى سلطان المغرب أبي الربيع سليمان ؛ وتنازل له عن مدينتي رندة والجزيرة الخضراء ، كما أعاد إليه ثغر سبتة الذي سبق أن استولى عليه أخوه ، ثم توج هذا كله بعقد قرانه على أخت سلطان المغرب ^(٢) .

ثم رأى سلطان غرناطة ، بعد أن ألقى عن عاتقه مهمة الدفاع عن الجزيرة الخضراء ورندة ، أن يتقرب إلى ملك قشتالة فرناندو الرابع ، ويعرض عليه بعض الحصون الغرناطية مقابل تخليه عن حليفة ملك أراجون . غير أن ملك قشتالة رفض هذا العرض ، وأعلن الحرب على غرناطة وعلى سلطان المغرب أيضا لأنه كذب عليه وعلى ملك أراجون ^(٣) .

وفي عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) هاجم ملك قشتالة جبل طارق وتمكن من الاستيلاء عليه . ثم تقدم نحو الجزيرة الخضراء محاولا احتلالها ولكنه فشل واكتفى بحصارها . وفي الوقت نفسه (٧٠٩ هـ) حاصر ملك أراجون خايمة الثاني بجيوشه وأساطيله ثغر المرية .

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ . ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٥٨ .

(٣) راجع Gimenez Soler : Expedicion de Jaime II a)
Almería, Op. cit p. 301 - 302) .

غير أن هذا الهجوم المزدوج انتهى بالفشل إذ استطاعت كل من
المدينتين الصمود أمام العدوان ولاسيما مدينة المرية التي تعرضت في هذه
الحرب لأشد هجوم عرفته في تاريخها . ولهذا اهتم به المؤرخون القدامى
والحديثون وكتبوا عنه في شيء من التفصيل . (١)

ولقد انتهى هذا المشروع الحربي الفاشل بأن عقدت كل من قشتالة
وأراجون صلحا مع غرناطة والمغرب ، وقامت بعد ذلك علاقات طيبة
بين هذه الدول الأربع تشهد بها مجموعة المراسلات المتبادلة بينها ، والمحفوظة

(١) وصف هذه المعركة بالتفصيل ابن القاضي في كتابه درة المجال في غرة
أسماء الرجال (١ - ص ٧١ وما بعدها) ولاهمية هذا النص ترجمه حلوش إلى
الفرنسية في (Hespèris 1939 XVI p.122) كما ترجمه إلى الإسبانية سانشث
البرنت (Sanchez Albornoz : La Espana Musulmana II p. 386) وقد
رأينا من المفيد إيراد هذا النص كضميمة في آخر الكتاب . ومن النصوص العربية
الهامة التي تناولت وصف هذه المعركة ، زجل شعبي أندلسي لشاعر يدعى
القيسى ، ورد في مخطوط عنوانه مفتاح الدين في المجادلة بين النصارى والمسلمين .
وقد نشر ليفي بروفسال هذا الزجل في مجلة الأندلس الأساسية بعنوان :

(Levi - Provençal : Un Zagal hispanique sur L'expédition
aragonaise de 1309 contre Almeria, al Andalus , Vol.
VI , fasc.2, 1941.)

أما المصادر الأوربية فنذكر منها :

Geronimo Zurita ; Los anales de la Corona de Aragon Ip.433
& Gimenez Soler : El sitio de Almeria (1309) p.386-392.

الآن في أرشيف تاج أراجون بمدينة برشلونة (١).

وفي سنة ٧١٣ هـ (١٣١٤ م) حدث انقلاب داخلي في مملكة غرناطة انتهى بخلع سلطانها أبي الجيوش نصر ونفيه إلى مدينة وادي آش وتولية ابن عمه أبي الوليد اسماعيل الأول (٣ ٧ - ٧٢٥ هـ - ١٣١٤ - ١٣٢٥ م). وقد حاول السلطان اسماعيل أن يحافظ على العلاقات الودية التي تربط غرناطة بقشتالة وأراجون. غير أن محاولاته باءت بالفشل وبخصوصا مع قشتالة التي أظهرت تأييدها للملك نصر المخلع وأعلنت الحرب على غرناطة (٢).

ثم قام الأميران بدور وخوان، الوصيان على ملك قشتالة الطفل ألفونسو الحادي عشر، بمهمة على مملكة غرناطة أحرزت بعض النجاح في منع السلطان اسماعيل من استعادة جبل طارق، ولكنهما انتهت بمقتل الأميرين القشتاليين في مروج غرناطة سنة ٧١٩ هـ (١٣١٩ م) ونزهب الرواية الإسبانية إلى أن الأميرين المذكورين ماتا حوتة طبيعية في هذه المعركة، الأول (بدور) مات بالسكة القلبية، والثاني (خوان) مات

(١) جمعت هذه الوثائق في كتاب.

(Alarco'n y Linares :Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la Corona de aragon pp.14, 20 - 23)

(٢) راجع:

(Angel Canellas Aragon y la empresa del Estrecho en el siglo XIV, Op. cit. p 17).

من الحر والمطرش (١) . ولكن هذا يتعارض مع الحقيقة التاريخية التي نراها واضحة في رواية الوزير ابن الخطيب عند قوله ، وتقدم أرييته ، والنيابة عليه عمه دون بطره Pedro ، وهو الذي وقعت عليه وقعة المريج بظاهر غرناطة ، وسيفت جثته إلى البلد ، وجعلت في صندوق خشب ببعض الأبراج ، عن يمين الصاعد إلى الحرام لصق باب يعقوب ، وصارت الصبيان يرمون ذلك التابوت بالحجارة إلى أن غطته ، واحتجج إلى بناء البرج ، وأنا نائب عن السلطان إذ ذاك . واضطر إلى الكشف عن التابوت ، فألقى قد عف ، واستؤذنت فيما يفعل بتلك الرمة ، فأمرت بأن يتخذ لها تابوت جديد ، وينقلها نصارى السلطان المستخدمون في المباني حسبما يريد أساقفتهم . فلما أخرجت الرمة لتنقل إلى التابوت ، ألقى بين الفقارات منها سنان صغار الحرم قد أمبته نيا يد مجاهدة يوم الوقعة ، كانت سبيبا للفتح . فاستعبرت رقة ، وقبلت ذلك السلاح الكريم ، وأمرت برده بمكان بنائه وأعدت الصندوق لحاله ، لما رأيت في ذلك من التذكير بأيام الله ونكاية الكفار إذا مروا به ، وتغلبد الفخر للدين ماشاء الله . (٢)

وسارعت فشتاله بعد هذه الكارثة إلى عقد صلح مع غرناطة

(١) راجع :

(Gimenez Soler. La expedicion a Granada de los infantes don Juan y don Pedro en 1319)

(٢) راجع (ابن الخطيب أعمال الاعلام ، القسم الثاني ، ص ٢٣٤) وكذلك

(العمرى : مسالك الابصار ص ٤٣ ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب)

سنة ٧٢٠ هـ (١٢١٠ م) ولكنها نكبت في العام التالي بوفاة الملكة ماريا دى مولينا Maria de Molina جدة الملك القاصر الفونسو الحادى عشر والوصية عليه بعد وفاة أعمامه . وأدى موتها إلى قيام منازعات داخلية بين أمراء أشنالة حول الوصاية على العرش . وانتهم سلطان غرناطة اسماعيل هذه الفرصة واستولى على بعض المدن القشتالية مثل بسطة Baza وأشكر Huescar سنة ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ - ١٣٢٥ م) . وتنبغى الإشارة هنا إلى أنه فى احتلال هذه المدينة الأخيرة استخدم الغرناطيون المدفع لأول مرة فى الأندلس . وقد أورد ابن الخطيب وصفا هاما لهذا السلاح الجديد وما أحدثه من ذعر فى صفوف الأعداء وهذا الوصف يعتبر فى الواقع من أقدم النصوص التاريخية عن استعمال الأسلحة النارية وفيه يقول :

نازل السلطان أشكر ... ونشر الحرب عليها ، ورمى بالآلة العظمى المتخذة باللفظ كرة محماة طاقة البرج المنيع ، فعانت عيات الصواعق السماوية ونزل أهلها قسرا على حكمه . وفى ذلك يقول شيخنا الحكيم أبو زكريا ابن هذيل :

وظنوا بأن الرعد والصعق فى السما فحاق بهم من دونها الصعق والرعد
غرائب أشكال سما هرس بها مهندمة تماق الجبسال فتهد
ألا انها الدنيا تريك عجائبا وما فى القرى منها فلا بد أن يبدو (١)

(١) ابن الخطيب : الدحة البدرية ص ٧٢ ، ويلاحظ أن كلمة فقط استعملها المسلمون بمعنى النار الاغريقية الحارقة ومعنى المدفع المدمر المدام كما هو واضح هنا فى المتن .

ومن الطريف أن المصادر الإسبانية المعاصرة في وصفها لأحداث هذه الحرب ، أشارت إلى هذا السلاح الرهيب ففى مدونة ثوريثا نجد العبارة التالية : « وانتشرت الإشاعات في مدينة لقنت Alicante بأن ملك غرناطة يمتلك ملاحا جديدا مبيدا » (١) .

ورأى أمراء قشتالة أن خير وسيلة لحسم منازعاتهم الداخلية ، هى أن يباشر الملك الفونسو الحادى عشر حكم بلاده بنفسه رغم صغر سنه (١٥ سنة) وقد تم ذلك فعلا في أغسطس سنة ١٣٢٥ م . وفى السنة التالية هاجم هذا الملك ملكة غرناطة منتهزا فرصة الاضطرابات التى حلت بها نتيجة لمقتل سلطانها اسماعيل وتولية ابنه محمد الرابع (٧٢٥ - ٧٣٣ هـ)

١٣٢٦ - ١٣٣٣ م) .

وأمام النجاح الذى أحرزه الهجوم القشتالى فى الإبرابى الغرناطية ، أسرع محمد الرابع إلى سلطان المغرب أبى سعيد عثمان الثانى ، واتفق معه على التعاون عسكريا ضد قشتالة . وقد رد ملك قشتالة على ذلك بأن عقد اتفاقا مع ملك أراجون ضد خطر الغزو المغربى ، وهى اتفاقية طركونة

(١) واجسج (J.Zurita : Anales , II, p.31 , ٩٥) حيث يرد النص بالإسبانية على الوجه التالى :

" Se extendia el rumor que el rey de Granada estaba en posesion de una nueva arma mortifera ..

هذا وقد توصل المفاربة الى اخراج المدفع قبل اخوانهم الغرناطيين بنعمو

تسعين سنة إذ يروى ابن خلدون (العسبر > ٧ ص ١٨٨) أن السلطان

Tarragona سنة ١٣٢٨ م. (١)

ثم بدأت الحرب في صيف ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) ، وكانت شديدة في الجبهة القشتالية ، ضعيفة في الجبهة الأراجونية ، ويبدو أن الفونسو الرابع ملك أراجون لم يكن جادا في هذه الحرب ، إذ لم يهاجم ميناء المرية كما كان متفقا عليه ، وافتصر على إرسال حملة إلى منطقة لورقة Lorca (٢) أما قشتالة فقد تحملت عبء القتال وحدها ، واستطاع الفونسو الحادي عشر أن يحتل عدة حصون غرناطية ، ولكن الجيوش الغرناطية بالتعاون مع الأساطيل المغربية التي أرسلها السلطان أبو الحسن على المريني (٧٣١ - ٥٧٤٩ - ١٣٣١ - ١٣٤٨ م) بقيادة ولده أبي مالك تمكنت في نفس الوقت من استرداد جبل طارق سنة ٧٣٣ هـ (١٣٢٣ م) وحاول ملك قشتالة إنقاذ هذه القاعدة الهامة ولكن بعد فوات الأوان (٣)

== يعقوب المريني عندما هاجم مدينة سجلماسة سنة ٦٧٢ هـ (١٣٧٢م) نصب عليها هندام النفط القاذف بمضى الحديد يتبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال الى قدرة بارئها . راجع ماكتبناه في هذا الموضوع في (Hespéris , 1959, 3- 4 Trimestres p. 264)

(١) راجع (Angel Canelles : Op. cit. p. 25 - 26)

(٢) راجع Gimenez Soler : La Corona de aragon y Granada,

Op Cit Num . 27 (1907) p. 163

(٣) ابن الخطيب : المعجمة البدرية ص ٧٦ - ٨٠ ، ابن بطوطة : تحفة النظار

ومن المؤسف أنه بينما كان سلطان غرناطة محمد الرابع في طريق عودته إلى عاصمته بعد هذا النصر، إذ به يقع صريحا بيد بعض المتآمرين من جنوده، وخلفه على عرش غرناطة أخوه أبو الحجاج يوسف الأول (٧٢٢ - ٧٥٥ هـ = ١٢٢٣ - ١٣٥٤ م) . واستطاع أبو الحجاج أن يصل إلى اتفاق مع ملك قشتالة، وأن يعقد معه معاهدة اشترك فيها سلطان المغرب أيضا أبو الحسن المريني سنة ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ م) وكان من شروط هذه المعاهدة أن يسود السلام بين هذه الدول الثلاث مدة أربع سنوات، على ألا تمر قوات مغربية إلى الأندلس اللهم إلا ما يتعلق باستبدال جنود الحاميات المغربية في الأندلس. وفي نفس تلك السنة عقدت معاهدات سلمية مماثلة مع ملك أراجون (١)

على أن كل هذه المعاهدات، لم تحل المشكلة القديمة القائمة، وهي مشكلة السيطرة على مضيق جبل طارق، فكل من أسبانيا والمغرب لم يقل كلمته الأخيرة بعد. وانتزعا كلاهما فرصة السلام للتسابق على التسلح والاستعداد للحرب وكان اهتمام كل فريق موجها نحو تقوية بحريته لأنها الضمان الأساسي للسيطرة البرية بعد ذلك. ورأى سلطان المغرب أبو الحسن المريني أن يستعين في هذا المضمار بخبرة الملاحين الجنوبيين وبأصهاره الحفصيين ملوك تونس (٢)، بينما رأى ملك قشتالة الفونسو الحادى عشر أن

(١) أنظر (Gimenez Soler : La Corona de Aragon y Granada

OP. Cit . Num 28 (1907) p. 200

(٢) تزوج أبو الحسن المريني إحدى بنات السلطان يحيى الحفصى سنة ٣٣٠ م

ويروى أن العروس جاءت في حاشية كبيرة الى ميناء غساسة بالقرب من مليلة، ومنها انتقلت إلى فاس.

يستعين بأساطيل ملك أراجون . وقد أمسده بالفعل بدور الرابع ملك أراجون بأسطول تحت قيادة Gilabert de Gruylles^(١) ، بينما أرسل الخليفة المتوكل أبو يحيى الحفصى أسطولا من ست عشرة قطعة إلى المغرب بقيادة زيد بن فرحون قائد أسطول بجاية . ويذكر ابن خلدون أن أساطيل المغرب وتونس التي تجتمع بمرسى سبتة كانت تناهز المائة ، وأن السلطان أبا الحسن المريني عقد عليها لمحمد بن علي العزفي حاكم سبتة^(٢) ، بينما تذكر المصادر القشتالية أن أساطيل المغرب بلغت مائتين وخمسين شراعا .

وكيفما كان الأمر ، فقد بدأت المعركة في ربيع ٧٤٠ هـ (١٣٤٠م) عندما حاول القوائد الأراجواني Gilabert de Gruylles عبور المضيق والاتصال بقائد الأسطول القشتالي Alonso Jofre Tenorio في مياه أشبيلية عندئذ تصدى له الأسطول المغربي ليحول دون هذا الاتصال ، ودارت بينها معركة عنيفة في مياه الجزيرة الخضراء انتهت بفرق معظم الأسطول الأراجوني وقتل قائده ، وانسحاب فلوله إلى برشلونة بقيادة نائب القائد

(١) راجع (Gautier) (١) & A. Canellas : Op. cit. P. 28 - 32
 Dalacha : Quelques aspects de la lutte pour la maîtrise du
 détroit de Gibraltar au XIV siècle , Comité Marocain de
 documentation historique de la Marine , Bulletin no 7 mars
 1958)

(٢) السلاوي : الاستقصا ص ٣٥

المقتول Pedro de Moncada

ولاشك أن انسحاب الأسطول الأراجونى من ميدان المعركة ، كان ضربة قاضية للأسطول القشتالى الذى لم يستطع الصمود وحده أمام أسطول المغرب ، فعنى هو الآخر بهزيمة ساحقة وقتل قائده Alonso Joire Tenorio واستول المسلمون على بعض قطعه . وبهذا النصر الباهر أصبح السلطان أبو الحسن المرينى سيدا بلا منازع على مضيق جبل طارق ، وصار من السهل عليه نقل قواته إلى أسبانيا فى فى سهولة ويسر .

وانجمت أنظار هذا المجاهد الكبير إلى مدينة طريف القاعدة الباقية فى أيدي الأسبان من ثغور المضيق . فلو أنه استولى عليها لصار المضيق كله فى يده ، كما صار الطريق أمامه مفتوحا إلى قبادس وأشبيلية لهذا عول على احتلالها وأجاز إليها بجيوشه وأساطيله وأحاط بها من كل جانب برا وبحرا فى المحرم سنة ٧٤١ هـ . واشترك معه فى هذا الحصار سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف الأول بجيوشه أيضا .

وشعر ملك قشتالة الفونسو الحادى عشر بخطورة الموقف ، فاستنجد بملك أرجوان بدرو الرابع ، كما استنجد بهمهره ملك البرتغال الفونسو الرابع ، وهرع الجميع إلى ساحة طريف بغية انقاذها ، وفى ٧ جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ (أكتوبر سنة ١٣٤٠ م) دارت بين الفريقين معركة حاسمة انتهت بهزيمة المسلمين وقتل عدد كبير منهم . وسميت هذه الموقعة فى المصادر العربية باسم موقعة طريف ، أما المصادر الأسبانية فقد سبها بوقعة نهر سالادو del rio Salado على اسم النهر المجاور لطريف فى جنوب أسبانيا ،

كما سميتها أيضا بوقعة الملوك الأربعة ^(١) de los cuatro reyes . ولدينا نص مختصر عن سبب هزيمة المسلمين أورده ابن الخطيب الذي فقد أباه وأخاه ^(٢) في هذه المعركة . يقول فيه : « ودون الفذش - ملك البرتغال - هو الذي أمد صاحب قشتالة يوم طريف بنفسه . وكان مصافه بإزائنا أهل الأندلس . وحملنا عليه وكدنا نفصه لولا أنهم جعلوا جيشا وراءهم فاصلا عن الملكين ، يمد من ظهر به اختلال وتضعضع : فبادر إلى عدونا فقواه وسبب له الظهور ^(٣) .

ويضيف ابن الخطيب ، في موضع آخر سببا ثانيا لهذه الهزيمة وهو خروج أهل البلد المحصور واشتراكهم في القتال ضد المسلمين فيقول . وكان اللقاء بظاهر طريف ، وساء التقدير . واختل مصاف المسلمين وأضاعوا الخزم ، وخرج أهل البلد المحصور وهم شوكة ، وضيق بجبال القتال ، وأجفان الروم ناضجة بأساليب السهام حتى دخل البلد فرسان الروم ، فوقعت الهزيمة التي حصدت شوكة المسلمين وأهلكت نفوسهم واكنسحت أموالهم ، وأسلم السلطان مضاربه ، ومن جملة ما بها أزواجه من بنات

(١) راجع (Crónica de Alfonso onceno, ed. Rosell, p. 323 & Canellas : Aragon y la empresa del Estrecho ... pp. 28-32 & Miguel Cuartero: El Salado, revista « Ejército » num. 13, Febrero de 1941 & Creasy : Las batallas decesivas en la historia del mundo p. 287) .

(٢) حاول الأب انفاذ ولده حين كبا به فرسه ، وقد غشى العدو فكان آخر العهد بهما . راجع (المقرئ : نفع الطيب ج ٦ ص ٣١٥ - ٣١٨ .)

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٣٣٧ ويفهم من هذا أن الجيش البرتغالي كان يواجه الجيش الفرناطي بينما كان الجيش القشتالي يواجه الجيش المغربي .

الملوك ، وقعت بين المثلة بعنة القتل ، وكان الخطيب على الاسلام قل أن يجتمع مثله ، (١) .

وانتهز ملك قشتالة فرصة الاضطرابات التي حلت بجيوش المسلمين بعد هذه الهزيمة ، وواصل هجومه على غرناطة فاستولى على قلعة يحصب (٢) Alcala la Real وباغزو Priego ثم حاصر أخيرا مدينة الجزيرة الخضراء سنة ٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م) . ودام هذا الحصار مدة طويلة تقرب من السنتين ، وذاعت أنباءه في أنحاء أوروبا ، وسارع إليه عدد كبير من الفرسان الانجليز والالمان والفرنسيين للمشاركة فيه . وسقط بعضهم قتلى بسيوف المسلمين (٣) . كذلك شاركت أراجون في هذا الحصار بجزء من أسطولها بقيادة الأمير Bernardo de Cabrera (٤) .

وحاول كل من سلطان المغرب وسلطان غرناطة انقاذ هذه القاعدة الهامة بشتى الطرق السلمية والحربية ، ولكن محاولتهما باءت بالفشل ، وانتهى الأمر باستسلام الجزيرة الخضراء في ربيع سنة ٧٤٤ هـ (٥)

(١) ابن الخطيب . كتاب رقم الحلل في نظم الدول ص ٩٣ (تونس ١٣١٦هـ)
(٢) قلعة يحصب وتسمى كذلك بقلعة بني سعيد ، أسرة الممـؤرخ المعروف ابن سعيد المغربي .

(٣) راجع (Gimenez Soler : la Corona de aragon y Granada ,

Op. cit 1907 num 28 , p. 214)

Zurita : Anales, II p. 149 & A. Canellas : Op. cit p. 32 (٤)

(٥) راجع (المقرئ : نفح الطيب ص ٩٠ - ١٢٠ حيث يرد

الخطاب الذي وجهه سلطان المغرب إلى سلطان مصر بوصف فيه سقوط الجزيرة الخضراء .)

(١٣٤٤ م) ثم عقدت معاهدة سلمية بين قشتالة و غرناطة والمغرب مدتها عشر سنوات (١) .

وقبل انتهاء أمد هذه المعاهدة ، حاول الملك الفونسو الحادى عشر تحقيق أمنية طالما فكر فى تحقيقها وهى الاستيلاء على جبل طارق . فأنافخ عليه بجيوشه وأساطيله وأحاط به من كل جانب ، ولكن وباء الطاعون انتشر فى معسكره ، ولم يلبث هو نفسه أن راح ضحية لهذا الموت الأسود فى مارس سنة ١٣٥٠ م (٧٥٩ هـ) .

وحينما علم السلطان أبو الحجاج يوسف بخبر وفاته ، أمر جنوده بعدم التعرض للجيوش القشتالية العائدة بجثمان مليكها إلى اشبيلية (٢) . وقد ر ملك قشتالة الجديد بدور (٣) الأول ، لسلطان غرناطة وللمسلمين هذا الصنيع ، فعقد معه معاهدة ود وصداقة (٤) . كذلك عقدت أراجون مع

(١) هذه المعاهدة نشرها كانيلاس ضمن الوثائق الملحقة ببحثه . راجع (A. Canellas ; Aragon y la empresa del Estrecho, documento num. 17) .

(٢) راجع (Lopez de Ayala : Cronica de los reyes de Castilla , I, p.12)

(٣) يلقب بالقاسى el cruel ويلقب أيضا بالبادل el justiciero لأنه قتل زوجاته . وبدرو هذا هو الابن الشرعى الوحيد للملك الفونسو الحادى عشر من زوجته مارييا البرتغالية . راجع : A. Ballesteros : Historia de Espana , III, p . 133)

(٤) راجع (Argote de Molina : Nobleza de Andalucia, fol 228)

نص الوثيقة

ملك غرناطة معاهدة سلمية بمائلة وتبادلت معه خطابات ودية (١) .

وما كادت غرناطة تنعم بالسلم والهدوء من جانب جيرانها المسيحيين حتى دب نزاع جديد بينها وبين سلطان المغرب أبي عنان فارس (٢) (٧٤٩ - ٥٧٥٩ = ١٣٤٨ - ١٣٥٨ م) والسبب في هذا النزاع يرجع إلى أن اثنين من إخوة أبي عنان وهما الأميران أبو الفضل وأبو سالم ، خرجا عن طاعة أخيهما السلطان ، وهربا إلى سلطان غرناطة ملتجئين بحايته ، وقبل أبو الحجاج يوسف طلبهما وآواهما في بلاطه . وقد آثار هذا العمل غضب السلطان المريني ، فأرسل إلى سلطان غرناطة خطاا شديدا للهجة ، مليئا بعبارات الاحتجاج والتهديد، وكان رد السلطان يوسف عليه واضحا، إذ أوعز إلى الأمير أبي الفضل بالسفر إلى قشتالة وطلب معونة من ملكها بدور الأول لمحاربة أخيه وانتزاع الملك منه . ووافق ملك قشتالة على طلب الأمير المغربي أبي الفضل لأنه كان متخوفا من أطماع أبي عنان ، فأمدّه بالأساطيل والاموال وأمر له بنواحي السوس في جنوب المغرب كي يشعل حربا أهلية ضد أخيه . وثارت ثائرة السلطان أبي عنان لهذا العمل العدائي ، وطلب

(١) انظر (Alarcon y Linares ; Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la Corona de Aragon p, 133)
 (٢) هذا السلطان ثار على أبيه أبي الحسن المريني بتلمسان سنة ٥٧٤٩ واستولى على المغرب الأقصى راضطرا أبو الحسن أن يحتمى بتيبوخ هنتانة بجمال أطلس إلى أن مات في تلك السنة . راجع تفاصيل تلك الثورة وأسبابها في (ابن خلدون : الأمير ٧٥٥ ص ٢٧٨ - ٢٨٧ ، ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٩٣ ~ ٩٥ ، ابن الأحمر : روضة السمرين ص ٢٣-٢٤)

من ملك أراجون أن يتعاون معه على محاربة غرناطة وقشتالة^(١) . غير أن الظروف سرعت ما هدأت من روعه عندما مات أخوه أبو الفضل أثناء حروبه بالمغرب ، وقتل سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف أثناء تأديته لصلاة عيد الفطر في شوال سنة ٧٥٥ هـ^(٢) (أكتوبر سنة ١٣٥٤ م) .

وولى عرش غرناطة بعد أبي الحجاج يوسف ولده السلطان محمد الخامس الغني بالله (٧٥٥ - ٧٦٠ ، ٧٦٣ - ٨٧٩٣ = ١٣٥٤ - ١٣٥٩ ، ١٣٦٢ - ١٣٩١ م) . وحاول هذا السلطان الجديد أن يعيد العلاقات الودية بين غرناطة والمغرب بعد أن تأزمت في عهد والده ، فأرسل إلى فاس سفارة لهذا الغرض برئاسة وزيره لسان الدين بن الخطيب الذي يبدو أنه نجح في سفارته . إذ يروى أنه حينما مثل بين يدي السلطان وقبل أن يسلم عليه ، أنعمه قصيدة يقول في مطلعها :

خليفة الله ساعد القدر علاك ملاح في الدجى قمر

فاهتز أبو عنان لأبياتها وقال لابن الخطيب : د مارجع إليهم إلا بجميع طلباتهم ، وقد علق أحد الحاضرين على ذلك بقوله . لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا^(٣) .

غير أن السلطان أبا عنان لم يلبث أن راودته أحلامه القديمة بغزو

(١) راجع (ابن خلدون : كتاب العبر - ٧ ص ٢٩٣ - ٢٩٤)

(٢) قتله مخبول في المسجد الأعظم بقصر الحمراء .

(٣) المقرئ : أزهار الرياض - ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، ابن الخطيب :

الاحاطة - ٢ ص ٩ (طبعة القاهرة)

الأندلس ، والسيطرة على المضيق ، خصوصاً بعد أن تم له ضم المغرب الأوسط إلى ملكه . وقد لاحظ ابن خلدون ذلك عند قوله : « وكان أبو عنان يؤمل في ملك الأندلس » ، (١) ورأى أبو عنان أنه من الصعب عليه تنفيذ مشروعه ما دام هناك حلف قائم بين غرناطة وقشتالة . ولهذا حاول أن يقنع سلطان غرناطة بالتخلي عن هذا الحلف الذي جعله يدين بالتبعية للملك قشتالة ويدفع له الجزية ، غير أن محمد الخامس رفض هذا العرض لأنه كان يمنح دائماً إلى مسالمة قشتالة (٢) ، أو لأنه ، كما يبدو ، كان يشك في نوايا سلطان المغرب . عندئذ رأى أبو عنان أن يتحالف مع بدرو الرابع ملك أراجون الذي رحب من جانبه بهذا المشروع لأنه كان فعلاً في حرب مع قشتالة ، ووقع الاتفاق بين الملكين بمدينة سرقسطة في يوليو سنة ١٣٥٧ م (٣) (٨٧٥٨) .

(١) ابن خلدون : كتاب العبر ح ٧ ص ٣٠٤

(٢) راجع الوسائل المتبادلة بينها في (ابن الخطيب : ربحانة الكتاب ونجمة المتاب : وهو مخطوط بالاسكوريال رقم ١٨٢٥ ، وقد نشر منه جاسبار راميريو المراسلات المتبادلة بين ملوك المغرب وملوك غرناطة تحت عنوان :

Gaspar Remiro : Correspondencia diplomatica entre Granada y Feez en el siglo XIV p. 253 - 257

(٣) راجع (ابن خلدون : العبر ح ٧ ص ٣٠٤) وكذلك : (armany :

Antiguos tratados de paces y alianzas entre algunos reyes da Aragon y diferentes principes de Asia y Africa desde e siglo XIII hasta el siglo XV p. 18 & Capmany : Memorias sobre la marina, Comercio y artes de Barcelona, tome III p. 202 , tome IV p. 121)

ويبدو أن الاستعدادات للحرب قد بدأت فعلا بدليل قول ابن خلدون بأن الأساطيل المغربية والأراجونية قد أخذت تتجمع في مضيق جبل طارق منتظرة الأمر بالهجوم ، وأن السلطان أبا عنان أرسل إلى حليفة ملك أراجون هدية فاخرة عربونا لصداقته وامتنانه^(١).

غير أن هذه المشروعات الحربية لم تلبث أن توقفت فجأة نتيجة لوفاة أو مقتل السلطان أبي عنان^(٢). في سنة ٧٥٩ هـ (ديسمبر ١٣٥٨ م). إذ انتهى ملك تلمسات المخلوع أبو حمو الثاني هذه الفرصة واستعاد ملكه بالمغرب الأوسط ، بينما سادت المغرب الأقصى حروب أهلية بين أولاد السلطان المتوفى طمعا في العرش. ورأى الوزير حسن بن عمر الفودودي أن يستأثر بالنفوذ في الدولة فدير من قتل ولي العهد أبا زيان ، واختار طفلا من اخوته يدعى السعيد أبو بكر ، فأقامه سلطانا على المغرب وصار يحكم باسمه .

على أن هذا الاختيار لم يعجب الكثيرين من زعماء المغرب ، فاتجه بعضهم إلى غرناطة وبايعوا الأمير أبا سالم إبراهيم الليني الذي سبق أن التجأ إليها فرارا من أخيه أبي عنان وظن أبو سالم أن غرناطة سوف

(١) راجع وصف هذه الهدية في عبد الرحمن بن خلدون: العبر ٣ ص ٢٠٢ .. ٣٠٤ وكذلك في كتاب أخيه يحيى ابن خلدون . بقية الرواد في ذكر مملوك بني عبد الواد ٢ ص ٣٧ . ويلاحظ أن هذه الهدية لم تصل إلى ملك أراجون إذ استرلى عليها ملك تلمسان أبو حمو الثاني عندما استرد ملكه عقب وفاة أبي عنان وكانت الهدية لا تزال في بلاده .

(٢) راجع أخبار وفاته في (ابن خلدون : العبر ٣ ص ٢٩٩ ، السلاوي

تساعده على تحقيق آماله في ذلك المغرب نظرا للعداء الذي كان بينها وبين حكومة فاس على عهد أخيه ، ولكن سلطان غرناطة فضل أن يسلك سياسة محايدة في تلك الظروف المضطربة ، واضطر أبو سالم إلى الفرار إلى ملك قشتالة بدور الأول بمدينة اشبيلية طالبا مساعدته في الوصول إلى عرش المغرب . وكان رأى المستشارين في البلاط القشتالي عدم الموافقة على مساعدة الأمير المغربي ، لأن من مصلحة قشتالة أن يكون سلطان المغرب طفلا قاصرا مثل السعيد أبو بكر ، ولكن الملك بدرو لم يستجب لهذا الرأي ، وقرر مساعدة الأمير أبي سالم بعد أن أخذ عليه الضمانات والمواثيق بالوقوف إلى جانبه ضد أراجون ثم أمده بالأموال وبالساطيل التي عبرت به إلى الساحل المغربي ، وهناك تمكن أبو سالم بعد أحداث وحروب من التربع على عرش المغرب في شعبان ٧٦٠ هـ . (يوليو سنة ١٣٥٩م)^(١) .

وكان من الطبيعي أن تنجح سياسة هذا السلطان الجديد نحو محاربة كل من قشتالة وغرناطة ، والتخلي عن سياسة التحالف مع أراجون التي رسمها

= الاستقصا ٣ ص ٢٠٤) كذلك يرى ابن الخطيب أنه مات قتيلا مثل قول (رقم الحل ص ٨٤) :

ومات فيها قبل شر ميتة بغيلة لنفسه مفيتة
لم يغن عنه البأس والبسالة وأصبحت مهجته منسالة

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص ٢١٥ وما بعدها ، ابن خلدون :

الأمير ٧ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

أبو عنان من قبل . وكانت الحرب توقفت قد استمرت بين هاتين المملكتين
الاسبانييتين قشتالة وأراجون ، وصمم ملك قشتالة على مهاجمة خصمه في
مياهه الاقليمية ليثبت له أنه قادر على منازاته في البحر الذي هو ميدانه .
واستعان في ذلك بحليفه محمد الخامس الذي لم يتردد في امداده
بأسطول غرناطي من عشر شواني حربية بجميع بحارتها وأسلحتها
كما سمح له باستخدام القواعد البحرية الغرناطية ليستعين بها في تموين
أساطيله (١) .

وبينما كان ملك قشتالة منهمكا في غاراته البحرية ضد ميناء برشلونة
وغيرها من الموانئ الأراجونية (٢) ، اذا بحليفه محمد الخامس يعاني انقلابا
داخليا في مملكته انتهى بخلمه وتولية أخيه أبي الوليد اسماعيل الثاني مكانه
وذلك في رمضان سنة ٧٦٠ هـ (أغسطس سنة ١٣٥٩ م) (٣) . وتمكن السلطان
المخلوع من الفرار ليلا هلى ظهر جواده الى مدينة وادي آش Guadix
التي تعهدت بحمايته . ومن هناك بعث محمد الخامس الى حليفه سلطان المغرب
يطلب منه قبوله كلاجئ سياسي في بلاطه وقبل السلطان أبو سالم

(١) راجع Lopez de Ayala . Cronicas de los Reyes de
Castilla, Ip.286 Zurita : Los anales de la Corona de Aragon
II p.244 & Cascales : Historia de Murcia fol 102)
(٢) راجع التفاصيل في (Lopez de Ayala : Op.cit.1p. 277-286)

(٣) راجع تفاصيل هذا الانقلاب في مقالا (فترة مضطربة في تاريخ غرناطة،
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد المجلد السابع ١٩٥٩) .

هذا العرض لأنه رأى أن وجوده بجانبه يفيد كسلاح ضد حكومة غرناطة وعند
أمراء بني مرين المقيمين في كنفها إذا ما فكروا يوما في غزو المغرب ، وفي
هذا المعنى يقول ابن خلدون : « وأراد أن يعده زبونا (أي حربا وقوة) »
على أهل الأندلس ويكلف به هادئة القرابة المـشـحـين هنالك متى طمعوا
إلى مالك المغرب ،^(١).

ثم أرسل السلطان أبو سالم رسولا خاصا من قبله ليصحب محمد الخامس
في رحلته إلى المغرب بعد أن أقنع المنقلب على غرناطة بذلك . وفي
ذى الحجة سنة ٧٦٠ هـ (نوفمبر سنة ١٣٥٩ م) خرج محمد الخامس من
مدينة وادي آش ومعه وزيره لسان الدين بن الخطيب وشاعره عبد الله
ابن زمرك وجماعة من محاليكه وأتباعه متجها إلى ميناء مزلبة Marbella ،
ومن هناك أبحر عبر مضيق جبل طارق إلى مدينة سبتة ثم سار إلى
إلى العاصمة فاس حيث استقر بها تحت كنف السلطان أبي سالم
ورعايته^(٢).

ولم يكد يمر عام على هذا الوضع حتى عانت مملكة غرناطة انقلابا
آخر طوح برأس سلطانها أبي الوليد اسماعيل الثاني في شعبان سنة ٧٦١ هـ

(١) ابن خلدون : كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٦ ، أزهار الرياض ج ١ ص ٢٠٧

(٢) راجع (ابن الخطيب : الاحاطة ص ٢ ص ١٣) (طبعة القاهرة) ،

ابن خلدون : العبر ص ٧ ص ٣٠٩ ، المقرئ : نفح الطيب ص ٧ ص ٢٣ - ٢٥ ،
أزهار الرياض ص ٣ ص ٢٠٧ .

(يونيو ١٣٦٠ م) . وتولى مكانه قتاله وهو زوج أخته وأحد أبناء (١) عهده محمد أبو سعيد المعروف في المصادر الإسبانية باسم البرمينخو El-Bermejo ومعناه اللون البرتقالي الضارب الى الحمرة ، وهو لون لحية وشعره (٢) . ورأى هذا السلطان المقتصب أن التحالف مع قشتالة أمر يتعذر تحقيقه نظرا للصدقة التي تربط ملاكها بالسلطان المخلوع محمد الخامس ولهذا اتجه نحو بيدرو الرابع ملك أراجون ، وانضم إليه في حروبه ضد قشتالة (٣) .

وقدر ملك قشتالة ، بعد انضمام غرناطة الى أراجون ، صعوبة الحرب في جبهتين في آن واحد ، ولذا اضطر الى أن يستجيب لوساطة البابا بمقد صلح مع أراجون في ١٣ مايو سنة ١٣٦١ ، كى يتفرغ بذلك لمحاربة غرناطة (٤) .

ولكى يبرر ملك قشتالة شرعية هذه الحرب ، أعلن نفسه مدافعا عن حقوق السلطان الشرعى المخلوع محمد الخامس ضد الغاصب ابن سعيد البرمينخو (٥) . وعلى هذا الأساس طلب من سلطان المغرب أن يسلمه سلطان غرناطة

(١) حفيد عم أبيه . أنظر (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ٢ ص ٣٥٤) .

(٢) راجع (P.Mariana: Historia general de Espana II, p. 221)

(٣) راجع (Bleda : Cronica de los moros de Espana p.537, Ayala : Op. cit. lp 326)

& Alarcon y Linares : Documentos arabes diplomaticos de la Corona de Aragon P.142)

(٤) Ayala ; Op. cit I,326

(٥) Garibay : Op. cit, p. 1103 , Bleda : Op. cit 537, Ayala (٥) : Op. cit lp.331)

المخلوع كى يساعده فى العودة الى عرشه . ولكن السلطان أبا سالم
تلكاً فى تنفيذ هذا الطلب ، اذ يبدو أنه اتفق مع البرمينخو سرا على منع
محمد الخامس من العبور الى أسبانيا فى مقابل أن يقوم البرمينخو باعتقال
جميع أمراء بنى مرين المقيمين عنده بغرناطة^(١).

و غضب ملك قشتالة من موقف سلطان المغرب ، وهدده بالحرب والاستيلاء
على جميع القواعد المغربية فى أسبانيا إن لم ينفذ مطلبه . واضطر السلطان
أبو سالم أمام إصرار بدور القاسى وتهديده أن يرضخ لمطالبة ، فأمر
أساطيلة بالتجمع فى مضيق جبل طارق أمام ميناء سبتة ، متظاهرا بحرب
الأسطول الأراجونى ، بينما كان غرضه الحقيقى هو إجازة السلطان المخلوع
إلى الساحل الأندلسى . وفى الوقت نفسه وصلت الأساطيل القشتالية إلى
ميناء سبتة للقيام أيضا بمهمة إجازة السلطان محمد الخامس إلى أسبانيا ، وهنا
ترك المؤرخ المعاصر لسان الدين بن الخطيب يصف لنا رحيل سلطانه من
قاس إلى الأندلس كما شاهده بنفسه ، فيقول^(٢) .

وألح سلطان قشتالة فى تسليم السلطان أبى عبد الله إليه ،^(٣) ليتولى
شد أزره ، ويجتهد فى جبر حالة . وألقت إليه المعاذير فتبا عنها سمعه ،
ورفق عن غرضه فى رفع السلم عند اخفاق مطلبه ، ولم يقبل العوض من

(١) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٣١٦ .

(٢) راجع ابن الخطيب : نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ص ١٨٤ -

١٩٨٥ ، ٢٨٥ ، نشر أحمد مختار العبادى .

(٣) أى السلطان محمد الخامس الفنى بالله .

ضروب ملاحظته فتراجع الرأى على توجيهه إلى الأندلس . وقد كان الأسطول (١) تألف بفرقة الحجاز من سبعة موريا يجاهد من ظهر به من عدو برشانة . ووصلت أساطيل الروم (٢) المنشرة في غرض إيجازته ، قد أركبها ملكه النصراني (٣) وجوه خداه : فقمه السلطان أمير المسلمين بالمغرب (٤) في قبة العرض المنخفضة بجنة المصارة . ووقع البربح ببروز الناس إلى الفضاء الأفيع ، واستحضرت البسود والطبول وأوعية المسال صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال من عام التاريخ (٥) . واستحضر السلطان (٦) فصعد إلى القبة ثم نزل وقد ألبس خلعة الملك ، وقيدت له فرس شقراء مطهمة ، حليها ذهب بحت ، ونشرت حولها الألوية ، وقرعت الطبول ، وركب السلطان (٧) مشيعا إياه غلوة ثم انصرف عنه وقد النف عليه كل من جلى عن الأندلس من لدن الكائنة الواقعة بها في جملة كثيفة . وبلى من رقة الناس وأجباشهم وعلو أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد ، إذ كان مظنة ذلك سكونا وعفافا وقربا قد ظله الله برواق الرحمة وعطف عليه وشانج المحبة إلى كونه مظلوم العهد ، منتزع

(١) يقصد الأسطول المغربي .

(٢) أى أساطيل قشتالة .

(٣) بدرر الأول الملقب بالقاسى ملك قشتالة .

(٤) أبو سالم إبراهيم المستعين بالله سلطان المغرب .

(٥) عام ٧٦٢ هـ (٢٠ أغسطس ١٣٦١ م) .

(٦) أى سلطان غرناطة المخلوع محمد الخامس .

(٧) أى سلطان المغرب أبو سالم .

الحق ، فتمتته الحواطر وحملت له الأنفاس ... وحث السلطان أبو عبد الله ابن نصر الموجه إلى الأندلس ركابه إلى سبتة ، لا يصدق بالإفلات ، ولا يثق بالنجاة ، فماتت له خيل ورفقت حوله لشدة السير ، واستقر بسبتة ، واستعجل الجواز ، وحل بجبل الفتح بعد مراوضة كبيرة لقواد الأسطول (١) الرومي ومحاوره ، إذ تبرعوا بإجازته، ولم يسمحوا في خلاف ذلك ليحلبوا الفخر لسلطانهم وينسبوا الحركة إليه . فأعملت الحياة ولفقت الحجة وقطع السلطان ألسنتهم بمسال بذله مكرمة لهم ، وأركب أجنالهم طائفة من كبار قرابته واستقر بجبل الفتح ، وطال به مقامه تردد الرسل بينه وبين ملك الروم . ثم ارتحل نحوه (٢) في ليلة من عالىكه ورجوه قرابته . وتحنى السلطان - بدر - بمقدمه ، وبالغ في بره ، وأفرط في النزول لوجهته ، وأبعد المدا في خطا تاقبه ، وأرجل الأكارب لأداء حقه ؛ وتوسع في نزله ، وعم بالملاحظة جميع من في صحبته ، وأعطاه صفقة يمينه بالمظاهرة والمعاضدة ، وسافه ثلاثين ألف دينار من الذهب العين لنفقتة ، وشرط له أن لا يبرزه حصنا ، ولا ينقصه فحسا ، ولا يعلق به طماعية ، وأنه يصل إلى السالم مدة حياته ، ويتركه وصية في عقبه .

(١) أى الأسطول الفشتالى .

(٢) يشير ابن الخطيب في كتابه رقم الحلال في نظم الدول ص ١٢١ إلى أن اللقاء بين محمد الخامس وبدر الأول كان بمدينة اشبيلية . وهذا يتفق مع ما ورد في المصادر الأسبانية . راجع (Garibay p. 1103 Bleda p. 537) .

وانصرف مجبوراً قري العين ، منشرح الصدر ، فلهق بسائر الجيش المريني
ومن تحلف عنه من قومه بظاهر رنده (١) .

واتخذ محمد الخامس من مدينة رنده (٢) Ronda مقراً له والحكومة
المؤقتة ، وكانت في ذلك الوقت ، تابعة لسلطان بني مرين . ومن هناك أخذ
محمد الخامس يكاتب زعماء غرناطة ويحرضهم على ترك طاعة البرمينخو
والانضمام إليه ، كما أخذ يعد العدة لمحاربة هذا السلطان المغتصب ، وقد
أمدد سلطان المغرب بست سفن حربية ، كما أمدده ملك قشتالة بخمس
أخرى ، ووعداه بمزيد من الاساطيل والجيش لاسترداد مملكة .
وبضيف ابن الخطيب أن محمد الخامس أخذ يرصد رجاله لقطع الطريق
على رجال البرمينخو وسفاراته المتجهة إلى المغرب . ومن الطريف أن من
بين الذين وقعوا في أسره الفقيه محمد بن علي بن محمد البلنسي الذي كان
مقرناً في قصره أيام سلطته ، وقد اضطر محمد الخامس إلى العفو عنه
حينما إلى حسن تلاوته (٣) .

ولدرأ هذا الخطر ، رأى السلطان المغتصب أبو سعيد البرمينخو أن
يستنجد بحليفه ملك أراجون ، فكتب له خطاباً بتاريخ ٣ من ذي القعدة

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص ١٨٤ ، ٢٨٥ .

(٢) تمتاز رنده بموقع استراتيجي مرتفع يشرف على حدود غرناطة الغربية
Bastion de la Frontera occidental ،

(٣) ابن الخطيب ! الاطاعة ، نسخة الاسكوريال ، لوجه ٩٣ .

سنة ٧٦٢ هـ. (٤ سبتمبر سنة ١٣٦١ م) يخبره فيه بأنه تفاديا لشروط المعاهدة المبرمة بين قشتاله وأرجوان ، فإنه يرى أن يتكفل الاسطول الارجونى بمقاومة هجوم ساهان المغرب ، بينما يتكفل الاسطول الغرناطي بمحاربة الاسطول القشتالى (١) .

ولم يكف البرميخو بهذا التكتيك الحربى بل صمم على إرسال بعض المرشحين لعرش المغرب من أمراء بنى مرين المقيمين عنده الى المغرب لإشغال نار الحرب الأهلية ضد الساطان أبى سالم جزاء مساعدته لمحمد الخامس ، واختار لهذا الغرض اثنين من أولاد عم ساطان المغرب وهما عبد الحليم وعبد المؤمن . وحاول هذان الأميران الإبحار من ثغر المنكب Almunecar على ظهر سفينة حربية غرناطية ، غير أن أسطول المغرب وقشتاله المكلف بمساعدة محمد الخامس وحراسة مضيق جبل طارق ، هاجم هذه السفينة واضطر بحارتها الى غرسها فى الرمال فتعذر سيرها بعد ذلك . على أن ركاب السفينة انتهزوا حلول الليل ، وغياب الاسطول المشترك لقضاء حاجته من زاد الماء ، وأبحروا تحت جنح الظلام على ظهر سفينة أخرى صغيرة واتجهوا نحو ثغر هنين بالقرب من تلمسان بالمغرب الاوسط (٢) . وهناك رحب بهم أبوحمو الثانى مالك تلمسان وآواهم عنده . ثم نادى

(١) راجع نص الرسالة فى (Alarcon y Linares : Los documentos

arabes diplomaticos de la corona de Aragon p. 142-143)

(٢) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

بعبد الحليم سلطانا على المغرب الأقصى لأنه أكبر سنا من أخيه عبيد المؤمن ، وأمدّه بالمال والرجال . وكان الملك أبوحمو يهدف من وراء ذلك أن يثير حربا أهلية بين بنى مرين الذين طالما شردوه وشردوا بآء آبنى زيان من قبل ، وضموا تلمسان إلى ملكهم بالمغرب الأقصى^(١) .

ونجحت سياسة كل من غرناطة وتلمسان في بث سمومها في فاس ، ففي ٢٢ ذى القعدة سنة ٧٩٢ هـ (٢٣ سبتمبر سنة ١٣٦٩م) اغتيل السلطان أبو سالم المرين على أثر انقلاب داخل دبره وزيره عمر بن عبد الله^(٢) . وكان لهذا الحادث نتائج سريعة أثرت في الأحداث السياسية بمنطقة المضيق إذ صدرت الأوامر إلى الأساطيل المغربية المكلفة بحراسة المضيق والاعارة على السواحل الغرناطية ، بالعودة الى قواعدها فوراً .

كذلك صدرت أوامر بمائلة الى الجيوش المغربية المقيمة مع محمد الخامس في رندة ، تطلب منها النخلى عن مساعدته ولم يابث الخامس أن وجد نفسه فجأة وحيدا خصوصا بعد أن نخلى عنه أيضا أقرباؤه واتباعه وفروا هاربين إلى غرناطة أو المغرب^(٣) واضطر الغنى بالله في غمرة يأسه أن يترك

(١) يحيى بن خلدون : بغية الرواد ص ٢ ص ٩٠ - ٩٢ ، عبد الرحمن بن خلدون : العبر ص ٣١٦-٣١٤ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ص ٢ ص ٢٢ (طبعة القاهرة) ، ابن خلدون : العبر ص ٣ ص ٣١٣ .

(٣) ابن الحبيب : نفاضة الجراب ص ٣٠١

مدينة رندة التابعة لبني مرين ، وأن يتجه بمن تبقى معه من رجال الى أشبيلية لكي يتدير الامر مع صديقه بدرو الاول ملك قشتالة . ورأى الملك بدرو أن الموقف قد تعقد بسبب موت أبي سالم حليفها الثالث ، وبسبب اقتراب حلول فصل الشتاء ، فاعتذر لمحمد الخامس عن عدم امكان مساعدته في هذه الظروف الصعبة ، ولكنه عمل على اكرامه وتطبيب خاطره ، وأنزله هو وأتباعه في ضيافته بمدينة استجة Ecija الجميلة المطلة على الثغور الغرناطية^(١).

وكان المغرب الأقصى في خلال ذلك الوقت يعاني فتنة داخلية ، اذ لم يرض الناس بسلطنة تاشفين بن أبي الحسن (الموسوس) ، الذي خلف أخاه أبا سالم ، لضعف قواه العقلية . ورأى الوزير المستبد عمر بن عبد الله أن يستبدله بابن أخيه أبي زيان محمد بن أبي عبد الرحمن بن أبي الحسن المقيم ببلاط ملك قشتالة باشبيلية . واستعان الوزير المذكور في تنفيذ ذلك بمحمد الخامس نزيل استجة كي يتوسط لدى صديقه بدرو الاول في أن يسمح الأمير أبي زيان بالعبور الى فاس وقبل محمد الخامس القيام بهذه الوساطة واشترط في مقابل ذلك تسليمه مدينة رندة التي كانت تابعة لبني مرين ووافق الوزير عمر بن عبد الله على هذا الشرط تحت تأثير صديقه

(١) ابن الخطيب المرجع السابق وكذلك (Ayala ; Op.cit I p 24)

وقد اخطأ ابن خلدون (التعريف ص ٨٠) عندما اعتبر استجة ضمن الارض الاسلامية في ذلك الوقت .

للمؤرخ المعروف عبد الرحمن بن خلدون ، وانتهى الامر بأن نجيحت
الوساطة وانتقل محمد الخامس إلى رندة كما اعتلى أبو زيان محمد الثاني عرش
المغرب في صفر سنة ٧٦٣ هـ (نوفمبر ١٣٦١ م) . (١)

وفي ربيع . تلك السنة ٧٦٣ هـ (١٣٦٢ م) قام ملك قشتالة بغارات
متلاحقة على حدود مملكة غرناطة ليشغل جيوشها ، بينها اخترق محمد
الخامس الأراضي الغرناطية واستولى على انتقيرة Antequera ولوشه
Loja ، وبليش Velez ، وقمارش Comarex ، والحمة al Hama ، ثم
استولى على مملكة العاصمة الثانية لمملكة غرناطة . (٢)

ولما رأى السلطان أبو سعيد البرميسخر أنه لا فائدة من المقاومة ، صمم
على الحرب فجمع ما في خزائنه من أموال وذخائر ، وفر ليلال إلى أشبيلية
دون اتفاق سابق مع ملائكة كما يقضى العرف بذلك (٣) . وكان البرميسخر

(١) ابن خلدون : العبر ٧ ص ١١٣ ، التعريف ص ٨٠ ، المقرئ : نفح
الطيب ٧ ص ٢٩ ، ٨ ص ١١٩

(٢) راجع (Ayala : Op cit. p. 538) Bleda : Op cit.
Ip. 340

وكذلك (ابن الخطيب المدة البدرية ص ١١٧ : العمرى : مسالك الأبصار ص ٤٦

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق ٢ ص ٣٥٥ ، الاحاطة ، نسخة الاسكوريال
لوحة ٤٢٩ .

راجع كذلك (Gaspar Remiro ; correspondencia diplomática
entre Granada y Fez p. 345 , 355)

٤٣٨ هـ

يؤمل أنه بهذا العمل سوف يكتسب رضا الملك بدرو وعفوه وحمايته
غير أن بدرو القاسى أو العادل لم يغفر للبرمينخو ما اقترفه من آثام وذنوب
فقتله كما قتل سبعة وثلاثين من فرسانه فى طلياطة Tablada بضواحي
اشيلية فى رجب سنة ٧٦٣ هـ (إبريل سنة ١٣٦٢ م)^(١)

وحرص السلطان محمد الخامس بعد عودته إلى عرشه ، على أن يظل
حليفا مخلصا لملك قشتالة ، وقد نوهت المصادر الاسلامية والمسيحية بهذه
الصدقة ، وأشارت الى أن ملك قشتالة بعث الى محمد الخامس برأس
البرمينخو ورؤوس فرسانه الذين كانوا معه ، فأمر السلطان بتعليقها على
أسوار قصر الحمراء .

وفى الوقت نفسه أهدى محمد الخامس إلى الملك بدرو جميع الأسرى
القشتاليين الذين كانوا فى مملكته كما قدم له الهدايا الفاخرة رمزا
لصدقته وامتنانه .^(٢)

أما سلطان فاس أبو زيان محمد ، فإنه حاول استرجاع رنده إلى

(١) راجع تفاصيل مقتله فى (Ayala ; Op. cit . I P. 345-349 &)
Joaquin Guichot ; Don pedro de castilla , muerte delrey
Bérmejo p. 61 - 80)

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة - ٢ ص ٢٣ (طبعة القاهرة) Ayala ; Op
Cité . I p. 347

(٣) المقرئ : نفح الطيب - ٩ ص ٤٧ ، ٧ ص ٦ ، ابن الخطيب : الاحاطة

سلطان بنى مرين وطالب السلطان محمد الخامس بردها مهددا بمنع أسرته التي كانت لاتزال بالمغرب ، من العودة إلى غرناطة . ويذكر ابن الخطيب الذى كان مقيما هو الآخر بالمغرب ، فى ذلك الوقت ، أنه تدخل لدى المسؤولين فى المغرب فى هذا الشأن واستطاع حل هذه الازمة والعودة إلى غرناطة صحبة الأمير يوسف ولى عهد غرناطة وبقية الأسرة الملكية . ولم يذكر ابن الخطيب كيف حلت هذه المعضلة ، ولكن من الثابت أن رنده ظلت تابعة لمحمد الخامس بدليل أن الخطابات التي تبودلت بينه وبين ملوك قشتالة وأراجون كانت تنص صراحة على اسم رنده بين البلاد الخاضعة له (١)

وكيفما كان الأمر ، فإن هذا الحادث لم يؤثر فى العلاقات الودية بين فاس وغرناطة إذ لم ينس أبوزيان محمد المجهودات التي بذلها كل من محمد الخامس وبدرو الأول فى توليته عرش المغرب . ولهذا حرص على توطيد علاقته بها ، فأوفد اليها فى سنة ٧٦٥ هـ (١٣٦٣ م) المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون كسفير له فى هذا الغرض . وقد نجح ابن خلدون فى مهمته ، قصد أول الأمر بلاط غرناطة حيث احتفى به السلطان محمد الخامس وأكرمه وأقطعته قرية البيرة بضواحي غرناطة وقد تسرى ابن خلدون بجارية اسبانية تدعى هند ، وبعث اليه صديقه الوزير القرناطى ابن الخطيب برسالة من الأدب المكشوف فى هذا الموضوع نقلها المقرئ فى نفعه (٢) .

(١) راجع (المقرئ : نفع الطيب ج ٩ ص ٤٧ ج ٧ ص ٦ ابن الخطيب :

الاحاطة ج ٢ ص ١٥)

(٢) المقرئ : نفع الطيب ج ٨ ص ٢٨٠ وما بعدها .

نص + الخ

ثم اتجه ابن خلدون بعد ذلك الى بلاط اشيلية حيث حظى بلقاء بدرو الاول. ويقول ابن خلدون ان ملك قشتالة طلب منه البقاء في اشيلية ووعده بأن يعيد اليه أملاك أجداده باشيلية ولكنه اعتذر وعاد الى غرناطة ومنها الى فاس^(١).

ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى شغل ملك قشتالة بشورة داخلية ضده قام بها أخوه الغير شرعى هنرى دى تراستمارا Henrique de Trastemara واستطاع هذا الأمير الثائر أن ينال تأييد كل من البابا ، وملك فرنسا شارل الخامس ، وملك أراجون بدرو الرابع ، الذين اعترفوا به ملكا على قشتالة في مارس سنة ١٣٦٦ ، وأمدوه بالمال والرجال لمعاونته ضد أخيه.

وحاول ملك أراجون أن يضم الغرب الاسلامى الى هذا الحلف ، فأرسل كتبه وسفراءه الى كل من سلطان فاس وغرناطة محاولا اقناعهما بمهاجمة قشتالة ، مقدما لهما جميع التسهيلات الممكنة من مال وسلاح وأساطيل^(١) وكان غرضه من وراء ذلك هو عزل ملكة قشتالة ، وأحاطتها بشبكة من

(١) راجع تفاصيل هذه السفارة في (ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ص ٨٠ - ٩٣)

(٢) راجع السجل رقم ١٣٨٩ ورقة ٣٨ ، ٤٠ ظهر بأرشيف تاج أراجون بنشـلـوـة .

الأعداء . غير أن محاولات ملك أراجسون في هـ - هذا السيل لم تلبث أن فشلت تماما أمام الصداقة القوية التي كانت تربط كلا من ملك غرناطة وفاس بملك قشتالة بدرو الأول .

هذا ولم يكنف السلطان محمد الخامس برفض التحالف مع أراجون بل سارع الى امداد صديقه بدرو بقوة من خيرة فرسانه بقيادة القائد الغرناطي أبي الفرج رضوان المعروف في المصادر الاسبانية المعاصرة باسم دون فرج الكابشاني^(١) . El-Cabezani ولعل معناها د ذر الرأس الصلبة أو الكبيرة .

على أن الملك بدرو ، رغم ذلك ، لم يستطيع مقاومة الجيوش المتحالفة ضده ، واضطر الى ترك البلاد لمنافسه ، والانجاء الى ملك البرتغال ثم ملك انجلترا طلبا للمعونة الحربية .

وشعر ملك غرناطة بخطورة موقفه بعد أن تخلى عنه حليفه ، فكتب الى ملوك المغرب والجزائر يعلمهم بحقيقة الموقف ويخبرهم بأن الجيوش الفرنسية والأساطيل الأراجونية قد وضعت خطة غدوانية تحت اشراف البابا للقضاء على أملاك المسلمين في المغرب والاندلس^(٧) . وكان لهذا النداء صدى

(١) راجع (Ayaia : Op.cit, Ip. 385) ولعله ابن الوزير أبي النعيم رضوان الذي قتل أثناء الانقلاب الذي انتهى بعزل محمد الخامس سنة ٧٦٠ هـ .

(٢) راجع (ابن الخطيب : الاحاطة ٢٣ ص ٣١) (طبعة القاهرة) ، يحيى بن نخلدون : بغية الرواد ٢٣ ص ١٧٢ - ١٧٣) راجع كذلك (Gaspar Remrio: Op cit. p 367)

عميق في نفوس أهل المغرب والجزائر ، اذ سارعت أسباطهم محملة بالجنود والآلات والأسلحة الى غرناطة^(١) . ثم قامت الجيوش الإسلامية بجمعة تحت قيادة محمد الخامس بهجوم خاطف على المواقع الاستراتيجية القشتالية الهيدة لمملكة غرناطة قبل أن يستتب الأمر للملك القشتالي الجديد هنري دى تراستمارا . واستطاع المسلمون في شعبان سنة ٧٦٧هـ (ابريل ١٣٦٦م) الاستيلاء على حصن برغه Burgo ، وباغو Prigo ، اللذين كان القشتاليون يغزون منها مدينة رندة وأحوازها^(٢) وفي الشهر التالي استولوا على حصن آشز Iznajar^(٣) . المنيع الذي يقع عند نقطة الالتقاء بين حدود المقاطعات الثلاث : غرناطة ، وقرطبة ، وأشبيلية ، كذلك استولوا على حصن السهلة بالقرب من جبل طارق . وقد لعبت الجيوش الجزائرية دورا بارزا في احتلال هذا الحصن الأخير^(٤) .

أما أراجون ، فإنها انتهزت هذه الفرصة ، وشتت هجوما بحريا على السواحل الغرناطية ، واستطاعت في ربيع الثاني سنة ٧٦٨هـ (أواخر سنة ١٣٦٦م) أن تأسر سفينة غرناطية متجهة الى ثغر هنين^(٥) ، وألحيا هدايا

(١) يحيى بن خلدون : نفس المرجع ج ٢ ص ١٧٤ .

(٢) يحيى بن خلدون : نفس المرجع ج ٢ ص ١٧٨ - ١٧٩ ، ابن الخطيب الاحاطة ج ٢ ص ٤٨ - ٥١

(٣) أنظر (Graspas Remiro : Op : cit.p.271)

(٤) يحيى بن خلدون : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٠ ، ابن الخطيب الاحاطة ج ٢

ص ٥٩ - ٥٢ .

(٥) كانت هنين تقع على بعد ثلاثين كيلو مترا شرقي نيمور Nemours ،

في ولاية تلمسان وقد حلت وهران Oran محلها الآن .

ثمينة أرسلها السلطان محمد الخامس إلى صديقه أبي جحر الثاني ملك تلمسان (١) .

ورأى سلطان غرناطة ، بعد أن ضمن سلامة حدوده ، أن يلجأ إلى الحلول السياسية لمدارة أعدائه ودفع شرهم ، فأرسل سفراءه إلى ملكي أراجون وقشتالة (٢) ، مبدئياً لها استعداداه لعقد سلم دائم معها إن توفقا عن مهاجمته . ونجحت غرناطة في سياستها إذ فضل كل من بدرو الرابع ملك أراجون وهنري دى ترستارا ملك قشتالة قبول هذا العرض مؤقتاً حتى يتفرغاً لحل مشاكلها الداخلية . (٣)

وفي خلال ذلك الوقت كان ملك قشتالة المخلوع بدرو الأول يسعى لدى ملكي البرتغال وإنجلترا للحصول على معونة عسكرية تعيده إلى عرشه ولم يستطع ملك البرتغال تحقيق رغبته بينما وافق ملك إنجلترا ادوارد الثالث على مساعدته لأن بلاده كانت في حرب مع فرنسا (حرب المائة عام) فأمدّه بجيش بقيادة ابنه رولي عهده أمير الغال ادوارد الرابع المعروف

(١) راجع (يحيى بن خلدون : بغية الرواد ٢٣ ص ١٩٣ - ١٩٤) .
(٢) يرد اسم الحفصير الغرناطي في الوثائق الأراجونية على شكل Calib Alcapelli راجع (سجل رقم ١٣٨٩ ورقه ١ في أرشيف التاج الأراجوني ببرشلونة)

(٣) راجع نصوص هذه الاتفاقيات في
(Alarcon y Linares : op. cit p.146)

٢٢٢

بالأمير الأسود نسبة إلى لون درعه . وكان هذا الأمير في ذلك الوقت مقيما في مدينة بوادر محاربا للفرنسيين في بلادهم (١) .

واستطاع الجيش الإنجليزي أن يحرز نصرا كبيرا على الجيوش الفرنسية والأراجونية المتحالفة في موقعة ناجره Najera شمال اسبانيا في شعبان سنة ٧٦٨هـ (ابريل ١٢٦٧م) (٢) وبهذا النصر استعاد الملك بدرو عرشه من جديد ولكنه ظل مع ذلك في حالة حرب مع أخيه وحلفائه . ولقد ساء موقف الملك بدرو بعد ذلك عندما انسحب الأمير الإنجليزي بجيشه من اسبانيا نتيجة لمرضه ولعدم قدرة بدرو على دفع نفقات حملته .

واضطر بدرو أن يطلب مساعدة صديقة محمد الخامس بعد أن أصبح وحيدا في الميدان . ولم يتردد ملك غرناطة في امداده بألفين من خيرة فرسانه بقيادة أبي الفرج رضوان وكان غرضه من ذلك أن يبد الحرب اشتعالا بين الاخوين فيكفا عن مناوأة المسلمين (٣) .

ولم يكنف محمد الخامس بذلك ، بل انتهم فرصة انشغال الاخوين بحروبهما ، وقام بهجوم واسع النطاق على قرطبة وجيان سنة ٧٧٠هـ (١٣٨٦ م) . وقد اشترك معه في هذا الهجوم جيش من المتطوعين

(١) انظر (Merimée Histoire de Don Pedro Iroi de Castille p.444)

(٢) وأورد ابن الخطيب وصفا دقيقا مفصلا لهذه المعركة في كتابه الاحاطة ج ٢ ص ٢٣ - ٢٧ (طبعة القاهرة)

(٣) ابن خلدون : العبر ٧ ص ٢٢٧

المغاربة بقيادة شيخ الغزاة الأمير عبد الرحمن بن علي بن أبي يفلوس .
وقد أشادت المدونات القشتالية (١) المعاصرة بشجاعة هذا القائد المغربي
Abenfaluz أي ابن يفلوس . وذكرت أنه استطاع أن يخترق حصون
قرطبة وأنه لولا هطول الأمطار وكثرة الأوحال لتمسك المسلمون من
الاستيلاء على عاصمتهم القديمة (٢) .

كذلك يشير ابن الخطيب عند كلامه عن الحملة التي شنّها الغرناطيون
على مدينة جيان Jaen سنة ١٣٦٧ م ، أن صيحة المسلمين في هذه الحرب
كانت : د والثارات أهل الإسكندرية ، (٣) . وهذه الصيحة تعبر عن موجة
الغضب التي أثارها بالاندلس تلك الغارة الوحشية التي شنّها ملك قبرص
بطرس لوزجنا Lusignan على مدينة الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ

(١) راجع (Ayala; Op. cit I, p. 525—527)

(٢) راجع (Gaspar Remiro : Op. cit. p. 318 حيث ترد
الرسالة التي وجهها محمد الخامس إلى سلطان تونس يصف فيها أحداث تلك
الحملة على قرطبة .

(٣) راجع (ابن خلدون . التعريف ص ٢٨٨) وكذلك

Gaspar Remiro : correspondencia p. 288, 321 - 322

(٤) من هذه الحملة راجع (محمد بن قاسم النويري السكندري : الإمام بما جرت
بها الأحكام المقضية في واقعة الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ) وكذلك .

Madelena Saz pomes : Los Aragoneses en la conquista y
Saqueo de Alejandria por pedro I de chipre, Estudio de edad
media de la corona de Aragon V p. 361-405, Atiya Suiral The
crusade in the later Middle ages p. 345 370)

(١٣٦٥ م) كما أنها تحمل في طياتها معاني الأخوة والتضامن بين الشعوب الإسلامية أمام الغدر والعدوان مها بعدت بينها المسافات .

وكيفما كان الأمر فإن هذه الحروب التي قام بها بدرو وأخيه هنري انتهت بهزيمة بدرو ومقتله عند بلدة مونتييل Montiel وتولية هنري عرش قشتالة سنة ١٣٦٩ م . ولما كان هنري ابنا غير شرعى لآلفونسو الحادى عشر ، فقد أثارت توليته معارضة ملوك البرتغال ونافارا وإنجلترا ، إذ أن كلا منهم كان يرى نفسه أحق بملك قشتالة من هنري بسبب أواصر القرى التي تربطهم بالأسرة المالكية الشرعية . ولم تلبث هذه المعارضات أن تحولت الى حروب بين الملك هنري ومعارضيه .

ولقد انتهر السلطان محمد الخامس هذه الفرصة وعقد حلفا مع ملك البرتغال فرناندو الاول ، ومع سلطان المغرب عبد العزيز بن أبي الحسن المريني (٧٦٨ - ٧٧٤ هـ = ١٣٦٦ - ١٣٧٢ م)

على أن يقوم ملك البرتغال بمهاجمة قشتالة من جهة غاليسيا في الشمال (١) ، بينما يهاجم سلطان غرناطة مدينة الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب يعاونه في ذلك اسطول سلطان المغرب من جهة البحر (٢) ونجح هذه الخطة ، وسقطت الجزيرة الخضراء في ايدي المسلمين في ذى الحجة سنة ٧٧٠ هـ (يوليو ١٣٦٩ م) وان كان السلطان محمد الخامس قد عمد إلى تدمير حصونها وأسوارها خوفا من سقوطها في يد

(١) Garibay Op. cit p. 1111, Ayala Op. cit II, p. 7-10

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة ٢ ص ٥٦-٥٨

العدو مرة أخرى (١) .

ولقد انتهت هذه الأحداث المتشابهة بعقد صلح دائم بين كل من :
قشتالة وأراجون وبين غرناطة والمغرب في سنة ٥٧٧١ (١٣٦٩-١٣٧٠م)
وتبذل السفارات الودية بينها .

على أنه يبدو أن انتهاء المشاكل والأخطار الخارجية بالذمبة لغرناطة ،
كاف من العوامل التي شجعت وزيرها وراسم سياستها لسان الدين
بن الخطيب على الفرار الى المغرب حينما أحس بكثرة السعيات ضده ،
وفساد الجو بينه وبين سلطانه . وقد صرح ابن الخطيب نفسه بأنه لم
يقادر غرناطة إلا بعد أن وطد أمورها ، وأكد السلم بينها
وبين جيرانها (٢) .

غير أنه يلاحظ أن ابن الخطيب كان في أواخر حكمه قد ربط
سياسة غرناطة بعجلة فاس ، وحرص على تنفيذ أوامر سلطان المغرب
عبد العزيز الريني ، وتحقيق رغباته في كل ما يطلبه من غرناطة (٣) . وكان
هدف ابن الخطيب من وراء ذلك هو سكنى المغرب (٤) والاستقرار فيه
إذا ما عزل عن منصبه . وقد أثارت هذه السياسة شكوك السلطان محمد

(١) ابن خلدون : العبر ٧ ص ٣٢٧-٣٢٨

(٢) راجع الخطاب الذي أرسله ابن الخطيب الى سلطانه محمد الخامس يبرر له
فيه أسباب فراره الى المغرب (ابن خلدون : التعريف ص ١٤٧ وما بعدها) .

(٣) راجع أمثله على ذلك في : نفح الطيب ٧ ص ٣٠

(٤) المقري : نفح الطيب ٧ ص ٣٢

الخامس - الذى كان يخشى من اطماع السلطان المرينى فى بلاده خصوصا بعد أن ضم المغرب الاوسط الى ملكه وأصبح قوة يخشى خطرهما. ثم جاءت الاحداث بعد ذلك مؤكدة لهذه المخاوف والشكوك ، إذ يقول ابن خلدون : « فأجمع - ابن الخطيب - التحول عن الأندلس الى المغرب ، وأستأذن السلطان فى تفقد الثغور ، وسار اليها فى ليلة من فرسانه ، فلما حاذى جبل الفتح^(١) فرضة المجاز الى العدو مال اليه ، فخرج قائد الجبل لتلقيه ، وقبل كان السلطان عبد العزيز أوعز اليه بذلك ، وجهز له الاسطول من حينه ، فأجاز الى سبتة ، وتلقاه ولاتها بأنواع التكرمة وامتنال المراسم ، ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة (١٣٧١ م) بمقامه من تلمسان ، فاهتزت له الدولة ، وأركب السلطان خاصته لتلقيه ، وأحله من مجلسه بمحل الأمن والغبطة ، وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيرا الى صاحب الأندلس فى طلب أهله وولده ، فجاء بهم على أكمل حالات الأمن والتكرمة ، ثم أكثر المنافسون له فى شأنه ، وأغروا سلطانه بتبعية عثراته وإبداء ما كان كامنا فى نفسه من سقطاته ، واحصاء معايبه . وشاع على السنة أعدائه كليات منسوبة الى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها ، ورفعت الى قاضى الحضرة أبو الحسن النباهى ، فاسترعاه ، وسجل عليه بالزندقة ، وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه ، وبعث القاضى أبو الحسن الى السلطان عبد العزيز فى الانتقام منه بذلك السجلات ، وأمضاء حكم الله فيه ،

(١) كان جبل طارق فى ذلك الوقت تابعا لسلطان بني مرين فى المغرب

فهم عن ذلك ، وأنف لدمته ان تخفر ولجواره أن يرد وقال لهم :
هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ؟ وأما أنا فلا
يخلص اليه بذلك أحد ما كان في جوارى ثم وفر الحماوية والإقطاع له
ولبنيه ولما جاء من أهل الأندلس في جملة (١)....

وبضيف ابن خلدون بعد ذلك بأن ابن الخطيب حرض السلطان
عبد العزيز على ملك الأندلس ، وحمله عليه ، وتوعدوا لذلك عند رجوعه
من تلمسان الى المغرب ، ونفى ذلك الى ابن الأحمر (محمد الخامس)
فبعث الى السلطان عبد العزيز بهدية لم يسمع بمثلها (٢).

غير أن السلطان عبد العزيز لم يعيش بعد ذلك طويلا إذ مات
سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٤ م) وخلفه ابنه زيان محمد السعيد وكان طفلا في
الرابعة من عمره ، فاستبد بالامر وزيره أبو بكر بن غازي الذي كان
صديقا لابن الخطيب .

على أن هذا الوضع السياسي الجديد الذي اقتضى إقامة سلطان طفل
على عرش المغرب ، قد أتاح الفرصة لظهور عدد كبير من الأمراء الطامعين
في الملك ، وكانت النتيجة أن دبت الفوضى والحروب الأهلية في المغرب ،
واستولى بنو عبد الواد على تلمسان والمغرب الأوسط ففقد المغرب بذلك وحدته
وقوته . وهنا يجد السلطان محمد الخامس الفرصة سانحة لتحطيم سياسة
ابن الخطيب وأبعاد الخطر المريني عن بلاده . فعزل أولا على تأييد
استقلال بني عبد الواد - أعداء بني مرين - تلمسان ، ثم أغنى من مملكة

غرناطة منصب شيخ الفزاة الذى كان يشغله أحمد أمراء بني عبد الحق (أو بني مرين) وتولى هو وأولاده قيادة الجنود الفزاة أو المتطهرين المخاربة في غرناطة، ثم اخذ بعد ذلك يتدخل في شؤون العدو المغربية فبعث ببعض الأمراء المرينيين المقيمين عنده الى المغرب ملوفا لهم بالعرش المغربي ومقوما لهم جميع المساعدات الممكنة. وواضح أن هدف السلطان محمد الخامس من وراء ذلك هو إثارة الفتن والفتنة ضد الوزير المستبد بحكم المغرب أبي بكر بن غازي صديق ابن الخطيب.

وأول أمير أرسله سلطان غرناطة الى المغرب، هو الأمير عبد الرحمن ابن يفلوس المريني الذي سبق أن سجنه ابن الخطيب في غرناطة بإيعاز من السلطان عبد العزيز.

ونزل هذا الأمير بساحل غساسه أو بطاوية ضد مصب وادي ملوية بفواحي مليلة، واتخذ من الجبال هناك قاعدة عسكرية لقواته وأعلن عن مطالبته بعرش المغرب. وفي نفس هذا الوقت اتجه السلطان محمد الخامس بجيشه الى جبل طاسارق الذي كان تابعا لبني مرين في ذلك الوقت، فشده الحصار حوله وحشد جيوشه على السواحل الأندلسية مظهرا العبور الى المغرب (١).

وأمام هذا الخطر المزدوج، رأى الوزير ابن غازي أن يعمل على

(١) راجع مقالنا عن حياة ابن الخطيب المغربية في (مجلة البنية العدد الأول الرباط مايو سنة ١٩٦٢).

حماية مدينة سبتة ، قتل العدوتين ، من أى هجوم يقع عليها من الأندلس . فأرسل ابن عمه محمد بن عثمان بن الكاس على رأس جيش كبير لحماية هذه المدينة وما حولها من قواعد عسكرية بما في ذلك جبل طارق ، بينما اتجه هو الى محاربة المطالب بعرش المغرب الأمير عبد الرحمن ابن يفلوسن .

ورأى السلطان محمد الخامس أن يلجأ الى سياسة الحيلة والدهاء لتنفيذ أغراضه ، فاتصل من جنوب الأندلس بحاكم سبتة الجديد محمد ابن عثمان بن الكاس ، واستطاع اقناعه بأن من الخير للمغرب وأهله أن يكون سلطانه رجلاً راشداً بدلاً من هذا الطفل الذى لا يدرك شيئاً ، واتفق معه على إقامة الأمير المربى أبى العباس احمد بن أبى سالم سلطاناً على المغرب ، على أن يكون هو - أى ابن الكاس - وزيره فى المستقبل ، ووعده بكل المساعدات المادية والعسكرية لتنفيذ هذه الخطة . وفى مقابل ذلك اشترط محمد الخامس على محمد بن الكاس أن يسلمه ثلاثة أشياء :

(١) جبل طارق .

(٢) لسان الدين بن الخطيب .

(٣) الأمراء المرينيين .

وتنفيذا لهذه الاتفاقية سلمت قاعدة جبل طارق الى سلطان غرناطة الذى أرسل بدوره جيشاً غرناطياً صلبه الأمير أبى العباس ووزيره محمد بن عثمان بن الكاس لاحتلال عاصمة المغرب فاس^(١) .

(١) ابن خلدون : العبر ٧ ص ٣٨٨ ، ٣٩١ وكذلك مقال السائف الذكر عن حياة ابن الخطيب لغرمة .

وعلم الوزير أبو بكر بن غازي بخيانة ابن عمه محمد بن عثمان ، فأسرع
لإلقائه ومنعه من دخول فاس ، ولكنه هزم عند جبل زرهون سنة
٥٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) .

وهكذا أصبح المغرب تحت رحمة الأميرين المرشحين لعرش المغرب :
أبي العباس أحمد ، وعبد الرحمن بن يفلوسن وهما من أحفاد السلطان
أبي الحسن المريني . وبطبيعة الحال قام بين هذين الأميرين حول
أحقية كل منهما في عرش المغرب ، واضطر سلطان غرناطة الى التدخل
بينها لتسوية هذا النزاع ، فطلب من عبد الرحمن الخضوع لأبي العباس
ومساعدته في احتلال فاس على أن يستقل هو بحكم عاصمة المغرب
السانية مراكش .

وهكذا صار السلطان محمد الخامس هو الحاكم الحقيقي للمغرب يولى
ويعزل من يراه من أمراء بني مرين . وكان طبيعيا أن يكون نتيجة هذا
التدخل هو القبض على غريمه لسائر الدين وقتله وحرقة بعد امتحانه
وتعذيبه ومصادرة أمواله وضيائه وذلك سنة ٥٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م)^(١)

ولم يكن السلطان أبو العباس أحمد مستقر له الأمور في فاس حتى طمع
في توحيد ملك بني مرين تحت سلطانه ، فدخل في صراع طويل مع منافسه
عبد الرحمن بن يفلوسن سلطان مراكش ، وانتهى الصراع بين هاتين الساميتين
بانتصار فاس على مراكش ومقتل عبد الرحمن سنة ٥٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م)

(١) راجع (المقرئ نفع الطيب ٧٥ ص ٢٥) وكذلك مقانا عن حياة ابن الخطيب
المغربية في مجلة البنية ، المصعدة الاولى سنة ١٩٦٢ .

ولم يكتف أبو العباس بهذا النصر الذي جعله سلطانا بدون منازع على جميع المغرب الأقصى ، بل اتجه ببصره نحو المغرب الأوسط يريد منه إلى ملكه كما كان الحال في عهد آبائه ، واستنجد سلطان تلمسان أبو حمور الثاني بسلطان غرناطة محمد الخامس الذي كان يحرص بدوره على بقاء المغرب الأوسط مستقلا عن نفوذ المرينيين . ولهذا حاول سلطان غرناطة إقناع سلطان فاس بترك مشاريعه التوسعية في المغرب الأوسط ولكن دون جدوى واستولى أبو العباس على تلمسان وفر صاحبها أبو حمور إلى الصحراء . وكان رد سلطان غرناطة على هذا العمل ، أن أرسل إلى سبته أميراً مرينياً من أبناء أبي عنان يدعى موسى ، وزوده بالرجال والأموال والأسلحة كما أرسل معه كوزير له مسعود بن ماساي ، واستطاع موسى أن يحتل العاصمة فاس ويعلن نفسه سلطاناً على المغرب سنة ٧٨٦ هـ (١٢٨٤ م) كما أعلن في الوقت نفسه أن مدينة سبتة تابعة لسلطان غرناطة . (١) أما أبو العباس فإنه لم يلبث أن قبض عليه في تلمسان ، وأرسله أسيراً إلى غرناطة حيث عامله السلطان محمد الخامس معاملة كريمة حسنة .

ولم يمض السلطان موسى أكثر من سنتين ، إذ مات سنة ٧٨٨ هـ (١٣٨٦) ، وحاول سلطان غرناطة أن يقيم مكانه أميراً مرينياً آخر يدعى بالوائقي ، ولكن الوزير مسعود بن ماساي ثار على هذا الوضع وقبض على هذا السلطان الجديد وعلى جميع من معه من الجنود الغرناطيين ورفض أن يطلق سراحهم إلا بعد تسليم مدينة سبتة . ورد سلطان غرناطة على هذا

(١) ابن خلدون : العبر ٧٣ ص ٣٥٠

التهديد بأن أرسل إلى المغرب السلطان المخلوع أبا العباس أحمد ليكون سلطاناً للمرة الثانية ، وأرسل معه جيشاً أندلسياً بقيادة أحد قراده البارزين ، وهو أبو الفرج رضوان الذي سبق له أن اشترك هو وفرسانه في صفوف ملك قشتالة بدرو الأول ضد أخيه هنرى وحلفائه الأراجونيين والفرنسيين واستطاع أبو العباس بهذه القوة الغرناطية أن يستولى على فاس ويقتل الوزير ابن ماساي ويعلن نفسه سلطاناً على المغرب سنة ٧٨٩ هـ (١٣٨٧ م) . (١)

ولقد حرص السلطان أبو العباس في هذه المرة على أن يوطد علاقاته مع سلطان غرناطة ، فأخذ يتبادل معه الهدايا والسفارات ، ويفهم من قصيدة للشاعر الغرناطي المعاصر عبد الله بن زمرك (ت ٧٩٦ هـ) ، أن السلطان محمد الخامس زار مدينة سبتة (٢) في خلال هذه الفترة بما يدل على قوة نفوذه في منطقة المضيق

ثم توفي محمد الخامس الفتي باقته سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) وخلفه على عرش غرناطة ابنه يوسف الثاني ولاشك أن هذه الوفاة قد أثارت مطامع أبي العباس القديمة ، فيشير السلاوي إلى أنه استطاع مد نفوذه إلى تلمسان بالمغرب الأوسط ، وأنه كان يطمع في مملكة غرناطة نفسها ،

(١) ابن خلدون : العبر ٣ ص ٣٥٤ - ٣٥٧ ، التعريف بابن خلدون

ص ٢٧٧

(٢) المقرئ : نفع الطيب ١٠ ص ٥٢ ، أزهار الرياض ٣ ص ٨١

ولكنه مات قبل أن يدرك غرضه سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م) ^(١) وتوالى على عرش غرناطة والمغرب عدد من ملوك بني مرين ، لم تكن لهم قوة أسلافهم ولا حذرهم وحيطتهم وشعورهم بالخطر المحدق بهم فعاثوا عيشة ترف ولهو . ومن تصارب القدر العجيبة أنه في الوقت الذي أخذ الضعف فيه يدب إلى كل من غرناطة وفاس ، كانت القوة قد بدأت تتجمع في كل من أسبانيا والبرتغال .

فالبرتغال قد سرت فيه نهضة حربية وملاحية كبيرة وخاصة منذ عهد الملك خوان الأول (١٣٨٥ - ١٤٣٣ م) مؤسس أسرة أفيس Avis ^(٢) التي حكمت البرتغال بعده . ولقد أبدى هذا الملك اهتماما خاصا بالبحرية والاساطيل ، واحتلال القواعد والمراكز البحرية التي تسيطر على منافذ البحار وطرق التجارة في منطقة المضيق .

واتتهز هذا الملك فرصة اضطراب الأحوال في المغرب ، وهاجم بنفسه مدينة سبتة Ceuta بأصطول كبير من مائتين وعشرين سفينة ، واستولى عليها وعلى منطقة جباله في أغسطس سنة ١٤١٥ م (٨١٨ هـ) ، وفر

(١) السلاوى : الاستقصا ٤ ص ٨٢ ، ٧٦ .

(٢) كان هذا الملك في الأصل رئيسا لنظام Avis العسكرى الدينى ثم انتخبه مجلس النبلاء ملكا على البرتغال واستمر الملك في عقبه فترة من الوقت ثم انهار نفوذ أسرة ملوك Avis مسنده عقب كارثة وادى الخازن أو القصر الكبير التي اندحرت فيها الجيوش البرتغالية سنة ٩٨٦ هـ (١٥٧٨ م)

حاكمها المدهر صلاح بن صلاح ، وقام أماكنه حاكما من قبله اسمه
بدور منس Pedro Meneses .

وذكر محمد القادري في كتابه نشر المثاني د قصة في كيفية استيلاء
البرتغاليين على سبتة ، تشبه قصة فيسر^(١) مع الزباء قال رأيت بخط من
يظن به الثبوت والصدق أن النصارى جاءوا بصناديق مقلدة يوهمون أن
بها سلما وأزلوها بالمرسى كمعادة المعاهدين وذلك صبيحة يوم الجمعة من
بعض شهور سنة ثمان عشرة وثمانمائة وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالا
عندهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة ، فخرجوا على حين غفلة من
المسلمين واستولوا على البلد^(٢)

وحاول المسلمون استعادة هذه القاعدة الهامة سنة ١٤١٩م (٥٨٢٢)،
فهاجمها سلطان المغرب أبو سعيد المريني من البر ، بينما هاجمها سلطان
غرناطة محمد الثامن من البحر ، ولكن البرتغاليون تمكنوا من احباط
هذه المحاولة.

وولى بعد خوان الاول ابنه الأكبر ادوارد Duarte سنة ١٤٣٣م
الذى حاول احتلال طنجة ، وأرسل لهذا الغرض حملة بقيادة أخويه دون

(١) يقصد الامبراطور الرومانى أورليان الذى استولى على مدينة تدمر سنة
٢٧١م وأسر ملكها الزباء التى تعرف عند الرومان باسم زنوبيا .

(٢) راجع (السلامى : الاستتصاف - ص ٩٢) وكذلك استقينما معظم المادة
التالية من مجموعة الوثائق والمراسلات والمعاهدات المتبادلة بين ملوك المغرب والبرتغال
وأسبانيا والى نشرها دى كاسترى بعنوان مصادر لم تنشر فى تاريخ المغرب . راجع
De Castries: Les sources inédites de l'histoire du Maroc ,
Portugal , Tome I p. VII (Madrid - Paris 1921) ,

فرناندو ، ودون هنري سنة ١٤٢٧ م (١٤٤١ هـ) ونزلت الحملة في مدينة سبتة ثم اتجهت الى طنجة ، وهاجها هنري من ناحية البحر بينما هاجمها أخوه فرناندو من البحر (١) . وخشى المسلمون أن تتكرر مأساة سبتة من جديد فدافعوا عن المدينة دفاع المستميت . وكان سلطان المغرب في ذلك الوقت طفلا صغيرا يدعى عبد الحق بن أبي سعيد المريني ، وبدير شؤون دولته وزيره أبوزكريا يحيى الوطاسي المعروف بأبي زكري . ولم يتردد هذا الوزير حينما بلغته أنباء طنجة في ارسال الامدادات الى المدينة المحاصرة واضطرت القوات البرتغالية أمام شدة المقاومة الى الانسحاب إلى سبتة ولكن الجيوش المغربية تمكنت من اللحاق بها وتطويقها وأسر الأمير فرناندو وعدد كبير من البرتغاليين . واشترط المغاربة في مقابل إطلاق سراح الأسرى ، أن يسحب البرتغاليون من سبتة . ورأى ملك البرتغال أن تسليم سبتة تضحية كبيرة لا تقدر بثمن ، ولهذا رفض هذا العرض ، وبقي أخوه فرناندو في الأسر الى أن مات بفاس في ٦ يونيو سنة ١٤٤٣ م (٢) .

وفي خلال ذلك الوقت ولي عرش البرتغال الملك الفونسو الخامس الذي سار على سياسة أسلافه التي ترمي الى السيطرة على مضيق

(١) راجع :

(Colonel H . De Castries : les sources inédites Op. cit. p. 9) .

(٢) راجع :

(De Castries : Op. Cit. Portugal, tome p. 10) .

جبل طارق واحتلال القواعد المطله عليه . واتجهت أنظار هذا الملك الجديد نحو ميناء القصر الصغير أو قصر مصمودة الذى يقع بين سبتة وطنجة . وكان هدفه من احتلال هذا الموقع هو التهيؤ لاحتلال طنجة بالإضافة الى تدعيم النفوذ البرتغالى فى سبتة .

وفى أكتوبر سنة ١٤٥٨م خرج الملك الفونسو الخامس على رأس حملة مكونة من ٢٨٠ سفينة و ٢٥ ألف جندى ، واستولى على القصر الصغير بدون صعوبة كبيرة وعين عليها حاكما يدعى^(١)

Duarte de Meneses

ثم رأى الملك البرتغالى أن يحاول من جديد احتلال طنجة ، فوجه اليها ثلاث حملات فيما بين سنتى ١٤٦٣ - ١٤٦٤م قاد بعضها بنفسه ، ولكنها فشلت كلها ولاسيما الحملة الثالثة التى قتل وأسر فيها عدد كبير من خيرة رجاله حتى صارت طنجة ، على حد قول دى كاسترى ، بمنزلة للنبلاء البرتغاليين^(٢).

على أن المغرب لم يلبث بعد قليل أن قتل سلطانه عبد الحق المرىنى فى رمضان سنة ٨٦٩هـ (مايو سنة ١٤٦٥م) وبموته انقضت الدوك المرىنية فى المغرب ، وقام نزاع على الملك بين الشريف الأهرسى محمد بن على وبين قائد مدينة أزيل Arizla محمد بن الشيخ الوطاسى وهو ابن الوزير السابق أبى زكرى .

(١) راجع (De Castriés ; Op. cit. p. 10)

(٢) راجع (De Castriés ; Op. cit p. 11)

وامتد الصراع بين الطرفين عدة سنوات (١٤٦٥ - ١٤٧٢م) اضطرت خلالها محمد الشيخ الى ترك أصيلا ومحاصرة خصمه في فاس .

وانتهز ملك البرتغال الفونسو الخامس هذه الفرصة ، وهاجم مدينة أصيلا بأسطول ضخم من ٤٧٧ سفينة عليه ٣٠ ألف مقاتل ، وذلك في أغسطس سنة ١٤٧١م وبعد مقاومة ضيفة تمكن من احتلال المدينة وأسر عدد كبير من أهلها من بينهم زوجتين وابن لمحمد الشيخ كانوا معتصمين بقصبتها (٢) .

وعندما علم محمد الشيخ بأبناء هذه الحملة ترك جزءا من جيشه لمواصلة حصار فاس ، واتجه نحو أصيلا لنجدتها ، ولكنه ماكاد يصل إلى مدينة القصر الكبير حتى بلغتة الأنباء بسقوط أصيلا ووقوع أسرته في أسر البرتغاليين .

ورأى محمد الشيخ أن الاتفاق مع ملك البرتغال هو الحل الوحيد للخروج من هذه الأزمة والتفرغ لمحاربة خصمه في فاس . وعلى الرغم من أن نصوص هذه الهدنة لم تفل إلينا ، إلا أنه يوجد في المدونة الخاصة بمصر الفونسو الخامس بعض شروطها ، وهي تنص على أن يمتد أمد الهدنة عشرين سنة ، وأن يحتل البرتغاليون مدينة العرائش الى جانب أصيلا ، وأن يطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته (٣) .

على أن ملك البرتغال ، رغم شروط هذه الهدنة ، اتجه بقواته وأسائليه

(١) أنظر (Ruy de Pina : Chronica do Senhor Rey D. Alfonso V p. 97, Lisbonne 1901 - 1902)
(٢) راجع (De Castries: Les Sources inédites de l'histoire du Maroc, Portugal I, p. 13)

نحو مدينة طنجة التي تخاف أهلها أن يكون مصيرهم مثل مصير أهل أصيلا ، فأخذوا في الحلاء عنها بما سئل على الجيش البرتغالي مهمة احتلالها في ٢٩ أغسطس سنة ١٤٧١ م أي بعد خمسة أيام من احتلال أصيلا^(١) .

وكان محمد الشيخ في خلال ذلك الوقت منهمكا في محاربة خصمه الشريف محمد بفاس ثم انتهى الأمر بفرار هذا الأخير الى تونس بعد أن تخلى عنه أتباعه ، ودخل محمد الشيخ العاصمة فاس في سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) مؤسسا بذلك دولة بني وطاس .

ولعد أثار احتلال البرتغاليين لمدينة طنجة أثناء الهدنة المبرمة ، غضب السلطان محمد الشيخ . فاتفق مع ملك أراجون فرناندو الكاثوليكي الذي كان في حالة حرب مع البرتغال ، على أن يقرم المغاربة بمهاجمة سبتة من البر ، بينما يهاجمها الأسبان من البحر . على أن هذا الهجوم المزدوج لم يلبث أن فشل أمام مقاومة حاكم المدينة البرتغالي Rui Mendez Vascencellos وانتهى الأمر برفع الحصار عن المدينة سنة ١٤٧٦ م^(٢) .

ثم جاءت بعد ذلك معاهدات الكاثوفاس Alcaçovas في ٤ سبتمبر سنة ١٤٧٩ ، وطليلة في ٦ مارس سنة ١٤٨٠ م التي أبرمت بين أسبانيا والبرتغال ، مخيبة لآمال السلطان محمد الشيخ ، إذ أنها أنهت حالة الحرب بين هاتين الدولتين ، كما أنها نصت على اعتراف أسبانيا

(١) راجع De Castries : Les Sources inédites de l'histoire du Maroc, Portugal , I, p. 13

(٢) راجع (De Castries : OP. Cit p. 13-14)

بحقوق دولة البرتغال في المواقع التي احتلتها في مملكة فاس ، مثل سبتة ، وطنجة ، والقصر الصغير ، والعرائش ، وأصيلا .

وهكذا نجد أن البرتغال في خلال القرن الخامس عشر الميلادي قد احتلت سواحل العدو المغربية وتحكمت في منطقة المضيق . ويبدو أن الملك الفونسو الخامس أراد أن ينوج هذه الفتوحات التي حققت آماله ، فاتخذ لقباً جديداً ورثه خلفاؤه من بعده وهو لقب « ملك البرتغال والغربين المصافين للبحر » .

(Rei de Portugal e dos algarves d'aquem, e d'alem mar)

كذلك أطلقت عليه المصادر البرتغالية لقباً آخر يدل على أعماله التوسعية في المغرب وهو « الفونسو الإفريقي » (١) .

على أن المغاربة ، رغم كل ذلك ، ولا سيما الشيوخ المستقلين منهم في شمال المغرب ، لم يكفوا عن مهاجمة هذه الحاميات البرتغالية وشل حركتها حتى قيل إنها كانت تعيش في حالة استعداد دائم للحرب . ومن هؤلاء الزعماء المغاربة نذكر الشريف العلي عيسى بن راشد الذي أسس مدينة شععان سنة ٨٧٦ هـ (١٧٤١ م) على ارتفاع ألف متر في جبال الريف بالقرب من تطوان ، لتكون قاعدة لعملياته العسكرية ضد الاحتلال البرتغالي . كذلك نذكر القائد المندري قائد تطوان الذي كان شوكة في جنب المواقع البرتغالية المجاورة في سبتة وطنجة (٢) .

(١) راجع De Castries : Op. cit p. 13-14

(٢) راجع De Castries ; Op. cit. p. 16

إذا انتقلنا الى أسبانيا في خلال القرن الخامس عشر الميلادي ، فنجد أنها عرفت ، هي الأخرى نهضة حرية كبيرة ، ووحدة سياسية شاملة ، بدأت طلائعها باحتلال جبل طارق سنة ١٤٦٢ م في عهد هنري الرابع ملك قشتالة (١) ، ثم بعد ذلك بزواج الملكين الكاثوليكين Los reyes Católicos فرناندو ملك أراجون وإزابيل ملكة قشتالة سنة ١٤٦٩ م . وبهذا الزواج اتحدت هاتان المملكتان اللتان كانتا في منازعات وحروب مستمرة. لهذا أثارت هذه الوحدة في أسبانيا موجة كبيرة من الفرح مازال صداها يتردد في الأغاني الشعبية مثل قولهم :

Tanto monta, monta tanto , Isabel y Fernando

أى ما ارتفعنا فسوف نجد في الذروة دائما إزابيل وفرناندو .

ولا شك أن هذا الاتحاد كان معناه في الواقع انتهاء مملكة غرناطة العربية ، لأن بقاء هذه المملكة الصغيرة كان راجعا الى حد كبير الى العداء القائم بين هاتين الدولتين كما سبق أن أشرنا . وبالفعل كان أول شيء اهتم به هذان الملكان الكاثوليكيان ، هو تصفية مملكة غرناطة وإزالة

(١) انظر Jose Carlos de Luna: Historia de Gibraltar p. 178-180

وقد قال في رثاء جبل طارق الشاعر المعاصر عبد الكريم القيسي آخر شعراء غرناطة :
وقائلة لى مالى أراك مقطباً • كأنك للتقطيب هددت بالذبح
فقلت دعيني الحزن نرض على الورى • أما قد حوى أعداؤنا جبل الفتح؟
حرام علينا البشر والسبح بعده • وفى القلب من آلامه أعظم الجرح
راجع (محمود مكى : عبد الكريم بن محمد القيسي آخر شعراء الأندلس ،

مجلة العربي أكتوبر سنة ١٩٦٧ .

الحكم العربي من أسبانيا نهائيا . وقد اتبعا في ذلك سياسة مزدوجة تقوم على القوة العسكرية من جهة ، وإثارة التفرقة والفتن الداخلية بين المسلمين من جهة أخرى .

ولما شعر سلطان غرناطة ابوالحسن على (٦٦٦-٨٩٠هـ=١٤٦١-١٤٨٥م) بهذه النية المبيتة ضد مملكته ، امتنع عن دفع الإتاوة التي كان يؤديها للوك أسبانيا في كل سنة وقال لرسول الملك فرناندو : « قل لمولايك إن سلاطين غرناطة الذين أعتادوا أداء الإتاوات قد ماتوا ، وإن دار الضرب بغرناطة لا تطيع الآن ذهباً أو فضة ، وإنما سيوفا ورماحا » . وقد أثارت هذه الإجابة غضب الملك فرناندو ، فصاح قائلاً :
Granada, Granda, le arrancaré los granos uno a uno !
« أى غرناطة غرناطة ، سوف انتزع حباتك واحدة واحدة ! »

وبلاحظ أن المعنى هنا مجازي لأن كلمة Granada أى غرناطة معناها بالاسبانية الرمان ولهذا فهو يقصد بانتزاع حباتها أى حصونها واحدا بعد الآخر (١) .

وبدأت الحرب باستيلاء الفرناطين على حصن الصخرة Zagra في الأراضي القشتالية سنة ١٤٨٩ م . ورد الأسبان باحتلال مدينة الحشة

(١) راجع التفاصيل في (Miguel Lafuente Alcantara : Historia de Granada, III, p.357 (Granada 1845) & W. Prescott: History of the reign of Ferdinand and Isabella, p.182 London 1895)

Alhama (١) على مقربة من مدينة غرناطة نفسها سنة ١٤٨٢ م. وحاول السلطان أبو الحسن استرداد هذا الموقع الهام ولكنه لم يقدر ، واستمرت الحرب بين الجانبين عشر سنوات تخللها ثورات وحروب داخلية بين المسلمين زادت من ضعف قوتهم . فتروى المصادر أن السلطان أبا الحسن كان متزوجا بابنة عمه عائشة وله منها ولدان : أبو عبد الله محمد المعروف في المصادر الأسبالية باسم Boabdil ، ويوسف . ثم اصطفى على زوجته امرأة أسبانية كان قد أسرها في إحدى غزواته اسمها ازابيل دى سوليس Isabel de Solis ، وكان أبوها ضابطا في الجيش الأسباني يدعى سانشو خيمينيث دى سوليس Sancho Jimenez de Solis . ثم اعتنقت ازابيل الاسلام واتخذت اسما عربيا وهو فرياس . وقد أثار سبب السلطان لها غيرة زوجته الأولى ، فوقع نزاع بينهما ، واضطرت الأميرة عائشة الى مغادرة قصر الحمراء بولديها والإقامة في سبي البيازين

(١) اشتهرت هذه المدينة بمياهها المعدنية وحماماتها التي كانت تدر عليها دخلا كبيرا ، وقد احتلها مركزيز قادس غيلة وغدرا ولهذا رثاها الكثيرون بمقطوعات شعرية عربية ورومانسية أى أسبانية . وقد أورد المؤرخون الأسبان أمثلة من هذا الشعر الرومانسي مثل المقطوعة التي قيلت على لسان ملك غرناطة وفيها يقول في مطلبها :
Ay de mi Alhama
أى د ويلي على الحمة .

راجع (Perez de Hita : Guerras civiles de Granada I, p, 252)

(Madrid 1913) & Prescott : Op. cit, 186

راجع كذلك (كتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر لمؤلف مجهول ص ٦٠

وما بعدها ، نشر ألفريد البستاني وكارلوس كيروس ، العرائش ١٩٤٠)

ثم لم يلبث الولدان بعد ذلك أن فرا إلى مدينة وادي آش وأعلنها الثورة على أيها وقامت حرب ضروس بين الأب وولديه مات فيها ابنه يوسف ثم انضمت العاصمة غرناطة إلى ابنه الآخر أبي عبد الله محمد وكانت عائلة بني السراج Abencerrajes هي عماد هذه الحركة ، فاستدعت الأمير محمد وأقامته سلطانا بعد أن طردت أباه من العاصمة سنة ١٤٨٢ م . ولجأ السلطان المخولع أبو الحسن إلى مدينة بسطة Baza حيث انضمت إليه عائلة الثغرين Zegries أعداء بني السراج (١).

وحدث بعد ذلك أن وقع السلطان أبو عبد الله محمد أسيرا في يد الأسبان أثناء قياده بغارة في أراضيهم سنة ١٤٨٣ م (١٤٨٨). وكان أسره ضربة شديدة لحكم المسلمين في الأندلس لا من حيث أسره نفسه ولكن من حيث أن الملكين الكاثوليكين استطاعا أن يستذلا نفسه ، ويهضرا إليه ملكه وملك أبيه مرة بالتهديد ومرة بالوعود والأمان حتى ذل عنته ، وأصبح آلة في أيديهما ، ثم أطلقا سراحه ، فعاد إلى غرناطة ليواصل حرب أبيه الذي استرد عرشه . وما لبث أبو الحسن أن مات

(١) يلاحظ أن الثغرين وبني السراج بيوتات عربية أندلسية قديمة ، وقد سبقت الإشارة إلى أن بني السراج كانوا من أصل عسني وأن الأمويين في الأندلس قد عهدوا إليهم حراسة السواحل الشرقية . أما الثغريون فنسبة إلى منطقة الثغر الأدنى في شمال أسبانيا ثم انتقلوا إلى غرناطة بعد سقوط بلادهم ويلاحظ أن النهر المعروف الآن باسم Segre أحد فروع الإبرو هو الذي كان يسميه المسلمون وادي ثغر لأنه كان يروى منطقة الثغر الأعلى التي كانت قاعدة هاسرقسطة راجع تفاصيل المنازعات بين بني السراج والثغرين في

(Perez de Hita : op. cit. I. p. 41 y Sig)

هما وكعدا بعد أن أصيب بالعمى والصرع ، وخلفه فى الملك أخوه
أبو عبد الله محمد بن سعد الملقب بالزغل سنة ١٤٨٥ م (٨٩٠هـ)^(١).

ولقد استغل الأسبان فرصة لانفعال المسلمين بالحرب التى قامت بين
الزغل وابن أخيه أبو عبد الله ، واستولوا على الأجزاء الغربية من مملكة
غرناطة مثل رندة Ronda ولوشة Loja ، ومالقة ، فيما بين ستنى
١٤٨٥ - ١٤٨٧ م (٨٩٠ - ٨٩٢هـ).

ورأى المسلمون أن يعرضوا على الزغل وابن أخيه اقتسام مابقى
من بلاد خروفا من نمادى العدو فى احتلالها . وتم الاتفاق على أن
يستقر الزغل فى مدينة وادى آش Guadix وتتبعه الأجزاء الشرقية من
غرناطة ، بينما تكون العاصمة وأعمالها لابن أخيه أبو عبد الله Boabdil.

غير أن الأسبان لم يكفوا عن بث دسائهم ، فأرسلوا إلى الزغل
من يعرض عليه وعلى قواده مالا كثيرا فى مقابل تسليم الأجزاء الشرقية
من غرناطة التى تحت سلطانه . وأئسر ذلك الإرهاب والترغيب فى
نفس الزغل لاسيما بعد أن تخلى عنه قواده ، فأثر التسليم والرحيل إلى
فاس. ولكن سلطان المغرب محمد الشيخ نقم عليه فسجنه وصادر أمواله
وسلّ عينيه .

أما أبو عبد الله محمد ، فإنه ظن فى بادىء الأمر أن الجو قد صفا
له بذهاب همه ، ولكنه سرعان ما تكشف له الحقيقة عندما طالبه الملك

(١) راجع تبذه العصر فى أخبار بنى نصر ص ١٠ وما بعدها ، عبد الحميد
المبداى الجملى فى تاريخ الانفلس ص ١٩٢ .

فرناندو بتسليم عاصمته غرناطة ، عندئذ صمم على القتال حتى النهاية وأيده في ذلك أهل غرناطة (١) .

ولجأ الملك فرناندو إلى سياسة الحرب الاقتصادية ضد أهل غرناطة كى يجبرهم على التسليم أو يميتهم جوعاً . فحاصر المدينة سنة ١٤٩١ م (٧٩٦ هـ) ، وأفسد مروجها ، وبنى أمامها مدينة أطلق عليها اسم سانتى Santa Fé أى الإيمان المقدس لتكون قاعدة لعملياته العسكرية (٢) ويقول السلوى فى هذا الصدد : « وعلى الرغم من ذلك كله كان الطريق بين غرناطة والبشرات Alpujarras متصلة بالمرافق ، والطعام يأتى من ناحية جبل شلير Sierra Nevada إلى أن تمكن فصل الشتاء ، وكتب البرد ، ونزل الثلج ، فانسد باب المرافق ، وانقطع الجالب ، وقل الطعام ، واشتد الغلاء ، وعظام البلاء ، ففر ناس كثير من الجوع إلى البشرات ثم اشتد الأمر فى شهر صفر سنة ٨٩٧ هـ (ديسمبر ١٤٩١ م) ، فاجتمع ناس مع من يشار إليه من أهل العلم كآبى عبد الله الموافق شارح المختصر وغيره ، وقالوا : أنظروا لأنفسكم وتكلموا مع سلاطنتكم . فاحضر السلطان أبى عبد الله بن أبى الحسن أهل دولته وأرباب مشورته ، وتكلموا فى هذا الأمر ، وأن العدو يزاد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا ، فانظروا لأنفسكم وأولادكم . فانفق الرأى على ارتكاب أخف الضررين ، وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد فى اسلام البلد خوفاً على تقوسهم وعلى الناس ، ثم عددوا مطالب وشروطاً أداروها وزادوا أشياء على ما كان

(١) كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر ص ٣٧ ،

على مظهر : محاكم التنقيش ص ١٤ - ١٥

في صلح وادى آش ، منها : أن صاحب رومة (البابا) يوافق على
الالتزام والوفاء بالشرط إذا مكنوه من حرام غرناطة ، ويحلف على عادة
النصارى في اليهود . وتكلم الناس في ذلك ، وذكروا أن رؤساء أجناد
المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك ، امتن عليهم النصارى بمال جزيل
وذخائر ، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة
فانقادوا اليها ، ووافقوا عليها ، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة فقبلها منهم
ونزل سلطان غرناطة أبو عبد الله عن الحرام ، واستولى النصارى عليها
في ربيع الاول سنة ٨٩٧ هـ (يناير ١٤٩٢ م) ، ولا حول ولا قوة
إلا بالله . (١)

والجدير بالذكر أن غرناطة اتجهت إلى مصر نلتفت معوتها أمام الخطر
الواقع بها ، ومثال ذلك السفارة التي أوفدها سلطان غرناطة محمد بن يوسف
الأيسر إلى سلطان مصر الظاهر جقة ق سنة ١١٤٠ م (٨٤٤ هـ) كذلك
نذكر سفارة الفقيه الأندلسي أبي علي بن محمد بن الأزرق الذي حاول
أن يستنهض عزائم السلطان الأشرف قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٥ م)
لاسترجاع الأندلس . (٢)

والواقع إن مصر لم يكن في مقدورها القيام بعمل عسكري في أسبانيا

(١) السلاوي : الاستقصاء - ص ١٠٣ - ١٠٤ وكذلك نبذة العصر

ص ٣٩ - ٤٩

(٢) عبد العزيز الأزهري : سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة
سنة ٨٤٤ هـ ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة المجلد السادس عشر ، مايو
سنة ١٩٥٤ .

وعذرهما في ذلك واضح كما يقول أحد الكتاب المعاصرين ، « لحيولة البحر مع بعد المسافة ، والاحتياج الكثرة المراكب . ولم يكن للملك مصر هناية بأمر الشحنة لأهم أصحاب خيل ، فوترتهم بربة وليست بحرية » (١) ولكن على الرغم من ذلك ، فإن بعض سلاطين مصر حاولوا انقاذ غرناطة عن طريق الضغط الدبلوماسي ، ومثال ذلك تلك السفارة التي أرسلها السلطان قايتباي في سنة ١٤٨٩ إلى الملكين الكاثوليكين ، يهدد فيها باضطهاد المسيحيين الموجودين في الشرق إن لم يكفيا عن مهاجمة غرناطة . غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل وسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ م (٨٩٧ هـ) ولم يفت الملكان الكاثوليكيان أن يبعثا بسفارة إلى سلطان مصر تقصده الغوري سنة ١٥٠١ م واستطاع السفير الأسباني بيدرو مارتير Pedro Martir أن يسترضى سلطان مصر ويزيل التوتر السياسي بين مصر وأسبانيا . (٢)

هذا والجدير بالذكر أن هذه الاحداث المتعلقة بنباهة الحكم العربي في أسبانيا ، قد اقترنت بحركة الاستكشافات الجغرافية الكبرى . ففي نفس تلك السنة (١٤٩٢ م) التي سقطت فيها غرناطة ، اكتشف كريستوفر كولمبس أمريكا بمساعدة ملكي أسبانيا . ولم تلبث البرتغال بعد خمس سنوات أن اكتشفت طريق الهند من رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ م على يد فاسكودي جاما .

(١) المرجع السابق

(٢) أنظر M. Abbady : Algunos aspectos de las relaciones

historicas hispano-Egipcias , Boletín de la embajada de Egipto en Madrid , 23 Julio 1952 - 1953)

وقد استعان كل من الرحالين بالعرب ليهتدى طريقه في مجاميل المحيط
الاطلنطى والمحيط الهندى . وفى نفس تلك السنة ١٤٩٧ م تظاهر الأسعاول
الاسبانى بأنه يعد العدة فى جبل طارق لرحلة كرسنوف كولمبس الثانية إلى
أمريكا ، ثم أبحر سرا إلى القاعدة المغربية مليلة Melilla واستولى عليها
فى سبتمبر سنة ١٤٩٧ م تحت قيادة دوق مدينة سدونيا دون خوان دى
جثمان Don Juan de Guzman (٢)

وهكذا لم تعد أهمية مضيق جبل طارق قاصرة على البلاد المطلة عليه
من الشمال أو الجنوب ، بل صار ممرا حيوريا بين الشرق والغرب أو
بين العالم القديم والعالم الجديد وبهذا يدخل النزاع فى دور جديد

(١) راجع De Castries : Les Sources inédites de l'histoire
du maroc , Espagne Tome I p. 4 - 5 (Madrid - Paris 1921)

ضميمة رقم ١

الخطاب الذي رفعه الفقيه ابن العربي^(١) الى الخليفة العباسي المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢ هـ = ١٠١٤ - ١١١٨ م). يلتمس فيه تقليدا خلافاً يخول يوسف بن تاشفين (ت ٥٥٠ هـ = ١١٠٦ م) حكم بلاد المغرب والاندلس ، ورد الخلافة عليه .

الخادم بالادعية تقبلها الله ابن العربي والاندلسي .

بسم الله الرحمن الرحيم عليه توكلى :

أسعد الله الدنيا وأهلها بدوام أنوار الموافق المقدسة النبوية الامامية المستظهيرية ، وضاعف مددها ، ولا أرى المسلمين أمدتها بفرائب مجد تبدها ، وفرائض بر نشرها ، ومستأنف سعود تحرس جنابها ، ولا زالت الايام التي هي لا يامها غرر ، وفي اكليل الخلافة ذرر ، للدهر تائم ، وفي المحل غائم ، والحمد لله الذي جعل للبواقف المقدسة النبوية الامامية

(١) هو أبو محمد عبد الله بن عمر الاندلسي الاشبيلي ويعرف بابن العربي ، وقد صاحب معه في هذه الرحلة الى المشرق ولده المتصوف الكبير أبا بكر بن العربي المعافري الذي كان في ذلك الوقت شابا حدثا . وقد توفي ابن العربي الاب بمدينة الاسكندرية سنة ٥٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م) . وهذه الرسالة وغيرها من الرسائل والفتاوى التي نشرها في هذه الضمائم أوردتها ابن العربي الابن في كتابه ترتيب الرحلة للترغيب في الملة ، وقد عثرنا عليها ، أي على الرسائل ، في مخطوطة بخزانة الرباط بعنوان كتاب الانساب (ك ١٢٧٥) سوف ينشر قريبا

المستظهرية شرائط السواد ، وخصها بالمجد المؤثر المطول بالانساب ، كابر
عن كابر إلى أعلا خندف^(١) ، فهي أعلاها عمادا ، وأوراها في مواقف الفضل
زنادا . أرومة الرسالة ، وجرومة الخلافة ، إليها يزع هاء ، وعنها
أخذت المكارم ، مفاخر شهد لها الكتاب المنزل ، وعهد بتخليدها مخبرا
عن الوحي في آله وعقبه النبي المرسل . قد أمنت بعصمة الله من الغير ،
وتحققنا أواخرها على سنن أولها في هداية البشر بحسن السير ، أوزعنا
الله الشكر على ما من به من ترفيقنا للنمساك بمرأها الوثيقة ، والاهداء
بهذاها الى واضح الطريقة ، فهم في الدين أئتنا ويوم الدين وسيلتنا ،
استعملنا الله من طاعته وطاعتهم بما يؤدي الى مرضاته ومرضاتهم ، إنه
الموفق الهادي لأرب غيره .

وان الخادم بالأدعية المنقبلة للمواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية ،
الهمه الله منها لما يسمع فيرفع بمنه لما علم بموجب الشرع أن بيعة الامام
العادل من أركان الديانة ، وبما يتعين تعيين ما يحتمل من رعاية الأمانة
هاجر الى ذلك بنفسه وبابنه المسترق القن من أقصى المغارب ، معتقدا
أن عمله أفضل القرب والرغائب ، واحتمل برد الهواء وظمأ الهواجر ،
وانتحم دون ذلك مسالك بلغت فيها القلوب الحناجر ، ولم يشته بحر يزخر
ولا قفر يذعر ، يحتسب في ذلك أثره ، ويرجو أن يقبل الله يوم
الجزاء عثره ، الى أن انتهى هو وابنه الى مدينة السلام ، لازالت محروسة

(٢) خندف هي امرأة الياس بن مضر أحد جدود العرب ، وقد عرف بنوه
بها . (القلة شندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص ٢٤٨) .

من غير الأيام ، عاصمة لمن النجا اليه من محتضى الانام.

ولم يزل الخادم بالادعية المتقبلة بحلول الله يتوسل بهجرته ، ويتقرب
بخلوص علايته وسيرته ، ويسأل تشریف رقاعه ، بملاحظتها ، والنظر من
انقطاعه ، رغبة في الحظ الجسيم ، الى أن وصل الى المجلس السامي ،
وخدم البساط العالي ، زاده الله تشريفا وتعظيما ، وأنهى أغراض وفادته
ومقاصد ارادته ، فنفذت الاوامر الشريفة ، أدام الله سموها وتشریفها
وأصفي على الجميع ستر سلطانها ، وكف أحسانها بقبول وسائله ، والحاج
مطالبه ، وإفاضة الاحسان عليه.

ولما بسط له في الامل ، وكان هو وابنه في محل الكرامة والجلد ، بدأ
بعرض ماهر عليه ناصر الدين ، وجامع كلمة المسلمين ، القائم بدعوة
مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وهلى آباءه الطاهرين ، الامير
ابو يعقوب يوسف بن تاشفين المتحرك بالجهاد ، المنجز الى المسلمين باستئصال
فتنة العناد ، ولمة الفساد ، قام بدعوة الإمامة العباسية والناس أشباع
وقد غلب عليهم قوم دعوا الى أنفسهم ليسوا من رهط الكريم ، ولا
من شعبة الطاهر الصميم ، فنبه جميع من كان في أفق قيامه بالدعوة
الإمامية العباسية ، وقائل من توقف عنها منذ أربعين عاما الى أن حصار
جميع من في جهة المغرب على سعتها وامتدادها له طاعة ، واجتمعت
بحمد الله على دعوته المرفقة بالجماعة ، فيخطب الآن للخلافة ، بسط الله
أنوارها ، وأعلامها منارها على أكثر من ألفى منبر وخمسمائة منبر ، فان
طاعته ، ضاعفها الله ، من أول بلاد الله الافرنج ، استأصل الله شأفتهم ،
وهمر جهلهم الى آخر بلاد السوس بما يلي بلاد غانة وهي بلاد معادن الذهب ،

والمسافة بين الحدين المذكورين مسيرة خمسة أشهر . وله وقائع في جميع أصناف الشرك من الأفرنج وغيرهم قد فلتك غربهم ، وقللت حزيمهم ، وألفت جموعه عربهم : وهو مستمر على مجاهدتهم ، ومضايقتهم في كل أفق وعلى كل الطرق . وقد استرجع كثيرا من المعاقل التي استباحها الروم من أمور المسلمين ، وسبب أهلها قبل حصول تلك الجهات في حكم سلطانه وكانت ثغور المسلمين بها مستنظمة ، وقد أعادها جده^(١) . بحمد الله إلى أولها ، واحترمت الحرمه المسلمين والاسلام ، وعز سلطانه ، وهذا دأبه وهجيره الذي لأعمل له سواء .

وعدة جيوشه إذا جمعها لحركته ستون ألف فارس ، وكان أمسه مواصلة الخدمة والتشرف بإنهاء أعماله ، والإعلام بمناقل أحواله وأفعاله وباحتماله على حماية دين المسلمين ، وإقباله على مجاهدة المشركين ، إلا أن الحائل المانع دون ذلك لاثباته^(٢) ، ولم يزل يحافظا على ما هو عليه من إقامة الدعوة السعيدة ، والاعتراف بحمد النعم الوافدة العديدة بفضل الله . ولقد وصل إلى ديار المشرق في هذا العام قاض من قضاة المغرب يعرف بابن القاسم ، وذكر من حاك هذا الأمير ما يؤكد ما ذكرته ، ويؤيد ما شريحته . وأشاع القاضي المذكور ذلك بمكة ، وصل الله تشریفها وتعظيمها ، وذكر لي أن الروم على شفا جرف من تضيقه عليهم ، وحصاره لهم . وقد تكرر إعلام الخادم بذلك لما تلزمه من طاعة أولى الأمر لاسيما هذا الأمير وقد خص بفضائل منها الدين المتين ، والعدل المستبين ، وطاعة الامام ، وإبتداء جهاده بالمحاربة على إظهار دهرته ، وجميع المسلمين على طاعته ، والارتباط بحمايه ثغور المسلمين ، وهو من يقسم بالسوية ، وبعدل في الرعية . ووالله ما في طاعته مع سعتها

(١) الجند يضم الجيم الحظ .

(٢) يقال تأفف الرجل المكان أى لم يبرحه وربما المقصود هنا لكثرة اشغاله .

٧٠

دأن منه ، ولا ناه منه من البلاد ما يجرى فيه على أحد من المسلمين
رسم مكس ، وسبل المسلمين آمنة ، ونفوده من الذهب والفضة سليمة
من الشرب ، مطرزة باسم الخلافة ، ضاعف الله تعظيمها وجلالها .

هذه حقيقة حاله ، والله يعلم أنى ما أسهت ولا لغوت ، بل لعل
قد أغفلت أو قصرت : ولولانا أمير المؤمنين المستظهر بالله ، صلوات
الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، الطول الميم في الأمر ، تشريفه بقبول
تأمله ، وفي الإشارة إليه بما يقوى أمره ، ويشد أزره ، ويؤيد سلطانه ،
ويعلى شأنه ، مجربا له على السنن الكريمة ، الطول الميم . فوالله ما في
الأمراء ولا في شيع النصحاء الأولياء من يجوز في الولاء وصحة الاتباع
سبقة ، ولا يلبس من النصيحة طوقه ، والله يمنحه من الخلافة المقدسة
المبينة على طرق النبوة ما يصل يده ويقوى أيده ويشد عضده بمنه
وطوله .

وضراعة الخادم بالأدعية المتقبلة لنفسه ولابنه المسترق الفن بعد الامتتان
باباحة الصدر لهما إلى الوطن ، فقد بعدا عنه سبعة أعوام ، وأقاما في
الجناب المنصب الظليل ، والكنف الرحب المأهول مدة عامين ، يستدران
النعم الحافلة جملا بعد جملا ، ويكرعان في المشارب الجملة العذبة عللا بعد
نهل ، فله الهام الشريفة التي مسحت على شكائتها من عدوان الأيام بيد
شيم الكرام ، فأزاحت عنها جميع الشكايات والآلام لا أعدم الله
مولانا الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه
المنتخبين مبرة تتضاعف بها الأعمال وسعادة تحرز أسنى الآمال ، وكفاية
يستمد بها حرية الأيام والليال ، فذلك بيده وغير معجزه ، وهو المنعم
الجواد ، وكل خير من طوله مستفاد ، لاشريك له ، ولا عوفيق إلا به

والحمد لله حق حمده ، وصلواته على سيد المرسلين رسوله وعبدته وصلى آله
الطيبين ، وهتته المنتخبين الراشدين . آباء أمير المؤمنين صلوات الله عليهم
أجمعين الى يوم الدين ، وحسبي الله ونعم الوكيل .

رد الخلافة :

فراجمه عنه على ظهري بتوقيع عزيز عدد أسطره سبعة وثلاثون
سطرا بخط فسيح كتابي مليح من السطر الأول منه والثاني منه العلامة
العزيرة بخط أمير المؤمنين بالقلم الغليظ بمداد مسك^(١) والقاهر بالله :
عرضت هذه القصة بمفاوز العز والعصمة ، ومواقف الإمامة المطهرة
المكرمة ، زاد الله في جلالها وسبرغ ظلالها ، فنرجت المراسم الشريفة
بأن ذلك الولي الذي أضحي بحبل الإخلاص معتصما بشرطه ملتزما ،
والى أدا فروضه مسابقا . وكل فعله فيما هو بهدده للتوفيق مساقا ،
لأريية في اعتقاده ، ولاشك في تقلده من الولاء ، طويل نجاهه ، إذ
كان من غدا بالدين تمسكه ، وفي الزيادة عنه مسلكه ، حقيقا بأن يستتب
صلاح النظام على يده ، ويستشف من يومه حسن العقبى في غده ، وأفضل
مانحاه ، وعليه من الاجتهاد دار رحاه ، جهاد من يليه من الكفار واثيان
ما يقضى عليهم بالإجتياع والبرار ، اتباعا لقوله تعالى وقاتلوا الذين
يلوثكم من الكفار^(٢) ، فهذا هو الواجب اعتقاده ، الذي يقوم به الشرع
عماده ، وأن يؤلف شمل من في جملة من الاجناد على الطاعة الإمامية
التي هي العروة الوثقى والذخر الأبقى ، واستقراء قوله تعالى والعمل

(١) مسك بضم الميم الأولى وفتح النائية وتثديد السين أى المخلوط
بالمسك .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٢٣ .

به ، والبدار الى التشبث بسبيه ، ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وأولى الامر منكم،

وليكن دأبه الجهاد فيما يكسب عند الله تعالى الزلفى ، ويمنحه من رضاء القسم الاكل الآرقى ، ، «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيداً (١)» . وأن يختص رافعها وولده بالإرعام الذى يصفو عليها برده ، ويصفو لها ورده ، ليظمر عليها من المهاجرة جميل الأثر ويقول أمرهما فيما يرجو أنها الى استقامة النظام وضم النشر، فليقابل الامر الاسنى فى ذلك بامثال واحتذاء مطاع المثال إن شاء الله .

وكتب فى رجب سنة إحدى وتسعين وأربعمائة .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٣٠.

ضميمة رقم (٢)

المخطاب الذي وجهه ابن العربي إلى الفيلسوف أبي حامد الغزالي يشرح فيه موقف ملوك الطوائف بالأندلس من حركة يوسف بن تاشفين الجهادية ويطلب منه فتيا في ذلك ^(١) ، ورد الغزالي عليه .

وكان أشهر من لقينا من العلماء في الآفاق ، ومن سارت بذكره الرفاق ، لطول بابه في العلم ورحب ذراعه ، الإمام أبو حامد بن محمد الطوسي الغزالي ، فاستدعينا منه فتيا وكتابا ، اختصرت لفظ الفتيا لوقت ضاق عن تقييدها ، لكن أنبه على معناها وهو :

في علم الإمام ما ذكر في وصفه خلال أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين أمير المغربيين الأندلس والعدوة ، وما أوضحت لديه من إعزاز الدين ، والذب عن المسلمين ، وهو حميرى النسب وقيهه الرابطن ، قد وقفوا أنفسهم على الجهاد . وقوله كأنه جزيرة الأندلس قد تملكها عن تاريخ ابتداء الفتنة سنة أربعائة ، عدة ثوار تسوروا على البلاد ، فضعف أهلها عن مساعدتهم ، وتلقبوا باللقاب الخلفاء ، وخطبوا لأنفسهم ، وضربوا النقود بأسمائهم ، وأثاروا الفتنة بينهم لرغبة كل واحد منهم في الاستيلاء على صاحبه ، واستأثروا الفساد

(١) هذا الاستفتاء ورد في كتاب الأنساب السالف الذكر ورقة

من الأرقاء والصنائع الطلقاء في محاربة بعضهم بعضا واستنجدوا بالنصارى عندما اعتقد كل واحد منهم أنه أحق من صاحبه ، وعند ذهاب شوكة المسلمين ، وحينما انكسف للنصارى ضعف المسلمين ، وعلوا المداخل والمخارج إلى بلاد المسلمين ، ثم طلبوا المعاقلة وأخذوا بالحرب كثيرا منها من غير مؤونة ولا مشقة . ثم لجأ الباقي من المسلمين إلى المرابطين واستهرخوهم فلباهم أمير المسلمين ووصل إلى البحر ، فاستوقف بعض الرؤساء وفاء للشركين ، وحققا على المسلمين في استدعائهم له ، ووصل الأمير إلى غرب الأندلس فنحه الله النصر ، وألجم الكفار السيف ثم عاود الجواز في العام الثالث من هذا الفتح ، فسيه العدو ، وتحصن منه ، ولم يخرج للقائه مع تناقل الرؤساء عنه ، وعشر لاحدهم على خطاب يشجع العدو على اللقاء ، واستولى على من قدر عليه من الرؤساء هن البلاد والمعاقل وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقي من جزيرة الأندلس ، حالفوا النصارى أو صاروا معهم إلبا . ودعاهم أمير المسلمين إلى الجهاد ، والدخول في بيعة الجمهور ، فقالوا لاجهاد إلا مع إمام من قریش ، ولست به ، أو مع نائبه عن إمام وما أنت ذلك ، فقال أنا خادم الإمام العباسي ، فقالوا له أظهر لنا تقديمه إليك ، فقال أوليست الخطبة في جميع بلادى له ؟ فقالوا ذلك أحتيال ومردوا على النفاق . فهل يجب قتالهم ؟ وإذا ظفر بهم كيف الحكم في أموالهم ؟ وهل على مسلم حرج في قتالهم ؟ وهل على الإمام العباسي أن يبعث له بمنشور يتضمن تقديمه له على جهادهم ، فانهم انما خرجوا عليه بأن الأمير خادمه وهو يخطب له على أكثر من ألفي منبر ، وتضرب السكة

باسمه إلى غير ذلك . ومتى وصف نفسه قال لست مستبدا ، وإنما أنا
خادم أمير المؤمنين المستظهر ، وهذا أشهر من أن يؤكد بالتحلية ، وأظهر
من أن يحدد بالتزكية .

فللشيخ الإمام الأجل الزاهد الأواحد أبي حامد آثم الأجر ، وأعم
الشكر في الانعام بالمراجعة في هذا السؤال إن شاء الله .

ضميمة رقم (٣)

فتوى الفزالي في موقف كل من يوسف بن تاشفين ، وعفوك
الطوائف ، والخلافة العباسية . (١)

فأجاب الإمام الفزالي رضوان الله عليه .

لقد سمعت من لسانه وهو الموثوق به الذي يستغنى مع شهادته عن
ضميره ، وعن طبقه من ثقافة المغرب الفقهاء وغيرهم ، من سيرة هذا
الأمير أكثر الله في الأمر أمثاله ، ما أوجب الدعاء لامثاله . ولقد
أصاب الحق في إظهار شعار الإمامي المستظري ، حرس الله على
المستظهرين ظلالة ، وهذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من
أقطار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، فعليهم تزيين منابرهم بالدعاء
للإمام الحق ، وإن لم يكن قد بلغهم صريح التقليد من الإمام أو تأخر
عنهم ذلك لعائق . وإذا نادى الملك المستولى بشعار الخلافة العباسية ،
وجب على كل الرعايا والرؤساء الإذعان والانقياد ، ولزمهم السمع والطاعة
وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هي طاعة الإمام ، ومخالفته مخالفة الإمام ،
وكل من تمرد واستعصى وسل يده عن الطاعة ، فحكمه حكم الباغى ،
وقد قال الله تعالى ، وإن طائفتان من المؤمنين اختلفتا فاحصلحوا بينهما
فإن بضئ إحدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفىء إلى أمر

(١) وردت هذه الفتوى في كتاب الأنساب السالف الذكر في الورقات

الله (١) ، والقيته إلى أمر الله ، الرجوع إلى السلطان العادل المتمسك بولاء الإمام الحق المنتسب إلى الخلافة العباسية فكل منمرد على الحق ، فإنه مردود بالسيف إلى الحق ، فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردين عن طاعته ، لاسيما وقد استنجدوا بالنصارى المشركين أوليائهم ، وهم أعداء الله في مقابلة المسلمين الذين هم أولياء الله ، فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية .

ومها تركوا الخلافة ، وجب الكف عنهم ، وإذا قاتلوا ، لم يجوز أن يتبع مدبرهم ، ولا أن يذنب (٢) على جريمتهم بل مهما سقطت شوكتهم وانزعجوا ، وجب الكف عنهم أعنى عن المسلمين منهم دون النصارى الذين لا يبقى لهم عهد مع التشاغل بقتال المسلمين . وأما ما يظفر به من أموالهم فمردود عليهم أو على ورثتهم ، وما يؤخذ من نسائهم وذرائعهم في القتال مهدرة لأضيان فيها ، وحكمهم بالجملة في البغي على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة ، المستولى على المناجر والبلاد بقوة الدولة ، حكم الباغى على نائب الإمام .

فإنه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوائق المانعة من وصول المنشور بالتقليد فهو نائب بحكم قرينة الحال ، اذ يجب على إمام المعمر أن يأذن لأمير عادل استولى على قطر من أقطار الأرض ، في أن يخطب عليه ، وينادي بشعاره ، ويحمل الخلق على

(١) سورة الحجرات آية رقم ٩

(٢) ذنب وذنب (بتشديد الفاء) على الجريح ، أجهز عليه

العدل والنصفة ، ولا ينبغي أن يظن بالامام توقف في الرضا بذلك والاذن فيه .

وإن توقف في كتبه المنشور ، فالكتب قد يعوق عن انشائها وإبصارها المعاذير . وأما الاذن والرضى بعدما ظهر حال الأمير في العدل والسياسة وإبتغاء المصلحة للتفويض والتعيين ، فلا رخصة في تركه وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهوراً لا يملك فيه وإن لم يكن عن إيصال الكتاب وإنشائه عائق ، وكانت هذه الفتنة لا تنطفئ إلا بأن يصل اليهم صريح الاذن والتقليد بمنشور مقرون بما جرت العادة بمثله في تقليد الأمراء ، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك . فإن الامام الحق عانلة أهل الاسلام ؛ ولا يحل له أن يتوكل في أقطار الأرض فتنة ثائرة إلا ويسمى في أطفالها بكل يمكن . قال عمر رضى الله عنه : لو تركت جرباء على ضفة الفرات لم يطل بالهناء (١) ، فأنا المسئول عنها يوم القيامة . وقال سليمان بن عبد الملك يوماً وقد أحرق به الناس : قد كثر الناس . فقال عمر بن عبد العزيز : « خصاؤك يا أمير المؤمنين » . يعنى أنك مسئول عن كل واحد منهم إن ضيعت حق الله فيهم أو أقدته . فلا رخصة في التوقف عن أطفاء الفتنة في قرية تحوى عشرة . فكيف في أقاليم وأقاليم إلا أن يعوق عن ذلك عائق ، ويمنع منه مانع ، المواقف القدسية الامامية المستظهرية جرس الله جلالاتها أبصر بها . ونحن نعلم أن لاستجيز التوقف على أطفاء هذه الفتنة إلا لعذر ظاهر وجب على أهل الغرب أن لا يعتقدوا في حضرة الخلافة الا ذلك ، فإن المسافة اذا بعدت وتخللها المارقون عن ربة الحق ، لم

(١) الهناء أى اقطران .

يبعد أن يقتضى رأى الشريف صيانة الاوامر الشريفة عن أن تمتد اليها
أعين الدولة فضلا عن أيديهم .

وأما من يستجيز التوقف فيما عن غير عذر من التقليد لأمير قد
ظهرت شوكته وعرفت سياسته ، وتناطقت الاسن بعبله ، ولم يعرف في
ذلك القطر من يجرى بحراه . ويسد في هذا الحال مسده ، فهذا اعتقاد
فاسد في حضرة الخلافة حاشاها من أن تسب إلى قصور ، أو تقتضى في
نصرة أهل العدل المتمسكين بخدمتها ، والمختصين بعروتها ، القائمين في
أقطار الأرض بانفاذ شعائرها وأوامرها المعلومة بقرائن الأحوال ، فهذا
حكم كل أمير هادل في أقطار الأرض وحكم من بنى عليه ، والله أعلم .

ضميمة رقم ٤

صورة من كفاح مدينة المرية ضد الهجوم الفاشم الذي شنه عليها
خايى الثانى ملك أراجون (أرغون) سنة ١٧٠٩ (١٣٠٩ م) (١)

وفى هذه السنة (١٧٠٩) فى يوم الثلاثاء ثالث شهر ربيع الأول
منها بموافقة شهر غشت (أغسطس) من الشهور المعجمية فى أول دولة
أبى الجيوش نصر ، حاكم البرشلونى المرية وكان قائد أبى الجيوش
عليها القائد أبو مدين شعيب ، وعلى البحر القائد أبو الحسن على الرنداحى
والبرشلونى المذكور طاغية أرغون خذله الله وصل عشية يوم الاثنين ثانى
الشهر المذكور إلى طرف الفتك (Alfunt) من ساحل المرية الشرقى فى
ثلاثمائة قطعة بين صغار وكبار حرية وسفريه ، فحط هنالك وبات فى
أجفانه ، فلما كان من الغد يوم الثلاثاء ، أنزل الخيل والعدد والازواد

(١) ورد هذا النص فى كتاب درة الحجال فى غرة أسماء الرجال (١٨٠٠
ص ٧١ - ٧٩) لشهاب الدين أبى العباس أحمد بن محمد بن على بن عبد الرحمن بن أبى
العافية المكناسى المعروف بابن القاضى ولد سنة ٩٦٠ هـ (١٥٥٢ م) وتوفى ودفن
بباب الجيسة بفاس سنة ١٠٢٥ هـ (١٦١٦ م) وصلى عليه المؤرخ المشهور أحمد
المقرئ صاحب كتابي نفع الطيب وأزهار الرياض (ت ١٠٤١ هـ). وقد نشر كتاب
درة الحجال س. علوش فى جزئين (الرباط ١٩٣٤). ونظرا لندرة هذا الكتاب
وأيضا نقل هذا النص كضميمة لأهميته ، علما بأنه سبق أن ترجم إلى الفرنسية
والإسبانية كما هو مذكور فى ص ٤١٠ .

بتلك المواضع من طرف الفنت إلى الموضع المعروف ببركة الصفر وانتهى
الفرسان والرجال بفحص المرية وخارجها .

وفي الحين أمر القائد أبو مدين بهدم ما قارب الأسوار من المباني
بمخرج البلد ، فهدمت وسويت بالأرض ، وسدت أبواب البلد بالبشاء
الامادعت الضرووة لتركه . وهيت الأسوار للقتال ، ولازمها الرماة
والرجال .

وفي يوم الأربعاء ثاني يوم نزولهم ، احتفل النصارى في أحفل زمر ،
وأثوا يضربون الأبواق والطبول ، حتى انتهوا إلى أسوار البلد مما يلي
الرجل ، فقاتلوا البلد قتالا عظيما ، وتكالموا عليها تكالبا شديدا . وقد
كان المسلمون على غير تعبئة لخروجهم من البلد طمعا في دفاع النصارى
عند اقبالهم لعدم الخبرة بحالهم ، ففروا أمامهم إلى البلد ، ولجؤوا إلى
الأسوار ودافعوا عنهم بالقتال والسهم عن البلد ، وعصم الله وهو نعم النصير .

وفي يوم الخميس خامس الشهر المذكور ، وصل الشيخان أبو العباس بن
أحمد ابن طلحة وأبو عبد الله محمد بن أبي بكر في نحو مائة وخمسين
فارسا ، وكان أولادهم بالمرية ، فلما رأهم النصارى وقد أطالوا
خرجوا إليهم في خيلهم ورجلهم ومعهم الطاغية ملكهم ، فصر الغزاة
القادمون لقتالهم أعظم صبر ، وتجلدوا على جلادهم غياية التجلد ،
واقتمحوا على رغم أنوفهم حتى دخلوا البلد بعد أن هلك من خيلهم تسعة
وما نقص منهم عدد ، فكانت هذه الكائنة مما أكملت النصارى وأدخلت
عليهم حزنا ، وفات المسلمون بأعظم المدد . وفي سائر هذا اليوم وصلت
جيوش النصارى على البر بما عم السهل والوعر من الخيل والرجال ،
فأحرقوا بالبلد أحداق الهالة بالقمر ، والأكام بالتمر ، وقد كان لحق

أهل المدينة لأول حصارهم دهش فلما ناشوهم القتال ، واستقرهم النزال ورأوا أن الحرب سجال ؛ انبسطت للقتال نفوسهم ، وثار الحرب عرائهم ، وأفرس رماثهم ، واتصر حماهم ، وصاروا يبادرون الحرب ولا يهابون الطعن والضرب ، وأخذ النصارى نفوسهم لأول الحصار بالمواظبة على القتال ، والمصاراة بالنزال ، فلما ذهب لهم يوم للإبقتال جديد ، وجعلوا يرتبون الرجال نطاقاً على البلاد ويضربون الطريق ، ويحافظون على الرب . ومما ظهر لهم موضع راحة لبلاد أو مسلك دخول أو خروج يبادروا إليه ليسدوه ، ونصبوا المجانيق وضيقوا الحصار وقتعوا إلى الحرب الأبواب .

فلما كان يوم الأحد ثامن ربيع الأول المذكور ، احتفل الطاغية في مواكبه وجنده وراياته وبنوده ، وأقبل نحو البلد في عدد كثير حتى وافى باب بجانة ، وهناك أكثر نزولهم ومعظم قتالهم ، فأفاضوا في المقاتلة ، واستقبلهم المسلمون بأشد المدافعة ، وكذا كانت الحروب بينهم في عامة الأيام .

وفي يوم السبت الرابع عشر من الشهر المذكور ، أقبل جيش المسلمين من جصرة غرناطة طامعاً في نصرة البلد ودفاع العدة عنها ، فخرج الطاغية والتقى الجمعان فكانت الكرة على المسلمين وقتل كثير من الرجال والفرسان . وفي خلال ذلك خرج جمع من أهل البلد ، فاختلفوا إلى محلة النصارى ، فنهبوا منها كل ما قدروا عليه .

وفي يوم السبت الحادى والعشرين ، ضربوا ناقوسهم الكبير وكانوا لا يضره إلا لركوب طاغيتهم ، ودخلوا في السلاح بأجمعهم وأقبلوا

مخدقين بالبلد من جميع جهاته ، وأعدوا لاقبال أبراجا سامية من الخشب تدفع على هجلات ، وشحنوها بالرجال ، وهيؤوا سلايم هالية على الأسوار ، وأقبلوا يتقدمهم الرجال والرماة وبتلوهم الفرسان ، وفرقوا ذلك على البلد فدافعهم المسلمون وطرحوا عليهم الزيت والقطران ، ورموا بالنيران حتى فر النصارى عنها وتمكن المسلمون من كثير منهم ، وكان هذا اليوم من الأيام العظام .

وفى أول شهر ربيع الاخير ، أقبل جيش من حضرة غرناطة إلى مرشانة (Marchena) ليرتبوا بها ، فضيقوا على النصارى تصرفاتهم .

وكانوا (أى النصارى) يخرجون من محلتهم صبيحة كل يوم فى جمع وافر من الفرسان ينتجعون من الوادى على دوابهم أنواع العصور وضروب الفواكه ، ويجلبون الخشب لأبنيتهم ، والحطب لوقودهم . فخرجوا على هادتهم يوم الاربعاء عاشر شهر ربيع الاخير ، فلما بلغوا الوادى خرجت عليهم كمان المسلمين فانهمزوا أمامهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وغنموا دوابهم وأسلحتهم ، وكان عليهم فى ذلك بوار وانكسار .

وفى يوم الجمعة الثانى عشر لشهر ربيع الاخير ، أقبل جيش المسلمين وعليهم الشيخ أبو سعيد عثمان ابن أبى العلاء فاهرت اليه جيوش النصارى وتلاقوا بموضع خارج المدينة فكانت الدائرة على النصارى وقتل جماعة من زعمائهم وقتل الفرسان تحت الشيخ أبى سعيد ، لكن نجاه الله تعالى وسلمه . ولما ضاقت صدور النصارى بالحرب وفشى فيهم القتل فى الأيام الفارطة ، عزموا على المكيدة ، فخرجت فرقة من فرسانهم ليلاً وأبعدوا عن المحلة . فلما كان من الغد يوم الاحد الرابع عشر من شهر

ربيع الآخر ، أطللوا في زى جيوش المسلمين ، عليهم البرانس . وعندما
تظاهروا للمحلة ، ركب الجيش إليهم على حال استعجال ، وخلفوا
أخيبتهم ليس فيها أحد يستدرجون أهل البلد للخروج إليهم وقد رصدوا
بها المكامن ، وعملوا عليها الخيل ، ونصبوا إليهم الحبال . ولما بصرو
المسلمون بظاهر الحال ، ولم يكن عندهم شعور بالمكيدة ، رفعوا
الاعلام في الأسواق ، وخرج الفرسان وقائد البحر وجماعة من أعيان
المرية قاصدين نحو الأخبية ليذهبوها ، ثم أن الله سبحانه صرفهم عنها ،
فرجعوا إلى جبل المرية ليتدؤوا بما هنالك من الأخبية ، إذ كان
أهلها من شرارهم . ولما شاهد أرباب الكائن ذلك من فعل المسلمين ،
حسبوا أنهم فطنوا للمكيدة ، وأن تعريجهم إنما كان طلبا لنجاتهم ،
فأنبأوا من مكائهم وأرادوا قطعهم عن البلد ، فسقط في أيدي المسلمين
واتفق أن فتح في تلك الجهة باب أفس ذلك اليوم ، فلهجوا إليه ،
فاقتحموا عليه ، ومن انقطع منهم عاذا بالسور ودفع عنهم بالنبل ،
ودلى لهم الواح وتستروا بها حتى ارتفع القتال ، لحقوا بالبلد وحرف
الله مكرهم .

وفي يوم الثلاثاء السادس عشر من شهر ربيع الآخر ، عملوا الحيلة
في إقامة ألواح عظام عالية بموضع يعرف بالاسب على قرب من
البلد ، ووصلوا بينها بمسامير الحديد ، وجعلوا يبنون خلفها ، فعمد
الامر في ذلك على المسلمين ، وأقبلوا يحاولون تحريقها ، فبصر الله تعالى
عليهم ذلك بعد جهد عظيم .

وفي يوم السبت الموافق عشرين للشهر المذكور ، كان القتال في البر
والبحر ، وركب الطاغية في أسطولها في البحر ، وفرق جيشه على كل جهة

من جهات البلد في البحر والبر ، وأقبلوا جميعا على القتال ، وقد أعدوا من الأبراج والسلايل ما يضيق عنه نطاق الاحتيال ، وصاروا لا يدفهم قتال وضاق الحال بالمسلمين ، وانسدت باب الحيل ، فصرخ بهم صارخ أن بادروهم بطرح العذرة ^(١) فهو أعظم نكاية لديهم . فبادر الناس في الحين لتناول ذلك وحمله ، فوضعوا الشيء في محله ، وفارنوا الشكل بشكله ، ولا يحق المكر السيء إلا بأهله ، فكان الفارس منهم في أجمل حال في زيه ، وإذا هو مكسور ثوب العذرة فيصير مسخرة بينهم ، وكان ذلك أدهى عليهم من القتال ، وفرج الله من شدة تلك الحال .

وفي يوم الأربعاء العاشر بجمادى الأولى ، وصل جيش المسلمين من الحضرة في خيل ورجل كثير ؛ فأقبل الفرسان من جهة المناظر ، وأقبل الرجال من جهة الجبل وكان التقدم للرجال ، فرجعت اليهم طائفة من فرسان النصارى ، فلم يستطيعوا صبرا على مقاتلتهم ، فانهزموا أمامهم ، ومضت عليهم سيوفهم .

وكان من لطف الله تعالى أن خرج طائفة من المسلمين من البلد إلى ما يليهم عند زحف النصارى إلى المنهزمين ، فأحرقوا بعض أخبية محلة النصارى وكثيرا من بيوتهم ، فصعد دخانها في الجو . وعندما شاهد ذلك مقاتلة النصارى ، أنصرفوا نحوه يظنون أن محلتهم أضرمت في جميعها اثيران ، فكان ذلك للمنهزمين سببا لرفع السيف عنهم . ولما انتهى فرسان المسلمين للجحفير الذي أحترقه النصارى على محلتهم وعليه طاغيتهم بجنده

(١) العذرة : الغائط

توقفوا عن مضططهم حتى فرق الليل بين الفريقين من غير قتال .
وصار هذا الجيش من المسلمين بعد ذلك يرتب مرشاته ، فيأتون في
أكثر الأيام إلى محلة النصارى يناهشونهم وبضاربونهم . وخف ذلك القتال
عن البلد ، فكانوا لا يقاتلون أهل البلاد إلا في اليوم الذي لا يأتي فيه
جيش المسلمين .

وفي صبيحة يوم الجمعة الثالث لجمادى الآخرة و رام النصارى غدر البلاد
من ناحية جبلها ، فأتوا في عدد موفور بسلام عالية ، فرفعوها حتى
الصقروها بالسور ، ووثبوا يصعدون فيها ويرتقون عليها . ولم يكن في
تلك الجهة للاتفاق غير رجل واحد من المسلمين ، فصاح بالناس فسارعوا
إليه يتصايحون حتى غطت الأسوار بأناسها ، وضائق عن أهلها ، فدفعوهم
وفتح الباب هنالك ، فخرجت منه طائفة من المسلمين ، فقلبوهم ، وقتلوا
رئيسا من زعمائهم فيمن قتل .

وفي عشية يوم الخميس التاسع من الشهر المذكور ، عملوا الحيلة على
غدر هذه الجهة من العرقوب مرة ثانية ؛ وظنوا إخلاءها من الناس ،
وقد كان ناسها استشعروا الحذر من الغدرة الأولى ، ففطنوا لهم
وتصايحوا ، فاجتمع الناس إليهم ، وفتح الباب هنالك فتمسكوا منهم وظفروا
بمعد منهم .

وفي يوم الاثنين الثاني والعشرين لرجب ، سقطت ستارة من السور
فانتدب النصارى إليها وتمالكوا عليها وقاتلوا قتالا مستمرا بطول اليوم ،
وهو آخر قتال كان بينهم وبين أهل البلد ، إلى أن ارتحلوا .
وإنما أظلت بهذا الحصار ، لما فيه من العبرة لأولى البصائر والأبصار .

وكانت عدة فرسانهم ثلاثة آلاف فارس منها ألف مدرعة وأربعمائة مبرقة ،
وأما الرجال فلا يحصون كثرة ، هلك من جميعهم في هذا الحصار تسعون ألفا
قتل منهم أهل المرية بطول الحصار أربعة عشرة ألفا من الزعماء ، وسبعمائة
من الفرسان ، وعشرين ألفا من الرجال ، والساير قتلهم جيش المسلمين وعدة
أخيبتهم نحو الثلاثمائة ، وأما القباطين والبيوت بما لا يأخذ حصر ، وعدة
المجانيق التي نصبوا للرجم أحد عشر منجنيقا رعادة تدور بالبلد ، وينقل
بعضها من دفة لأخرى : منها ما يرجم أسوار البلد ، ومنها ما يرجم داخل
البلد ، ومنها ما يرجم القصبه . ومعظم تسلطهم وكلبهم على أسوار العرقوب .
وعدة الحجرة التي رمت بها المجانيق بطول الحصار أثنان وعشرون ألفا
أنظر لحكمة الله ، كان هدم موتاهم أضعاقا للأحجار المرمى بها من حجر
يزن ثلاثين إلى حجر يزن خمسة وعشرين (رطلا) .

وكان لأهل البلد منجنيق يرمون بها برا وبحرا بحسب الحاجة . فلما
تكررت الحجارة أصابها ، صنعوا ثلاثة مجانيق أخرى .

ومن أسباب عصاة الله تعالى لأهل البلد في هذه المدة ، ما توفر
لخازن قصبة من الشعير الكثير ، وصاروا يفرمون ذلك بحسب رطل لكل
نفس بسوم قيراط واحد للرطل من غير تفرقة بين قوى وضعيف . وأنهى
ما بلغ إليه الرطل من القمح ثلاثة دراهم ، والخبز منه إحدى عشرة
أوقية بدرهمين ، وعدة من استشهد من أهل البلد لطول الحصار مائة
وقسمة وخمسون ، منهم امرأتان وسائرهم رجال . ثم أرسل الله الريح
الغربية مدة شهرين ، فنمت أجفانهم السير ، وقطعت عنهم المير حتى عمهم
الجوع ، فأجابوا إلى الصلح على مال التزم لهم ، فوصل الحمام إلى المرية

مباشرة بذلك ، وذلك يوم الأحد الحادى والعشرين لرجب من السنة (٥٧٠٩)
وقد أنف من ذلك جيوش قشتالة ، ووثقوا أفقاهم فى المراكب ؟
وما عجزوا عنه أضرموا فيه النيران ، وبقي منهم طائفة بعد ذلك ضاقت
عليهم الأجفان فأقاموا تحت الذمة ورحلت المحلة بطاغيته المخزى فى غضب
الله إلى لعنة الله وسوء المصير وذلك يوم الخميس الثانى والعشرين من شعبان
منها فكانت مدة الحصار إلى مدة النيام ستة أشهر غير أيام .

وفى شهر رمضان من السنة المذكورة ، حشد أهل بادية المرية لهدم
ما بقي بعد الحصار بخارج البلد من الحيطان والأبنية خوفا مما كان يتحدث
به من عود الطاغية البرشلونى إليهم . ونزلوا عليها كرة أخرى فامتعت
إلى أن حل قضاء الله وقدره ، وكان أمر الله قدرا مقدورا وإنما ذكرناه
للاعتبار فى مقدورات الله .

ثبت بأسماء المراجع

أولا : المصادر العربية القديمة

- أحمد بابا : أبو العباس أحمد بابا التيسكي. (ت ١٠٣٦ هـ / ١٦٢٧ م)
- نيل الإبتهاج بتطريز الديباج .
- كتب على هاشم كتاب الديباج المذهب لابن فرحون (القاهرة ١٣٢٩ هـ)
- ابن الآبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله. (ت ٥٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م)
- التكملة لكتاب الصلاة - نشر كوديرا .
- الجزمان الخامس والسادس من مجموعة المكتبة الاندلسية . (مديره ١٨٨٧)
- ذيل كتاب التكملة - نشر جونثالك بالثيا . (١٩١٥)
- ذيل كتاب التكملة - نشر محمد بن أبي شنب وألفرد بل (الجزء ١٩١٩ م)
- الحلة السيرة : جزمان ، نشر حسين مؤنس . (القاهرة ١٩٦٣ م)
- ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد الجزري . (ت ٥٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م)
- الكامل في التاريخ . (القاهرة ١٣٠٣ هـ)
- الادريسي : أبو عبد الله محمد الشريف السبتي . (ت حوالي ٥٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م)
- المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس - عن نزوة المشتاق في اختراق
- الآفاق - نشره وترجمه إلى الفرنسية دوزي ودي شوييه . (لندن ١٨٦٦)

- ٠ وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية - عن نزعة المهتاق في اختراق الآفاق
نشر هنري بيريس . (الجزائر ١٩٥٧)
- ٠ وصف الأندلس - نشره وترجمه إلى الأسبانية كوندى Conde
(مدريد ١٧٧٩) :
- ٠ ابن الأحمر : أبو الوليد بن الأحمر . (ت ٨١٠/١٤٠٧ م)
٠ مستودع العلامة ومستبدع العلامة - نشر محمد التركي ومحمد بن ناويت
(تطوان ١٩٦٤)
- ٠ روضة النمرين - طبعة القصر الملكي . (الرباط ١٩٦٢)
- ٠ ابن بسم : أبو الحسن علي الشنبريني . (ت ٥٤٣/١١٤٧ م)
٠ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . (القاهرة ١٩٤٥)
القسم الأول في جزئين والقسم الرابع الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٩/١٩٤٥)
القسم الثالث مخطوط بالأكاديمية التاريخية بمديده رقم ١٢ .
- ٠ ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك . (ت ٥٧٨/١١٨٣ م)
٠ كتاب الصلة في أئمة الأندلس - نشر كوديرا في الجزئين الأول والثاني من
مجموعة المكتبة الأندلسية . (مدريد ١٨٨٣) .
- ٠ محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي . (ت ٥٧٧/١٣٧٧ م)
٠ تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - الطبعة الأوربية
نشر وترجمة دفريري وسانجونيقي Defremery et Sanguinetti
(باريس ١٩٢٢) .
- ٠ البغدادي : صفى الدين : (ت ٥٧٣/١٣٣٨ م)

- مرصد الإطلاع على أسماء الامكنة والبساتع - ثلاثة أجزاء
(القاهرة ١٩٥٤).

- البغدادي : أبو منصور عبد القادر بن طاهر . (ت ٥٤٢٩/١٠٣٧م)

- الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناحية (القاهرة ١٩٤٨)

- البكري : عبد الله بن عبد العزيز المرسى . (ت ٥٤٨٧/١٠٩٤م)

- المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب . نشر دى سنان .

(الجزائر ١٩١١).

- البلاذري : أبو الحسن أحمد بن يحيى البغدادي . (ت ٨٢٧٩/٨٩٢م)

- فتوح البلدان . (القاهرة ١٩٣٢).

- أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق . (ق ٥٦/١٢م)

- أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة المرحدين .

نشر لفي بروفنسال . (باريس ١٩٢٨)

- التجاني : أبو محمد عبد الله بن محمد . (ت حوالي ٨٧١٧/١٣١٧م)

- رحلة التجاني . نشر حسن حسني عبد الوهاب (تونس ١٩٥٨).

- ابن تومرت : المهدي أبو عبد الله محمد . (ت ٨٥٢٢/١١٢٨م)

- موطأ المهدي . مطبعة فوتتانه بالجزائر الشرقية ١٩٠٧ - وتوجد بالخرانة

العامة بالرباط نسختان خطيتان من هذا الكتاب تحت رقم ٤٨٠ ، ج ١

١٢٢٢ ج ١

- الثعالبي : أبو منصور عبد الملك . (ت ٥٤٢٩/١٠٤٧م)

- بقية الدهر - أجزاء - (القاهرة ١٩٣٧)

-- ٤٩٨ --

- ابن جبير : محمد بن احمد الأندلسي . (ت ٥٩١٤/١٢١٧ م)
- رحلة ابن جبير . (بيروت ١٩٤٩)
- الجزنائي : أبو الحسن علي
- كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس .
- نشره وترجمه إلى الفرنسية ألفرد بل Alfred Bel (الجزائر ١٩٢٢)
- ابن جعفر : أبو الفرج قدامة . (ت ٥٦٢٨/١١٤٨ م)
- نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة - نشر دى غويو De Goeje (لیدن ١٨٨٩ م).
- الجهمياري : أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٢١/٩٤٣ م)
- كتاب الوزراء والكتاب . (القاهرة ١٩٣٨)
- نشر مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي.
- الجوزري : أبو علي منصور منصور المزيبي الجوزري (ق ٤٤٠/١٠ م)
- سيرة الاستاذ جوزد وبه توقيعات الأئمة الفاطميين .
- نشر محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة (القاهرة ١٩٥٤).
- ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين احمد بن علي (ت ٨٥٢/١٤٤٩ م)
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ٤ أجزاء
- (حيدر آباد ١٣٥٠ هـ)
- رفع الاصر عن قضاسة مصر (في آخر كتاب الكندي ، الولاة والقضاة) .

- ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي (ت ١٠٦٤/٥٤٥٦ م)
- الفصل في الملل والأهواء والنحل (القاهرة ١٣١٧ هـ) في خمسة أجزاء .
 - نقط المروس ، نشر شوقي ضيف (مجلة كلية آداب القاهرة ١٩٥١)
 - الحميري : عبد المنعم السني الحميري (ت في أواخر القرن التاسع الهجري)
 - الروض المغطى في أخبار الإفطار ، نشر وترجمة ليفي بروفنسال (القاهرة ١٩٣٧) .
 - الحميدى : أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الأزدي (ت ١٠٩٥/٥٤٨٨ م)
 - جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس (القاهرة ١٩٦٦)
 - ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن علي البغدادي النخعي (ت ١١٩٠/٥٣٨٠ م)
 - صورة الأرض (طبعة بيروت)
 - ابن حيان : أبو مروان (ت ١٠٧٩/٥٤٦٩ م)
 - المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، القطعة الخاصة بمصر الحكم المستنصر ، نشر عبد الرحمن حجى (بيروت ١٩٦٥)
 - المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، القطعة الخاصة بمصر عبد الرحمن الثاني ، نشر محمود مكي (تحت الطبع في بيروت)
 - ابن حيرن : أبو حنيفة النعمان بن محمد النيمي المغربي (ت ١١٧٣/٥٣٦٣ م)
 - المجالس والمسائر ، ثلاثة أجزاء ، مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة (رقم ٢٦٠٦٠) .
 - ابن خاقان : أبو نصر الفتح بن محمد القزويني الأشيلى (ت ١١٣٤/٥٥٣٥ م)
 - ثلاثة تعقيبات في محاسن الأعيان (القاهرة ١٣٣٠ هـ)

ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله (٣٠٠ هـ سنة ٩١٣ م)

- المسالك والممالك ، نشر دى خوييه (ليدن ١٨٨٩)

الخزرجى : على بن حسن (القرن الثامن الهجرى)

- العقود القلاوية فى تاريخ الدولة الرسولية ، جزءان فى

(Gibb , Memorial , vol. III fasc. 4'5)

ابن الخطيب : لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦ هـ ١٣٧٤ م)

- أعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاسلام من ملوك الاسلام

في الجزء الخامس بتاريخ اسبانيا نشره ايفى بروفنسال (بيروت ١٩٥٦)

(ب) الجزء الخامس بتاريخ المغرب وصقاية نشره أحمد مختار العبادى وابراهيم

الكتانى (الدار البيضاء ١٩٦٤)

نخاضة الجراب فى ملالة الاغتراب ، نشر أحمد مختار العبادى (القاهرة ١٩٦٧)

- الاحاطة فى أخبار غرناطة .

(١) نسخة الاسكوريال رقم ٩٦٧٣ .

(ب) طبعه القاهرة فى جزأين (القاهرة ١٣١٩ هـ)

(ج) نشر عبد الله عنان ، القسم الاول . (طبعة دار المعارف بالقاهرة)

- ويحانة الكتاب ونجعة الكتاب (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٨٢٥)

رقعه نشر منه جاسبار راميرو المراسلات المتبادلة بين ملوك المغرب وملوك

غرناطة فى القرن الثامن الهجرى (غرناطة ١٩١٦)

- رقم الحلل فى نظم الدولة (تونس ١٣٩٧ هـ)

- ابن خلطكان : (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد) (ت ١٢٨٢ / ٥٦٨١ م)

- وفيات الأحيان وأنباء أئمة الزمان نشره يحيى الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٥٥)

- ابن خلدون : (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن
عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر - (بولاق ١٢٨٤ هـ)

- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا .

نشر محمد بن تاييعة الطنجي . القاهرة (١٩٥١)

- ابن خلدون : (أبو زكريا يحيى) (ت ٧٨٠ هـ / ١٢٧٨ م)
- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - نشره وترجمه إلى الفرنسية
الفردل Alfred Bel - الجزائر (١٩٠٢)

- ابن هراج القسطلی :

ديوان ابن دراج القسطلی نشر محمود مكي (دمشق ١٩٦١)

- ابن أبي دينار : محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (

- المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ١٢٨٦ هـ)

- ابن أبي زرع :

- الانيس المطرب بروضة القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس

طبع على الحجر مرارا بفاس أولا سنة ١٨٨٥ م ثم طبعه الهاشمي الفيلاي طبعة

غير كاملة (الرباط ١٩٣٦) وقد اهتم المستشرقون بنشره و ترجمته فنشره تورنبرغ

مع ترجمه لانيية (ابسال ١٨٤٢) وترجمه إلى الألمانية دومباي سنة ١٧٩٤ وإلى

البرتغالية مورا سنة ١٨٢٨ . وإلى الفرنسية Beaumier سنة ١٩٦٠

الزركشي : أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللؤلؤي

- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس ١٢٨٩ هـ)

— ٥٠٢ —

— ابن الزيات : (أبو يعقوب التادلي المعروف بابن الزيات)

— التتوف إلى رجال التصوف .

(نشر أدولف فور ، الرباط ١٩٥٨)

— ابن أبي زمنين : أبو عبد الله محمد (ت ٣٩٨ هـ)

— قدوة القارى

(مخطوط رقم ٥٧٥ بالمكتبة الوطنية بمطرد)

— السبى : (محمد بن القاسم الانصارى)

— وصف سبته (فى ق ٩ - ١٥ م)

(نشر ليفى بروفنسال (مجلة هسبريس ١٩٣١)

— السلاوى : (أبو الصاس أحمد بن خالد الناصرى) (ت ١٣١٥ هـ سنة ١٨٩٧ م)

— الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى ٩ أجزاء .

(الدار البيضاء ١٩٥٤)

— السلاوى : (محمد بن على الدكالى)

— الاتعاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز .

(مخطوط بمكتبة الرباط رقم ١٣٢٠ هـ)

— السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١٩ هـ ١٥٠٥ م)

— حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزءان (القاهرة ١٣٢٧ هـ)

— تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الامة

(القاهرة ١٣٥١ هـ)

أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل شهاب الدين الدمشقى (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٨ م)

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزءان (القاهرة ١٢٨٧ هـ)

٥٠٤

- الذليل هلى الرومانيين ، نشره عسزت العطار الحسينى الدمشقى بعنوان :
د تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، (القاهرة ١٩٤٧)
- ابن الشباط : محمد بن على بن محمد بن الشباط المصرى التوزرى (ت ٦٨١ هـ
سنة ١٢٨٢ م)
- صلة السمت وسعة المرط
نشر القسم الخاص بالاندلس ، أحمد مختار العبادى فى صحيفة معهد
الدراسات الاسلامية فى مدريد ، (تحت الطبع)
- الشهرستانى : ابو الفتح محمد بن أبى القاسم (ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م)
- الملل والنحل (القاهرة ١٩٤٨)
- ابن صاحب الصلاة : عبد الملك (كان حيا سنة ٥٩٤ هـ سنة ١١٩٨ م)
- المن بالامامة على المستضعفين ، نشر عبد الهادى النازى (بيروت ١٩٦٤)
- الضنبى : أبو جعفر أحمد بن يحيى القرطبى (ت ٥٩٩ هـ سنة ١٢٠٣)
- بغية الملتبس فى تاريخ أهل الاندلس (مدريد ١٨٨٤)
- الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٢١٠ هـ سنة ٩٢٣ م)
- تاريخ الامم والملوك (القاهرة ١٣٢٦ هـ)
- الطرطوشى : أبو بكر (ت ٥٢٠ هـ سنة ١١٣٥ م)
- سراج الملوك (القاهرة ١٣٥٤)
- ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن (ت ٢٧٦ هـ سنة ٨٨٩ م)
- كتاب فتوح أفريقية والاندلس ، نشر جاتو (الجزائر ١٩٤٨)
- ابن عبدون : محمد بن أحمد التجيبى

٥٠٤

١٠ رسالة في القضاء والحسبة

نشرها ليفي بروفسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة
والخطيب (القاهرة ١٩٥٥)

١١ ابن عذاري المراكشي : أبو العباس أحمد بن محمد (كان حيا ٥٧١٢/١٣١٢م)

١٢ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب

١ (الجزء الأول والثاني (طبعة بيروت ١٩٥٠)

ب) قطعة تتعلق بتاريخ المرابطين نشرها ويثي ميراندا في مجلة

هسبريس ١٩٦١

٢ (الجزء الرابع الخاص بتاريخ الموحدين وبداية عهد بني مرين

نشره ويثي ميراندا ومحمد بن تاوريت التطواني وإبراهيم الكنتاني

(الرباط ١٩٦٣)

٣ العذري : أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائ (ت ٩٧٨/٩٨٨م)

٤ ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى الممالك

نشر عبد العزيز الأهواني (مديره ١٩٦٥)

٥ ابن العربي : أبو بكر (ت بفاس ٥٤٣/١١٤٨م)

٦ العواصم عن القواصم ، نشر محب الدين الخطيب (القاهرة ١٣٨٧هـ)

٧ ابن عربي : محي الدين (ت بدمشق ٦٣٨/١٢٤٠م)

٨ الفتوحات المكية في معرفة الأسرار الملكية

٩ العمري : شهاب الدين بن فضل الله (ت ٧٤٢/١٣٤٩م)

١٠ مسالك الإبتصار في مسالك الأوصاف ، الجزء الخاص بوصف إفريقية

٥٥٥

- والآلهة ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب بتونس
- التمريض بالمصطلح الشريف (القاهرة ١٣١٢)
- الفخري : أبو العباس أحمد (ت ٧١٤/١٣١٥ م)
- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية نشر محمد بن
ابن شنب (الجزائر ١٣٢٨ هـ)
- الغرناطى . (الشريف أبو القاسم محمد الغرناطى)
رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة (القاهرة ١٣٤٤ هـ)
- ابن فرحون . ابراهيم بن هلى اليمبرى (ت ٧٩٩/١٣٩٦ م)
الديباح المذهب في معرفة أعيان المذهب . (القاهرة ١٣٢٩ هـ)
- ابن القاضى : (ت ١٢٠٥ هـ / ١٦١٦ م)
درة المجال في غرة أسماء الرجال ، جزمان ، نشر علوش (الرباط ١٩٣٤)
- ابن قتيبة . (أبو محمد عبد الله بن مسلم)
الامانة والسياسة .
- القرمانى . (أحمد بن يوسف)
- أخبار الدول وآثار الدول (طبعة بغداد)
- ابن القطان أبو الحصن هلى بن محمد الكتامى القامى (ت ٦٢٨ هـ - ١٢٣٠ م)
نظم الجان في أخبار الزمان - نشر محمود مكى (الرباط ١٩٦٤)
- القلقشندى ، أحمد بن على (ت ٨٢١ هـ - ١٤١٨ م)
صبح الإلهى في صناعة الانشاء ١٤ جزء (القاهرة ١٣٣٨ هـ)

- ابن القوطية.
- تاريخ افتتاح الأندلس . (عديده ١٩٢٦)
- الكتاني . محمد بن جعفر
- سلوة الأنفاس.
- ابن الكردبوس :
- كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء . - القسم الخاص بالأندلس نشر احد مختار
المبادى - صحيفة معهد الدراسات الاسلاميه بمديده ١٩٦٥ .
- الكتني : أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ - ١٩٦١ م)
- الولاة والقضاة . طبعة روفن جسد . (بيروت ١٩٠٨) .
- الماوروى : أبو الحسن على بن محمد البصرى البغدادى (٥٤٥٠ سنة ٩٥٧ م)
- الاحكام السلطانية . (القاهرة ١٢٩٨ هـ)
- المالكي : أبو عبد الله بن أبي عبد الله المالكي (ق . الخامس الهجرى)
- كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية وزهادهم
ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم ، نشر حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥٠)
- المالقي : أبو الحسن النباهي (ت في أواخر القرن الثامن الهجرى)
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء . الثنيا نشر ليني بروفنسال (القاهرة ١٩٤٨)
- نزهة البصائر والأبصار (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٦٥٣) .
- المراكشي : (عبد الواحد)
- المنعجب في تلخيص أخبار المغرب - نشر سعيد العربيان ومحمد العربي العلبي
(القاهرة ١٩٤٩)

- المراكشي : ابن عبد الملك (ت ٥٧٠-٣/١٣٠٤م)
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة نشر منه احسان عباس السفرين ٤-٥ ويقوم بنشر السفر الاول محمد بن شريفة .
- ابن مرزوق : الخطيب ابو عبد الله محمد المجيب التلساني (ت ٥٧٨١)
- المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن- نشر ليفى بروفسال نخبانه في مجلة هسبريس ١٩٢٥ .
- المسعودي : محمد الباجي
- الخلاصة النقية في أمراء أفريقية . (تونس ١٣٢٣)
- المقرئ : شهاب الدين أبو العباس احمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١/١٦٣١م)
- أزهار الرياض في أخبار عياض نشر منه ثلاثة أجزاء مصطفى السقا و ابراهيم الاياري وعبد الحفيظ شابي (القاهرة ١٩٤٢)
- نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب . عشرة أجزاء تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٣٠٢ هـ .
- المقرئ : تقي الدين أبو العباس احمد بن علي (ت ٥٨٤٥ - ١٤٤١م)
- السلوك لمروفة دول الملوك ! نشر محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٣٦)
- المواظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار جزءان (بولاق ١٢٧٠)
- انعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء نشر جمال الدين الشيال . (القاهرة ١٩٤٨)

٥٠٨ -

- مؤلف مجهول :

- أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها ، نشر وترجمة لافونتين
الكترا (مدريد ١٨٦٧)

- مؤلف مجهول :

- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكبية (نشر علوش - الرباط سنة ١٩٣٦)

- مؤلف مجهول :

- كتاب فتح الأندلس - نشر المستشرق الأسباني د خواكين جونثالك ،
الجزائر ١٨٨٩ م) .

- مؤلف مجهول :

.. نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر .. نشر الفريد البستاني ، كارلوس
كيروس العرائش ١٩٤٠ .

- مؤلف مجهول :

- مفاخر البربر نشر ليفي بروفنسال (الرباط ١٩٣٤)

.. النويري : شهاب (ت ١٧٣٢ سنة ١٢٣٢ م) .

- نهاية الأرب في فنون الأدب ، مخطوط بدار المكتب المصرية رقم ٥٤٩ ،
وقد نشرت دار الكتب منه ١٢ جزءا .

- النويري : محمد بن القاسم السكندري المالكي (ألفه سنة ٧٧٥ هـ)

- الإمام بالإعلام لما جرت به الأحكام القضائية في واقعة الاسكندرية في
سنة سبع وستين وسبعمائة ، وهو دها إلى حالتها الأولى المرضية مخطوط بدار
الكتب المصرية رقم ٣٩٤٢ .

ابن هانيء الاندلسى : (ت ٥٣٦٢/٩٧٢م)

.. ديوان ابن هانيء الاندلسى - تحقيق أكرم البستاني (بيروت ١٩٥٢)

.. ياقوت الحموى : (ت ٥٦٢٦/١٢٢٩م) .

- معجم البلدان فى معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر

فى كل مكان . فى ثمانية أجزاء (القاهرة ١٢٣٣ هـ)

- اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب (ق ٥٤)

.. كتاب البلدان ، نشر دى خوية (لیدن ١٨٩٠م)'

ثانياً : مراجع عربية حديثة

- ابراهيم العدوى :
- الامويون والبيزنطيون .
- أحمد المكتاسي :
- المدن المتدثرة في شمال المغرب .
- أحمد توفيق المدني :
- المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا (الجزائر ١٣٦٥هـ)
- احسان عباس :
- العرب في صقلية، دراسة في التاريخ والآداب - دار المعارف بمصر ١٩٥٩م
- أرشيبالد لويس :
- القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط - ترجمة احمد محمد عيسى
- اشباح :
- تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين . ترجمة عبد الله تنان
- أماري ، ميشيل :
- المكتبة العربية الصقلية - ليسك ١٨٧٥
- .. جمال الدين الفيلال :
- تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي

- ٥١١ -

- جتالك بالثيا :
- تاريخ الفكر الاسلامى - ترجمة حسين مؤنس ،
- جورجى زيدان :
- تاريخ التمدن الإسلامى
- حسن أحمد محمود :
- قيام دولة المرابطين - صفحة مجيدة من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى
- حسن ابراهيم حسن و على ابراهيم حسن :
- النظم الاسلامية طبعة ١٩٦٧ .
- حسن ابراهيم حسن وطه شرف :
- المعز لدين الله .
- حسين مؤنس :
- فجر الاندلس .
- غارات النورماندين على الاندلس - مجلة الجمعية التاريخية المصرية ،
العدد الاول ١٩٤٩
- المساحون فى حوض البحر المتوسط ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ،
مايو ١٩٥١ .
- خوان برنيت :
- هل هناك أصل عربى لاسبانى لفن الخرائط الملاحية ؟
- معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ١٩٥٣ - العدد الاول ، ترجمة :
- احمد مختار العبادى

- خير الدين الزركلى .
- كتاب الاعلام القاهرة (١٩٥٩ م) .
- وشيد رضا .
- الخلافة أو الإمامة العظمى - مطبعة المنار ١٩٢٣ .
- كى حسن .
- الرحالة المسلمون في المصور الوسطى .
- زيادة : د. محمد مصطفى
- بعض ملاحظات جديدة تاريخ دولة المماليك في مصر .
- مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة - المجلد الرابع - الجزء الأول سنة ١٩٣٦
- ابن زيدان . عبد الرحمن بن محمد
- إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس :
- طبع منه خمسة أجزاء (الرباط ١٩٢٨ - ١٩٣٣)
- د سعد رغلول .
- تاريخ المغرب العربى .
- العلاقة بين صلاح الدين وأبو يوسف يعقوب (مجلة كلية الاسكندرية ١٩٥٣)
- الاستبصار في عجائب الامصار لمؤلف مجهول (نشر جامعة الاسكندرية)
- د. سعيد عاشور .
- أوربا في المصور الوسطى .
- سليمان البارونى النفوسى . (ت عام ١٣٥٩ هـ ١٩٤٠)
- الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الإباضية .

- شكري فيصل .
- حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول الهجري .
- شكيب أرسلان . (ت ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٦ م)
- تاريخ غزوات العرب في فرنسا و-ويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط
- الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية .
- العبادي : أحمد مختار العبادي
- سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس (صحيفة . معهد الدراسات الاسلامية
مدريد ١٩٥٧)
- الصقالبة في أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية (مدريد ١٩٥٣)
- الصفحات الأولى من تاريخ المرابطيين - مجلة كلية آداب الاسكندرية ١٩٦٧
- دراسة حول كتاب الحلال الموشية - مجلة تطوان العدد الخامس ١٩٦٠ .
- الموحدون والوحدة الاسلامية - مجلة التربية الوطنية بالملكة المغربية مارس
وأبريل سنة ١٩٦٢ .
- نظام الخلافة في المغرب - مجلة نبراس الفكر بنطوان ١٩٦٢ .
- العلاقات الثقافية بين غرناطة وفاس في القرن الثامن الهجري - الكتاب
الذهبي لجامعة القرويين بمناسبة ذكرها المائة بعد الألف (فاس ١٩٦٠)
- فترة مضطربة في تاريخ غرناطة - صحيفة ميسد الدراسات الاسلامية
- مدريد ١٩٥٩ .
- النزعات الاقتصادية في حياة لسان الدين بن الخطيب - مجلة كلية الآداب
جامعة الاسكندرية ١٣٥٥ .
- سياسة ابن الخطيب المغربية - مجلة البيئة - الرباط مايو ١٩٦٤ .

- . (- الفبادى عبد الحميد)
- المجلد فى تاريخ الأندلس . (القاهرة ١٩٥٨)
- صور وبحوث من التاريخ الإسلامى . (الاسكندرية ١٩٤٨)
- عبد الحى الكتانى .
- الترايب الادارية فى المدينة المنورة العلية . (الرباط ١٣٤٦ هـ)
- عبد السلام المراس ،
- ابن البانة - مجلة البحث العلمى بالرباط (مايو - أغسطس ١٩٦٤)
- عبة نسلام الطود .
- بنو عباد باشيلية (تطوان ١٩٤٦)
- عبد العزيز سالم .
- تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس .
- عبد العزيز بن عبد الله .
- البحرية المغربية والقرصنة - مجلة تطوان العدوان ٣ - ٤
- (١٩٥٨ - ١٩٥٩)
- عبد العزيز الاهوان .
- سفارة سياسية من غرناطة الى القاهرة سنة ٨٤٤ هـ
- مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة - المجلد السادس عشر ، مايو ١٩٥٤ .
- عبد القادر الصحرأوى :
- جولات فى تاريخ المغرب . (الدار البيضاء ١٩٦٩)

- عبد الله جنون :
- مدخل إلى تاريخ المغرب .
- التبوغ المغربي في الأدب العربي .
- عبد المنعم ماجد :
- نظم الفاطميين ورسومهم في مصر .
- عبد الرحمن الجيلالي :
- تاريخ الجزائر العام ١٩٥٥
- عبد الهادي التازي :
- مهدية المولى اسماعيل - مجلة المغرب مايو ١٩٦٣
- 'بن العربي : (الصديق)
- دليل المغرب
- لي مظهر :
- محاكم التنقيش
- عمر كمال توفيق
- تاريخ الامبراطورية البيزنطية
- فتحي عثمان :
- الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري
- كليكييا ساريلي :
- مجاهد العامري : (القاهرة ١٩٦١)

- ٥١٦ -

- لسفرنج :
- بلدان الخلافة الشرقية
- لطفى عبد البديع :
- الاسلام فى اسبانيا.
- محمد ابراهيم السكتاني :
- شذرات من كتاب السياسة لابن حزم
- (مجلة تطوان ١٩٦٠)
- محمد أحمد أبو زهره :
- المذاهب الاسلامية
- محمد بن تاويت :
- بزوغ النفاذ العربية بالمرتب - مجلة تمودا تطوان ١٩٥٦
- دولة الرستميين : صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ١٩٥٨
- محمد الحضري :
- محاضرات فى تاريخ الامم الاسلامية . (القاهرة ١٩١٦ م)
- محمد رضا الشيبى :
- أدب المغاربة والاندلسيين فى أصوله المصرية ونصوصه العربية .
- (مطبوعات الجامعة العربية ١٩٦١)
- محمد بن شريفة :
- أبو اطرف احمد بن عميرة المخزومى .
- أسرة بنى عشرة ، مجلة تطوان ، العدد الثامن ١٩٦٥ .

٥١٧ - ٥١٨

- محمد ضياء الدين الريس .
- الحراج في الدولة الإسلامية .
- محمد عبد الرحيم غنيم .
- تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى .
- محمد العبدى الكانونى .
- آسفى وما إليه .
- محمد عبد الهادى شهيرة .
- الاسكندرية من العصر الاسلامى الى نهاية العصر الفاطمى
(كتاب الفرقة التجارية بمدينة الاسكندرية ١٩٤٩ .
- محمد الفاسى ،
- نشأة الدولة المرينية وبميزات العصر المرينى الادبية - مجلة البنية ديسمبر
١٩٦٢ .
- الاعلام الجغرافية ، مجلة البنية (مايو ١٩٦٢) .
- محمد المنونى .
- العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين .
- نظم الدولة المرينية - مجلة البحث العلمى - مايو سنة ١٩٦٤ الرباط .
- محمد ياسين الحموى ،
- تاريخ الاسطول العربى .
- محمود مكى ،
- التشيع فى الاندلس صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدرسة ١٩٥٤ .

- ٥١٨ -

- تاريخ عبد الملك بن حبيب ، القسم الخاص بالاندلس - نشر محمود مكي

بمصحفة معهد الدراسات الالامية بمديره ١٩٥٧

- عبد الكريم بن محمد القليبي آخر شعراء الاندلس - مجلة العربي و

أكتوبر ١٩٦٧

- الميل (مبارك بن محمد الهلالي) :

- تاريخ الجزائر في القديم والحديث

- هونيد باخ : (فاهلم)

- البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية - نطوان ١٩٥٤

ثالثاً : مصادر أوريسنة

Abbady : "A. M." :

Algunos aspectos de las relaciones historicas hispano -
egipcias, Boletin de la embajada de Egipto en Madrid
23 Julio, 1952-1953.

Aguado Bleye, "Pedro" :

Manual de la Historia de Espana. 2 tomos.
(Madrid 1944-1954)

Alarcon Y. Linares :

Los Documentos arabes diplomaticos del Archivo de la
corono de Aragon.
(Madrid-Granada 1940)

Albornoz : "Sanchez" :

La Eapana Musulmana, 2 Tomos.
(Buenos Aires 1946)

Alcover : "B. Miguel" ;

El Islam en Mallorca.
(Palma de Mallorca 1930)

Alfonso el Sabio :

Primera Cronica General de Espana. Publicada por,
Ramen Menendez Pidal.
(Madrid 1955).

Alfonso Gamir Sandoval :

Organizacion de la defensa de la Costa del reino de
Granada desde su reconquista hasta finales del
Siglo XVI.

Alfred Bel :

Les Bancs Ghanya.
(Paris 1903)

Ali Fahmy :

Muslim sea power in the Eastern Mediterranean from
the seventh to the tenth century. A. D. (1950)

Angel Canellas :

Aragon y la empresa del Estrecho en el Siglo XIV.
Estudios de edad media de la corona de aragon.
seccion de Zaragoza vol. 11 (Zaragoza 1946)

Amari M. :

Conforti Politici, Firenze 1851

Argote de Molina :

Nobleza de Andalucia.
(Sevilla 1588)

Arnold : "Thomas" :-

The Caliphate.
(Oxford 1929)

Asin : "Jaime Oliver" :

Origen Arabe de Rebato .
(Madrid 1928)

— ٥٧١ —

Asin : "Palacio" ;

— Contribucion a la toponimia Arabe de Espana.

(Madrid - Granada 1944)

— El Islam cristianizado "Madrid 193 "

Ballesteros ; "A." .

Historia de Espana, Tomo III

(Barcelona - Buenos Aires 1948)

Bargés : "l'Abbé" ;

— Histoire de Beni Zeiyan Rois de Tlemecen

(Paris 1952)

— Complement de l'histoire des Beni Zeiyan Rois de
Tlemecen, ouvrage du Muhammad Abd Al Jalil
al Tenessi.

(Paris 1887)

Basset et Terrasse :

Tinnel (Hespéris 1924) .

Bershem : "Max van" ;

Titres Califien d'occident Journal Asiatique. IX 1907.

Bleda "Fray Jaime" :

Cronica de los Moros.

(Valencia 1618)

Brunschvig :

La Berbérie Oriental sous les Hafsidés 2 tomes

(Paris 1940 - 1947)

... 448 ...

Bury : "J. B." :

The Naval Policy of The Roman Empire in relation to
the western provinces from the 7th to the 9th century.
(centenario della nascita di Michele Amari, Palermo,
1910)

Bustamante : "Perez" :

Compendio de la Hist. de Espana.
(Madrid 1928).

Caillé : J

La ville de Rabat, Histoire et archeologie,
3 tomes (Paris 1949)

Campaner A. y Fuertes "Alvaro" :

Bosquejo de la dominacion Islemita en las Islas
Baleares.
(Palma de Mallorca 1888)

Capmany : "Antonio" :

— Memorias historicas sobre la marina, Comercio y artes
de la Antigua Ciudad de Barcelona, Tomos III y IV
(Madrid 1792)

— Antiguos tratados de paces y alianzas entre algunos
reyes de aragon y diferentes principes de Asia y
Africa desde el siglo XIII hasta el siglo XV
(Madrid 1786)

Carlos de Luna : "José"

Historia de Gibraltar

(Madrid 1944)

Cascales ; "Francisco"

Discursos historicos de la muy noble Ciudad de
Murcia.

(Murcia 1621)

Codera " F " :

Mochehid Conquistador de Cerdona, centenario della
nascita di Michele Ama

(Palermo 1910)

Concise Encyclopaedia of Arabic civilization .

(Djambatan - Amsterdam 1950)

Creasy : Las batallas decisivas en la historia del mundo

(Espana 1940)

Cronicas de los reyes de Castilla desde don alfonso el
sabio hasta los Reyes Catolicos ed. Rosell.

(Madrid 1876 - 1877)

Cuartero Larrea : "Miguel"

El Salado, Revista " Ejercito " 1941, No 13.

De Castries :

Les sources inédites de l'histoire du Maroc. Portugal
I, Espagne I,

(Madrid - Paris 1921)

— ٥٦٤ —

Derenbourg "Hartwig" :

Omara du Yamen, sa vie et son oeuvre, 3 tomes
(Paris 1909)

Diccionario de historia de Espana 2 tomos.
(Madrid 1952)

Dozy "R." :

- Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne
2 tomes
(Amsterdam 1965) 3 ed.
- Supplement aux dictionnaires arabes, 2 tomes
(Leiden - Paris 1927)
- Scriptorum arabum loci de Abbadides
(Leyde 1846 - 63)

Eguílaz y Yanguas "Leopoldo" :

Glosario etimológico de las palabras españolas de
origen oriental.
(Granada 1886)

Encyclopaedia of Islam.

García Gómez, "Emillie" :

Cinco poetas musulmanes
(Colección Austral n. 513)

Gayangos, "Pascual de Gayangos" :

The history of the Mohammedan dynasties in Spain.
extracted by Ahmad al Maqqari 2 Vols.
(London 1840 - 1843)

— ٥٢٥ —

Gaspar Remiro. M. :

- Historia de Murcia Musulmana.
- Correspondencia diplomática entre Granada y Fez en el siglo XIV. Extratos de la Raihanat al Kuttab de Ibn al Jatib.

(Granada 1916)

Gimenez Soler "Andres" :

- La Corona de Aragon y Granada, Boletin de la real academia de buenas letras de Barcelona (1905 - 1908)
- Expedicion de Jaime II a la ciudad de Almeria, o el Sitio de Almeria (1309) B.R.A.B.L.B. 1904 no 14

Goldziher : "I." :

Le livre de Mohammed Ibn Tumert, Mahdi des Almohades.

(Alger 1903)

Golvin : "L." :

Le Magreb central a l'epoque des Zirides, Recherches d'archeologie et d'Histoire.

(Paris 1957)

Golttien : "S. D." :

The Origen of the vizirate and its true character.
(Islamic Culture, Vol. XVI, 1942)

Hopkins : " J.F." :

Medieval muslim government in Barbary until the sixth century of the Hijra.

(London 1958)

Hulci Miranda : "Ambrosio" :

- La Invasion de los Almoravides y la batalla de Zallaca,
(Hespéris 1953)
- Historia política del Imperio Almohade, 2 tomos
(Tetuan 1956)

Julien, : "André CH." :

Histoire de l'Afrique du Nord de la conquête arabe
à 1830.
(Paris 1952)

Laoust : "Henri" :

La Califat dans la Doctrine de Rasid Rida,
(Beyrouth 1938)

Latrle : "Max" :

Traité de Paix et de commerce et documents divers
Concernant les relations des chrétiens avec les arabes
de l'Afrique Septentrionale au moyen âge
(Paris 1866)

Lafuente Alcantara : "Miguel"

Historia de Granada, 4 tomos
(Granada 1843 - 1846)

Lafuente Alcantara : "Emilio" :

Inscripciones arabes de Granada
(Madrid 1860)

Leon Africano : Juan (al Hasas ibn Mohammed al Wazzan)

Descripcion de Africa y de las cosas notables que en,
ella se encuentran.

(Tetuan 1952)

Lévi-Provençal : " E. " ;

— Histoire de l'Espagne musulmane, 3 tomes.

(Paris 1950)

— La politica africana de Abd al Rahman III, (Al Andalus.
vol. XI, fasc. 2, 1945)

— La Peninsule Iberique du Moyen - Age d'apres le
Kitab Ar-Rawd al Mitar d'Ibn Abd al Munim al Himyari
(Leiden 1938)

— Le voyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Grenade
(1350), Melange offerts a William Marçais,
(Paris 1950)

— Un Zagal hispanique sur l'expédition aragonaise de
1309 contre Almeria (Al Andalus Vol. VI, 1941 fasc. 2)

— Une description de Ceuta musulmane au XV siecle
(Hespéris 1931, tome XII)

— L'Espagne musulmane au Xeme siecle.
(Paris 1932)

Lopez de Ayala, " Pedro "

Cronica de los reyes de Castilla 2 tomos.

(Madrid 1779)

Lopez : " Luciano " ..

la batalla de Covadonga e Historia del Santuario.

(Oviedo 1950)

— eſA —

MadelenaLuz Pomes :

Los aragoneses en la conquista y Saqveos de Alelandría
por Pedro I de chipre, Estudio de la edad media de
la Carona de Aragon tomo, V

Marçals : " G. " :

L'architecture musulmane d'occident
[Paris 1954]

Mariana " P. " :

Historia General de Espana Tome II
(Madrid 1948)

Melchor Antuna : " Martinez " :

- Conquista de Quesada y Alcuadete por Muhammed II
de Granada,
(Religion y Cultura, 1932)
- El poligrafo granadino Ibn al Jatib en la biblioteca del
Escorial
(Imprenta del real Monasterio 1926)

Menéndez y Pelayo : M.

Origenes de la novela.
(Santander 1943

Mercier : "Ernest" :

Histoire de l'Afrique Septentrionale depuis les temps
les plus reculés jusqu'a la conquete française (1530)
2 tomos.
(Paris 1883)

- 879 -

Merimee : " Prosper " :

Histoire de Don Pedro roi de Castille
[Paris 1865]

Motyliniski :

Chronique d'Ibn Saghir sur les imams rostémides de
Tahert, actes du XIV^e Congrès des Orientalistes 3
partie 1907.

Millas Vallécrosa " José Maria " :

La poesia sagrada hebraico-española
[Madrid-Barcelona 1948]

Muir : " William " :

The Caliphate its rise, decline and fall.
(Edinburgh 1924)

Muller : " Marcus Joseph " :

Beitrag zur Geschichte der westlichen araber .
(Munchen 1866.)

Ocana : " Manuel Jimenez " :

Tablas de conversion de datas islamicas a cristianas y
viceversa.
(Madrid - Granada 1946)

Palencia : " Angel Gonzalez :

Historia de la Espana musulmana (1945)

- 82 -

- Historia de la literatura arabigo-espanola
(Coleccion Labor III 1945)

Paz y Meila :

Embajada del Emperador de Alemania Oto I al califa
de Cordoba Abderrahman III
(Madrid 1872)

Pérès : "Henri."

La poesie andalouse en arabe classique aux XI siècle
(Paris 1953)

Pons Boigues : "Francisco" :

Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y
geografos arabigo-espanoles.
(Madrid 1898)

Prieto y Vives : "Antonio"

- Los reyes de Taifas
(Madrid 1926)
- Formacion del reino de Granada.
(Madrid 1927)

Prescott "William H." :

History of the reign of Ferdinand and Isabella the
Catholic.
(London 1895)

Ribera, "Julian" :

Un monasterio musulmane en Denia, en:
(Disertaciones y Opusculos, Madrid 1928)

— 671 —

Roque "Chabas" :

Historia de la ciudad de Denia.

(Denia 1874)

Saavedra : "E." :

Estudio sobre la invasion de los arabes en Espana .

Seco de Lucena, "Louis" :

— La Alhambra

— Sobre el viaje de Ibn Battuta al reino de Granada

(Al Andalus, Vol. XVI 1951)

— Los Hammudies senores de Malaga y Algeciras.

(Granada 1953)

Simonet : " Francisco Javier "

— Descripcion del reino de Granada bajo la dominacion
de los Naseritas.

(Madrid 1860)

— Glosario de voces ibericas y latinas usadas entre
los mozarabes.

(Madrid 1888)

Seybold : "C. F."

Analecia arabo - Italica en (centenario della nascita di
Michele Amari, Palermo 1910)

Torres Balbas : "L." :

— Atarazanas hispanomusulmanas.

(Al Andalus, 1946)

.. ٥٢٢ ..

- Rebitas hispanomusulmanas.
[Al Andalus 1948]

Vasiliev, " A. " :

History of the Byzantine Empire.
(Madison 1952)

Wiet : " Gaston " :

- Histoire de la nation Egyptienne.
(Paris 1926)

- Précis de l'Histoire d'Egypte.
(Le Caire 1932)

Zurita : " Gerónimo " :

Los anales de la Corona de Aragon.
(Zaragoza 1688)

الفهارس

١ - فهرس الأعلام والقبائل والجماعات

٢ - فهرس البلدان والجبال والأنهار

فهرس الاعلام والقبائل والجماعات

أحمد بن قاسم ١٥١	(١)
أحمد بن موسى الرازي ٧٢	ابن الأبار ٥٧، ١٨٣، ١٩٠، ٢٩٧
أحمد بن يحيى بن أبي حنبله التلساني	ابن الأثير ٦٦، ٧١، ٨٠، ٨٦، ١١١
٢٨٧، ٢٨٦	٢٥٧ - ٢٧٥
أحمد بن يعلى ٨١	ابن الأحمر ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٢٨
أحمد الياقني ١٩٥	بنو الأحمر أبو بنو نصر ١٢٦، ١٧٩
الادارة ٢٠٦، ٢٥٣	١٩٨، ٢٠١، ٢٢٤، ٢٢٦
الادريسي (الشريف أبو عبد الله)	٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢
الجغرافي ٢٣، ٧٤، ١٠٦	ابراهيم الأنشور ٢٠١
ادريس الأول أو الأكبر ٤٩، ٥٠، ٥١	ابراهيم بن الأغلب ٥١
أدريس الثاني أو الأصغر ٤٩	ابراهيم بن تاشفين ٢٢٨
أدريس بن جامع ١٦٤، ١٦٦، ١٧٠	ابراهيم بن جامع ١٦٣
أدريس المأمون ١٨٠	ابراهيم بن يعقوب المنصور ١٧٢، ١٧٣
أدريس بن يحيى بن علي ٩٥ - ٩٦	أحمد بن ابراهيم الفسائي ١٩٠
أدمز ٢٥٢	أحمد الأغلب ٢٩١
ادوارد دي منس ٤٥٦، ٤٥٨	أحمد بن باسة (الريف) ٢٤١
الاراجونيون ٤٥٤	أحمد بن بقي ٦١
أرشيدالد لويس ٢١٣	أحمد الصقلي ٢٤٦
	أحمد بن عبد الملك بن شيد ١٤٧

اسحاق بن يفتيان بن عمر ١٥٤	أرمنجول ٢٥٢
أند بن الفرات بن ستان ٢٥٦، ٢٥٧	إران كورنس ٢٦
اسماعيل الأول ملك غرناطة ٤١١، ٤١٤	أروى بن عبد الرحمن بن رستم ٤٧
اسماعيل الثاني ملك غرناطة ٢٣٨	أزابيل دى سوليس (ثريا) ٤٦٤
اسماعيل المنصور بن محمد القاسم (الفاطمي) ٧٦	أزابيل الكاثوليكية ٤٦٢
اسماعيل يسلالي المزرعي ١٥٦	الاسبان ١٦٨، ١٧٨، ١٨٣، ٢٢٩
بنو أسود ٢٥٠	٤١٨، ٤٦٠، ٤٦٣، ٤٦٥، ٤٦٦
الإسلام ١٦٢، ٢٤٠، ٤٢٠، ٤٧٤	أبو اسحاق الإلبيري ٢١١
بنو اشقيلولة ٢٢١، ٤٠٢ - ٤٠٥	أبو اسحاق إبراهيم الأول (الحفصي)
الإصطخرى ٢٧٠	١٩٣
الأغالبة ٥١، ٢٥٦، ٢٥٧	أبو اسحاق إبراهيم الثالث (الحفصي)
الأفارقة ١٨٥، ٢٥٦	١٩٥
الإفرنج ٤٧٣، ٤٧٤	أبو اسحاق إبراهيم بن الحاج النيري
أفلق العبد ٢٩٠	٢١٦
ألفونسكو إريكث (ابن الرنك أو	أبو اسحاق محمد بن القاسم (ابن
الوق) ملك البرتغال ٢٤٨	القرطبي) ٧٨
ألفونسو الثالث ملك قشتالة ٣٤٨	أبو اسحاق بن اشقيلولة ٤٠٤
ألفونسو الثامن (الصغير) ملك قشتالة	اسحاق بن محمد بن غانية ٣٣١
٣٦٤	اسحاق بن علي بن يوسف بن ناشفين
	١٥٩
	أبو اسحاق بن الرائق الحفصي
	١٨٧، ١٨٦

إلوسنت الثالث ١٧٦	٣٢٠ ، ٣٠٦
أوتو الأكبر ٢٧٣ ، ٢٧٢	ألفونسو السابع (السلطان) ملك قشتالة
أوربة (قبيلة) ١٧	٣٣٠
الايطاليون ١٧٦ ، ٣٢٦	ألفونسو الخامس (الإفريقي) ملك
أيوب الجديوى ١٥٦	البرتغال ٤١٩ ، ٤٥٧ - ٤٦١
(ب)	ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة
باديس بن حبوس بن زيرى ٢١١	٤١١ ، ٤١٣ - ٤١٨ ، ٤٢١
بين ٢٥٨	ألفونسو الرابع ملك أراجون ٤١٥ ،
بدر و الأول الملقب بالقاسى ملك	٤١٨
قشتالة ٢٣٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢١	ألفود ودى ٢٠٩
٤٣٢ ، ٤٥٤	بنو فود و د ٣٠٧
بدر و الثاني ملك أراجون ٤١٨ ،	أفيس (أسرة ونظام) ٤٥٥
٤٢٤ ، ٤٢٩	الامان ٤٢٠
بدر و مارتير ٤٦٩	ألفونسو توربو ٤١٨
بدر و منس ٤٥٦	الاميون ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧
بدر و (الأمير) ٤١١ ، ٤١٢	الامين (الخليفة العباسى) ٢٥٣
بدر الجمالى ٨٧ ، ١٣٩	أندرية جوليان ٢٣١
البرير ٢٢ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ١٦٢ ،	الاندلسيون ١٧٤ ، ١٨٣ ،
٢٤٧ ، ٢٤٩	١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
البرتغاليون ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،	١٨٩ ، ١٩٩ ، ٢١٣ ، ٢٥٠ ،
٤٥٩ ، ٤٦٠	٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ،
	٢٥٧

البكرى ١٠٧ ، ٤٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٩٣	البرامكة ١٩٤
بلج بن بشر ٢٤٧	برناردو كايروا ٤٢٠
بنده أو فندة ١٦٢	البرمينجو (أبو سعيد) ملك غرناطة
بندتو الثامن (البابا) ٣١٣	٢٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠
البلاذرى ٣	بنو برزال ٩٠
البيزنطيون ٢٥٥ ، ٢٥٧	ابن بسام ٣١٨ ، ٣١٩
بيبرس البندقدارى ١٢٧ - ١٢٨	البشكنس ٣٠
بيرت دى هبتا ٣٠٤	ابن بشكرال ١٢ ، ٢٩٩
(ت)	ابن بطوطة ١٣٠ ، ٢١٨ ، ٢٨٥
أبو تاشفين عبد الرحمن الأول ٢٠١	أبو بكر الداني (ابن اللبانة) ٣١٥
أبو تاشفين عبد الرحمن الثاني ٢٠٢ ،	أبو بكر بن خلدون ١٨٧
٢٠٤	أبو بكر زهر ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،
تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين	١٧١ ، ١٧٢
٢٢٧ ، ٢٢٨	أبو بكر الطرطوشي ١٠٥ ، ١٥١
ابن تافرطاس ٣٢٥	أبو بكر بن طفيل ١٦٤ ، ١٦٩
التجاني (أبو محمد عبد الله) صاحب -	أبو بكر الصديق ٨٦ ، ٨٧
الرحلة ١٩٠	أبو بكر الصنهاجى (البيذق) ١٠٥
تميم بن أبي العرب النيمى ٧٧	أبو بكر بن عتيق بن المول ٢٣٦
توماس آرنولد ٤٤	أبو بكر بن عمر ١٠٠
ابن تومرت ٢٨ ، ١٠٤ - ١١٣ ،	أبو بكر بن العربى المعافى ١٠٢ ، ٣٣٠
١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٧٣ ،	أبو بكر بن غازى ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢
١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ٢٤٣	أبو بكر بن يوسف الكرمى ١٩٩

— ٤٣٤ —

- قيود ومير ٣٩
قيونيل ٢٥٧ ، ٧٨
جهر الصقلي ١٤٠ ، ٨٣ ، ٨٢ ، ٤٦
ابن جهور (عبد الملك بن جهور)
١٤٧
ابن جهور (أبو الحزم بن جهور)
٨٩
بنو جهور ٩٠
أبو الجيش مجاهد العامري (انظر
مجاهد العامري)
أبو الجيوش نصر ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤
٤١١ ، ٤٠٩
(ج)
ابن جبير ١١٣ ، ١١٨ ، ١١٩
جعفر بن عبيد الحاجب ١٤٩
جعفر بن عثمان المصطفى ١٤٩
أبو جعفر المنصور ٤٩ ، ٥٧ ، ٥٨
٦٢
جعفر بن علي بن حمدون ٦٧ ، ١٤١ ،
١٤٢ ، ٢٨٢
أبو جعفر بن عطية القضاة ١٥٩ ،
١٦١ ، ١٦٦
جعفر بن يحيى البرمكي ١٣٧
ابن الجنان ١٨٣
جهر الصقلي ١٤٠ ، ٨٣ ، ٨٢ ، ٤٦
ابن جهور (عبد الملك بن جهور)
١٤٧
ابن جهور (أبو الحزم بن جهور)
٨٩
بنو جهور ٩٠
أبو الجيش مجاهد العامري (انظر
مجاهد العامري)
أبو الجيوش نصر ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤
٤١١ ، ٤٠٩
(ح)
ابن الحاج المهندس ٢٤٤
حازم القرطاجي ١٨٣
الحاكم بأمر الله ٨٥
أبو حامد الغزالي الطوسي ١٠٤ ، ٤٧٨ ،
٤٨٠ - ٤٨١
أبو الحاج يوسف ٢٣٢ ، ٢٣٥ ،
٢٣٧ ، ٢٨٧ ، ٤١٩ ، ٤١٨ ،
٤٢١ - ٤٢٣
أبو الحاج يوسف الثاني ٢٢٣
ابن حجر العسقلاني ٨٤
ابن حديد ٢٩٠

- ابن حزم ٥٧، ١٠٨، ١٠٩، ٢١٧ . أبو الحسن الموحدى ١٦
- أبو الحزم جهور ٨٩ أبو الحسن بن يوسف بن تاشفين ١٥٣
- حسان بن النعمان ٤ - ٨ أبو الحسن بن البربر ٢٥٥، ٢٥٦
- أبو الحسن بن اشقيولة ٤٠٢ ٢٦٠
- الحسن بن هلى بن أبى طالب ٥٤ أبو الحسن على الرنداحى ٤٨٥، ٤٩٧
- الحسن بن عيسى بن أبى العيش ٧٤ أبو الحسن على الرنداحى ٤٨٥، ٢٩٧
- الحسن بن على (والى صقلية) ٧٩ أبو الحسن على بن كاشه ٢٣٩، ٢٩٨
- الحسن بن هلى بن أبى طالب ٥٤ ٢٩٩
- الحسين بن على الفاطمى ٨٤ أبو الحسن على المبرينى ملك المغرب
- حسن ابراهيم حسن ١٤٠ ٢٠٩، ٢١١، ٢١٧، ٢١٩، ٤١٥
- الحسن بن جنون ٢٧٩، ٢٨٠، ٤١٦، ٤٥٢
- حسن بن عبد الله بن عباس ٢٩٨ أبو الحسن على بن م - مود الم - بى
- الحسن الوزان المعروف باسم ليون ٢٨١، ٢٨٨
- الافريقى ١٩٧ ٢١١، ٢١٢
- حسن حسنى عبد الوهاب ١٨٤ أبو الحسن الشاطبى ٣٢٤
- الحسن بن معمر الهوارى الطرابسى ١٩٩
- الحسن بن على بن يحيى ٣٢٦ ٣٢٧
- الحسن بن على الصنهاجى ٣٣٤ أبو الحسن بن الجباب ٢٣٧
- حسن بن عمر الفودودى ٤٢٥ أبو الحسن القبائلى ٢١١
- أبو الحسن بن رشيق القيروانى ٩٥ حفصه بنت عمر بن الخطاب ١٢٤

أبو حفص عمر بن إدريس الثاني ٩٠	أبو حنيفة النعمان ٤٩
أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني ١٦٢	ابن حوقل البغدادي ، ٢٧٠ ، ٢٩٤
١٧٩	ابن حيان ٦٤ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧
أبو حفص عمر بن عبد المؤمن ١٦٣	٢٥٩ ، ٢٨٤ ، ٣١١ ، ٣١٣
١٦٧	(خ)
أبو حفص عمر الثاني أبي بكر الحفصي	ابن خاقان ٣٠٨
١٩٤ ، ١٩٥	بن خاتمة ٣٩٩
أبو حفص عمر البلوطي ٢٥٤	خالد بن أسحق الحفصي ١٩٥
الحفصيون ١٦٢ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢	خايي الثاني ملك أرجوان ٤٠٤ ، ٤٠٨
١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩	٤٠٩
١٩١ ، ١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨	الحراسانيون ٢٥٦
٢١٢ ، ٢٢٠ ، ٤١٦	ابن الخراط ٣٣٤
الحكم الأول ٢٥٢ ، ٢٥٣	بنو خزرون ٩٠
الحكم المستنصر الأموي ٨٢ ، ٨٤	الخزرج ٢١٩
١٤٨ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٢	الخزرجي ١٣٢
٢٨٦ ، ٢٩٧	خشخاش بن سعيد بن أسود البصري ٢٥٠
ابن الحكيم ٢٣٠	٢٦٦ ، ٢٦٧
أبو حمو مرسى الأول ٢٠٩	ابن الخطيب (لسان الدين) ، ٦ ، ٢٨
أبو حمو مرسى الثاني ١٩٦ ، ٢٠٠ - ٢٠٤	٥١ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٣٠ ، ١٧٧ ، ٢٠٨
٤٢٥ ، ٤٥٣	٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠ ، ٢٣١
الحيري (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم	٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ١٤٠
٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٧٢ ، ٢٥٠	٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٥ ، ٢٨٥ ، ٣٠٦ ، ٣٨٦
٢٩٦	٣٩٠ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤١٧ ، ٤١٣

(د)	٤٥٠٠٤٤٩٤٤٣٠٠٤٤٢٨٠٤٤٢٣٠٤٤١٩
أبو داود ياول بن جلداسن ٣٤٩	٤٥٢
أبو دبوس ٤٩٢	ابن خلدون (أبو بكر محمد) ١٨٦
ابن دراج الفسطاطي ٢٨٧، ٣٠٨	ابن خلدون (يحيى) ١٩٩، ٢٠٣
دوزي رينهارت ٧١	ابن خلدون (عبد الرحمن) ٣٠، ٣٣، ٥٠
ابن أبي دينار ١٠٦، ١٩١	١٠١، ١٩٤ - ١٣٠٠١٢٩، ١٣٤٥١٠٣
دي رادا الطليطلي ٣٢	١٥٠٠، ١٤٧، ١٤٤، ١٤٣، ١٤٠، ١٣٥
(ذ)	١٨٥٠١٨٤٠٢٠٩، ٢٠٤، ٢٠٠، ١٩٩
الذهبي ١٥٢	١٩٤٠١٩٣٠٢٩٤٠٢١٢، ١٨٨٠١٨٦
(ر)	٢٣٤٠٢٣١، ٢٢٣، ٢٢١، ٢٢٠، ٤١٩٦
رامون برنجر الثالث ٣٢٤	٣٤٤٠٢٢٣، ٢٢٢، ٢٩١، ٢٧٣، ٢٢٩
أبو الربيع سليمان بن لبون ٣٢٥	٤٢٨٠٤٢٥٠، ٤٢٤٠٣٩٧، ٣٨٨٠٣٤٦
أبو الربيع سليمان ملك المغرب ٢١١، ٢٢٢	٤٤٩
٤٠٩، ٤٠٨	خلف الحصري ٩٢، ٩٥
ابن البريتير ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٦٠	ابن خلكان ٢٧، ١١٩
رثموندو (ربيع بن زيد) ٢٧٢	خليفة بن حيون بن رقاصة ٢١٢، ٢٢٢
رجار الأول ٣٢٩	ابن خميس ٣٩٩
رجار الثاني ٣٢٦، ٣٣٧	خندف ٤٧٢
ابن رشيد ١٦٩	دون خوان دي جثان ٤٧٠
رشيد رضا ٤٣	دون خوان ٤١١
رشيق بن عبد الرحمن ٢٨١	خوان الأول (ملك البرتغال) ٤٥٥
رضوان الحاجب ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢	٤٥٦
٢٣٨، ٢٣٧	نجران العامري ٩٣، ٣٠٧ - ٣٠٨
رضوان أبو الفرج الكايشاني ٤٤١، ٤٤٤	
٤٥٤	

ابو زكري ٤٥٧-٤٥٨	ابن رضوان (ابو القاسم التجارى
زكريا بن ابي ابراهيم الخزرجي	الحزري) ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩
١٧٨	بن الرماحس ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠-٢٨١
ابو زكريا يحيى الاول الحفصى ١٢٢، ١٨٠	٢٨٩، ٢٨٤
١٨١، ١٩١	بن الرميمي ٢٢٨
ابو زكريا يحيى بن العزفي ٣٨٨	بنو الرناحي ٣٩٦، ٣٩٧
ابو زكريا يحيى الوطاس ٤٥٧-٤٥٨	ابن الرناك أو الرنيق ٣٤٤، ٣٤٨
ابو زكريا بن هذيل ٤١٣	روبرت بروشفيج ١٩٣
ابو زكريا بن سنان ١٧١	روذريق ١٥، ٣٠، ٣٤
ابو زكريا (أظار عبد الله زمره)	الروس ٢٥٥
ابن أبي زمين ٣٠٠	ريلون ٢٧٥، ٢٨٣
زناته ٧٥، ٢٩، ٨٣، ١٣٠، ١٩٧	الروم ١٧٥، ١٧٦، ٢١٠، ٢١١، ٢٢٧، ٢٣٢
٢٠٨	٤١٩، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٧٤
ابن زهر (أبو بكر بن مروان)	الرومان ٢٠
١٦٨-١٧٢	رومانوس الاول، ليكابينوس ٢٧١
ابن زهر (مروان بن عبد الملك) ١٦٩	روبو ٣٠٤
زواة ٢١٩	روى مندث ٤٦٠
زياد بن أفلح ٢٨٤	ريكاردو الاول ٢٨٣
زيادة الله الاول بن الاغلب ٥١، ٥٢	(ز)
١٣٩	الزباء (زنوبيا) ٤٥٦
زيادة الله الثالث بن الاغلب ١٣٩	ابن أن زرع ٩٩، ١٦٢
بنو زيان ١٢٦، ١٣١، ١٩٨، ٢٢٣	الزركشي ١٢٣، ١٨٦، ١٨٨، ١٩١

ابو زياد محمد الثاني المريني ٩٣١	ابو السداد ٣٢٥
ابو زياد محمد الثالث المريني ٤٤٩	السري بن الحكم ٢٥٣
ابو زيد بن أبي حفص الموحدي ١١٦	بنو السراج ٢٣٢ ، ٤٦٥
٢٥٨	نعمد التفتازاني ٤٣
ابو زيد عبد الرحمن بن بوجان الهنتاني	سعيد بن عبادة - يد الخزرج ٢٢٧
١٧٢ ، ١٦٨	السعيد أبو بكر المريني ٤٢١ ، ٤٢٥
ابو زيد بن عبد الرحمن بن أبي طالب بن	سعيد بن صالح ٢٩٣
المزني ٣٨٨	سعيد بن أبي الحسين ١٨٧
زيزي بن عطية المغراوي ٢٨٨ ، ١٥٠	سعيد بن أسود ٢٥٠
بنو زيري الصنهاجيون ٣٠٦ ، ٢٢٧	أبو سعيد فرج ٤٠٧
٣٣٤	ابو سعيد عثمان الهنتاني المعروف بالعود
زينب بنت موسى الضرير ١٧٣	الرطب ١٨٣ ، ١٨٩
(س)	أبو سعيد عثمان المريني ٢١٩ ، ٢٢٣ ،
سابدرا ٣٤٠ ، ٢٣٤	٤٥٦
سابور الفارسي ١٥٠٠	ابو سعيد عثمان بن جامع ١٧٣ ، ١٧٤٠
سانشو الأول ملك البرتغال ٣٥٧ ، ٣٦٣	١٧٧
سانشو خيمينيث دي سوايس ٤٦٤	ابو سعيد عثمان بن أبي حفص ٣٦٧
سانشو الرابع ملك قشتالة ٤٠٤ ، ٤٠٥	ابن سعيد المغربي أو الغرناطي ١٢ ،
ابو سالم ابراهيم المريني ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨	١٤٣ ، ١٥٢ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٢٣
٤٣٠ ، ٤٢٢ ، ٣٨٩	٢٣٤ ، ٣٦٥
ابن السبكي ١٥٢	شو سعيد ١٨٦

القشندى ٣٢١	سليمان آخضرى ١٥٦
شمس بنت محمد الشيخ ملك غرناطة	سليمان المسمين ٩٠
٤٠٢	سمويل اليهودى ٣٩٨
شمس الدين مروان ١٢٩	سهل بن أسيد ٢٧١
شنجول (أنظر عبد الرحمن بن محمد بن	السلوى الناصرى ٩٩ ، ١١٧ ، ١٢٦ ،
أبى عامر)	١٦٩ ، ١٧٤ ، ٣٩١ ، ٤٥٤ ، ٤٦٧
شظير الحمى ٢٥٩	سيد رأى بن وزير القيسى ٣٤٩
ابن شهيد (أنظر عيسى بن شهيد)	ابن سيد الناس ١٨٣
ابن شهيد (احمد بن عبد الملك) ١٤٧	سير بن أن بكر ١٥٣
١٤٨	ش
ابن الشباط ٣٤	شارل الأصغر ٢٥٨ ، ٢٩٩
ص	شارل الثالث الساذج ٢٧٥
ابن صاحب القراطس (انظر ابن ايزرع)	شارل مارتل ٢٥٨
ابن صاحب الصلاة ٢٨ ، ١٦٢ - ١٦٤	شارلمان ٢٥٢
١٧٠	شاويل ٢١٢
صاعد بن مخلد ١٤٨	الشريف الغرناطى ١١٩
ابن صاعد ٢٩٠	الشريف الادريسى محمد بن على ٤٥٨
صالح بن سعيد ٧٥	الشريف الادريسى ابو عبد الله (الجغرافى)
صالح بن منصور الحيرى ٧٥	٢٣ ، ٢٤ ، ١٠٦
ابن الصحراوية ٣٢١	شعيب بن الحسين الملقب بأبى مدين
بنو صبادح (بنو نجيب) ٩٠	٢١٩

- صلاح بن صلاح ٤٥٦ . بنو هباد ٩٢ ، ٩٠
- صلاح الدين الأيوبي ١١٥ - ١١٧ ، أبو العباس أحمد الثاني الحفصي ١٩٤ ،
- ٢٥٧ ، ٢٦٥ ١٩٥
- الغني ٣٩ أبو العباس عبد السلام الجراوى ١١٤
- ط أبو العباس أحمد اللباني ١٨٦ ، ١٨٧
- طارق بن زياد ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، أبو العباس أحمد بن أبي سالم المريخي
- ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٠٤ ، ٤٥١ - ٤٥٤
- ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الحسني
- ٣٨ ٤٤٢
- طريف بن مالك ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٠ ، العباس بن عبد المطلب ٩٣
- ابن طفيل (أبو بكر) ١٦٤ ، ١٦٩ ، أبو العباس اليانثقي ٢٧٣
- الطوائف ١١ ، ٢١ ، ٣٢٢ ، ٤٧٨ ، أبو العباس الصقلي ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٩
- طبيب بن اسماعيل المعروف بالخاصن ٢٦١
- ١٤١ أبو العباس محمد بن الأغلب ١٣٩
- ظ العباسيون ١٦٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٣٣١
- الظاهر جقمق ٤٦٨ عبد الله بن جامع ٣٥٢
- ابن ظفر الصقلي ٢٠٢ أبو عبد الله بن جزي ٢١٨
- ع أبو عبد الله بن الحداد ٣٠٩
- عبد الله بن الحصين القهري ٧
- عبد الله بن الخطيب ٢٤٢
- عبد الله بن زمرك ٢٢٩ ، ١٣١ ، ٢٣٥ ،
- عائشة ٤٦٤ ٢٤٣ ، ٣٩٩ ، ٤٢٨ ، ٤٥٤

أبو عبد الله الشيعي ٨٦	أبو عبد الله محمد المستنصر بالله الحفص
عبد الله بن الصائغ ١٣٩	١٨١، ١٢٦-١٢٢
عبد الله بن طاهر ٥٢، ٢٥٤	أبو عبد الله محمد بن الحكيم الرندي
عبد الله بن العربي ١٠١، ١٠٢	اللمخي ٢٣٦
عبد الله بن غانية ٣٦٠، ٣٦٧، ٣٦٨	أبو عبد الله محمد بن زنين ٢٩٨
أبو عبد الله الملقب بالفيل ١٦٨	أبو عبد الله محمد بن سلطور الهاشمي
عبد الله الكامل ٥٠	٣٩٧
عبد الله قيس الفزاري ٧	عبد الله بن أبي مدين ٢٢٣
عبد الله بن محمد الأموي ٢٦٩	عبد الله المرتضى ٣٢٣
أبو عبد محمد بن سعد الملقب بالزغل ٤٦٦	عبد الله بن مرة ٩
أبو عبد الله محمد الصغير (بوابديل)	أبو عبد الله الموافق ٤٦٧
٤٦٤ - ٤٦٨	أبو عبد الله بن ميمون ٣٢٢، ٣٢٤
أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي	٣٢٦
الاندلسي ٢٠٢	عبد الله بن نافع بن عبد القيس الفهري ٧
أبو عبد الله بن موسى الضرير ١٧٣	أبو عبد الله بن وانور بن ٣٥٣
أبو عبد الله محمد الخامس (الغني بالله)	أبو عبد الله بن الوليد الميطي ٩٣
٢٣٧، ٣٩٥، ٣٩٩، ٤٢٣، ٤٢٧	٩٤
٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢	عبد الله بن ياسين ١٠
٤٣٣، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨	عبد الله الكتاني ١٠١، ١٠٢
٤٣٩، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤	١٠٣
٤٤٦، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١	بنو عبد الحق ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩
٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤	٢٢٠، ٤٥٠

- عبد الحق الثاني بن أبي سعيد المريني. ٢١٢، ٤٥٧، ٤٥٨
- عبد الرحمن الداخل ٢٤٨، ٢٥٨
- عبد الرحمن رويش ٢٩٠
- عبد الرحمن بن رستم ٤٦، ٤٧، ٤٨
- عبد الرحمن الثالث (الناصر) ٤٨ -
- ٦٣، ٧٠ - ٨٢، ١٤٧، ١٤٨
- ٢٧١ - ٢٧٨، ٢٦٧
- عبد الرحمن الثاني (الأوسط) ٧٨،
- ١٤٣، ١٤٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٢
- ٢٦٣، ٢٥٤، ٢٩٧
- عبد الرحمن بن رماحس ٢٧٩ - ٢٨١
- ٢٨٤، ٢٨٩
- عبد الرحمن بن منقذ ١١٦، ١١٧
- ٢٩٥
- عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر
- (شنجول) ٨٧، ٨٨
- عبد الرحمن بن يفلوسن ٤٥١، ٤٥٢
- عبد السلام محمد الكوي ١٦٢
- عبد العزيز بن أبي عامر ٩٠
- عبد العزيز المريني ٢٤٥، ٤٤٩
- ٤٥٠
- عبد العزيز بن موسى بن نصير ٨، ٩
- ٢٧، ٣٨، ٣٩
- عبد العزيز بن مروان ٤، ١٠
- عبد القادر الفاسي ٤٣
- عبد المؤمن بن علي الكرمي أو القيسي
- ١١٠، ١١١، ١١٤، ١٥٤، ١٥٦
- ١٥٩، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٦، ١٧٣
- ١٧٩، ١٨٢، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٠
- ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦
- ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٩
- ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٦٢
- عبد المؤمن ١٧٣، ١٧٩، ١٨٠
- ٢٠٧، ٢٠٨
- عبد الملك بن قطان ٢٤٧
- عبد الملك بن حبيب ٢٧
- عبد الملك بن مروان (الأمير) ٥٧
- ٥٨
- عبد الملك المراكشي ١٩٣
- عبد الملك المظفر بن المهور بن أبي
- ٨٧، ٢٩٠، ٣٠٥
- عبد الواحد المراكشي ١٦١، ١٦٢
- ١٦٦، ٣٣١
- عبد الواحد بن يزيد الاسكندراني ١٤٦

- أبو عبد الواد ١٧٩، ١٩٨، ١٩٧، ٢٠٠
 ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٧، ٤٤٩
 عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ٤٨
 ابن عبدون ١٥١
 بنو عثمان ٢١٩
 أبو عثمان سعيد بن الحسين ١٨٦
 عثمان بن سعيد (مسلم السجلناسي) ١٤١
 عثمان بن عبد الحق ٢٠٦
 عثمان بن عفان ٢، ٧، ١٢، ٢٦
 العثمانيون ١٨١
 ابن عذارى ٧، ٢٢، ٦٠، ٦٤، ٧١
 ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٨٠، ٨٢
 ١١٦، ١٤٩، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٩
 ١٦١، ١٧٠، ٢٤٧
 العرب ١٩٢، ٤٧٠
 ابن العربي (أبو بكر) ١٠١، ١٠٢
 ١٠٣، ١٠٤، ٤٧٩، ٤٧٨
 ابن العربي (أبو محمد عبد الله) ١٠٢
 ١٠٤، ٤٧١
 ابن العربي (محيي الدين) ١٠٢
 أبو العرب التميمي ٧٧
 عريب بن سعد ٩٤، ٢٤٤
 بنو العزني ٤٠٧
 العزيز بالله ٨٤، ١٤٠
 عزيز بن علي بن عبد المنعم المداقي ٢٢٨
 بنو اله في ٢٧٨، ٢٧٩، ٣٨٨، ٤٠٧
 بنو عسكر ٢٠٧، ٢٠٩
 العسكري ٢٠٩
 عصام الخولاني ٢٦٠
 عطاء بن نافع الهذلي ١٠
 عقبة بن نافع الفهري ١٢، ١٧٥، ٢٩١، ٢٩٥
 أبو عقيل عطية بن عطية ١٦١
 عقيل بن نصر ٢٢٧
 أبو العلاء إدريس بن جامع ١٦٢-١٦٦
 ١٧٤
 أبو العلاء إدريس بن يوسف بن عبد
 المؤمن ٣٦٧
 ابن هلقمة ٤١
 أبو علي بن جامع ٣٦٩
 علي بن عيسى بن ميمون ٣٢٩
 علي بن حمدون ٦٧، ٦٩، ٩٠، ٩١
 علي بن راشد ٤٦١
 أبو علي الرنداحي ٣٩٧
 علي بن مجاهد ٣٢٣
 أبو علي الصديقي ١٠٢

علي بن أبي طالب ٥٣ ، ٥٤	عيسى بن الزرقاء ٢٢١
علي بن محمد الإيادي التونسي ٦٨	عيسى بن شبيب ١٤٦
أبو علي بن محمد بن الأزرق ٤٦٨	(غ)
علي بن يوسف بن ناشفين ١٥٤ ، ١٥٥	ابن غازي ٤٥٠
٣٢٢ - ٣٢٦	الغالب بالله محمد الشيخ بن نصر ٢٢٦ ،
ابن أبي عمارة ١٨٧	٢٢٨ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣
عمارة اليمنى ١١٢	غالب بن عبد الرحمن الناصري ٨٠ ،
عمر بن حفصون ٦٥ ، ٦٧ ، ٧١	١٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٧١ ، ٢٨٠ ،
٢٢٦	٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩
عمر بن الخطاب ١٤ ، ٨٦ ، ١٢٤	بنو غانية ١٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٣١
عمر الهنتاني ١٥٩	غانم بن مردنيش ٣٥٠ ، ٢٥٢ ، ٣٥٣
العمري ١٨٤ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٣٠٢	الفرناطيون ٢١٥ ، ٤١٣ ، ٤٥٣ ، ٤٦٣
٣٩٣	الغزالي ١٠٤ ، ٤٧٨ ، ٤٨١
عمرو بن العاص ١٤	غلبون (الاغلب بن عبد الله) ١٣٩
ابن عميرة ١٨٣ ، ١٩٣	بنو فاذن ١٦٢
أبو عفان فارس المريني ١٣٠ ، ٢١٠ ،	(ف)
٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،	فاسكودي جاما ٤٦٩
٢٢٣ ، ٢٣٨ ، ٤٢٢ - ٤٢٧	فاطمة الزهراء ٦٣
٢٢٢	ابن فاطمة ٢٢١
عيسى بن أحمد الرازي ٢٨٠	أبر فارس عزوز الحنفي ٢٨ ، ١٨٧
عيسى بن الحسن بن أبي عبيدة الحاجب	فارج بن مهدي ٢٢٢
٢٦٦	فان برشم ١٠٠ ، ١٢٥

- أبو الفتح الفهرى ٢٣٢
 فرج بن عذير ٧٣
 فرج الحمصى ٢٢٢
 أبو الفرج رضوان ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٥٤
 ابن فرجون (الربولو) ٢٩٠
 ابن فرحون ١١٤
 فرنان جوتالك ٤١
 فرناندو الكاثوليكي ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٢١٧
 قايتباى ٤٦٨ ، ٤٦٩
 فرناندو البرتغالى ٤٥٧
 فرناندو الرابع ، الك تشالة ٤٠٨ ، ٤٠٩
 فردريك الاول (برروسا) ٢٢٦
 الفرنج ٢٣٥
 الفرنسيون ١٧٦ ، ٢٢٦ ، ٤٢٠ ، ٤٥٤
 أبو الفضل التيفاشى ١٧١
 الفضل بن سهل ١١٧
 أبو الفضل عياض ٢٢٨
 أبو الفضل المربى ٢٥٤ ، ٤٢٢
 الفينيقيون ١٩ ، ٢٠
 فواس روبنور ٢٥١ ، ٢٥٢
 (ق)
 ابن قادم ٢٥
 القاسم بن عبد الرحمن ٢٩٠
 أبو القاسم الزناتى الصفرى ٤٦
 أبو القاسم بن بنج ٣٩٠
 أبو القاسم بن الشيخ ١٩٣
 أبو القاسم بن حوقل النعيسى ٦٥ ، ٦٦
 أبو القاسم بن طاهر ١٨٦
 أبو القاسم الانصارى السبى ٣٢٨
 ابن القاسم القاضى ٤٧٤
 أبو القاسم محمد بن يحيى البرنجى الفسافى
 ابن قتيبة ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ٢٧ ، ٣١
 قدامة بن جعفر ١٢٦
 القديس ميخائيل ٢٠
 القديس جورج ٢٠
 القرطاجنيون ٢٠ ، ٢١
 قرقاشيش بن شكوح ٢٦٦ ، ٢٦٧
 ابن القرطبى (أنظر أبو اسحاق محمد
 ابن القاسم)
 قزبان الطيب ٤٠٦
 ابن القطان ١٠٥ ، ١١٣
 قسطنطين الرابع ٧٧
 القشتاليون ٤٠٥ ، ٤٠٦
 القطلايون ٢٢١ ، ٣٥٦
 قنصوه الغورى ٤٦٩
 ابن القوطية ٢٤٧

- (ك)
- المأوردى ٤٣
 ماريا دى مولينا ٤١٣
 ابن ماسى ٤٥٣ ، ٤٥٤
 أبو مالك بن أبي الحسن المربى ٤١٥
 ابن مالك الرعى القيروانى ٢٢٦
 مبشر بن سليمان ناصر الدولة ٣٢٤ ، ٣٢٣
 ٣٢٥
 المتبى ١٩٠
- بجاءد العامرى الصقلبي ٣١٧ ، ٣١٠ ، ٩٢
 ٣٢٣ ، ٣٢٢
 ابن محرز ١٨٣
 محمد بن أحمد بن المحروق ٢٣٥ ، ٢٣١
 محمد الاول الاموى ٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٥٠
 ٢٦٩
 محمد الثانى الفقيه ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٣٠٣ ، ٢٤٤ ، ٤٠٦
 محمد الثالث الخلع ٢٣٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨
 أبو محمد بن تفرجين ١٩٥
 محمد بن اسحاق بن غانية ٣٦٠
 محمد الأشقر ٢٠١
 أبو محمد بن حزم ١٠٨ ، ١٠٩
 محمد بن حدين ٢٩٠
- بنو الكاس ٢٠٧ ، ٢٠٩
 دى كاستى ٤٥٨
 ابن الكردبوس ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤٤ ، ٢٧
 ٣٢٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢١ ، ١٨٩
 كريستوفر كولبس ٣٠٠ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠
 كومية (قبيلة) ١٦٢ ، ١٨٢
- (ل)
- لسان الدين ابن الخطيب (راجع ابن
 الخطيب
 اللباني ١٨٦ ، ١٨٧
 لوبى دى فيجا ٣٠٤
 لويس التقى ٢٥٨
 لويس ماس ٣١٢
 ليفى بروفنسال ٢٩٧ ، ٢٤٢
 (م)
- المأمون ٥١ ، ١٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤
 مارتين ٣٢٢
 مالك بن أنس ٤٩ ، ٥٠ ، ١٠٦ ، ٢٩٢
 مالك بن وهيب الاشيلي ١٥٤ ، ١٥٥

محمد الخامس القنى بالله ٢٣٩،٢٢٩،٢٠٣	محمد بن عبد العزيز بن ميمون ٢٢٣
٢٤٠،٢٣٩،٢٣٨،٢٣٥،٢٣٣،٢٢٢	أبو محمد بن عبد الغفور ١٥٣
٤٢٧،٤٢٤،٤٢٣،٣٩٩،٣٩٥،٣٤٥	أبو محمد عبد الله التبرجاني ١٩٠
٤٥٢،٤٥١،٤٥٠،٤٣٠،٤٢٩،٤٢٨	محمد بن محمد الرميمي ٢٢٨
٤٥٤،٤٥٣	محمد بن محمد الكنانى ٢٢٣
محمد الرابع بن اسماعيل ٢٣٧،٢٢٢،٢٣١	محمد عبد الجليل التسي ١٣١
٤١٩،٤١٤	محمد بن علي المعروف بابن الحاج المهندس
محمد بن رما حسن ٢٧٧،٢٧١	٢٤٤
محمد بن سليمان ١٥٦	أبو محمد بن أبي علي بن مثنى ١٧٥
محمد بن شخير ٢٨٦	محمد بن علي بن غانية السوقى ٣٢٦،٣٢٥
محمد الشتيجيالى ٢٩٩	٢٣١
محمد الشيخ الوطاسى ٤٥٩،٤٥٨،٢٢١	محمد بن الفتح بن مدرار ٤٦٦
٤٦٦،٤٦٠	محمد القادري ٤٥٦
محمد الشيخ ملك غراطة ٤٠٢،٢٢٨،٢٢٦	محمد القائم ١٤٢،٧٦٩،٦٨
٤٥٣	محمد بن القاسم بن طبلس ٢٨٠،٢٧٩
أبو محمد عبد الحق بن محيو ٢٠٥	محمد بن القاسم الخودي ٩٥
أبو محمد عبد المهيى الحضرمي ٢١٩	محمد بن ابن القاسم الرعيني القيرواني (ابن
محمد عبد الواحد بن أبي حفص ١٢٠،٢٨	أبي دينار) ١٢٣
١٨٠،١٢٢،١٢١	أبو محمد الملقى ١٦٤
محمد بن عثمان بن الكاس ٤٥٢،٤٥١	محمد بن ميمون الملاص ٢٠١
أبو محمد بن عطوش الكومي ٣٥٨	محمد الناصر الموحدى ١٧٢، ١٧٧، ١٨٠

٤٥٢٠٤٥٠٤٤٣٠١٤٢٨١٤٠٥١٤٠٤	٣٦٨٠٣٦٧
٤٥٥١٤٥٢	محمد المهدى بن قورمات (انظر ابن قورمات)
٢٢٢٠٢٢١	محمد النفس الزكية ٤٩
١٠٧٠٤٧١٠١٠١	محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن
٤٨٠	٨٨
١٢٢٠١٢٥	محمد بن هود الحذافى ٣٧١٠١٧٠٠٢٢٨
١٢٨٠١٠١	٢٨٢
١٢٧٤٠٢٧٠١٢٢	محمد بن هود الماسى ١٥٩
١٩٣ - ١٨٦	ابن ابي مدين العثمانى ٢١٩٠٢١١
المستمر الموحى ١٧٨	ابن ابي مدين شعيب ٢١٩
٤٥٤٠٤٥٣	المرايطون ٣٢٣٠٣٢١٠٢٤٢٤١٩٨٠١٦١
مصرفه الصنهاجية (قبيلة) ٢٨١	٣٣١٠٣٢٩٠٣٢٨٠٣٢٧٠٢٢٦٠٣٢٥
المستعربون ٢٧٢٤٠٤٩	٤٧٩٠٤٧٨
المشاركة ٢١٦	ابن مرزوق (الخطيب) ٢١٠٠٢٠٩
مصدودة (قبيلة) ١٨٢٤١٦٨	٢١١
معاوية بن سفيان ١٧٠٢٠٢	ابو مروان بن قاسم ١٦٤
المعتضدين عباد ٩٢	مروان بن محمد ٢٤٧
المعتمد بن عباد ٣٠١٦٣٠١٦٣٠٦٠٣٠٥	بنو مرين أو المرينيون ١٧٩٠١٧٨٠٩٢
٤٤٠٢٢٠٢١٩	٢٠٩٤٢٠٨٤٢٠٧٠٢٠٥٠٢٠٢
معد بن اسماعيل (المعز لدين الله) ٥٣	٢٢٠٠٢١٥٠٢١٣٠٢١٢٤٣١١٠٢١٠
٢٨١٠١٤٣٠١٤٠٨٣٠٧٩٤٦٨	٢٤٥٠٢٤٣٠٢١٩٠٢٢٤٠٢٢٣٠٢٢١

معن بن صمادج التجيبي (المعصم)	الموحدون: ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ،
٣٠٨	١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
المغاربة ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ،	١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،
٢٤٣ ، ٤٥٠ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ،	١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
المميرة بن عبد الرحمن الداخل ٨٥	١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
مغيث الرومي ٣٦	١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ،
المقتدر بن هود ٣٢٣	٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٤٣ ،
المقتدى بالله العباسي ١٠١	٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ،
المقتدى ٣٠٢	٣٣٦
المقرى ١٢ ، ٢٧ ، ١٧١ ، ٢١٨ ،	المولدون ٢٢٥ ، ٢٤٩ ،
٢٧٣	أبو منصور محمد بن جهمير ١٠٣
المقرزي ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ،	المنصور (أبو جعفر الخليفة العباسي)
ابن مقانا الأشبوني ٩٩	٤٦
الملوك مدافع ١٨٦	المنصور بن أبي عامر ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٠ ،
المنتصر بن مدرار ٤٧	٩٢ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٩٤ ، ٢٠٥ ،
المنتصر أو المستنصر الموحدي ١٧٨	٣٦٤
المنذر بن سعيد البلوطي ٦٢	المنصور (يعقوب الموحدي) ١٦٧ ،
المنذر بن محمد ٣٦٩	١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
المساكن الكاثوليكيان ٤٦٢ ، ٤٦٥ ،	١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ،
٤٦٩	المنذرى ٤٦٩
منديل الكنانى ٢٢٣	ابن منقذ ١١٦ ، ١١٧ ، ٣٦٥ ،
بنو الملاح ٢٠١	

المهدي المباسي ٤٦	بنو نصر (انظر بنو الأحمر)
المهدي الفاطمي ٦٧ ، ٦٨	ابو النعيم رضوان (انظر رضوان)
المهدي الموحدى (انظر ابن تومرت)	الحاجب
موسى بن علي بن برغوث ٢٠٤	ابن نغزله أو نغزاله اليهردي ٢١١
موسى بن تمارى الجديوى ١٥٦	نقفور فوكاس ٢٠٤
موسى بن ابى العافية ٧٢	نكود ٧٥
موسى بن حدير ١٤٧	نور الدين محمود زنكى ١١٩
موسى بن نصير ١ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢	النورمانديون ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣
١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩	٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤
٢٤ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٢٨	بنو نوح ٩٠
بنو مول ٢٢٢	الواثق بن المستنصر الحفصى ١٨٦ ، ١٨٧
مؤمنة بنت محمد الشيخ ٤٠٤	١٩١
موتجمرى ١٢	الواثق المربنى ٤٥٢
يحيى بن المنتصر بن اليسع بن مدرار ٤٨	بنو وطاس ٢٠٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٦٠
بنو يمين ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥	وليام صاحب بروفانس ٣٠٤
نابليون بونابرت ٢٦٢	وليام بن رجار ٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٦
الناصر بن المنصور الموحدى ١٢٠ ، ١٢٧ -	الوليد بن عبد الملك ١٤ ، ١٧ ، ٣٧
١٧٧ ، ٢٢٢	أبو الوليد بن رشد (الحفيد) ١١٨ ، ١٧١
الناصر عبد الرحمن الثالث الأموى ٤٨ -	أبو الوليد اسماعيل الأول ملك غرناطة
٦٣ ، ٧٠ - ٨٢ ، ١٤٧ - ١٤٨ ،	٢٣٩ ، ٢٣٧ ، ٤١١
٢٧١ - ٢٧٨ ، ٢٩٦	أبو الوليد اسماعيل الثانى ملك غرناطة
١١٢	٤٢٧ ، ٤٢٨

- أبو الوليد اسماعيل بن الأحرار النهرى
 (الكاتب) ٢٢١٠٢٢٠١٨٩
 هارون اليهودى ٢١٢
 هانيبال ١٢
 ابن هانئ الأندلسى ٦٨٠٦٧٠٥٢
 هرثمة بن أعين ٢٩١
 هرثة (قبيلة) ١٨٢
 هرقل ٥
 هشام بن محمد بن عثمان ٢٨٤
 هشام الثاني (المؤيد بالله) ٨٧٠٨٥٠٨٤
 ٢٨٧ ٩٥٠٩٢
 هشانة (قبيلة) ١٦٨ ١٧٩ ١٨٠
 ١٨٢
 هنرى لاوست ٤٣
 هنرى دى ترانمار ٢٤١ ٤٤٦ ٤٤٠
 ٤٥٤
 هنرى الرابع ملك قشتالة ٤٦٢
 هنرى البن تغال ٤٥٢
 هوج دى بروفانس ٢٧١ ٧٧
 هلال الحاجب ٢٠١
 بنو يابان ٢٠٩ ٢٠٧
 بنو برنيان ٢٠٩ ٢٠٨
 أبو يزيد الخاريجى ٧٧٦ ٧٦٠ ٦٧٠ ٤٨
 يعلى بن مصلين الزجاجى ٢٩٥
 ابن يعيش المالقي ٢٤١
 يحيى بن الصراوية ١٦١
 يحيى بن الصائغ ٢٢٢
 أبو يحيى بن اللحياني ١٨٢ ١٩١
 يحيى بن على بن حمود الادريس ٢١٩
 أبو يحيى محمد بن عاصم القيسى ٢٤١
 يحيى الرنداحى ٣٨٨ ٣٩٧
 أبو يحيى بن أبي حفصى الهشاقى ١٦٨
 اليهقوبى ١٠٧ ٢٩١
 الينيون السكليون ٢٤٨
 بنو يغمراسن أو بنو زيان ١٩٧
 يعقوب بن يوسف (الظفر المنصور
 المرحدى)
 أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن ١٦٣
 ١٦٤ ١٦٧ ١٧٠ ١٧١
 ١٧٢ ١٧٤ ٣٢٢ ٣٤٦ ٣٤٧
 ٣٤٨ ٣٥٤ ٣٥٧ ٣٦١ ٤٠٦
 ٤٠٧
 يعقوب بن عبدالحق المربني ٢٠٦ ٢١٩
 يوسف بن يعقوب المربني ٢١١ ٢٢٢
 ٢٢٣

— ٥٥٨ —

يوسف بن تاشفين (أبو يعقوب) ٩٦ ، اليهود ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٢ ، ٢٥١
يوسف بن صناديد ٢٢٨ ٩٩ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
يوسف الاول (أبو الحجاج) ١٠٤ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،
يوسف الثاني ٤٥٤ ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٤٠٤ ،
يوسف الثالث ٢١٨ ٧١ ، ٧٣ ، ٤٧١

فهرس البلدان والمواقع والجبال والانهار

٢٢٤، ٢٠٧، ١٧٩، ١٧٨، ١٧٦	٣١١ Etruria اتروريا
٣٤٤، ٣٣١، ٢٨٨، ٢٨٣، ٢٤٧	٢٤٧ الاندلسية الثغور
٤٠٤، ٣٩٢، ٣٦٣، ٣٦٢، ٣٤٨	٣٢٤، ٣١٢ Narbonne أربونه
٤٣٠، ٤١٨، ٤١٦، ٤٠٥	٣٦١، ٣٤٤، ٢٤٣ Aragon أراجون
٤٦٨، ٤٦٣، ٤٦٢، ٤٦٠، ٤٥٥	٤٠١، ٤٠٠، ٣٨٩، ٣٦٣
٤٦٩	٤٠٨، ٤٠٧، ٤٠٥، ٤٠٤
٣٦ Eclja استجه	٤٩٥، ٤١٤، ٤١١، ٤١٠، ٤٠٩
٢٥٤، ٢٣٥، ١٠٠، ٥، ٣ الاسكندرية	٤٢٣، ٤٢١، ٤٢٠، ٤١٨، ٤١٦
٢٨٧، ٢٠٣، ٢٩٣	٤٢٧، ٤٢٦، ٤٢٥، ٤٢٤
٢٩١ اسفاقس	٤٦٢، ٤٦٠، ٤٢٩
٥ آسيا الصغرى	٤٠٢، ٢٢٦ Arjona أرجونه
٩٥، ٩٠، ٥٧، ٣٧ Sevilla أشيلية	٣ الاردن
١٧٠، ١٦٨، ١٦٦، ١٠٣، ١٠١	٢٤٨ أرش اليمن
١٤٦، ٢٢٥، ١٧٣، ١٧١	٧٤ Rachgoun أرشقول
٢٨٥، ٢٦٥، ٢٦٣، ٢٦٢	١٧٦، ١٦٨ Alarcos الأرك
٣٣٠، ٣١٩، ٣٠٧، ٣٠٦، ٣٠٥	٢٦٨، ٢٥٨ Arle آرل
٢٥٢، ٢٥٠، ٢٤٩، ٢٤٣	٢٦، ٢٢، ١ - Espana أسبانيا
٤٢١، ٤١٨، ٣٥٤، ٣٥٣	٣٦، ٣٥، ٣٤، ٣٢، ٣، ٢٩
٤٢٦	٩٨، ٩١، ٦٦، ٦٥، ٤٢
٢٩٥ Estepona اشتبونه	١٧٥، ١٥٩، ١٢٥، ٩١، ١٢

٢٧٨، ٣٢٩، ٣٣٠ Asturius اشتوريش	٢٩٩ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠
٢٤٩ Escombreras أشكوبارس	البيرة lbira ٣٦
٤١٣ Huescar أشكر	الأمبروي Alambroy ٢٩٨
٢٧٩ - ٢٨١ ، ٤٥٨ - Arzila أصيلا	ألكيننا Alcanena ٢٥١
٤٦١	أمبورياس Ampurias ٢٥٢
٢٤٩ Triana أطريانة	أمريكا ٤٦٩ - ٤٧٠
٢٠٧ أغمات	الانداس : وردت في معظم صفحات
أفريقية ٢ ، ٤ ، ٧ ، ٩ ، ٢٥ ، ٥٥ ، ٥١	الكتاب
٨١ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٠٥	انطاكية ٢ ، ١٠٥
١٢٢ ، ١٤٠ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٤٢٠	أوروبا ١٢ ، ١٧٦ ، ٤٢٠
٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٦ ، ٢٩ ، ٢٨	أوريولة Orihuela ٢٦٦ ، ٢٩ ، ٢٨
٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٣ ، ٣٠٠	أرنه Huelva ٣٠٠
٢٤٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٤٠	أونجا Onga (جبل) ٤٠
٢٨٩ ، ٣٦٧	أيبيريا Iberia ٢٨ ، ٢٢٤ ، ٢٤٦
٢٤٩ Aguilas أقيله	ايران ١٩٩
المرية Almeria ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٩٠	إيطاليا ٥ ، ١٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٧ ، ٣٠٥
١٩٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٥٠ ، ٢٣٠ ، ٣١٠	
٢٧١ - ٢٧٢ ، ٢٨٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٥ - ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٠٨	(ب)
٢٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٨٨ ، ٢٦٥	باجة Beja ٢٦٥
٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٣٦ ، ٢٢٩	بادس ٢٣٦ ، ٢٢٩

٤٦٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٠ ، ٤٥٩	٤٢٠ Priego باغو
٢٧٥ Barbastro برباسترو	٢٢٤ بالمادى ميورقة
٨٥ ، ٣ ، ٢ برقة	Palma de Mallorca
٣٠٤ ، ٢٦٩ Provence بروفانس	٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٦ Pechina بجانية
٣١٣	٣٩٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٠
٤٦٥ ، ٤٠٣ Baza بسطة	١٨٤ ، ١٨١ ، ١٢٩ ، ١١٦ ، ٦٩ بجاية
١٩٦ بسكرة	٢٨٩ ، ٢٢٣ ، ٢١٩ ، ١٩٦
٩٥ Bobastro بوباسترو	٢٥٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٢
٢٢٤ Alpujras البشترات (الجبل)	٣٥٩
٤٦٧ ، ٢٩٣	١٩٨ ، ١٦٣ ، ١٦٢ البحر المتوسط
٣ البصرة	٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٢٥١ ، ٢٤٦
٢٢٣ البطحاء	٣٣٦
٣٠٥ ، ٢٩٩ ، ١٥٠ Badajoz باداليوس	٢٥٥ بحر إيجة
٢٥٠ ، ٢٤٩	٢٦٧ ، ٢٥٤ ، ٣٥ ، ٣١ البحيرة
٤٥٠ ، ٢٩٢ بطوية	٤٢ البرازيل
٣ بعلبك	٢٥١ براغ
١١٦ ، ٨٧ ، ٦٤٠ ، ٥٢ بغداد	٣١٣ ، ٣١٢ Barcelona برشلونة
١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٢٣	٣١٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٤١١
٢٧٧ ، ١٥٢ ، ١٤٨ ، ١٤٤ ، ١٣٩	٤٣١ ، ٤٢٧
٣٣١	٤٠٠ ، ٣٦٩ ، ٣٥٧ ، ٣٥٤ البرتغال
٣٥ ، ٣٣ بكة	٤٥٧ ، ٤٥٥ ، ٤١٩ ، ٤١٨

٣٦٨ Baeza	البقاع Vega ٢٢٥
٢٢٢٣ ، ٢١٧ ، ٢١٣ ، ٢١١ Pisa	نبونة Panxplona ٢٦٧
٢٣١ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤	بذرت ٢٩٢ ، ٢٩١ ، ٨٠
بزنطة ٢٥٧	بلزما Belezma ٢٩٢
٢٥٧ ، ١٠٥ بيت المقدس	بنسبة Valencia ٢٠٥ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨
٢٧٠ Piernont	٢٣٢ ، ٢١٠
(ت)	البليار (الجزر الشرقية) ٨ ، Balears
٢٧ Tajo	١٢٠ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ١١ ، ٩
٢٠٥ ، ١٧٨ تازا	٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩
٢٩٥ ، ٢٩٤ تامسنا	٢٦٠ ، ٢٧٠ ، ٣١٠
٢٨٨ ، ١٤٠ ، ٤٧ تاهرت	٣١١ ، ٣١٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥
٣٩ ، ٣٨ (مرسية) تدمير	٢٣١ ، ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٧
٢٦٦	٢٦٨
١٨١ Dellys	بليطة ٣٠٧
٢٥٥ تراقيا	بورتو دي موس Porto de mos
ترشيش ٤	٣٥١
٤٦٢ ، ٤٠٧ ، ٢٧٩ تطوان	البونت Alpuente ١٥١
١٢٦ ، ١١١ ، ٧٤ ، ٥٠ ، ٨١ تلسان	بونة (عناية) Bona ١٨١ ، ٦٩
٩٩٦ ، ١٨٩ ، ١٧٢ ، ٦٢ ، ٢١	بونيفانتشو (مضيق) Bonafacio
٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ١٩٩ ، ١٩٨ ، ١٩٧	٣٠٢
٢٤٣ ، ٢٨٨ ، ٢٢٣ ، ٢١٩ ، ٢٠٤	البيازين Albalcin ٦٤

- ٥٦٣ -

Sierra Nevada	جبال شليرا أو جبل الثلج	٣٥٢ ، ٤٢٥ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣
٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣		٤٥٤
٤٦٧		١٥٩ ، ٦٩ ، Tones
جبال جاناه ٢٨٥		٢
جبال الريف ١٨٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٦	تولوسا (العقاب) ١٧٦ ، ١٧٣	
٤٦١	٧٦ ، ٥٢ ، ١٠ ، ٨ ، ٤ ، ٣ ، ٢	٢
جبال سميدة ١٩٨	١٣٢ ، ١٢٩ ، ١٢٨ ، ١٢٣ ، ١٠٦	
Gibraltar	جبل طارق أو جبل الفتح	١٨١ ، ١٧٩ ، ١٤٤ ، ١٤٤ ، ١٣٣
٢٩ ، ٢٤ ، ٢٢ ، ٢١ ، ٢٠ ، ١٩	١٩٣ ، ١٩٢ ، ١٩١ ، ١٨٧ ، ١٨٣	
٢٥٥ ، ٢٤٥ ، ٢٠٧ ، ١٧٤ ، ١٧١ ، ٣٠	٢٨٢ ، ٢٠٠ ، ١٩٩ ، ١٩٤	
٣٢٠ ، ٢١٨ ، ٢٨٢ ، ٢٧٨ ، ٢٧٦	٢٩٣ ، ٢٩١ ، ٢٧٦ ، ٢٢٨ ، ٢٠٩	
٣٩٣ ، ٣٨٩ ، ٣٨٥ ، ٣٤٢ ، ٣٤١	٣٥١ ، ٣٤٦ ، ٣٣٩ ، ٣٣٧ ، ٢٣٣	
٤٩٦ ، ٤١٥ ، ٤١١ ، ٤٠٩ ، ٤٠٠	٤٦٠ ، ٤١٦ ، ٣٦٦ ، ٣٥٩	
٤٣٢ ، ٤٣٠ ، ٤٢٨ ، ٤٢١ ، ٤١٨	١٨٢ ، ١٠٦ ، ١٨٢	٢١٨٢ ، ١٠٦ ، ١٨٢
٤٧٠ ، ٤٦٢ ، ٤٥٨ ، ٥٤١ ، ٤٥٠		
جبل زرهون ٤٥٢	(ج)	
Gibralfaro ٢٩٩	جبل فارو	٣٦٩ Garde Freinet
جبل نفوسه ٤٩		١٨٢
جباله ٤٥٥		١٠٦
جربة ٣٤		٢٧ Pirineos
الجزار ٧٦ ، ١٠٦ ، ١٧٨ ، ١٨٢	جبال البشرات (راجع البشرات)	

١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢٤٩ ، ٣٢٥	ح
٢٣٧ ، ٣٥٩	حصن الحجر (حجر النمر) ٢٧٩
الجزائر الحفصية ١٨١	حصن الصخرة Zagra ٤٦٣
الجزر الشرقية (البليار)	حصن القبذاق Alcuadeté ٢٤٤ ، ٤٠٧
جزر الخالدات (كناريا) Canarias	حصن قرمونة Carmona ٢٤١
٢٥٠	الحراء La Alhambra ٢٥٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
الجزيرة الخضراء Algeciras ١٥ ، ١٩	٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٤١٢ ، ٤٦٧
٧٢ ، ٩٥ ، ٢٠٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧	حصن ٣
٢٤٨ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ ، ٣٢٠ ، ٣٨٩	الحمة أو الحمامة Alhama ٤٦٣
٢٩٣ ، ٣٩٥ ، ٤٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨	حوز الوداع (زفرة العربي) ٢١٥
٤٠٩ ، ٤٢٠	الحرنز (مرسى) La Calle ٨٠
جلولا ٢٩٢	خندا La Janda (أنظر البحيرة)
جبلية Galicia ٢٠ ، ٢١٥ ، ٢٨٣	الخندق Candia ٢٥٤
٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٣٠	د
الجمهورية التونسية ١٨١	الدار البيضاء Casablanca ٢٩٥
الجمهورية الجزائرية ١٨١	دانية Denia ٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٤٦ ، ٢٩٨
جنوة ٧٧ ، ٢٥٢ ، ٣١١ ، ٣١٧ ، ٣٢٣	٢٢٥ ، ٣٢٣ ، ٣٢١ ، ٣١٠ ، ٣٠٥
٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣١	دكالة ٢٩٥
جيان Jaen ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٤٠٦	دلشيا ٨٥
الجيرة ٨٥	دمشق ١٤ ، ٣٧ ، ٤٤ ، ٥٥ ، ٢٤٧
الحجاز ١٩٤ ، ١٨٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨	دوفيني Duphine ٢٧
١٢٩	

س	ر
سالونيك ٢٥٥	رأس الرجاء الصالح ٤٦٩
Saint Tropez (خليج) سان تروبيز	الرباط ٥ ، ١٣٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ .
٢٦٩ ، ٢٠٥	٢٣٩ ، ٣٠١
Villa Sanjurjo (نكور) سان خورخو	رباط ماسة ١٥٩ ،
٢٩٣	رشيدي ٣
سافوي ٢٧٠	رقادة ٧٧
سان مارتين دو بورتو ٣٥١	رميعة ٢٢٨
San Martin do Porto	رندة Ronda ٢٠٧ ، ٢٣٩ ، ٢٨٩ ،
سبتيعة Cauta ١٤ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٩ ،	٤٠١ ، ٤٠٩ ، ٤١٦
٧٢ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ٩٦٤ ،	روطة Rota ١٦٣ ، ٢٩٩
٢١٩ ، ٢٤٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،	الريحانة ٢٩٢
٢٨٠ ، ٢٨٨ ، ٢٨٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ،	الرون (نهر) ٢٥٨ ، ٢٥١
٣٠٦ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٦ ،	رومية (روما) ١٢ ، ٥ ، ٢٥٧
٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٨ ، ٣٨٨ ،	الرها ١٠٥
٢٨٥ ، ٤٧ ، ٤٠٩ ، ٢٤٨ ، ٤٣٠ ،	الريف ١٨٧ ، ٢٢٩ ، ٣٣٦ ، ٤٦١
٤٢٩ ، ٤٤٣ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ،	ز
٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ،	
٤٦١	الزاب ٦٧ ، ١٩٦
سبزيا Spezia (خليج) ٣١١	الزلاقة Zacralias ٩٨ ، ٩٩
سجلاسة (نافيلالت) ٤٦ ، ٤٧ ، ١٤٠ ،	زفرة العربي Siuspiro del moro
٢٨٧ ، ٢٠٧	٢١٥

مدونيا (شذونة) Sidonia ٤٣٣، ٣١٠، ٢٩	٤٦١
شذونة (أنظر مدونيا)	٢٧٠، ١٦٧، ٥٠، ٣٤
سردانيا ٢٥٨، ٢٥٣، ٩٢، ١١٠، ١٠٠، ٩٤٨	شلب Silves ٣٥٣، ٣٠٠، ٢٩٩، ٢٨٥
٢١٢، ٣١١	٣٦٤، ٣٥٧
سرقطة Zaragoza ٢٧٥، ٩٠، ١٧	شلوبانية Salobrena ٣٩٤، ٤٠٤
٤٢٤، ٣٢٣	شلبنة Salamanca ٣٤
سرقوسة Syracuse ٢٥٦، ٩٠، ٥	شليز Solorius (أنظر جبل شليز)
سلا Salé ٣٤١، ٣٢٧، ٢٩٥، ٢٣٩، ٢٢٦	شترين zantarsn ٣٥٤، ٣٥١
٢٨٥	شنت ياغب Santiago de Compostella
سلادو (نهر) El rio slado ٤١٨	٢٨٩، ٢٨٨، ٢٨٣
سلطيش (جزيرة) galtes ٣٥١	شجيط (موريتانيا) ٩٧
سورات Sura ٢٧٧	شنيل (نهر) Genil ٢٢٥
السوس ٤٧٣، ٤٢٢، ١٠٥، ٤١٠	شنتفى Santa Fé ٤٦٧
سوسة ٢٩٢، ٢٥٦، ٨٠، ٦٨، ١٠	(ص)
٣٣٣	صفاقس ٢٣٣، ٢٩٢، ٦٨
(ش)	صقلية ٧٩٠، ٧٤٦، ٨٠، ١٢٥، ١٢٤، ٨١٧، ٦٠
	٢٩١، ٢٥٧، ٢٥٦، ٢٤٦، ١٤١، ٨٠
شالة Chella ٢٣٩	٢٣٦، ٢٣٥، ٢٢٦، ٢٢٣، ٢٢١
الشام ٤١٢٨، ١٢٧، ١١٨، ١١٥، ١٠٥، ١٠	٣٦٠
٣٦٥، ٢٥٥، ٢٤٨، ٢٤٦، ١٨٩	صور ٣
شرق الأندلس Levante	(ط)
شريش Jerez ٣٢٩، ١٦٣، ٣٥، ٣٣	طبرقة ٥٣٣، ٤٨٠

- ٥٩٧ -

ع	طينة Tupnae ٢٩٢
العباد ٢١٩	طبيره Tavira ٢٤٧
العراق ١٠٥، ١١٥	طرابلس ٣، ٤٩، ١٠٥، ١٨١
العرائش ٤٥٩، ٤٦١	١٩١، ٢٩٢، ٣٣٣
العقاب Las Navas de Tolosa ١٢٢	طرطوس ٢
١٦٤، ١٧٦، ٢٠٥، ٢٠٦	طرطوش Tortosa ١٥٩، ٢٤٦
المدونتان ٣٢٢، ٣٢٩، ٣٣٦، ٤٥١	٢٥٧
العدوة المغربية أو العدوة ١٦٣، ٤٥٠	طركونه Tarragona ٢٤٦، ٤١٤
٤٦١، ٤٧٨	طريف Tarifa ١٥، ٧٢، ٧٣، ٧٤
عكا ٣	٢٠٧، ٢٠٩، ٣٢٩، ٣٩١، ٤٠١
غانه ٣٣٣، ٤٧٣	٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤١٧، ٤١٩
غرناطة Granda ٩٣، ٩٠، ١٢٥	طلياطة Tablada - Tejada ٢٦٣
١٢٦، ١٣١، ١٣٩، ١٨٦، ١٩٨	٣٨٩
١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣	طليطلة Toledo ٣٦، ٣٧، ٤٦٠
٢٠٧، ٢١١، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٨	طنجة Tanger ١٦، ١٨، ٦٩، ٧٤
٢٢٤، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٤	٨٣، ٩٠، ٩٣، ٢٧٦، ٢٨٨
٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣	٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٩٣، ٣٠٥
٢٤٤، ٢٤٥، ٣٠٨، ٣٨٧	٣٠٦، ٣١٧، ٣٣٦، ٣٨٩، ٣٩١
٢٩٢، ٢٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥	٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٦٠
٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٤	٤٦١
٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨	

— ٥٩٨ —

٣١٣	٤١٣ ، ٤١٩ ، ٤١٠ ، ٤٠٩
فرند ٢٠٤	٤٢٠ ، ٤١٨ ، ٤١٦ ، ٤٠٤
فرلسا ٣١٣ ، ٣١٠ ، ٣٠٥ ، ٢٥٨ ، ٢٣٧	٤٢٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢١
٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤	٤٣٠ ، ٤٢٩ ، ٤٢٨ ، ٤٢٦
فرانكفورت ٢٧٢	٤٥٣ ، ٤٥٢ ، ٤٥١ ، ٤٥٠
فضالة ٢٩٥	٤٦٤ ، ٤٦٣ ، ٤٦٢ ، ٤٥٤
فلسطين ٢٧٥ ، ١١٩	٤٦٧ ، ٤٦٥
ق	غساسة ٤٥
قابس ٣٥٦ ، ١٦٢	غليسية (أنظر جليقية)
٢٥ Cabo de Gata القابطة أو القبطة	ف
٢٩٧ ، ٢٧٢	فاس ٧٨ ، ٢٠٨ ، ٢٠٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣
قادس ٢٢٢ ، ٢٢١ ، ٢٩٩ ، ٢٢٥	٢١٨ ، ٢١٦ ، ٢١٥ ، ٢١٢
٤١٨ ، ٢٥٣ ، ٢٣٠	٢٥٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٣ ، ٢٢٩
القاهرة ٨٧ ، ٨٥ ، ٨٤ ، ٨٢ ، ٦٤	٤٢٦ ، ٤٠٩ ، ٢٤٢ ، ٢٣٨
١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٣١ ، ١٢٩	٤٥١ ، ٤٤٣ ، ٤٣٠ ، ٤٢٨
٢٨٦ ، ٢٧٨ ، ١٤٤ ، ١٤٠	٤٥٧ ، ٤٥٥ ، ٤٥٣ ، ٤٥٢
القيداق Alcuadete ٤٠٧ ، ٢٤٤	٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٠ ، ٤٦٦
القسنطينية ٢٩٩ ، ٨٧ ، ١٢ ، ٥	فجيج أو فكيك ٢٠٥ ، ١٨٧
قسنطينة ١٨١	الفحص ٢٢٥ Alfoz
قرطبة ٦٠ ، ٥٨ ، ٤٨ ، ٣٦ ، ٢٧	فراكتستيم Fraxinetum ٢٦٩
٨٠ ، ٧٦ ، ٧٢ ، ٦٤ ، ٦٣ ، ٦١	٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤

قصر الطوب ٦٩	٨١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ،
القصر الكبير (قصر كنامة) ٢١٩ ،	٩٣ ، ١٤٤ ، ١٧١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،
٤٥٩ ، ٤٠٥	٢٢٨ ، ٢٥٩ ، ٢٥٣ ، ٣٦٠ ، ٢٧٢ ،
قطونية ٢٥١ ، ٣١٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣١	٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ،
القلاع Castilla ٤٢	٢٨٨ ، ٢٤٣
قلعة بني سلامة أو بني تاوغزوت ٢٠٤	قرية العباد ٢١٩
قلعة رباح Calatrava ٣٦٨	قرمونة ٣٧ ، ٩٥ ، ٢٤١
قلعة بحصب Alcala la Real ١٨٦ ،	قشتالة Castilla ٤١ ، ٢١٧ ، ٢٢٩ ،
٤٢٠	٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٣٤٨ ، ٣٦١ ،
قلسانة Calsena ٧٣	٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٨٨ ، ٤٠٠ ،
قلرية Coimbra ٢٤٤	٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ،
قلورية (كلابريا) ٢٢٦	٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ،
قنطرة القاضي ٢٢٥	٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ،
الغنيطرة ٣٤٠	٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ،
قيجاطة Quesada ٤٠٦	٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ،
القيروان ٢٥ ، ٥٥ ، ٦٩ ، ٧٧ ،	٤٣٠ ، ٤٥٤ ، ٤٦٢ ، ٤٦٨ ،
٨٢ ، ٨٦ ، ١٤٠ ، ٢٥٦ ،	القصبه ١٩١
٢٧٨	قصر أبي دانس Alcacer do Sal
(ك)	٢٨٥ ، ٢٨٩
٢٥٤ Candia	قصر الحمراء ٢٤٦ ، ٢٤٨ ،
الكاثوفاس Alcacovas ٤٦٠	القصر الصغير (قصر مصمودة) ٤٥٨ ،
	٤٦١

١٧٠ -

كامارج Camargue ٢٥٨ ، ٢٦٨ .	مازرة Mazara ٢٥٦
كربت ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٠٤	مالا Malaga ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣
كارسيكا ٢٥٢ ، ٢٥٨ ، ٢١٢	٩٥ ، ٢٢٥ ، ٢٩٩ ، ٣٢٩
الكوفة ٣	٣٩٤ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤
كف أونا Covadonga ٤٠ ، ٤١	٤٠٧ ، ٤٦٦
٤٢	بحريط Madrid ٢٦٤
(ل)	المهرس ٢٩٢
لاردة Lerida ٢٧٥ ، ٢٧	المحيط الأطلنطي ٢٠٧ ، ٢٤٦ ،
لبلة Niebla ٢٦٢	٥٢٠ ، ٢٢٢ ، ٤٧٠
لشبونة Lisboa ٢٥٠ ، ٢٨٥ ، ٢٥١	المحيط الهندي ٤٧٠
٢٥٤ ، ٢٥٧	المدرسة ١٩٢
للكوس Locus ٢٧٩	مدينة سالم Medinaceli ٢٨٠
لانت Alente ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٤١٤	مريلة Marbella ٢٠٧ ، ٢٩٤ ، ٤٢٨
لورقة Lorca ٤١٥	المرج Vega ٢٢٥
لوشة Loja ٤٦٦	مرسى الدجاج ٦٩
لون Luni ٢١١	مرسية Murcia ٢٦٦ ، ٣٢٢
ليبيا ٤٩ ، ٢٦١	مرسيليا ٢٥٨ ، ٢٦٨
ليون Leon ٢٣٠ ، ٣٦٢ ، ٤١	بمراكش (مدينة) ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ،
(م)	١١٩ ، ١٢٢ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ،
مابلون (جزيرة) ٢٦٨	١٧١ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢٠٦ ، ٢٩٥ ،
مارنة Merida ٢٧ ، ١٦٦	٢٣٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٦٠ ،

— ٥٧١ —

مليلة Melilla ٧٢ ، ٧٤ ، ٩٧ ، ٢٧٦ ،	مستغاثم ١٩٩
٢٨٦ ، ٤٤٥٠ ، ٤٧٠	المسيلة ٦٧
منورقة (جزيرة) Minorca ٢٥٩ -	المشرق ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٤٨ ، ٤٧٤
٢٦٠ ، ٣٦٨	مصر ٤ ، ١١ ، ٩٦٥ ، ١٤ ، ٥٢
المنستير ٢٩١	٥٧ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٥
المنكب Almunecar ٣٩٤ ، ٤٠٤ ،	١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢١
٤٠٨	١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٨٥ ، ١٨٩
مورون Moron ٩٠	٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٣٥ ، ٢٤٦
مونت سني ٢٧٠	٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٨ ، ٣٥٦
موجيق Monchique ٢٩٩	٢٦٤ ، ٣٦٥ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩
موريتانيا ٣١٧	المعمورة ٣٣٦
مونبليه ٣٣٤ ، ٣٣٠	مفراوة ١٥٠
المهديّة ٥٢ ، ٦٨ ، ٨٠ ، ١٩١ ، ٢٢٧	المغرب ورد هذا الاسم في معظم
٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨	صفحات الكتاب
٢٣٩ ، ٣٦١ ، ٢٦٦	مكناسة ٢٠٥
ميتلين ٢٥٥	مكة ٤٩ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ٤٧٤
مينيو Mineo ٢٥٦	ملوية Moulouya (ج) ١٩٨ ، ٢٠٥
ميورة (جزيرة) Mallorca ٥١	٢٠٧ ، ٤٥٠
١٤٧ ، ١٦١ ، ٢٥٩ ،	مليانة ٣٥٩

Barbate وادی برباط	٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢١ ، ٢٠
٢٥ ، ٢٣	٢٦٦ ، ٢٦٠ ، ٢٥٥ ، ٢٢٥
وادی بكة ٢٥ ، ٢٣	٢٦٨
Darro وادی حدرو ٢٢٥	(ن)
Guadalquivir الوادی الكبير	تاربون (أنظر أربونة)
٢٢٥	نافارا ٢ Navarra
وادی ملوية (أنظر ملوية)	ندرومة ١٨٢
وادی مينة ١٩٨	نكور ٢٩٣ ، ٢٩٦
وادی النيل ٢٢٥	نقوطة Nicotra ٣٢٦
وجدة ١٩٨ ، ١٧٨	نورمانديا ٢٧٥ Normandie
ورقلة ١٨١	٢٨٣
وشقه Huesca ٣٧	نيس ٢٧٠
وقعة الملوك الأربعة ٤١٩	(و)
وهران Oran ٤٧ ، ٥٠ ،	وادی آش Guadix ٤٠٣ ،
٢٤٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٣ ، ٦٩	٤١١ ، ٤٠٦ ، ٤٠٤ ، ٤٠٣
٢٢٧ ، ٢٢٧	٤٦٦ ، ٤٦٥ ، ٤٢٨ ، ٤٢٧
	٤٦٨

— ٥٧٣ —

(٥)

٣٥٣ Evora يابرة

٣٦٦ ، ٣٦١ ، ٣٢٤ Ibiza يابسة

... Younga ينجه

(٥)

٣٣٧ ، ١٩٩ هنين

٤٦٩ ، ١٣٢ ، ٩١٤ ، ٧ الهند

١٨٢ مسكورة

الخطأ والصواب

خطأ	صواب	صفحة	سطر
ابن	ابنه	٦	١
michele	Michele	٦	١٧
لاطس	الاطلس	١١	١٣
حليفة	حليفه	١٤	١٣
بن الكرد موسى	ابن الكرد بوس	٢٣	١ حاشية
بمنطقة مزاب وجبل نفوسة	بمنطقة ميزاب في الجزائر وبجبل نفوسة في ليبيا جنوبي طرابلس	٤٩	١
سنة ٣١٧ هـ	سنة ٣١٦ هـ	٧٠	١٣
وقد كان يشير	وقد أشار	٧٣	١٢
ولد أيوب	ولده أيوب	٧٧	٥
سنة ٣٤٤ هـ	سنة ٣٣٤ هـ	٧٧	١٧
منطقة سوسة وطبرقة شرق بنزوت	منطقة سوسة شرق بنزوت وطبرقة في غربها	٨٠	١٤
ابن قرهون	ابن فرحون	٧٩	١ حاشية
الاسكوريال	الاسكوريال	٩١	١٣٢
الراكشي	المراكشي	٩٢	٢١
الاندلس	أندلس	٩٥	٩
de	de	١٣١	٢١
المشرفي	المشرفي	١٦٠	١٦
الزراحيه	الزراحيه	١٦١	١ حاشية

صفحة	سطر	صواب	خطأ
١٦٢	حاشية ٢	ابن أبي زرع	ابن أبي زرع
١٦٩	١٨	بالثيا	بالثيا
١٧٠	١٠	ابن زهر	زهر
١٧٦	٦	لأوسنت	لأوسنت
١٩٧	٧	بن عبد الواد	بن الواد
١٩٨	١	الدولة الزبانية	الزبانية
٢٠٠	٤	بن حفص	بن أبي حفص
٢٠٠	١٨	المقدمة	المقدمة
٢٠٣	١١	م١٣٨٧	م١٣٦٩
٢٠٨	١	زنانة	زنانة
٢١٧	٣	أبي عناب	أبي عناب
٢٢١	٧	المزاور	المزاور
٢٢٤	٢٠	وشرب	ومشرب
٢٢٤	٢٢	في جهنم	جهنم
٢٢٦	١٠	محمد بن يوسف	محمد ابن يوسف
٢٢٦	٨	نذكر	تذكر
٢٤٠	حاشية ٢	الاحاطة	الاصاطة
٢٧٢	١٩	الدينية	الذنية
٢٧٢	٢١	ترصيع	توضيح
٢٧٣	٥	أوتو	أنو
٢٧٣	٩	أن	أو

- ٥٧٢ -

الخطأ	الدراب	صفحة سطر
الجديد	الجديدة	١٣ ٢٧٢
بيرنطة	بيرنطة	٥ ٢٧٤
Papls	Paris	٢٩٢ حاشية ١
Cabo de Gata	Cabo de Gata	٥ ٢٨٥
ابن شكوال	ابن بشكوال	٣٠٠ حاشية ١
الوييرية	الزبيرية	٩ ٢٢٦
محمد غانية	محمد بن غانية	٠ ٢٣١
وانقضاء	وابتداء	١٨ ٢٢٤
جيل الاجيال	جيل من الاجيال	٢ ٢٣٨
Alndré	André	٢٤٧ حاشية ٢
صاحك الصلاة	ابن صاحب الصلاة	٢ ٢٥٠
قطعة	قطعة	٨ ٢٦٨
يسيمه	يسيمه	٢٦٨ حاشية ٢
Alemunecar	Almunecar	٩ ٢٩٤
بنا	بنات	٤١٦ حاشية ٢

نم بحمد الله

